هذا الكون ما ضميره

عبد الله القصيمي



هذا الكون ما ضميره

عبد الله القصيمي



ص. ب. 13/5752 ر. ب. 2070 1103
Email: arabdiffusion@hotmail.com
بيروت – لبنان

الطبعة الثانية ٢٠٠١

هذا الكوْنُ ما ضميرُه

عَبْد الله القصيمي

إن كل ما في الكون من جمال لا يستطيع أن يكون غفراناً أو اعتذاراً عن أية دمامة يعاني منها أي إنسان، لأن كل ذلك الجمال لن يستطيع أن يجعل دميماً واحداً يشفى من دمامته، أو من شعوره بها، وأن يكون عزاءً أو تعويضاً له عنها.

الفهرست

هذا الكون، ما ضميره؟

«الإنسان دائماً مصلوب العقل والحرية والشرف تحت أقدام أربابه وعقائده ومذاهبه، مهما صلبت مذاهبه وعقائده وأربابه تحت أقدام رذائله وتلوثه النفسي والسلوكي».

*

لكل حضارة خلقان: محاولة الفهم لكل شيء والانتصار على كل شيء، بل جميع أعمال الإنسان المتحضر واهتماماته وأمانيه وأغانيه لا تعني إلا البحث عن معرفة الأشياء والتغلب عليها مهما اختلفت أساليبه ووسائله. وليس المتحضر وحده هو الذي يحاول أن يعرف كل شيء وينتصر عليه. إن حياة الإنسان في جميع مستوياتها ليست إلا قصة هذا النضال الطويل للتغلب والفهم بلا حدود معترف بها أو مرعية من الأرباب والمذاهب والعقائد أو من الطبيعة نفسها، وحتى الذين يقيمون بين أنفسهم وبين طبيعتهم المناضلة أقوى وأعلى السدود الفكرية والنظرية المقدودة من أجساد الأرباب والمعتقدات والتقاليد والمخاوف الرهيبة هم في سلوكهم متحدون لها خارجون عليها، إنهم بكل قدرتهم يحاولون أن يقهروا الكون والآلهة والعقائد والتقاليد مهما صلوا لها وتبرؤوا من أنفسهم احتراماً لأمجادها.

وهذان الخلقان الإنسانيان أو العبآن الملقيان على الإنسان إنما يعنيان ـ ولكن بلا تدبير فكري أو أخلاقي ـ أن الإنسان هو أقوى حشرات هذا الكون طموحاً وإبداعاً وشعراً وقفزاً إلى الأعالي بلا تطلع إلى السماء، وتخطياً للحدود التي ليس وراءها أية أهداف.

لقد استطاع الإنسان بهذا التفوق الذي كان يعني أيضاً أكبر الأخطار والآلام الإنسانية أن يقتحم طريقه الممتد فوق أوهامه الممتدة فوق المخاوف والمحاريب والصلوات وغضب الأرباب وتعصبها. إن تفوق الإنسان هو الذي أوقعه في هذه الأوهام، وإن تفوقه هو الذي جعله يقتحم هذه الأوهام ويتجاوزها.

لقد كانت رهبة المجهول، وكانت الرهبة الأخرى التي تعني أن هذا الوجود بكل ما فيه من قسوة وعبث وأجرام كبيرة غبية وآلهة متوحشة هو سيد الإنسان الدائم الذي لا يعصى أو يغلب ـ كانت هاتان الرهبتان تحاولان أن تسدا على الإنسان كل طرق الهرب من القيود القديمة، ومن الآلام التي كان يعاني، وأن تسوغا له كل عجز وخوف وبلادة، وتحولا بينه وبين تغيير وجوده ووجود ما حوله. لقد كان يواجه كوناً مقدساً، بل عجزاً وآلاماً مقدسة محروسة بأشرس الأرباب والعقائد والتقاليد، كان يواجه لغزاً هو أكبر وأقدم وأقوى من الكائن الذي حكم عليه بأن يواجهه ويفسره ويتخطاه ويسيطر عليه ويجرؤ على اكتشاف سره، وتعلم اللغة التي يتكلمها.

إن الآلهة هكذا أقامته وحجبته وحرسته، وهي هكذا تريده.

إن العدل والذكاء كائنان دائماً في صيغته الواحدة الدائمة.

هكذا كان الإنسان يواجه وجوده بهذا المنطق المتوحش الذليل، أما حياته فكان أحسن ما فيها أو أسوأ ما فيها أنها لم تكن تخضع لهذا المنطق أو لأي منطق بل لم يكن لها منطق ما، كانت حياته تخضع لقوانين أخرى ليس منها المنطق، كانت تخضع لقوانين الحشرة المتفوقة، الحشرة المتفوقة على منطقها الإنساني.

لم يكن المنطق في كل حياة الإنسان إلا أسلوباً من أساليب البكاء، كان الإنسان يحيا ويبكي، أما حياته فكانت تتحول إلى تغيير بلا منطق، بل ضد المنطق كما تتغير الحشرة، أما بكاؤه فكان يتحول إلى تفكير دون أن يستطيع التحول إلى تغيير.

لقد ظل الإنسان طويلاً يصارع نفسه، كانت حياته تصارع حياته، وكانت تصارع آلهته ومذاهبه ومنطقه أكثر. وكانت عضلاته تشتد مع الأيام ومع المقاومة الدائمة ضد كل الحراسات القوية المقامة حوله، كان يقاوم بالذكاء الذي يقاوم به الموج صخور الشاطىء، وبالذكاء الذي يلطم به الاعصار البذيء وجه اليتيم الضال في كبرياء العاصفة.

لقد تحرك السجين المؤبد حركات قوية وخطا أوسع ما يستطيع أن يخطو، ولكن هل غادر سجنه؟ لقد غيره وشاده من جديد دون أن يفارقه، إنه لا يريد مفارقته كما لا يستطيع، لقد استبدل قيوداً أقوى وأجمل وأحدث بقيوده القديمة الضعيفة القبيحة. إنه سجن مكان سجن وقيود بدل قيود أخرى، وعبث بعد عبث.

إن الشيء يتغير ولكنه لا يزول أو مهما تغير فإنه لا يفنى.

إن فرار الإنسان ليس من القيد إلى الحرية ولا من العبث إلى الجد ولا من الكذب إلى الصدق، بل من الشيء إلى نفس الشيء ولكن على مستوى آخر.

إن شيئاً لن يكون بلا عبث وبلا كذب وبلا قيد، بل إن الشيء بقدر ما يكون كبيراً وقوياً يكون عبثاً وكذباً وقيداً.

إن الإنسان لا يناضل ليكون حرية وجداً وصدقاً، ولكن ليكون قيداً وعبثاً وكذباً ولكن بأسلوب آخر وعلى نحو آخر. والذين يقولون لنا: كونوا بلا قيود أو كونوا صدقاً وجداً إنما يعنون ـ دون أن يدروا ـ أن يقولوا: كونوا بلا وجود. إن القيد والعبث ليسا شيئاً أكثر أو أقل من الوجود، وهما ـ أي القيد والعبث ـ لا يفرضان على الوجود، ولا يزيدان أو ينقصان فيه، إنه ليس شيئاً غيرهما وليسا شيئاً غيره، فلا قيد أو عبث بلا وجود، ولا وجود بلا قيد وعبث، بل لا فرق بين وجود ووجود في أنهما لا يكونان إلا قيوداً وعبثاً.

ومع هذا فهل الانتقال من القيد والعبث إلى القيد والعبث شيء سهل أو محبب؟ إن التكيف بالأشياء يصبح قوة يصعب التخلص منها حتى التكيف بالقيود والعبث والهوان، إن التكيف الطويل يصبح نوعاً من الألوهية المرهوبة وأحياناً المحبوبة. وجميع الناس ـ وإن تفاوتوا ـ يرهبون المغادرة لأنها انتقال، والانتقال إلى أوضاع وظروف ونظم أخرى مزعج ومتعب ومخيف أحياناً، حتى الانتقال من القيود القديمة إلى القيود الجديدة، والانتقال يعني دائماً شيئين: ترك شيء والأخذ بشيء أو مواجهة شيء أو البحث عن شيء ومحاولة تحصيله، فالانتقال إذن معانيه مركبة. إن أي انتقال يعني الاحتياج إلى أفكار ومشاعر وممارسة جديدة بل ومواجهة جديدة، كما يعني الاحتياج إلى التوافق مع المواجهة الجديدة، كما يعني أيضاً التخلي والفراق للالف القديم. فكم في الانتقال، أي انتقال من معاناة إذن؟

إن في الانتقال أو التغيير رفضاً وقبولاً، إن فيه خطراً وخوفاً، وإن فيه لنقضاً للبناء النفسي والفكري والاجتماعي. ومع هذا فلا بد من حدوثه، إنه حكم الإنسان على نفسه أو لنفسه وإن لم يعرف أو يرد. إن الانتقال أي التغير ليس بحثاً عن الحق أو الأفضل ولا رفضاً لهما، وإنما هو استجابة غير مقصودة أو مفسرة، إنه كحدوث الفيضان أو البركان أو جريان النهر المبارك بوقار بين الحقول كعاشق يختال، وكمجيء الشباب والشيخوخة وذهابهما ـ كل ذلك لا قصد فيه ولا اختيار بل حتم.

وتختلف رغبات الناس وقدراتهم على التغيير أو على الانتقال من العبث القديم والقيود القديمة إلى العبث الحديث والقيود الحديثة لاختلاف ظروفهم ومصالحهم، ومواهبهم الذاتية والاجتماعية، كما يختلفون في شدة استمساكهم بالقديم. والمفروض أن تكون المجتمعات المتخلفة والمتعبة أكثر خشية من الجديد وعجزاً عنه، وأن تكون المجتمعات القوية والمترفة أقدر وأجرأ على ذلك، كما أن المفروض أيضاً أن يكون الضعفاء المتأخرون أقل رغبة وقدرة على تقليد الأقوياء فيما استحدثوه من أشياء جديدة. والأقوياء أقدر على التقليد للأقوياء وأسرع إليه

لأنهم لا يخافونه أو يخجلون منه أو يشعرون بالتحقير لأنفسهم حينما يفعلونه، أما الضعفاء فقد يشعرون هذه المشاعر إزاء تقليد الأقوياء، لهذا فقد يكونون أقل تقليداً لهم. وهذا الرأي مخالف للرأي المشهور القائل بأن الضعفاء يقلدون الأقوياء. ولكن قد يكون الرأي الصحيح أن الأقوياء يفرضون أنفسهم وحياتهم القوية على الضعفاء دون اختيار أو استئذان هؤلاء الضعفاء. ومع هذا فهل نستطيع أن نرفض أن الأقوياء أكثر تقليداً للأقوياء فيما لديهم من أسباب القوة والتقدم، أو أكثر تقليداً للقوة من الضعفاء؟ إن الأقوياء أعرف بمواطن القوة عند الآخرين وأقدر على احتذائها وأجرأ على ذلك.

ومن المحتمل تحت ظروف معينة أن يصبح الضعفاء والمتخلفون أقدر وأحرص على التغير والانتقال والتقليد تحت إلحاح الشعور بالخطر أو التخلف أو الخوف أو الرغبة في قتل الفروق المهينة بينهم وبين الآخرين. قد يملك المتأخرون والضعفاء من الرغبة في التقدم والقوة والتعويض ما لا يملك الأقوياء المتقدمون، وقد يقعون تحت ضغوط نفسية واجتماعية وتاريخية لا يقع تحت مثلها من يملكون القوة والتقدم، وقد يكونون متوترين وحساسين أكثر. وقد يكون معنى ذلك أن يبحثوا عن التغير والتقدم والتقليد لمزايا الآخرين واكتسابها وتطويرها على مستوى أقوى وأسرع. قد يكون كل ذلك صحيحاً منطقياً وتاريخياً.

وسلوك البشر لا يمكن ضبطه ضبطاً موحداً بقانون من القوانين كما يضبط سلوك المادة والحياة غير العاقلة وغير الشاعرة المتألمة. إن المؤثر الواحد قد يعطي النتيجة ونقيضها في سلوك الإنسان لأنه يستجيب للحدث الواحد بالموقف ونقيضه.

ومحتوم أن يوجد في المجتمعات المتخلفة قوم من الأقوياء والمتفوقين الذين يملكون مزايا ذاتية أو امتيازات اجتماعية وتاريخية، كما يملكون سلطاناً ونفوذاً قوياً أو قاهراً، وهم لا بد أن يخشوا على هذه المزايا والامتيازات والسلطان المملوك أو الموروث من التجديد أو التغيير أو الانتقال. لهذا فمن المحتوم أن يكونوا أعداء لذلك وأصدقاء للقديم يحافظون عليه بكل جنون ووحشية.

ولكن التغير وتجاوز القديم لا يكون بالتدبير والاختيار، إن التغير وتخطي القديم يفرض نفسه.

وشيء آخر، هو أن هؤلاء الأقوياء بالمزايا والامتيازات قد يكونون أقدر أو قادرين على التلاؤم مع الجديد مهما كان، بل على ابتكار الجديد والتلاؤم معه، والذين يستطيعون أن يكونوا أقوياء ومتفوقين في مجتمع متخلف وضعيف قد يكونون أكثر قوة وتفوقاً في مجتمع متقدم قوي. وهل يمكن أن يخشى الأقوياء والمتفوقون على قوتهم وتفوقهم من الصعود إلى الكواكب والحياة فيها بمستويات حضارية أعظم جداً؟ أليس الذين يستطيعون أن يتفوقوا هنا يستطيعون أن يتفوقوا

هناك، وقد يكون ذلك بأسلوب أقوى؟ وهل يمكن أن يرفض المتفوقون والأقوياء، وهم في البداوة، الانتقال إلى طور الحضارة خوفاً على تفوقهم وقوتهم إذا أصبحوا في الحضارة؟

إن المتألمين والعاجزين والمسلوبين قد يكونون أكثر محافظة على القديم الذي يتعذبون فيه وبغضاً للجديد الذي لا يعرفون عنه شيئاً، والذي قد يكون فيه تخفيف من عذابهم، وإعطاء لهم أفضل مما كانوا يأخذون. إن الطاقة النضالية والإبداعية في المجتمعات المتأخرة وفي ذوي الخصائص الضعيفة تكون جبانة أو عاجزة، لهذا فقد ترهب التغيير الذي يجيء به الجديد لأنه ـ كما سبق ـ يحتاج إلى أفكار ومحاولات، وتنظيمات جديدة وشاقة، وإلى مواجهة فيها خوف وغربة، وإطلاق للنار على المشاعر المستقرة. لهذا فمن المحتمل أن تكون المجتمعات الضعيفة والمتخلفة بظروفها ومواهبها هي أقل المجتمعات امتناعاً على بلاغة المغامرين والحكام الطغاة، والمعلمين الزائفين الموهوبين القدرة على البلاغة الكاذبة، وإعطاء الوعود المصابة بمرض الفصاحة ـ هؤلاء الذين يجعلون من مجتمعاتهم مجتمعات تطيع وتتكل وتنتظر وتتعذب بلا عصيان أو ملل أو تكذيب.

إن البلاغة اللفظية قد تكون من أكبر الأخطار على المتخلفين والضعفاء بمزاياهم الذاتية، إنه لا شيء يهز العاجز والخامل والاتكالي، ويخدعه ويقنعه مثل البلاغة في فم الزعيم المتوتر المتعب، إن هذه البلاغة تصنع الحروب والجرائم والحماقات الكبرى وتسوغ الطغاة والآلام والمظالم والأوهام الغبية القاتلة، وتحول جميع ذلك إلى قداسة وبطولة، تسجد لها جباه المجتمعات البائسة المسلوبة، وتصنع من بؤسها وهمومها إيماناً وصلوات ومذاهب، تصلي للفقر والهوان والجنون.

إن البلاغة سلاح قديم وحديث ضد الإنسان. لقد عادت وقاتلت البلاغة البشر أكثر مما عاداهم وقاتلهم السلاح.

ما أكثر الطغاة والدعاة الذين سلبوا المجتمعات المتألمة وقارها ورخاءها وحياتها، وسوغوا لها كل جنونها وشقائها وعدوانها وهوانها بفصاحتهم التي لا حدود لقدرتها على أن تكذبهم، ولا حدود لقدرتهم هم على أن يصدقوها، لأنهم كانوا ـ لضعفهم وعجزهم ـ مستعدين بلا حدود لتقبل الغواية والأكاذيب التي تريحهم بفنون فصاحتها من محاولات التغيير أو الغضب على القديم. وهذه المجتمعات لا بد أن تصدق حينئذٍ أضعف الأكاذيب وفنون الغواية التي تدعوها إلى البقاء في هياكلها القديمة وإلى المبالغة في تقبيل أقدام أربابها الذين لا يتغيرون ويلعنون المتغيرين.

ولكن هل في المجتمعات مجتمع واحد يمتنع على مشيئة أو بلاغة الطغاة والمغامرين، والكذابين المهرجين من الدعاة، أو يمتنع على أي أسلوب من أساليب الإغواء؟

هل يوجد أي مجتمع يرفض الأكل بشهية متفتحة من أردأ الأطعمة التي تقدم إليه من أسوأ الأصناف بأقذر الأوعية تحت أحقر الظروف بأكثر الأساليب إذلالاً وشتماً؟

إن أردأ مجتمع وأضعفه وأكثره تخلفاً لا يستطيع أن يتفوق في هوانه واستسلامه وطاعته وتصديقه للأكاذيب وهضمه لأجلف الغوايات على أقوى المجتمعات وأعظمها رقياً.

إن تقبل الأكاذيب والغوايات والإهانات والقدرة على ابتلاعها وهضمها ليست مزية يتفرد بها الضعفاء والأغبياء والمتخلفون دون الأقوياء والمتطورين من البشر.

إن جميع الناس متساوون ـ تحت الظروف الملائمة ـ في تقبل الهوان والغواية والطغاة كتساويهم في تقبل الحياة تحت كل ظروفها الملائمة وغير الملائمة.

إن الناس ليسوا مستويات متفاوتة في الاستمساك بالحياة حينما تصبح فظيعة جداً بآلامها وعمقها واليأس من جودتها، وكذلك ليسوا مستويات في قبول الهوان والغواية وطاعة الطغاة. وتوجد حتماً مستويات مختلفة، ولكنها مختلفة في الظروف التي تفرض الغواية والهوان، لا في الاستعداد الإنساني لقبولهما، والعيش معهما، وتسويغهما بالمسوغات الكثيرة. والناس يختلفون في أنواع الهوان والغواية التي يتقبلون، وإن كانوا لا يختلفون في استعدادهم لقبول أنواع ما من الهوان والغواية.

إن الإلف غل من أغلال النفس والعقل يصعب على أغلب الناس أن يتخلصوا منه بلا معاناة وبلا قتال وبغضاء أحياناً، ويصعب على الناس جميعاً ألا يتأثروا به. والناس يألفون مذاهبهم وأربابهم وتتحول إلى حالة نفسية أو عقلية فيهم أكثر جداً مما يألفون أوطانهم وبيوتهم وأزياءهم ووجوههم وأصدقاءهم. إنه لا مزية لإلهك أو مذهبك أو وطنك أو نظامك على آلهة الآخرين وأوطانهم ومذاهبهم ونظمهم سوى إلفك فقط لما عندك، وأنت حينما تقاتل أو تدافع عما عندك من ذلك لا تعرف هذه الحقيقة، لا تعرف أنك لا تقاتل أو تعادي دفاعاً عن مذهبك أو إلهك بل عن علاقة أعصابك به، أي عن غباوات وآلام طالت ممارستك لها فأصبحت حالة من حالاتك النفسية والأخلاقية.

ليس الإلف تكيفاً نفسياً أو حالة نفسية فقط، بل هو تكيف عصبي أو حالة عصبية كذلك، إنه تكيف يرتبط بالجهاز العصبي، إن إيماننا بالإله أو المذهب لا يساوي أكثر من ارتباط جهازنا العصبي به، ونحن نغضب لهما ـ أي للإله والمذهب ـ غضباً يساوي حالتنا العصبية المتعاملة معهما.

إن التكيف يتحول إلى أديان ووطنيات متوحشة. والعلم يدرس الأمراض النفسية والبدنية ويحاول أن يجد لها علاجاً كما يفعل إزاء الأمراض العصبية، فهل يحاول أن يدرس أمراض الإلف والتكيف، ويدرس الأسباب التي تجعل منها أدواء عسيراً شفاؤها.

أليست أمراض الإلف والتكيف هي التي تصيب البشر بأفدح غباواتهم وأحقادهم ونظمهم العدوانية وبالإصرار البليد على الإيمان بأسخف الآلهة والعقائد والتقاليد وعلى القتال باسمها؟

لعل الذين يعتادون زمناً طويلاً أن يسمعوا الأصوات المنكرة، ويروا الوجوه والأشياء الدميمة العابسة، ويعيشوا في الظلام، يصبحون أعداء للهدوء والضياء، والجمال والموسيقى، أو يتعذبون وتتعذب أعصابهم من ذلك كما تفعل بهم الظروف المضادة.

والذين لا يرون إلا الظلام أليس من المحتمل جداً أن يقاتلوا النور دفاعاً عنه أي عن إلفهم الطويل له أو عن علاقة أعصابهم به؟

إن الإلف الطويل ـ حتى ولو كان مع الألم أو بالألم ـ يصنع تلاؤماً، يصنع حباً، لأن في طبيعة الكائن أن يتلاءم مع وجوده وظروفه مهما كانت القسوة التي يعاني، أو الرداءة التي يواجهها في تلك الظروف والوجود، ويظل يتلاءم مع ما يجد ويمارس إلى أن توجد فيه القدرة على ذلك، بل وتوجد فيه إرادته والتعصب له.

ومع هذا فالتلاؤم ليس شراً أو خطأً خالصاً، بل إنه مفيد أو ضرورة. ولولا طبيعة التلاؤم في الأشياء أو قانون التلاؤم فيها، لما أمكن أن يستقر الإنسان ولا سواه في وضع من الأوضاع، ولا أن يراه شيئاً طيباً أو يرتاح إليه. فقانون التلاؤم سخيف وضار ومعوق، ولكنه مع ذلك حاجة أو ضرورة، إنه مفيد بقدر ما هو ضار، واحتياج بقدر ما هو ضد الاحتياج.

والفكر الناقد البعيد المدى، والبعيد الأشواط والرؤى، هو الذي يجعل الإنسان يتمرد على إلفه، ويكتشف عيوبه ويرى من بعيد مزايا نقيضه الذي لم يوجد، أو نقيضه الموجود عند الآخرين، لأن مثل هذا الفكر المتطلع القوي النظرات هو الذي يقدر على معرفة الفرق بين الشيء الموجود والشيء المنتظر وجوده، وأن يصادق الغائب الأفضل، ويريده ويفضله على الحاضر الأسوأ والأليم. والذين يملكون مثل هذا الفكر الحاد الرؤية ينتقلون من طور من يعيش فقط إلى طور من يرى ويعلم ويحكم ويختار.

ولكن هل صحيح أن عوامل التغير هي عوامل فكرية، وأن الناس يتغيرون لأنهم يفكرون ويعلمون ويرون من بعيد، ويرون الغائب وغير الموجود أقوى مما يرون الحاضر والموجود؟ أم أن الناس يتغيرون لأنهم يتحركون ويكونون، ويفعلون ما لا يعلمون وما لا يريدون وما لا يبصرون، بل وأنهم قد يرفضون التغير لأنهم يفكرون أو بحجة التفكير أو يرفضونه بأفكارهم، وأنهم دائماً يحتجون بالتفكير على رفض التغيير أكثر مما يحتجون به على قبول هذا التغيير؟

إن في كل الأشياء قانوناً آخر هو قانون التمرد على الذات، كل شيء لا بد أن يتمرد على ذاته بلا تفكير وضد التفكير، إن في كل شيء قانونين متقابلين أو متناقضين: قانون التمرد على الذات وقانون الخضوع لها والوقوف عندها، حتى الأفكار والعقائد تتمرد على ذواتها دون أن

تريد أو تعرف أن تغيرها تمرد على ذاتها، ولولا هذا التمرد المحكوم به على الأشياء حتى على التفكير والاعتقاد لما تغير شيء.

لماذا تتغير عقائد الناس وأفكارهم ورؤيتهم للأشياء لو لم يكن في طبيعة العقائد والأفكار التمرد على ذاتها؟

هل الأفكار والعقائد هي جهاز التغيير والتغير؟

إذن ما الذي يغيرها هي؟

لعل الناس يتغيرون بلا تفكير أكثر مما يتغيرون بالتفكير، لعلهم لو لم يكونوا مفكرين لكانت احتمالات تغيرهم أكثر وأقوى، إن التفكير ينهى عن التغيير أكثر مما يأمر به، ويحاور ضده أكثر مما يحاور معه أو له.

إن جميع ما لدى الإنسان من حضارات ومن أشياء ليس إلا عطاء ذلك النضال العشوائي الإنساني القائم بلا تدبير عقلي على محاولة المعرفة لكل شيء، والتغلب على كل شيء، حتى على أربابه وعقائده التي لو جادله أحد في جواز النظر إليها في مباذلها وعريها ووحشيتها، دون أن يضع عليها كل أزياء الزينة وأصباغها وفنون التزييف والتغطية للعورات والدمامات، لما رأى فيه زنديقاً يجب موته بل لرأى فيه مجنوناً خطيراً.

ولو أن البشر اتفقوا تحت سبب من الأسباب على وضع حدود عالمية لمعرفة الإنسان وقدرته، لا يجوز كما لا يمكن اجتيازها لكان من المحتوم أن يقف التاريخ الإنساني خارج نفسه وأن يتجمد وراء تلك الحدود، ولو كان من المستطاع أن يطيع الناس أفكارهم وآلهتهم ومعلميهم، وألا يخرجوا عليهم دون أن يرحموهم ويرقوا لبكائهم ونداءاتهم، لما زحفوا في طريقهم الطويل هذا الزحف القوي المتناثرة حوله جثث أولئك الآلهة والمعلمين والعقائد.

لقد كان البشر في كل تاريخهم، أو على الأقل في فترات منه يضعون لقدرتهم واحتمالات معرفتهم حدوداً مقدسة، ويضعون على حراستها طوابير هائلة وطويلة من العقائد والآلهة والمعلمين الأشداء، الذين لا يمكن التفاهم معهم أو استعطاف قلوبهم للتنازل عن غلظتهم وصرامتهم البلهاء. ولكن ماذا كان يحدث؟ لقد كان البشر، كل البشر يتجاوزون تلك الحدود كلها عنوة أو تسللاً هو أقوى وأقسى من العنوة. إن البشر كما يضعون لأنفسهم قيوداً بفلسفة يلقون بتلك القيود بلا فلسفة أو بفلسفة أخرى مضادة.

إن الفلسفات ليست حوافز لما يحدث بل تفسير له.

إن الشيء يحدث لأنه يحدث، أو لأنه لا بد أن يحدث، أو يستطيع أن يحدث، أو يريد أن يحدث، أو لأنه محكوم عليه بأن يحدث. والفلسفة بعد ذلك أو قبل ذلك تفسره أو تبرره، أو

تصافحه، وتلقي عليه التحية، وترحب به نفاقاً، وضعفاً، وعجزاً عن المقاومة والرفض، أو اشتهاء له.

إن الشيء يفعل ويطلب، ويبرر بنفس الحجة أو بنفس الفلسفة التي بها يهجر، ويرفض، وينكر، ويحتج ضده، أو بنفس الحوافز والمستوى الأخلاقي.

*

واليوم لقد خلف الإنسان وراءه بعيداً، بعيداً ذلك العبد الصالح المؤمن التقي الذي يتحدث عن الأرباب دائماً، وعن الموت والآخرة، والحساب والعقاب، والموازين الموضوعة لوزن الذنوب والأخطاء، والذي كان يقف أمام المجهول والظلام، والطبيعة والآلام، والعبث والغموض، والغباوات وما وراءها وفيها من أرباب وأوهام مقدسة، لا ليفهم أو يرفض أو يناقش أو يقاوم، بل ليرتجف ويؤمن ويصلي. لقد كان يخاف أن يخطو، أو يعلم أو يحكم، أو حتى يجادل، أو يسأل، وكان الكون أمامه محروساً بأشرس الآلهة والعقائد والأوهام والمخاوف الباهظة، كانت السماء فوقه قبة مطبقة مظلمة تسكنها أقوى الكائنات الغريبة المتوحشة التي لا يمكن فهمها، ولا التفاهم معها، ولا الثقة بتفكيرها أو بأخلاقها، كانت السماء في رؤيته قبة هائلة، يموت من رهبتها كل ما في الأرض من ذكاء وخيال وشجاعة، كانت ظلاماً لا نور فيه أو نوراً لا رؤية فيه، أو ضخامة بلا ذكاء، أو ذكاء بلا فهم ولكنها كانت مع ذلك هي الذكاء والحكمة والإشراق، كانت كل ما في الإله من ذكاء وجمال ومحبة.

حتى النجوم لقد تحولت في إيمان ذلك العبد الصالح المؤمن التقي إلى قذائف نارية تصوبها إلى رؤوس البشر أيدي أرباب لا حد لقدرتها وغضبها المتلون، ولوحشيتها الجائعة إلى الدماء والدموع، ولا حد أيضاً لرحمتها وحبها ونبلها ـ حتى النجوم كانت جثثاً هائلة من اللهب المحرق المظلم تتحدى وتجرب بها قوة السماء ضعف الإنسان وخوفه ـ حتى النجوم لقد كانت ظلاماً في خيال ذلك الإنسان وإيمانه.

ولكن ذلك العبد الصالح المؤمن التقي قد تمرد على ذاته وإيمانه وخياله وخوفه، وأعلن موت الآلهة، وجميع المعلمين والمتكلمين باسم الكلمة الأولى التي كانت في البدء، وكان بها البدء، وأعلن بمرارة أو بلا مسرة أن الإنسان هو الإله المتعذب الذي لا يملك الكلمة الخالقة ولكنه يملك العلم المبدع والعبقرية التي هي أضعف من آلهة القدماء في تصورهم، ولكنها أنفع وأذكى من تلك الآلهة، كما يملك أيضاً الضياع والقلق، والتساؤلات الحادة الدائمة التي لا جواب لها، لا جواب لها من الإنسان إلى الإنسان، لا جواب لها في فم الإنسان أو في حياته، ولا جواب لها من الكون إلى الإنسان، أو من الإنسان إلى الكون، أو من الكون إلى الكون.

لقد أصبح الإنسان والكون وكل الأشياء سؤالاً دائماً، سؤالاً لا يحتمل أن يوجد له جواب، ولا أن يوجد أستاذ يوجه إليه السؤال وينتظر منه الجواب.

من الذي يمكن أن يكتب السؤال، ومن الذي يلقيه، وعلى من يلقى؟ كل شيء مع الشيء الآخر يصبح سؤالاً بلا جواب ـ الكون مع الإنسان، والإنسان مع الكون سؤالان لا جواب لهما، والإنسان والكون معاً سؤال كبير حائر، لا أمل في أن يجد جواباً، أو في أن يجد مسؤولاً يتوجه إليه.

لقد كان كل شيء صمتاً، كانت الآلهة والعقائد الرهيبة تقف فوق كل شيء لتحوله إلى صمت، أو إلى جواب فيه كل معاني الصمت ورهبته وعجزه، ثم أصبح كل شيء سؤالاً، ولكنه سؤال ينتهي إلى الصمت، إنه يظل دائماً سؤالاً بلا جواب. وأيهما أقسى أن تظل الأشياء صمتاً أم أن تتحول أسئلة ليظل الجواب صمتاً؟

لقد ماتت الآلهة المحولة للأشياء إلى صمت، وتخلت عن حكمتها وقوتها المذخورة في الطبيعة، وفي كل شيء. لقد ماتت في عقل الإنسان المتحضر وعلمه، وإن كانت لم تعش يوماً واحداً في رغباته، أو في أخلاقه وسلوكه، أو في سلوك أو رغبات أحد من الناس، حتى ولا في سلوك أو ضمائر أولئك الذين كانوا يخشون على كبرياء إيمانهم وعلى أربابهم من الموت غضباً وغيرة وبكاءً لو أنهم جرؤوا على اتهام الذباب أو الفئران بالقذارة أو الأذى، أو بنقل الأوبئة ومضايقة الإنسان، أو بأنه لا يمكن أن يكون خلقها أبلغ القصائد والصلوات والفنون في تمجيد الكون والإله، والثناء على حكمته ورحمته وعشقه للإنسان. حتى ولا في سلوك أو ضمائر أولئك الذين يصدقون بكل حماس أن الحشرات هي أفضل وأكبر هدايا مغازلة بين الإله العاشق وبين البشر المعشوقين الهاربين من عاشقهم العظيم الذي يغازل حبه بإهداء الفئران والآلام والأمراض المستعصية إليه.

إن الآلهة إذن لا تأمر الإنسان ولا تنهاه ولا تحرم عليه أو تحلل له، لا تصنعه ولا تهدمه، لا تضله أو تهديه كما كان يتحدث عنها أو يتمنى لها، ولا تعده بملكوت السماء إذا هو عجز عن امتلاك تراب الأرض. لقد تحرر الإنسان من الأصنام العقلية التي كانت تعيش خارج الطبيعة وفوقها، وأصبح يواجه الأشياء ويواجه نفسه بكل قوته وشهوته وبكل ضعفه وأخطائه المذهبية والعقلية والإنسانية، لا تحكمه أسرار ولا قوى غيبية أجنبية، فتحررت عبقريته من الضعف والرهبة والإحساس بالهوان وبالإملاء الخارجي أمام السماء، فانطلقت تصوغ الأشياء أقوى مما كانت تصوغها الآلهة القديمة التي كان يؤمن بها.

ولكن هل الإنسان يخضع لعقله أو هل يخضع عقله لعقله؟ وهل يمكن أن تضعف أو تعوق نظرياته أو عقائده مهما كانت ضالة أو سخيفة عبقريته؟

إن في استطاعة كل إنسان أن يجمع بين التفكير وتحريم التفكير، وبين الإيمان بالإله الناهي عن التفكير، وبين التفكير بلا إله، كما أن في استطاعته أن يجمع بين النظرية والخروج عليها بالسلوك، وبين الإيمان بالإله الفظ الباطش كل أساليب البطش، وعصيانه حتى لكأنه قد مات أو فقد القدرة على أن يرى أو يعلم أو يغضب أو يعاقب.

إن سقوط أغلال الإيمان بالسماء عن الإنسان لن يجعله حراً أو قادراً على أن يصنع كل حريته وإرادته.

إن أغلال البشر ليست في إيمانهم بل في وجودهم، وهي أغلال لا تصنعها السماء بل تصنعها الأرض أو تصنعها السماء والأرض.

*

إن غرائز الإنسان وطاقاته الفكرية هي الجهاز القوي الأخير الذي استطاعت الطبيعة ابتكاره بعد عملياتها الطويلة الشاقة الضاربة في الظلام بلا قائد وبلا رؤية وبلا عصا تقرأ بها علامات الطريق وأخطاره. بعد تلك العمليات السخيفة العابثة التي لا هدف لها ولا لذة فيها والتي انتهت، أو توجت ـ إذا أردنا التعبير البلاغي ـ بمولد ابنها العظيم البائس الإنسان المحكوم عليه بالتفوق وبالضياع وبالعذاب العقلي ـ المحكوم عليه بأن يكون سؤالاً أمام نفسه لا جواب له، سؤالاً متحدياً لعقله وآلامه، والمحكوم عليه بأن يظل يسأل ويظل عاجزاً عن الجواب، لا يستطيع أن ينسى السؤال أو ألا يسمعه ولا يستطيع أن يجد الجواب أو أن يستريح من البحث عنه ـ المحكوم عليه بأن يعلم ويستطيع ويناضل ويجد ويرى، والمحكوم عليه أيضاً بأن يتعذب ويجهل ويعمى ويكذب وينافق ويخطىء ويبكي أكثر.

نعم لقد انتهت أو تتوجت عمليات الطبيعة بابتكار السؤال الأليم الذي لا جواب عنه، ولا جواب عنده، ولا جواب إليه، ولا جواب منه، أي انتهت عمليات الطبيعة بأن ابتكرت هذا الإنسان المفكر المعادي للتفكير، الشاعر الهارب من الشعر، الحزين المسرور، المريد المتحرك بلا إرادة، وبأن وضعت فيه كل مزاياها ورذائلها، وقوتها وضعفها، وعبثها وصرامتها، وزادته بأن أعطته ما ليس فيها من مزايا وكذلك من رذائل، لقد جعلته أذكى، وأحياناً أو بأسلوب ما، جعلته أقدر منها، ولكنها ـ وكأنها تريد أن تعاقبه وتقتص منه ـ جعلته أكثر ألماً وشعوراً بالمأساة واستعداداً لقبول الموت وإحساساً به وللسقوط في الضعف والهوان.

وهل حابت الطبيعة الإنسان أم جارت عليه حينما جعلته متفوقاً أكثر، ثم جعلته أكثر ألماً وبكاءً وممارسة للهوان والخوف؟

وهل صحيح أن الإنسان أذكى أو أقدر من الطبيعة على أي نحو من الأنحاء؟

في مكان آخر جاء تساؤل عن معنى القدرة والذكاء وعن المقاييس التي يقاسان بها. أليست كل قوة وذكاء في الإنسان مستعارين من الطبيعة؟

وقد ترفض الطبيعة أن تكون في ذكاء الإنسان وقدرته.

والذكاء، وكذا القدرة لغة إنسانية يتكلم بها ويخضعها لحساباته وظروفه وحاجاته وأمانيه، إن الطبيعة بدون لغة الإنسان ومقاييسه ومشاعره ليس فيها قدرة وذكاء، أو غباء وضعف. وقد يمكن الزعم أن أية حشرة هي أذكى وأقدر في مجالاتها أو في حساب ظروفها وتحقيق ذاتها أو الاستجابة لذاتها من أعظم عباقرة البشر، كما يمكن الزعم أيضاً بأن أي طائر أو أية فراشة هي أشعر من أشعر شعراء بني الإنسان، وإن أية زهرة هي أكبر عبقرية من أي رسام أو مزخرف عبقري.

إن أي قائد لسرب من الطيور أو النمل أو لأي قطيع من الحيوانات ليأنف من الدخول في مباراة للذكاء أو للفضيلة مع أي قائد من قادة البشر العظام الذين يصنعون أضخم الانتصارات في أشهر المعارك الحربية أو الدعائية الإعلانية، وإن مثل هذا القائد لأسراب النمل أو الطيور أو الحيوانات ليرفض كذلك أن يكون في ذكاء أو أخلاقية أكبر معلم للبشر يعلمهم أخلاق الله أو الأخلاق التي يجب أن يعامل بها الله، أو يعلمهم أخلاق الإنسان الذي يتخيله ويتمناه ويدعو إليه ويصوره بتعاليمه الشاتمة الحاقدة.

إذن الإنسان حتماً موهوب هواناً مادياً وأخلاقياً ونفسياً وفكرياً، فهل وهب ذكاء أو قدرة متكافئة مع هذا الهوان، أو هل وهب صعوداً أو سروراً مساوياً لآلامه وبكائه؟

هل يتكافأ ما أعطته الطبيعة مع ما عاقبته به؟

إنه متفوق بمزاياه وبرذائله فهل يتكافأ تفوقه بهذه مع تفوقه بالأخرى؟

لقد اخترع الإنسان المرآة وهو يرى نفسه بها وفيها، ويطيل النظر إليها، وهذه قد تكون مزيته أو رذيلته الكبرى، لقد جعلته يعشق ذاته ويرى فيها من الجمال والكبرياء ما أصابه بالغرور والشعور بالتفوق. إن المرآة تتدخل في أخلاق الإنسان وتفكيره، وهي على نحو ما مسؤولة عن مذاهبه وأربابه وتقديره لنفسه وتفسيره للكون وعن فهمه لرسالته إزاء الأشياء وإزاء الآخرين. ولو كان الإنسان بلا مرآة فهل يمكن أن يكون كما كان في مذاهبه وأفكاره وأخلاقه؟

*

كنت أريد أن أقول إن الإنسانية لتجثو بتصاغر ورهبة أمام الطبيعة، لا تفعلها ولا تنفعل بها، بل تخافها وتعبدها، وتبكي أمام حماقاتها الكثيرة، يوم تعتقد أن الكون ليس محكوماً بذاته وضروراته غير الحرة وغير الذكية التي تمكن دراستها ومعرفتها، وضبطها بقوانينها المفترسة ـ يوم

تعتقد أن الكون محكوم بمشيئة مطلقة خارجية لا تتقيد بقانون، أو بقصور ذاتي، ولا بعقل أو أخلاق سابقة مفروضة، أو تعتقد أن هذه المشيئة المنفصلة التي ليست لها حدود لا من ذاتها ولا من ظروفها، ولا من الأشياء التي حولها أو التي تتعامل معها قد أقامت حراسة دائمة ليست عاقلة ولا معقولة، حول هذه الطبيعة وحول أسرارها، لا يستطاع اختراقها أو الانتصار عليها ـ أو يوم تعتقد أن تلك المشيئة الأجنبية قد عاقبت الإنسان عقاباً أبدياً فصاغته وصاغت قواه واحتمالاته صياغة عاجزة وحاسدة حاقدة، وقيدت طبيعته بحدود نهائية أبدية، فيها كل معاني وشهوات التحدي والعقاب والإذلال، بحدود فيها كل تعبيرات العقاب الذي لا يعاقب بمثله أي صانع شرير صناعته بل أعداءه ـ صياغة لا يقبلها أي فنان مبتدىء لأعماله الفنية.

كنت أريد أن أقول إن الإنسانية لتجثو ذليلة أمام الكون والأحداث يوم تؤمن بأن الإنسان والكون محكومان بقوة منفصلة عنهما، لا تعلم أو لا تبالي باهتماماتهما ولا باحتياجاتهما أو آلامهما، بل تخلقهما وتحكمهما وكأنها تلعنهما وتنتقم منهما على حسابات وشهوات هي المسؤولة عنها، أو يوم تؤمن بأن الإنسان وكل شيء ليست لهما مواهب أو طاقات ذاتية، أو عقلية أو تجريبية، لا حدود ولا قيود لها أو عليها.

كنت أريد أن أقول إن أضخم كشف علمي توصل إليه الإنسان ونهضت عليه حضارته هو هذه الحقيقة العظيمة البسيطة التي تفسيرها:

«إن الطبيعة تحكم نفسها، لهذا هي مضبوطة».

«ولا تحكمها الآلهة أو الأرواح الغيبية، وإلا لما أمكن ضبطها».

وكنت أريد أن أقول: إن الفروق لكبيرة هنا بين الإنسان المعافى من الغيب وأشباحه الرهيبة، وبين هذا الإنسان الذي انشقت موهبته وشهواته الحرة عن هذه الحضارة بكل فلسفاتها ومذاهبها وطموحها المرهق، الذي لا رقابة عليه من سلطان الآلهة أو سلطان المعلمين الغلاظ القلوب والتعاليم، وبين هذه الشعوب المسحوقة عقولها وإنسانيتها بتعاليم أقدم المحاريب وأغباها وأقساها.

كنت أريد أن أقول كل ذلك وأشياء أخرى لو كان منطق الإنسان أو عبقريته تخضع لمنطق الإنسان، أي لو كان الإنسان لا يفكر إلا إذا كان يأذن لنفسه بأن يفكر، أو لو كان لا يبدع إلا إذا كان مفكراً.

إن النهي أو التحريم العقلي لا يمكن أن يصوغ عقولنا أو شهواتنا أو قدراتنا، أو ينهاها. والبشر كما يعصون الكون والآخرين كذلك يعصون عقولهم، إن أي تفكير لا يمكن أن يلتزم بنفسه، كل تفكير لا بد أن يخرج على نفسه. والإنسان يفكر وهو مؤمن وكأنه غير مؤمن، وإذا لم يفكر فليس طاعة أو احتراماً لنفسه أو لتفكيره أو لأربابه وعقائده الناهية عن التفكير والمحرمة

له، ولكنه لا يفكر ـ إذا لم يفكر ـ لأنه عاجز عن التفكير أو خائف منه، وما من إنسان إلا ولا بد أن يتحدى بتفكيره الآلهة وأن يناضل ضدها بكل طاقات حياته وأساليبها مهما كانت قوة إيمانه وضعف تفكيره. إن طاعة الإنسان لآلهته وعقائده أو لمذاهبه وأفكاره لا تعني طاعته لها وإنما تعني عجزه عن الخروج عليها.

كل شيء يجب أن تحاول معرفته والانتصار عليه، إذن كل شيء يجب أن يجرب. إن ما عند سواك، ما عند خصومك ومخالفيك قد يكون أفضل مما عندك، وما ليس عندك ولا عند سواك قد يكون أفضل مما عندك وعند سواك، والذي ليس موجوداً قد يكون أفضل وأعظم من الموجود، وما تراه أنت حقاً أو كل الحق قد يكون باطلاً أو كل الباطل، وما يراه الآخرون حقاً قد يكون الحق كله، وإن ما لم يستطع اليوم قد يستطاع غداً أو بعده، وما لم يستطع بمحاولة واحدة قد يستطاع بعدة محاولات، والشيء الذي لم تقدر عليه أنت قد يقدر عليه غيرك، قد يقدر عليه خصومك، وآلهتك وزعماؤك ومعلموك الذين تعبدهم وتؤمن بهم وتتعصب لهم دون ذكاء أو وقار، قد يكونون شر الآلهة والزعماء والمعلمين، وأكثرهم غباءً وجنوناً وطغياناً، وآلهة خصومك وزعماؤهم ومعلموهم قد يكونون أنبل الآلهة والزعماء والمعلمين.

هذا هو منطق الذكاء مهما كان منطق الأذكياء أو سلوكهم أو شعورهم، وهذا هو شعار الحضارة مهما خرج عليه شعار المتحضرين، أو تصرفهم أو شهواتهم وضروراتهم.

إن منطق المتحضرين يخالف في الغالب سلوكهم وضروراتهم، أو يخالف منطقهم الخاص منطقهم العام، أما غير المتحضرين فإن منطقهم أكثر مخالفة للحضارة من سلوكهم مهما كان سلوكهم مخالفاً للحضارة. إن غير المتحضرين يرون أن ما هو موجود أو متصور من الأرباب والمذاهب والنظم ومستويات الحياة وأساليبها هو الخير والحكمة والأفضل، وإن ما لم يكن هو الشر والضلال والهلاك، وإن العجز والجهل المطلقين هما من الأقدار المقدسة ومن القوانين الطبيعية المفروضة على هذه الحياة، وإن ما عندك هو الحق والفضيلة وما عند الآخرين هو الباطل والبلادة والرذيلة، وإن العجز عن المعرفة مع الاعتراف بالعجز صفاء وذكاء وتواضع وصلاة للإله وموسيقى روحية تغنيها الطبيعة لأرواح الملائكة.

وإذا كانت التفاهة قد تكون مغرورة، والمغرور قد يكون تافهاً فإن التفاهة والغرور ليسا متلازمين دائماً، إذ قد توجد التفاهة بلا غرور ويوجد الغرور بلا تفاهة. إن العظيم أو العبقري قد يكون مغروراً، وإن التافه قد يكون متواضعاً، فليس إذن كل تافه مغروراً ولا كل مغرور تافه.

إن الغرور حتماً تفاهة لأنه لا يمكن أن يكون عظمة، ولكن العظيم قد يجمع بين العظمة والتفاهة، والتافه قد يكون تافهاً فقط، أي تافهاً بلا غرور، والتفاهة والعظمة قد تجتمعان في ذات الإنسان، وتقوم بينهما أفضل علاقات الجوار، وقد تعيش العظمة بجوار التفاهة في ذات

واحدة أفضل مما تعيش التفاهة إلى جوار التفاهة. وقد يكون سبب الغرور هو الغباء أو الجهل، فالأغبياء والجهال قد يعجزون عن رؤية فضائل الآخرين واحترامها وعن رؤية رذائلهم هم، أو عن إيجاد مقارنة ذكية بين رذائلهم وفضائل الآخرين، كما قد يستعظم الجهال والأغبياء ما عندهم أو ما عند قومهم، وأهل مذهبهم وجنسهم من نقائص. وهم لا يعلمون أن الغرور والتعبير عنه بوسائله المعروفة المحتقرة يفقدهم المعنى الذي يسعون إليه، ويريدون التعبير عنه بغرورهم، كما لا يعلمون أن الغرور بتعبيراته الشاتمة لنفسه، والشاتمة للآخرين يحرض عليهم سخرية الآخرين واحتقارهم، وقد يسقطهم. من أجل هذا كان المفروض دائماً أن يكون المتخلفون والأغبياء هم أكثر الناس غروراً. وإذا كان إعجابهم بأنفسهم وبآبائهم وقبورهم وبما يمكن أن يكون لديهم من معرفة أو من جهل، ومن تقدم قليل وتخلف كثير، يصدم دائماً كل تواضع وذكاء، فإن إعجابهم بأوهامهم، بآلهتهم وأديانهم وتقاليدهم ومذاهبهم وبذكائهم هو الداء الذي يعاقب من يحاولون علاجه، والداء الذي لا يمكن أن يغفر للتفكير ضده أو للشكوى منه.

وإذا تخلى هؤلاء عن شيء من غرورهم فانهزمت حياتهم وأربابهم أمام تحديات أرباب الآخرين وحياتهم، فإن ذلك لا يحدث فيهم عن اقتناع أو موافقة منطقية، بل إن ذلك يحدث دون أن يشعروا، أو يعلموا، أو يريدوا، أو يدبروا.

إن أربابهم وأساليب حياتهم تموت بين أيديهم وبالكره منهم كما يموت شبابهم وصحتهم ومسراتهم.

إن ذلك هزيمة أو ضياع أو فقد وليس بحثاً أو معرفة أو تنازلاً عن الأسوأ والأردأ.

إنهم يفقدون قلاعهم القديمة المتهدمة، وتنهزم أربابهم وأديانهم ونظمهم، بينما يصرون على الزعم، بل على الاقتناع بأنهم هم المنتصرون الغازون لمواقع الآخرين.

إن كل تراثهم السماوي وعبقرياتهم القومية والتاريخية والعرقية تموت موتاً حزيناً ذليلاً بتصادمها اليائس مع الظروف الجديدة القوية، دون أن يدروا أو يعترفوا بما حدث، ودون أن يقيموا أي مأتم أو منعى لموتاهم المقدسين، أو أن يعترفوا بأنهم قد دفنوهم في مقابرهم الأبدية.

إنهم مهما انهزموا خارج تقديرهم، فسوف يبقون منتصرين داخل تقديرهم، ومهما تغيروا فإنهم سوف يظلون يزعمون أنهم إنما استعادوا مجدهم ومجد أربابهم الذي كان يوماً ما موجوداً وقاهراً دائماً، والذي لا يمكن أن يتغير أو يقهر.

إن قوماً يتغيرون بتفكيرهم وتدبيرهم وإرادتهم واعترافهم، أو هكذا يبدو أو يظن، أما الآخرون ـ وقد يكونون كل الناس ـ فإنهم يتغيرون ـ إذا تغيروا ـ ضد إرادتهم، ومن وراء

تفكيرهم وتدبيرهم، وبلا اعتراف أو معرفة منهم، إن تفكيرهم يتغير ـ إذا تغير ـ دون أن يدري أو يريد تفكيرهم.

كثيرون هم الذين يقتنعون بتفكيرهم بأن التغير مطلوب أو محتوم، وهم ينادون بالتغير ويسعون له، ويريدونه لأنهم مقتنعون بأن ذلك هو الأفضل لهم. فكيف انتقل تفكيرهم إلى الاقتناع بوجوب التغيير؟

لقد تمرد تفكيرهم على تفكيرهم، وتغير دون أن يريد التغير. وهل يريد أي تفكير أن يتغير؟

إن التفكير قد يريد أن يتعلم ويزداد نمواً ومعرفة وانتصاراً، ولكنه لا يستطيع أن يريد الهزيمة لنفسه لكي يحل مكانه تفكير آخر.

إن التفكير لا يريد أن يتغير، ولكن التغير يصيبه كما تصيب الهموم الإنسان، أو كما يصيبه الموت والنضج الجنسي.

إن أي مذهب أو عقيدة أو إله لا يمكن أن يموت برضاه أو بتدبيره ليقوم مكانه إله أو عقيدة أو مذهب آخر من أي نوع، وإنما يدرك الموت المذاهب والعقائد والآلهة بالقدر، من غير أن تعرف أو تسعى إلى ذلك، كما يدرك الموت جميع الكائنات الحية.

والبشر قد يريدون تغيير منازلهم وأزيائهم ونظمهم، بل ومذاهبهم وأفكارهم، غير أن أفكارهم لا تريد أن تتغير أو أن يغيروها. إن الفكر الإنساني يرفض دائماً أن يتغير مهما تغير، إنه أكثر الأشياء نفياً لنفسه واستمساكاً بها، إنه يتغير في أوج رفضه للتغير ويحارب خوفاً من التغير لكي يتغير.

والناس يصابون بالغرور أو يسلمون منه، ويقبلون التغير أو يرفضونه بالموهبة والظروف، والمستوى الثقافي والحضاري. والغرور ورفض التغير ليسا شيئاً واحداً ولا متلازمين، فقد يكون الإنسان أو المجتمع مغروراً ومع هذا يريد التغير وينادي به أو يصنعه بحماس ولهفة، كما قد ينادي برفضه والخوف منه دون أن يكون مصاباً بداء الغرور والإعجاب بالنفس وبما لديها من مقابر الآلهة والتاريخ.

كان المحتمل جداً أن يكون قبولنا لتغيير آلهتنا وأدياننا ومذاهبنا، بل وللتنازل عنها أعظم من قبولنا لتغيير أزيائنا وأثاث منازلنا وأوطاننا وأعمالنا، والكراسي التي نجلس عليها، والأماكن التي نقيم فيها، لأن تغيير هذه الأشياء يكلفنا أكثر مما يكلفنا تغيير تلك، وكان المفروض كذلك أن يكون تعصبنا لهذه أكثر من تعصبنا لتلك، ولكن الأمر لم يحدث كما كان المفروض والمتوقع. وقد يكون التفسير لهذا أننا لا نتعامل على أدياننا ونظرياتنا، وأربابنا وأنبيائنا، مهما تحدثنا عنها وعنهم، وآمنا بها وبهم، لهذا لا نشعر بالتناقض معها ومعهم مهما خرجنا عليها وعليهم.

إن أنبياءنا وأربابنا، ومذاهبنا وعقائدنا، لا تتدخل في تصرفاتنا ولا في أهوائنا، وإنما نلقي بها في مكان مهجور من أنفسنا، أو نحولها إلى لغة وشعارات، وإلى شعر وغناء، وبلاغة لفظية، وإلى محلل لحاجاتنا إلى الصخب والاستفراغ النفسي، الذي لا نستطيع الاستغناء عنه تحت جميع الظروف والمستويات، بل وإلى محلل أخلاقي يبيح لنا أن ندخل في خصومات ومبارزات مع كل الناس تحت أفضل الشعارات وأعلاها دوياً، دون أن نكون ملزمين بها سلوكياً أو نفسياً، أو على أية صيغة من الصيغ. فالآلهة والعقائد والمذاهب متسامحة جداً، إنها لا تلزم المعتقدين والهاتفين لها بشيء ولا تشترط عليهم أية شروط، إن الإيمان بها إذن صفقة رابحة نأخذ منها ولا نعطي فيها شيئاً. أما الأشياء الأخرى التي نحياها ونتعامل عليها وفيها، فإننا لا بد أن نتناقض ونتوافق معها، ولا بد أن تتدخل في تصرفاتنا وفي أهوائنا، لأننا نتعامل عليها ولا نؤمن أو ننادي بها فقط كما نفعل مع الأرباب والمعلمين والمذاهب والعقائد.

إذن لا بد أن نتسامح في تقديرنا لها وفي تغيرها، لأننا مضطرون إلى ذلك، وألا نحولها إلى إله جامد لا يموت في أفكارنا، ولا يعيش في حياتنا، أو يتدخل في سلوكنا.

ولو أن أي إله، أو نبي، أو مذهب، أو اعتقاد، تجسد شيئاً مادياً لنحياه، ونتعامل عليه، ونضبط، أو نخضع حركاتنا، وأخلاقنا، ورغباتنا به وبمزاياه الجميلة التي نهتف لها، ونقاتل المخالفين تحت اسمها، لكنا متسامحين أعظم التسامح مع ذلك الإله، أو النبي، أو المذهب، أو الاعتقاد، لو أننا اكتفينا برفضه ورفض الإيمان به، والاحترام له، ولم نقتله كما نقتل الوحوش الضاربة المهاجمة، والأعداء الغزاة، والحشرات الباصقة على حياتنا وطعامنا وعلى عيوننا بمشاهدها البذيئة التي تتحول إلى أقوى وأبلغ الفنون الهاجية لكل احتمالات الحكمة والأخلاقية في هذا الكون.

إن أي زعيم أو داعية تتبرك الشمس والقمر بلمس قدميه يقف ليتحدث عن إيمانه بإلهه أو بمذهبه ونظامه بخشوع تخشع له أخلاق العاصفة، وبضراعة تقسم على أنه أصدق فيما يقول من النجوم في مداراتها ومواعيدها ـ إن مثل هذا الزعيم أو الداعية لو وجد أن ما يتحدث عنه ويؤمن به، قد تحول إلى قانون يلزمه أو صورة تحدده، أو قوة تحكمه بنزاهة وصدق وضبط، لحكم ذلك الداعية على إلهه هذا بالزندقة، ولطالب بقتله كافراً، ولحكم ذلك الزعيم على مذهبه أو نظامه ذاك بالخيانة والتآمر على الوطن، ومصالح الجماهير الكادحة، ولأصدرت أجهزته حكماً عليه بالشنق أو بالسجن المؤبد كعدو مناهض للثورة، والتقدم، والسماء.

إذن لقد استطاعت الآلهة والأديان، والنظريات، والمذاهب أن تعيش طويلاً، ويرفض تغييرها، أو موتها، أو إنكارها، ونقدها، وظل التعصب لها قوياً وغير عاقل أو متوقر، لأنها

كانت غير موجودة في حياة الناس المؤمنين بها وغير ملزمة، لقد كانت دعاوى وخطباً وسباباً بذيئاً فقط، ولم تكن موجودة كحياة أو سلوك أو فضائل نفسية.

إن أقسى الأشياء هي التي تشترط علينا شروطاً نفسية، والآلهة والأديان والمذاهب والنظريات لا تشترط مثل هذه الشروط، لهذا كانت صديقة وغير مرفوضة حتى لدى أفسد الناس وأكثرهم خروجاً عليها، إنهم يستعينون بها للخروج عليها، لقد عمرت لأنها كانت مهزومة وذليلة وغير موجودة، واحترمها المؤمنون ولم يخشها غير المؤمنين لأنها لا تتحول إلى تعامل. وكذلك كان من الممكن أن تتغير دائماً مع الإصرار على رفض تغييرها، والإصرار على الزعم بأنها لم تتغير مهما تغيرت، إنها تتغير دون الشعور بتغيرها أو الاعتراف به.

أما أساليب الحياة الأخرى فلا تملك هذه المزية، لهذا لا بد من المناداة بتغييرها والاعتراف به.

*

ما أقدر الأفكار، والمذاهب، والآلهة الميتة، على أن تعيش، إنها تعيش طويلاً جداً لأنها ميتة.

أليست آلاف المعاهد الدينية وغير الدينية، لا تزال ـ كما كانت منذ آلاف السنين ـ تحاول إثبات وجود الإله وإثبات نبوة الأنبياء بالبراهين التاريخية التي قد تحولت إلى جثث قديمة جداً، فاقدة لكل مزايا الجثث، بالبراهين التي ماتت ملايين الميتات منذ آلاف السنين على ملايين الشفاه الكاذبة أو الغبية.

ولكن هل كانت حية في أي وقت من الأوقات ليكون ممكناً القول بأنها قد ماتت؟

إن المؤمنين لم يسأموا من إيمانهم بهذه البراهين التاريخية، ومن تكرارها، ولم يشعروا باحتجاج أو رفض أو كره إزاء إيمانهم وبراهينهم، لأنها لا يمكن أن تناقضهم، أو تحتج عليهم، مهما خرجوا على ما تدعو إليه، أو توجبه، بكل ما فيهم من قدرة على الفسوق وشوق إليه. لقد كانت مهذبة معهم جداً لأنها كانت ميتة فيهم. لقد ظلوا متتابعين ـ بصبر يتحدى بلادة الطبيعة وصبرها ـ يؤلفون براهين الألوهية هكذا:

«العالم متغير، وكل متغير لا بد أن يكون حادثاً، وكل حادث لا بد أن يكون له محدث، وهذا المحدث ـ وهو الله ـ لا بد أن يكون قديماً».

أو «العالم موجود، وكل موجود لا بد أن يكون له موجد» ـ مع أن الله موجود في تقديرهم، فهل يحكمه هذا البرهان؟

أو «العالم منظم، وكل منظم لا بد أن يكون له منظم من خارجه» ـ مع أن الله في تفكيرهم منظم، فهل له منظم من خارجه؟. ولهم براهين أخرى من هذا الطراز.

أما برهان النبوة فيصوغه مفكرو المسلمين هكذا:

«محمد ادعى النبوة وجاء بأمر معجز هو القرآن».

«وكل من ادعى النبوة وجاء بأمر معجز فهو رسول من السماء. إذن فمحمد رسول من عند الله».

والدليل على إعجاز القرآن هو أنه قد جاء إلى العرب متحدياً لبلاغتهم ونخوتهم وكبريائهم، طالباً إليهم بتقريع أن ينافسوه ويعارضوه ويجيئوا بشيء مثله أو أحسن منه، فعجزوا واستسلموا واعترفوا بالهزيمة المهينة، والعرب مملوءون كبراً وشموخاً. وحتماً كل من سوف يجيئون بعد العرب لا بد أن يكونوا أكثر عجزاً واستسلاماً.»

عجباً! ما أقوى التلقين والتقليد، إنه لو جاء التلقين عكس ذلك لحدث الاقتناع والإيمان بنفس القوة ـ إنه لو جاء يقول:

«العالم متغير، وكل متغير لا بد أن يكون صانعاً لنفسه، وكل صانع لنفسه لا بد أن يستغني عمن يصنعه. فالعالم إذن لا يمكن أن يكون له صانع أو خالق من خارجه».

أو يقول: «العالم موجود، وكل موجود لا يمكن أن يكون غير موجود، وكل ما لا يمكن أن يكون غير موجود لا يمكن أن يكون مخلوقاً، ولا أن يكون له خالق. فالعالم إذن لا يمكن أن يكون له خالق».

أو يقول: «إن كان كل موجود لا بد له من موجد فالله إما أن يكون موجوداً أو غير موجود، إن كان موجوداً فلا بد له من موجد، وحينئذٍ يعود السؤال إلى موجده، وإن كان غير موجود فسدت القضية التي يراد الاستدلال لها أو عليها».

نعم، إنه لو جاء التلقين يقول مثل هذا لكان مقنعاً مثل العكس أو أقوى.

أما قضية النبوة وبرهان التحدي فماذا يعني ذلك؟ إنه لو جاء أي مؤلف ـ مهما كان مستواه ـ وتحدى كل عصره بكتاب من الكتب، وأعلن أن جميع أهل عصره لا يستطيعون أن يأتوا بمثله مهما فعلوا، أو مهما جاؤوا بما هو أفضل منه ـ وحكم مقدماً في القضية، وقال إن كل من يحاولون أن يجيئوا بمثله سأقتلهم لأنهم كفرة، ولأن كل ما سوف يجيئون به لا بد أن يكون باطلاً وهراء، وأقل من كلامي، ومهزوم أمام التحدي، وكان قوياً وقادراً على أن يعاقب من يحاولون الرد على تحديه.

نعم إنه لو جاء أي مؤلف ليتحدى بهذا الأسلوب وتحت هذه الظروف لاستسلم أهل عصره أمام تحديه إما احتقاراً وتعجباً، وإما خوفاً. فهل يعني هذا أن مثل ذلك المؤلف نبي من الأنبياء؟

إن موقف التحدي موقف سخيف وهو لا يعني ذكاءً أو تفوقاً، وليست له دلالة محترمة، ولا يمكن الفصل فيه، ومن هم الذين سيرضون حكاماً في موضوعه؟

إن من المحتمل جداً أن يحكم لأسخف الأشياء بأنه أعظمها، وقد يسقط أعظم الأشياء في السوق ويحكم لأتفه الناس ضد أعظم العباقرة. والعقلاء والعظماء لا يتحدون أحداً.

إن التحدي هو سلوك الأطفال والمجانين والمصابين بالوقاحة. إن البشر لا يملكون أية مقاييس للاقناع أو للاقتناع بهذا الشيء أو بنقيضه، لهذا فإن أي شيء قد يكون معقولاً وقد يكون غير معقول، قد يكون أحسن الأشياء وقد يكون أردأ الأشياء دون أن يجدوا أي جهاز يثبت لهم أي الشيئين أو النقيضين هو الأفضل أو المعقول.

لقد قبل البشر كل الآراء والمذاهب والآلهة والنظم والأشياء وأضدادها دون أن يصطدموا بحاجز تنتهي عنده الحقيقة أو الخرافة، ودون أن يسمعوا صوتاً من السماء أو من الأرض يناقضهم أو يؤيدهم، أو يقول لهم أنتم مصيبون أو مخطئون!

ولو أن أي درويش من المعلمين أو لو أن عبقرياً عظيماً قد تحدى البشر جميعاً زاعماً أنه أعظم منهم ـ من كانوا ومن سوف يكونون ـ وأنهم لو تعاونوا في جميع العصور لعجزوا عن أن يكونوا مثله، أو أن يقولوا مثل كلامه، لما وجد ذلك الدرويش أو العبقري من يرد على تحديه، بل لأشفقوا على عقل وأخلاق ذلك المتحدي.

وليس التحدي وحده هو الطفولة والتنازل عن الوقار والاحترام للنفس، بل إن الرد على التحدي ليس أقل من التحدي طفولة ونزقاً واحتقاراً للنفس وإعلاناً عن المستوى الأخلاقي والعقلي المنحدر.

وإذا وجد في وقت ما، في عصر ما من هو أعظم أو من هو معجز في أحد مستوياته العلمية أو العقلية أو الفنية أو البلاغية فهل محتوم أن يكون ذلك الأعظم أو المعجز نبياً من الأنبياء؟ إن هذا يعني أن يكون أكابر العلماء والمفكرين والأديان والشعراء أنبياء جميعاً لأنهم كانوا ويكونون معجزين في زمانهم ولأهل زمانهم. وهذا يساوي أن يكون أعلى الجبال أو أكبر الكواكب والشموس، أو أجمل أشجار أو أزهار الحديقة أو أقوى البراكين، نبياً!

*

لماذا يكون المتغير حادثاً، ولماذا لا يكون التغير عطاء حركة ذاتية دائمة؟ ثم لماذا يكون المتحرك ذاتياً حادثاً؟ بل وهل يمكن أن ينفك الموجود أي موجود عن أن يكون متغيراً؟ أو ليس الشيء الوحيد الذي لا يتغير هو الذي ليس موجوداً؟ أو ليس واجب الوجود متغيراً تغيراً ذاتياً، وإلا فكيف تحدث الأحداث والأشياء عن ذاته؟ إذا كانت ذات الإله شيئاً واحداً دائماً وحالة واحدة بكل صفاتها وإراداتها، وقواها وخصائصها، لا تزيد ولا تنقص، ولا تتغير، فالمحتوم حينئذٍ ألا تحدث الحوادث، أو أن يكون حدوثها حدوثاً دائماً وعلى نسبة واحدة لا تختلف.

إن السبب الكامل الذي لا يتغير لا يمكن أن تتغير مسبباته، إنه لا فرق حينئذٍ بين هذه اللحظة وكل لحظة أخرى. وهذا يعني ألا تحدث الحوادث أو أن تحدث كلها مرة واحدة وعلى مستوى واحد.

ثم لماذا يكون الفرض أن كل حادث لا بد له من محدث، مع الافتراض الدائم الآخر بأن الحدوث أي بأن كل حدوث هو حدوث في الصورة فقط، ولماذا لا يكون الحدوث الصوري هو من خصائص الذات، أي المادة وكدحها الداخلي، وليس هبة خارجية؟

لا توجد ذات بلا حدوث ذاتي، وإذا لم يكن الحدوث قدر كل ذات، فالذات الأولى إذن لعلها بلا حدوث.

وأيضاً لماذا لا يكون لكل حادث محدث، ولذلك المحدث محدث آخر ـ وهكذا تتسلسل الحوادث بلا بداية كما أنها تتسلسل بلا نهاية؟ ولا بد منطقياً من القول بذلك التسلسل الحدوثي منذ الأزل، وإلا لما أمكن الخروج من مناخ السكون إلى مناخ الحركة أو الحدوث. إن ذلك الخروج من مناخ إلى مناخ لا بد له من حدث، وعلى هذا يلزم أحد أمرين: إما التسلسل المزعوم باطلاً أو حدوث حوادث بلا محدث، وهذه هي عقدة المسألة أو المشكلة. ولو صح هذا لانقلب الموضوع برمته. كما أنه لا بد من القول بالتسلسل الحدوثي أيضاً في المستقبل بلا نهاية وإلا لما أمكن استمرار الحوادث، وإذا لم تستمر الحوادث وافترض قطعها أو وقفها فكيف يحدث وصلها من جديد؟ إن جاء هذا الحدوث بلا شيء فمعناه حدوث الحوادث بلا سبب، وهذا كما سبق يفسد أصل القضية، وإن جاء الحدوث بسبب شيء عاد السؤال أو الإشكال إلى ذلك الشيء نفسه، وحينئذٍ تعود المسألة إلى بدايتها.

إن تسلسل الحوادث منطق كوني، بل هو وجود كوني معلوم ومشهود دائماً، ويدبر البشر كل شؤونهم وتصرفاتهم وتفكيرهم على كون ذلك شيئاً مفروغاً منه. أما بدء الحوادث من الفراغ أو من السكون أو من الذات الساكنة غير المتغيرة أو المتحركة، فهذا وهم لا يصل إلى منزلة الافتراض العقلي، إنه أقل من ذلك، والتلقين وحده هو الذي حوله إلى عقيدة جماعية، ولا برهان أو قوة له سوى التلقين. والتلقين هو الخالق الأعظم والعالمي لمعتقدات البشر.

أما قضية: «كل موجود له موجد» فهذه تساوي قضية: «كل معلوم أو كائن له موجد». والله نفسه موجود وكائن فهل له موجد كما تقول هذه القضية؟ وقد كان الواجب أن يقولوا: «كل موجد ـ من كلمة أوجد ـ فله موجد» لا أن يقولوا: «كل موجود ـ من كلمة وجد ـ فله موجد». وعلى كل حال هذا جدل وتدليل لفظيان.

إن الوجود كله مادة أو طاقة، والمادة تتحول إلى طاقة أو تتغير كيمائياً، وهذا هو معنى حدوث الحوادث ومعنى تحول المادة إلى حركة ووقود. إن المادة في كل حالاتها وصورها

ليست إلا طاقة أي عملاً وحركة، إنها تتوزع كذلك، حتى العبقرية الإنسانية ليست سوى مادة توزعت أو تحولت إلى حركة وعمل بأسلوب ما. والمادة التي هي الطاقة أيضاً لا يمكن أن تحدث من لا شيء، إنه لا شيء يخلق المادة أو الطاقة أي يستحدثهما لأنه لا شيء يحدث أو يخلق، ولا شيء يحدث أو يخلق شيئاً، لا شيء يخلق أو يخلق، لا شيء يخلق غيره أو يخلقه غيره. وتحول المادة إلى طاقة وتغيرها كيمائياً هو التفسير الكامل للإله وصفاته ولرضاه وغضبه المبثوثين في هذا العالم، وهو، أي تحول المادة البديل الكامل، عن الآلهة وعن جميع القوى والأسرار الغيبية.

ولا وجود لأي موجود على نحو آخر، أي من غير أن يكون مادة أو طاقة، بل المادة والطاقة شيء واحد في زيين أو تعبيرين مختلفين. والموجود لا يمكن أن يوجد، كما أن المعدوم لا يمكن أن يعدم، إن ما هو موجود لا يمكن أن يكون معدوماً، وإن ما هو معدوم لا يمكن أن يكون موجوداً. وافتراض إيجاد المعدوم أو إعدام الموجود يساوي افتراض الشيء موجوداً ومعدوماً، أو افتراضه لا موجوداً ولا معدوماً. إنها افتراضات لغوية أو تقليدية أو بلاغية، وليست افتراضات عقلية أو كونية.

ليست البراهين أو الأفكار أو العقائد الخاطئة هي التي تفسد منطق الناس، ولكن حالتهم ومستوياتهم وظروفهم هي التي تصنع منطقهم الفاسد. إن منطق الناس هو حالتهم، وإن أفضل الحجج والأفكار وأقواها لا يستطيع أن يفهمها العاجزون عن الفهم. وفهم الكون ـ أسباباً ونتائج، أو مادة وطاقة ـ فوق المستوى العقلي للإنسان في مستواه العادي. إن البشر لا يستطيعون ـ في غير أفراد منهم زنادقة في عقولهم وزنادقة في مزاجهم النفسي ـ أن يعرفوا كيف توجد الأشياء وتتحرك في ذاتها أو من ذاتها، وتتوافق وتستمر، وتعطي نتائج كأنها ذكية جداً، وأحياناً كأنها غبية جداً.

إن منطق الوجود أو وجود الوجود، أو عدم منطق الوجود هو أكبر من منطق الإنسان، كما أن قوته أكبر من قوته، لهذا فالوجود هو دائماً عملية تحد وإحراج، وتعذيب لمنطق الإنسان ولقوته، والإنسان يواجه هذا التحدي والإحراج والتعذيب شتى المواجهات، وإحدى هذه المواجهات تأليفه للحجج الكثيرة الخاطئة التي يظنها منطقية، أو يحتاج إلى ظنها منطقية، وإصراره على الإيمان بها كأنها أشياء لا حدّ لذكائها وصدقها، وقدرتها على الإقناع، محاولاً بها أن يفهم ما لا يستطيع فهمه، وأن يخفف بها عذاب المواجهة، أو يخدع هذه المواجهة، أي محاولاً أن يفهم بها الكون الذي هو بأخطائه وتناقضاته وعبثه، فوق مستوى عقله ومستوى أخلاقه ومستوى قدرته، والذي لا بد أن يصدم أمانيه واحتياجاته بكل وحشية وغباوة.

إن المسؤول عن أخطاء الإنسان الاعتقادية والفكرية هو الكون المتوحش، وموقف الإنسان

الأليم الذي لا تكافؤ فيه منه. إنه من جهة محكوم عليه أن يحاول فهم الكون لأنه محكوم عليه بالعيش معه والمواجهة له بكل أساليب المواجهة، ومن جهة أخرى هو عاجز عن فهمه لأنه عاجز عن أن يهضمه عقلياً أو أخلاقياً، ولأنه غير متكافىء معه بمستوياته المختلفة.

إنه لم يكن من العدل أو الذكاء أو الرحمة وضع الإنسان أمام الكون كما وضع، لقد حكم عليه بهذا الوضع البائس المتناقض، حكم عليه أن يتوافق عقلياً وأدبياً مع الكون، وحكم عليه أيضاً بالتنافر معه، كما حكم عليه أن يفهمه وأن يناضل ضده، مع الحكم عليه بأن يكون أضعف منه بقدرته وبذكائه، لقد كان المفروض أن يكون الإنسان أذكى وأقوى أو أغبى وأضعف، أو أن يكون الكون أطيب وأسهل.

إن المادة الأولى والفريدة والوحيدة التي صيغت منها جميع البراهين على وجود الخالق، هي فكرة إيجاد الكون والتصرف فيه، ولكن هذه الفكرة تناقضها فكرة أخرى، تلك هي أن إيجاد الأشياء والتصرف فيها عمل من أعمال المادة وحدها. فالمادة لا يفعلها ولا يؤثر فيها إلا المادة، والأعمال التي ترى هادمة أو بانية، والتي تقع دائماً في الوجود، ليست إلا نشاطاً مادياً، نشاطاً مع المادة أو ضد المادة، طرفاه قوى متنافرة أو متوافقة في اتجاهاتها ونتائجها. فأصغر دبوس ملقى على الأرض لا تستطيع جميع الإرادات والرغبات والأفكار أن تنقله من مكانه أو تحركه أقل حركة، ما لم تتدخل وسيلة مادية لنقله وتحريكه. ولكن ضع هذا الدبوس بين أصبعيك فسيلبي طائعاً حتى ولو طلبت منه أن يعصيك.

فإذا رأينا الخالق معنى لا مادة، فالمعاني لا سلطان لها على المادة، لا تهدمها ولا تبنيها بدون تدخل المادة. ولو أن جميع علماء الدنيا الذين تفجرت من بين أنامل عبقرياتهم أنهار المخترعات وقوى الحضارة ـ متعاوناً معهم جميع المهندسين والصناع المهرة في كل أطوار التاريخ ـ أرادوا أن يخلقوا بعلمهم إبرة، أو أصغر منها، أو أن يحركوها دون استعمال أيديهم، أو آلاتهم، ووسائلهم المادية الأخرى، لكانوا كالذين يتضرعون إلى الشمس، ويرفعون إليها صلواتهم، ويعلقون لها التمائم، لكي تتنازل عن سمواتها، هابطة إلى الأرض، لكي تصبح مصباحاً متواضعاً في منزل أحد الطغاة، ليقرأ عليه أكاذيبه ضد الشعوب، والمذاهب، ومدائح عبيده المنافقة له.

إن قوانين الكون قوانين مادية، وهي لا تدين إلا لمثلها، ولا بد مع ذلك من الاتصال المادي بين المادة الفاعلة والمادة المستجيبة. فالقذيفة التي لا تمس الهدف، ولا تلمس الأشياء اللامسة للهدف، والمؤثرة فيه، لن تنال منه مهما كانت قوتها. وكما أنه لا يمكن قتل العدو إلا بوسيلة مادية، فكذلك لا يمكن خلق أي شيء مادي، أو تغييره إلا بوسيلة مادية.

أما إذا رأينا الخالق مادة، وأنه يباشر أعماله مباشرة مادية، كما تباشر المادة المادة فإننا حينئذ

سوف نواجه اعتراضات من نوع آخر، اعتراضات بذيئة وخطيرة، من الصعب والوقاحة تصورها في الإله. إن المسألة تخضع عندئذٍ لقانون النوع والمقدار، والنشاط والخمول، والمجال والتحول ـ تحول المادة إلى طاقة، ونفاد المادة المتحولة جزءاً جزءاً، إن لم يكن هناك تعويض دائم للذات المتحولة، بل وتخضع لقانون الشيخوخة والتهدم. والمادة كلها تخضع لقوانين الشيخوخة والتفكك، والانحلال والنفاد ـ إلى آخر هذه القوانين المادية المعروفة. وهل يمكن أو يستساغ تطبيق هذه القوانين المتوقحة على الخالق؟ لو كان ذلك كذلك لكانت ذات الإله قد ماتت وشاخت أو نفدت بتحولها الدائب منذ ما لا يستطاع تصوره من بلايين الدهور.

إنه ليس في الوجود ما يصنع المادة غير المادة، إنه لا يوجد خالق ليس مادة. فالعلم والمشيئة، والرغبة والأوامر، والدعاء، بل والقوانين، ليست قوى فاعلة بذاتها، أو بإلحاحها، أو بصدقها، وإنما هي مجالات للقوى الفاعلة. لقد كانت شيئاً من السحر تلك المزاعم الكبيرة التي أرهقت أعصاب الإنسان وانتظاره الطويل، تلك المزاعم القائلة بأن الكون مملوء بالقوى الفاعلة بالمشيئة أو بالتراتيل أو بأشباه ذلك.

وإذا كان البرهان القديم على الإيمان قائماً على الاستدلال بالموجودات، فإن هذا البرهان هو نفسه يحتاج إلى برهان، وهو إثبات أن هناك موجودات توجد، أي أن هناك موجدات لا موجودات فقط. إن جميع الأشياء التي أمامنا هي موجودات فهل توجد موجدات؟ إن الإله في رأي المؤمنين موجود فهل هو موجد في رأيهم؟ إذا لم يكن هناك فرق بين الموجود والموجد فإن الله موجد لأنه موجود، والموجد لا يعني إلا المخلوق، وإذن فالله في رأي المؤمنين مخلوق. أما إذا لم يكن الموجود يعني الموجد فالكون موجود ولكنه ليس موجداً أي ليس مخلوقاً. إن الموجودات لا تعني الموجدات، إن أمامنا كوناً موجوداً ولكن كيف ثبت أنه كون موجد؟ وهل في الوجود إيجاد أو اعدام؟ إن طبيعة الوجود في الموجود ذاتية وأزلية، لا يمكن أن توهب ولا أن تسلب، وطبيعة العدم في المعدوم كذلك ذاتية أبدية لا يمكن جعلها وجودية.

وإذا كان الوجود والعدم ذاتيين لا يخلقان أو يستحدثان، كما لا يعدمان، فما هو إذن معنى الخالق، وهل يمكن أن يكون خالق من غير خلق؟ أليس المخلوق هو الخالق في حالة نشاطه، أو في حالة غنائه لنفسه، وتعبيره عنها برقصة من رقصاته الأليمة فوق آلام الآخرين والعبث بهم؟ إن المخلوق هو لغة الخالق وتفسيره.

المخلوق هو ابتسام الخالق لنفسه وبكاؤه إليها، وإذن فما عده المؤمنون برهان إثبات هو في الحقيقة برهان نفي، أو هكذا لا بد أن يراه المخالفون.

إن للمؤمنين دائماً حجتين على الإيمان يرونهما مقنعتين جداً ويرونهما في غاية القوة، هاتان الحجتان هما: وجود الأشياء والتدبير المبثوث فيها.

أما الأولى فقد رأى المؤمنون أن وجود الموجود لا يمكن أن يكون من ذاته، بل هو أبداً موهوب وجوده. ولكن الواقفين على الجانب الآخر من القضية يسألون: كيف تنكرون أن يكون وجود الشيء من ذاته وتؤمنون بأن وجوده من خارج ذاته؟ إن كان ذلك لأنكم لم تشهدوا وجوداً ذاتياً فهل شهدتم وجوداً غيرياً؟ أي هل شهدتم موجوداً وهب موجوداً آخر وجوده أي من العدم؟ إن كل ما شهدتموه هو وجود صور وتغيرات جديدة لأشياء قديمة، فذهبتم تنقلون المشاهدة الجزئية إلى أوهام كلية، لقد وجدتم البيت والكرسي قد صنعتهما قوة أخرى أو موجود آخر فانصب في وهمكم أن كل موجود كذلك، ولم تتوقفوا لتسألوا: لماذا تصرون على أن الكرسي والبيت مثلاً لا يكونان إلا من صنع البشر حيثما كانا، ولكنكم ترون الأشياء التي هي أكبر وأعظم منهما، ترون الشموس والكواكب والجبال والأنهار والنباتات والأزهار الجميلة ثم لا ترون أنها من صنع البشر ولا أي مخلوق غير البشر؟ أليس الفرق هنا راجعاً إلى العادة وحدها، لا إلى التفكير الشامل أو المنطق المطلق أو الاستقراء. لماذا لا يكون البيت في منطقكم من صنع الطبيعة أو الإله كالجبل أو النهر مثلاً؟ إن المشاهدة الجزئية وحدها هي التي تمنعكم من هذا المنطق، والمشاهدة الجزئية لا يصح ولا يمكن أن تكون منطقياً كونياً أو إنسانياً عاماً. إنكم حتماً سترفضون قول من يقول إن الله هو الذي بنى البيت بالأسلوب الذي بنى به الجبل، فلماذا، وما المنطق هنا؟

إن الأشياء هي التي تصنع نفسها، وتغيرها، مؤثرة متأثرة بوحداتها وأجزائها، ونحن البشر وحدات في هذه الطبيعة ومنها، نفعلها وتفعلنا. نحن نصنع السفن، والصواريخ، والمركبات الفضائية، وهي تصنعنا على نحو ما، وكذلك نحن نصنع الملابس، والأرض، والطعام، والمصانع ـ وفي تعبير آخر نؤثر فيها ـ وهي تصنعنا أو تؤثر فينا، فكل ما شهدناه أو علمناه إذن في هذا الكون ليس إلا عمليات من الكون، مع الكون في الكون، بين وحدات تتناقض، وتتجاذب، وتتلاعن، وتتخاصم، وتتضارب، ويعيش بعضها على حساب بعض، ويأكل بعضها بعضاً، في وحشية وفسوق، وحركات عابثة، مجنونة، دائمة، مفروضة على نفسها، تحدث تغييرات مادية ليست على أي قياس لا عقلي ولا أخلاقي ولا مادي. فلماذا نضع وراء أو فوق هذا الخبط العشوائي الأليم الحزين قوة عاقلة أخلاقية؟

إن وضع العقل فوق الجنون، ووضع الأخلاق فوق الفجور إهانة للعقل وللأخلاق.

ومهما أنكرنا وجود الشيء من ذاته، أو عجزنا عن فهمه وتصوره، فهو الشيء الذي رأيناه ونراه دائماً، ولم نر شيئاً سواه، وهو ليس أبعد أو أغرب في المنطق أو أعصى على التصديق والفهم من القول بأن غيره يوجده. فالوجود الغيري افتراض قديم، يكرره من لا يفهمه أو يجده. ولا يوجد ما يصدقه لا في الخيال أو الفكر أو المشاهدة.

إن وجود الشيء إن كان جزءاً منه فلا يحتاج إلى من يوجده، ولا يمكن كذلك إيجاده لأنه موجود وجوداً ذاتياً، وإن لم يكن جزءاً منه فلا يمكن إحداثه لأنه ليس شيئاً. فطبيعة الشيء لا تنقلب من وجودية إلى عدمية أو من عدمية إلى وجودية، لا ينقلب المعدوم موجوداً ولا الموجود معدوماً كما سلف، لا يحدث هذا الانقلاب ذاتياً ولا غيرياً. ولو كان ذلك يحدث لكان حدوثه ذاتياً معقولاً أكثر من حدوثه غيرياً.

إنه لو كان وجود الشيء من ذاته مستحيلاً، لكان وجوده من غيره موقعاً في هذه الاستحالة، وفي استحالات أخرى. إذا كان الشيء لا يوجد نفسه فكيف يوجد غيره، وإذا كان يوجده غيره فكيف لا يوجد نفسه؟ وإذا كان لا يوجد نفسه ولا يوجده غيره سقط معنى الإيمان بالخالقين، وإذا كان يوجد نفسه سقطت الآلهة جميعاً من كل الحسابات الإنسانية.

إن إيجاد الشيء للشيء معناه أن هناك موجودين ووجودين وإيجاداً، وعملية الإيجاد تحتاج أيضاً إلى موجودات ووجودات في ذات عامل الإيجاد وفي ظروفه، لكي يكون ممكناً حدوث ذلك الإيجاد في اللحظة المعينة، وإلا لما حدث، ولا يمكن القول بأن جميع هذه الموجودات والوجودات غيرية، بل لا بد من القول بأنها كلها أو بعضها ذاتي أي وجودها من ذاتها. وإذا انتهينا إلى الاقتناع بالوجود الذاتي أصبح القول بالوجود الغيري لا يعني شيئاً، لقد كان القول بالوجود الغيري ضرورة، وقد بطلت هذه الضرورة بهذا الاقتناع بالوجود الذاتي.

إن القائلين بالوجود الغيري يفرون من محظور عقلي أو تصوري، واحد، ليقعوا في ذلك المحظور نفسه، وفي محظورات أخرى لا عداد لها. إذا كان القول بالذاتية باطلاً فكل شيء باطل لأنه بلا ذاتية لا شيء، فبلا ذاتية لا غيرية، وإذا كان القول بالذاتية معقولاً أو محتوماً لم يبق للقول بالغيرية أي معنى، لأن الذاتية حينئذٍ تغني عن الغيرية بل تبطلها. وإذا وجد شيء من ذاته فإن كل الأشياء توجد من ذاتها أو قد توجد من ذاتها، وإذا لم يوجد شيء من ذاته أو كان مستحيلاً وجوده كذلك، فلن يمكن أن يوجد شيء من غيره، لأنه لا غير حينئذٍ. وعلى الافتراضين لا شيء يخلق شيئاً.

إن برهان الوجود قائم على افتراض العدم، أي عدم الوجود، إننا نذهب نعاني لكي نثبت العدم، ولكي يكون إثبات العدم إثباتاً للوجود. وكيف نستدل على أكبر قضية وجودية بأكبر قضية عدمية أو افتراضية ـ كيف نستدل بالعدم على أكبر موجود أو وجود؟ وهل يمكن أن يكون العدم أو افتراض العدم أكبر موضوع من موضوعات الإثبات العلمي؟ وكيف ينحدر منطق الإنسان إلى إثبات أن الكون كان معدوماً، لكي يثبت بذلك أن الله كان موجوداً، أو أنه لا يزال موجوداً؟ إن الله على هذا التقدير لا يمكن أن يكون موجوداً، إلا إذا ثبت أن الكون كان

معدوماً، فوجود الإله مشروط بعدم الأشياء التي هي الدليل عليه! وأي تصور لأخلاقية هذا الإله العظيم الذي لا يستطيع أن يكون موجوداً وطيباً إلا إذا كان ما سواه غير موجود؟

إن المستدلين ببرهان الوجود لا يقولون:

الكون موجود فالله إذن موجود، أو فالله موجده، بل يقولون: كان الكون معدوماً فالله إذن موجود، أو فالله إذن هو الموجد له. وهذا هو المنطق الذي يراد به الاستدلال على الوجود بالعدم، أي يراد به إثبات أن الكون كان معدوماً لكي يكون المعنى أن الله كان موجوداً. إن مأساة عقل المؤمن أنه لا يستطيع أن يثبت وجود الإله إلا إذا استطاع إثبات عدم الكون.

من هذا الافتراض أو الإيمان تخلقت جميع الآلهة وأجهزتها الباهظة.

ولكن لو أننا أغلقنا جميع حواسنا، وأنكرنا، أو نسينا جميع معارفنا، وتجاربنا، وصممنا على أن نصبح عمياناً، وضالين جداً، ومعادين لكل ذكاء، ومنطق، وكرامة عقلية، فهل يمكن أن ننتهي إلى الإيمان بمثل هذا المنطق، إلى الإيمان بأن وجوداً ما لم يكن وجوداً إلا لأن وجوداً آخر كان عدماً، وأن موجوداً ما لن يكون موجوداً لو كان موجوداً آخر كان موجوداً. ولو كان العدم يتحول إلى وجود، لوجب أن يتحول كل عدم إلى وجود، لأنه لا فرق بين عدم وعدم، لا فرق بين عدم هذا الإنسان العبقري الذي تحول إلى وجود، وبين عدم ذلك العبقري أي احتمال ذلك العبقري الذي لم يتحول إلى وجود، فلماذا وجد هذا العبقري ولم يوجد ذلك العبقري المحتمل، ولماذا وجد هذا النهر ولم يوجد ذلك النهر المحتمل أو المفترض إذا كان العدم يتحول وجوداً؟

وكذلك لو كان الوجود ـ أي وجود ـ يتحول إلى عدم لوجب أن يتحول كل وجود إلى عدم، لأنه لا فرق بين وجود ووجود.

*

وأما الحجة الثانية على وجود الإله الطيب الكامل، في محبته وعبقريته، وصداقته للإنسان والحشرات، ولكل شيء، وهي وجود القصد والتدبير في الكون والحياة، وكل الأشياء، فالآخرون يتعجبون جداً، ويقولون كيف يمكن أن يوجد من يظن أي ظن بأن في هذا الوجود أية علامة من علامات القصد والتدبير، بل أو الأخلاقية، بل يرون أن كل شيء فيه ينافي بعنف جميع الاحتمالات لوجود أي أسلوب وأي مستوى من أساليب ومستويات التدبير أو القصد.

والفاعل المطلق أو الفاعل لكل شيء أو الفاعل الأول، أي الفاعل بادئاً قبل أن يوجد شيء، لا يمكن أن يكون مدبراً، إذ على أي قياس أو مثال حينئذٍ يدبر؟

إن وجود التدبير معناه وجود مدبر ومدبر له أو من أجله ومكان تدبير، ثم وجود ضرورة، أو

حاجة، وغاية، من وراء هذا، تحكم على المدبر بأن يريد ثم يفعل، إذن التدبير لا يكون بلا حاجة وضرورة وافتقار. وهل تخضع الألوهية لأي معنى من معاني الافتقار والاحتياج والاضطرار؟ فالقول بالتدبير أو القصد هدم للإله وهجاءٌ له. إن الشعور بالحاجة إلى التدبير حالة إنسانية نقلها البشر من ظروفهم الخاصة، وجعلوها معنى كونياً عاماً. إن مهندس السيارة مثلاً ـ وكذا صانعها ـ لو لم يكن في نفسه أو حياته معنى الحاجة والضرورة، بل والخوف من شيء، والرغبة في شيء، لما دبر وفكر في خطة صنعها وتجهيزها بجميع ما فيها من آلات وزينة، ووسائل للراحة والأمان، فالتدبير معنى من معاني الضعف، وهو معنى ينافي كل معاني الألوهية وصفاتها. ففكرة القصد التي جعلت دليلاً على وجود الإله ورحمته، هي فكرة تهدمه وتشتمه.

إن المعنى الأول للتدبير هو وجود توافق أو تلاؤم تام بين المدبر له أو من أجله، وبين مكان التدبير أو موضوعه، وبين الغاية أو الفكرة الموجودة في ذات أو في نفس صانع التدبير في الظروف المناسبة بلا زيادة أو نقصان، وفي أوقات وأساليب مضبوطة ملائمة من حيث الزمان والمكان. وإذا تخلف شيء من هذا لم يكن هناك تدبير أو كان التدبير تدبيراً عاجزاً أو جاهلاً، فهل الكون الذي هو مكان التدبير ومادته ولغته محكوم بهذا التدبير؟ هل كل ما فيه ـ بل هل شيء مما فيه ـ متوافق مع الضرورة والحاجة والحكمة المقصودة بلا إسراف أو بخل أو خطأ أو غباوة؟ هل هو مصنوع طبق احتياجاتنا وضروراتنا بالأسلوب الذي صنع به مثلاً مقعد السيارة أو صنعت به عجلاتها لتؤدي الأغراض المطلوبة، أو طبق احتياجات الذباب، أو الصرصار، أو أية حشرة من الحشرات، أو طبق احتياجاتنا الإله نفسه؟ إن الكون لم يصنع على وفاق احتياجاتنا، أو احتياجاتنا أي كائن فيه من الكائنات الحيوانية، أو النباتية ـ فإنه أي الكون يناقضها، ويدمرها، ويعذبها، ويقتلها، ويحرمها من أكثر احتياجاتها ولذاتها، ويخلقها بلا نظام، وبلا رؤية لمصلحتها. حتى الإله نفسه لم يجد في الكون أو في الناس ما يلائمه ملاءمة تامة، أو ملاءمة جزئية، لهذا فكم يغضب ويهدد ويعاقب، ويعلم وينصح، ويعني نفسه بإرسال المعلمين والرسل، والنذر، وينزل الكتب، لعله يجد ما يرضيه ويلائمه. ولكنه في ثورة باهظة دائمة ضد البشر وكل شيء، إنه دائم الثورات والانقلابات، لأنه يعاني ويتعذب دائماً مما يجد ويرى. وقد ادخر للإنسان المسكين العاصي أكبر ثوراته وانقلاباته التي سيعذب بها البشر والعالم كله .شموسه، ونجومه، وأرضه، وكل مخلوقاته، وذلك بإقامته يوم القيامة وتدمير كل شيء تعبيراً عن نهاية غضبه أو نهاية صبره وحلمه.

وليس في الطبيعة ولا في الناس ما هو ملائم لمشيئة الإله، وهذا هو التفسير لقتل الإله وتدميره وتغييره الدائم للأحياء وللأشياء، وهذا ما يعنيه أيضاً إرساله الرسل والدعاة، ليخوفوا

ويعلموا ويبكوا في الطرقات المزدحمة بالدموع والآلام، والحشرات، أو المزدحمة بالقهقهات التافهة أو بالمسرات المنتهية بالأحزان والموت والمآسي.

إن الكون لم يصنع ليكون مريحاً أو ملائماً لنا أو لغيرنا، إنه لم يعد كما تعد المائدة أو البيت الحضاري، لقد صنع ملائماً للذباب ولكل أصناف الحشرات المعادية لحياتنا ولراحتنا، أكثر مما صنع ملائماً لنا. لقد جئنا إليه غرباء ومتنافرين معه، ثم ذهبنا نحاول ـ بمساعدة ظروفنا، وإمكانياتنا، وتجاربنا، وضروراتنا الغالية الثمن ـ أن نوجد شيئاً من هذا التلاؤم القليل أو الكثير الذي صنعناه بدموعنا وآلامنا.

لقد حكم علينا ـ لأننا قد جئنا ـ بأن نحاول التلاؤم مع أوقح الأشياء وأكثرها بذاءة وتحقيراً لنا، لقد حكم علينا ـ لأننا قد جئنا ـ بالتلاؤم مع كل الظلم والعبث، والألم والأمراض، والتفاهات والنقائص، ومع الحروب والعداوات والأحقاد، مع أن نَشتم ونُشتم ونعيب ونعاب، ونعيش الجحيم والطاغية والدمامات، ونبتسم لها بل ونصلي لها، ونمتدحها في المعابد.

لقد تلاءمنا مع التنازل عن الكرامة والشرف والحرية، بل ومع الهتاف للقتلة والأغبياء واللصوص، وتحويلهم إلى أبطال وأنبياء!

لعل أكثر ما نراه مجداً أو شرفاً أو كرامة، أو عزة أو سعادة أو لذة، أو ذكاءً أو عقلاً، أو انتصاراً أو قوة ـ لعل أكثر ذلك هو عكس ما نظن، ونزعم، ولكننا بالتلاؤم، أو بالبحث عن التلاؤم، أو بقانون التلاؤم، قد حولناه إلى النقيض، وفسرناه بالنقيض.

لعل الحياة بكل أساليبها وضروراتها وتعبيراتها وبكل مستوياتها حقارة وعار وهوان وافتضاح، ولكن التلاؤم جعلها شيئاً آخر، أو جعلنا نراها شيئاً آخر. إنه بهذا القانون ـ قانون التلاؤم ـ ستصبح الجحيم المعدة لعقاب الزنادقة شيئاً سهلاً أو مستساغاً، بل شيئاً طيباً جداً، وسيرفض الذين يتلاءمون معها وفيها، الخروج منها لو عرض عليهم هذا الخروج، أو استطاعوا الهرب، كما يرفض أشد الناس عذاباً وهواناً ودمامة في هذه الحياة مفارقتها بعد ممارستها، والتلاؤم بها، والوقوع في حبها.

إن الحياة بظروفها وضروراتها مجتمعة ومتفرقة غير ملائمة لنا، بل هي بعيدة جداً عن أن تكون كذلك، ولكننا قد تلاءمنا معها، ونبحث عن التلاؤم معها، لأنه لا مفر من هذا، فهي ـ أي الحياة ـ تسحقنا وتتحدانا، وتصنع كل ما يناقضنا، ويهبنا العذاب والحقارة، والاشمئزاز والبكاء، ومع هذا عشناها ونعيشها، وكأننا معها في أسعد زفاف، أو كأنها قد جاءت تفسيراً كاملاً أميناً لإرادتنا، واحتياجاتنا، بل ولاقتراحات واشتراطات تقدمنا بها إليها. وكان هذا هو الطريق إلى الوهم الكبير وهو القول بالتدبير.

نحن نصنع التوافق بين وجودنا وبين حماقات هذا الوجود بالأسلوب الذي تصنع به السابلة

طريقها والنهر مجراه، أي بأعمال الحفر والإزالة، والسير فوق الآلام والجثث، والعفونات والدمامات، وفي الظلام، وبالبحث عن الملائم، وجعل غير الملائم ملائماً، والعمل معه بلا تلاؤم وكأنه ملائم.

إنه لا يمكن أن يكون في العالم تدبير، وكيف يمكن أن يكون فيه تدبير وهو نفسه ليس تدبيراً؟ إذا كان هذا قد خلق من أجل ذاك فذاك خلق من أجل ماذا، أو فهذا وذاك خلقا من أجل ماذا؟ أو إذا كان ذاك قد صنع ليكون ملائماً لهذا، فهذا صنع ليكون ملائماً لماذا؟ أو فهذا وذاك صنعا ليكونا ملائمين لماذا؟ إذا كان الكون قد خلق ودبر ليكون ملائماً للإنسان فالإنسان خلق ليكون ملائماً لماذا؟ أو فالكون والإنسان خلقا ليكونا ملائمين لماذا؟ هل يمكن أن تكون غرف البيت قد بنيت لتؤدي غرضاً ما بينما البيت كله لا يؤدي أي غرض؟ فماذا يمكن أن يكون التدبير وراء خلق الكون بكل وحداته وبشره وأحيائه وسائر حشراته؟

لقد أعطت الطبيعة أو جاءت بقدر ما تستطيع لا بقدر ما يراد منها، وجاءت أعمالها على نحو آلي لا تقدير ولا تدبير فيه، ولم تجيء على نحو مدبر أو مفكر فيه، إنها لم تجيء لتتجنب السير فوق جثثنا، أو لتتجنب رؤية دموعنا رحمة أو صداقة أو كبرياء، ولم تجيء لأننا نفهمها أو طبق فهمنا، بل جاءت بأسلوبها هي، مناقضة لذكائنا وتفاسيرنا، فذهبنا نحاول أن نفهمها ونخضع فهمنا لها. ولقد جئنا فوجدناها غبية شريرة ولم نستطع أن نجعلها ذكية فاضلة، فرحنا نركع ونذل له، ونتساقط بلا وقار أو إباء تحت أقدام تفاهاتها، وضغوطها، وفروضها علينا، ولم تجئ لأننا عرفناها واحترمناها، واقتنعنا بها. لقد فرض علينا ما لا معنى له فحاولنا أن نجعل له معنى، أو فاعتقدنا أن له معنى.

يقول المؤمنون ـ والمفروض أنهم مقتنعون ـ : إن الكون محكوم بالنظام على أدق وأذكى الأساليب والاحتمالات. ولعل الاقتناع بالنظام الكوني من المعتقدات التي يعد الاختلاف عليها أو الشك فيها من أول ما يرفضه العقل المؤمن، بل ويجفل من مناقشته أو التفكير فيه كموضوع يحتمل الشيء ونقيضه.

ما هو النظام؟ إنها كلمة، وقد تبقى دائماً كلمة فقط مثل أكثر الكلمات الضخمة التي تنطق بحماس وجهر دون أن يبحث لها عن تفسير، ودون أن يكون لها أي تفسير.

ولعل الناس لا يبحثون عن أي تفاسير لكلماتهم وشعاراتهم، ولا يريدون أن تكون لها هذه التفاسير، بل لعلهم يرفضون أن تكون لها، ولعلهم لو وجدوا لها ـ أي لكلماتهم وشعاراتهم ـ تفاسير لرفضوها وعجزوا عن الحماس لها والإيمان بها. إن معاني الكلمات والشعارات قتل لها وقيود عليها، وإبطال للسحر القوي فيها، والناس لا يريدون أن تقتل كلماتهم وشعاراتهم، وتوضع عليها القيود، ويبطل سحرها، بأن تكون لها تفاسير، ومعان محددة مفهومة. بل لعل

الناس لو فهموا كلماتهم ومذاهبهم التي تحركهم، وتخلق فيهم النشاط والنشوة، لقتلوا أنفسهم ووضعوا على خيالهم وحياتهم القيود، وفقدوا السحر الغامض القوي الذي يعيش فيهم، ويعيشون فيه. إذن هم لا يريدون أن يفهموا كلماتهم أو الكلمات التي تقال لهم، وأعداؤهم هم الذين يحاولون أن يفهموهم تفاسير ما يقال لهم، أو ما يقولون من شعارات وتعاليم ومذاهب، بصدق وأمانة وذكاء. وإذن هم لا يريدون أن يفهموا لكلمة نظام أي تفسير، ولا يريدون من يبحثون لهم عن هذا التفسير، بل يريدون أن ينطقوا به، وأن يعتقدوا أنه مفهوم وواضح إلى المدى الذي يجعلهم غير محتاجين إلى فهمه. ولعل أكثر الكلمات وضوحاً في السوق هي التي لا يمكن فهمها، أو هي التي لا معنى لها لتفهم!

وليس الإنسان أكثر حاجة إلى فهم ما يقول ويقال له من الطير والحيوان، وليس الحيوان أو الطير أكثر حاجة إلى الحداء من الإنسان. إن الحداء أقوى من المنطق.

إن كلمة نظام كلمة إنسانية، تعبر عن لغة، أو أفكار، أو أغراض، أو احتياجات إنسانية ـ وليست كلمة نظام لغة كونية، أو قانوناً كونياً، أو ضرورة كونية. والناس الذين استحدثوا هذا التعبير، أو هذه اللغة، لا يريدون بها إلا التوافق بين شيئين: سابق ولاحق، أو بين فكرة سابقة معينة، وعمل معين لاحق.

إن معنى النظام عند الناس وفي تفكيرهم وضروراتهم، أن تكون أعمالهم متوافقة مع أفكارهم أو قوانينهم أو عقائدهم السابقة المسلمة، أو مع مصالحهم واحتياجاتهم، فهو ـ أي النظام ـ لا يكون إلا ارتباطاً بمعان ماضية، وهذه المعاني الماضية التي يعد التقيد بها نظاماً، إنما كان الغرض منها أن يكون كل شيء نعمله أو يتصل بنا، ذا فائدة متحددة بالمستفيد منها المقصود بها. فإذا لم تكن هذه الفائدة أو كانت ولكن على نحو آخر غير مضبوط، لم يمكن أن يوصف ذلك الحدث أو العمل بأنه منظم.

فهل الكون بهذا التفسير منظم، أو حتى فيه أي احتمال من احتمالات النظام؟ ما هي الفكرة السابقة التي جاء الكون على نموذجها فاستحق أن يوصف بالتنظيم، وما هي الأغراض أو الفوائد المحددة التي استحدث من أجلها فحققها؟

أما عن الأول فلا أفكار سابقة عن الوجود، وأفكارنا عنه كلها مأخوذة منه ثم محكوم بها عليه، وليس هو مأخوذاً عنها أو منها.

وأما عن الثاني فقبل تصوره والحكم عليه، يجب أن نفترض أن الإنسان هو موضوع الفائدة المبحوث عنها، لأن الإنسان فيما يقال هو قيصر هذا الكون، وعرسه، وعشقه السماوي، وموضوع ذكائه واهتماماته وأخلاقه. فالكون على هذا التفسير إذا لم يجيء خادماً مخلصاً للإنسان، إذا لم يكن صلاة أبدية تحت قدميه، وبحثاً دائماً عن شهواته وحماقاته، ليكون التلبية

المخلصة لها، فهو كون فاسق زنديق عابث، مهما صنع من الشموس والمجرات، والصراصير والبعوض، والفئران الملائمة جداً لصحة الإنسان، ونظافته، وعشقه للجمال، ولإعجابه بأربابه الطيبين، ورضاه عنهم ـ كما يجب افتراض وحدات هذا الكون هي أدوات هذه الفائدة.

إن حياة الإنسان واحتياجاته هي المقياس للحكم على الكون، فالكون بيت كبير قد أقيم وجهز وأثث، ليكون سكناً مثالياً للإنسان، يمنحه الراحة والنوم، ويحميه من الألم والجوع، والخوف والمرض، وكل المؤذيات والمكدرات، بقدر ما يريد ويحتاج، حتى الشمس والكواكب ليست سوى أدوات زينة وإضاءة في هذا المنزل الذي أشرف الإله بكل موهبته وأخلاقه على إبداعه ليكون السكن الإنساني الدائم. فهل جاء الكون طبق هذه الفكرة؟

هل جاء الكون يحمل أية صداقة للإنسان؟

هل كل ما في الكون مفيد.

وهل كله مفيد للإنسان الذي هو منطق وجوده؟

وهل الفائدة بقدر الحاجة بلا زيادة أو نقص وبلا ضرر على أي نحو من الأنحاء؟

وهل هذا الأسلوب الذي جاء به هو أفضل الأساليب التي يمكن أو يستطيع أن يلجأ إليها الخالق الأعظم لرعاية وخدمة وتدليل ابن ذكائه وأخلاقه، وابن رحمته الإنسان المقصود بكل تصرفاته الحكيمة؟

لقد كان الإنسان هو المعرض المختار لعبقرية الإله وحبه، وكان الكون هو مكان هذا المعرض، والهدية العظيمة المقدمة بعناية وذكاء إلى هذا الإنسان، الذي اختير ليكون العارض لحب الإله وعبقريته. فهل جاء الإنسان والكون ملائمين لما أريد بهما ومنهما؟

وهل جاء الكون نموذجاً لإرادة واحتياج من صنع هدية له؟

لننظر إلى أضخم الأشياء حولنا وأقربها إلى أن تكون معقولة في معانيها وتفاسيرها الإنسانية ولنحولها إلى أسئلة بهذا الأسلوب:

إذا كانت الأرض قد خلقت ليعيش عليها الإنسان ـ الابن الأعظم لموهبة الإله وعاطفة الحب فيه، فلماذا خلقت إذن سائر وحدات المجموعة الشمسية، بل لماذا خلقت سائر المجاميع الكونية الأخرى التي لا يعيش عليها الإنسان ولا يراها أو يعرفها؟

وإذا كانت الشمس قد خلقت وخلقت نوراً لتهب الأرض الحياة والنور تحية للإنسان لأنه يعيش عليها قيل: فما أعجبه من منطق، إن ما يصل إلى الأرض من خيرات الشمس وعطاياها الكبيرة شيء ضئيل جداً، شيء كأنما أفلت منها إفلاتاً بلا قصد أو علم وهي توزع نفسها وعنايتها على أماكن أخرى وعلى أصدقاء مقصودين محظوظين آخرين. إن الشمس كلها تضيع

في الفضاء وفي الأكوان الأخرى غير المسكونة بالإنسان، بل وغير المسكونة ـ فيما يظن ـ بأية كائنات عاقلة أخرى حيث تذهب ضياعاً وفي صمت بليد. فما أروعها من عبقرية صناعية وهندسية واقتصادية بل وأخلاقية، هذه العبقرية التي تصنع الشمس وتديرها وتوزعها، إذا كان الغرض هو إضاءة الأرض ـ كم هو رائع أن يكون حجم المصباح الذي يضيء البيت يفوق حجم البيت مليوناً وربع المليون مرة وأن تفصل بين البيت والمصباح مسافة تساوي ٩٣ مليون ميل!

وإذا كانت الحيوانات والنباتات قد خلقت لطعام الإنسان ولخدمته، فلماذا خلقت إذن الحشرات والحيوانات الضائعة الضارة، وكل ما لا فائدة فيه وله؟

وإذا كانت الحياة قد وجدت لغرض كبير، وهو أن يوجد ويسعد هذا الكائن الممتاز، الذي هو الإنسان، فلماذا وجدت إذن الجراثيم القاتلة له؟ كيف يكون إيجاد الشيء وإيجاد قاتله يعني معنى واحداً في منطق الإله أو في أي منطق؟

هل يمكن أن تخلق النبات لأنك تحترم الحياة، ثم تخلق الحشرة القاتلة للنبات لأنك أيضاً تحترم الحياة، بل ثم تقتل الحياة في النبات والحشرة لأنك تحترم الحياة؟

إنه حتماً يشاهد ما يشبه الضبط في المواعيد والحركات والقوانين المنبثة أو الضائعة في هذا الكون، ولكن هذا الضبط يعني الخضوع للآلية والقصور الذاتي، ولا يعني النظام لأن النظام ليس آلية بل حرية، والحرية تنافي الآلية. وهذا الضبط يصنع الضرر، بالأسلوب أو بالحافز الذي يصنع به الفائدة، والنظام يعني البحث عن الفائدة والمصلحة، لا الخضوع للآلية التي يتساوى عندها الشيء ونقيضه. إن الآلية لا يمكن أن تعد نظاماً، إن الحجر أكثر آلية من الإنسان فهل هو أكثر نظاماً منه؟ ولو أن أي إنسان خضع للآلية التي يخضع لها الفيضان والزلزال والمرض لعد خارجاً على كل نظام.

فالآلية لا يمكن أن تكون تفسيراً للإله ولا للإنسان ولا للنظام، بل هي نقيض ذلك، والكون خاضع للآلية، إذن لا يمكن أن يكون ـ أي الكون ـ تفسيراً لوجود الإله أو لصفاته وعقله، كما أن الإنسان لن يكون إلا خروجاً على سلوك الكون. والحضارة الإنسانية في جميع مستوياتها ليست إلا مقاومة للآلية الكونية ـ إن الكون هو أقوى لغات الرفض للإله، كما إنه هو الخصم الدائم للإنسان.

ومع هذا فلو كان كل ما في هذه العوالم سائراً في طريق رغبات الإنسان واحتياجاته لوقف هذا السؤال الضخم العنيف أمام كل إنسان يتحداه ويفسد عليه رضاه عن معتقداته وأفكاره وأربابه وعن كونه الطيب: وما الفائدة أو ما الحكمة في توظيف كل اهتمامات الإله ومواهبه، وكل نواميس الكون والقوى في هذا الكون لإيجاد هذا المخلوق الذي هو الإنسان؟

إن كان هذا المخلوق قد وجد لخدمة خالقه فهو لن يخدمه، وخالقه يعلم أنه لن يخدمه، ثم أي عدل أو أخلاقية في أن تخلق شيئاً لتحكم عليه بأن يكون عبداً ذليلاً خادماً لك، لا خيار له في أن يكون غير ذلك، ولا في أن يرفض ويصبح حراً خارجاً عليك أو مفارقاً لك؟

أما إن كان قد وجد ليسعد، حباً له ورحمة به، فهو لن يسعد.

وأي ذكاء في أن توجد كائناً غير موجود لكي تجعله محتاجاً إلى السعادة، لكي تبحث له أو يبحث لنفسه عن السعادة التي حكم عليه بأن يكون محتاجاً إليها معذباً بفقدها؟

إن البحث عن السعادة محتوم ومعقول أن يكون نتيجة لكون الشيء قد وجد، ولكن كيف يكون البحث له عن السعادة سبباً لوجوده أو لإيجاده؟

كيف توجد الشيء لكي تهبه السعادة التي تجعله محروماً منها؟

أو كيف توجد المرض أو تمرض السليم لكي تعالجه، وتوجد العاري أو الجائع لكي تكسوه أو تشبعه؟

إنه معقول أن تعالج الحالة الموجودة، ولكن لا يكون معقولاً إيجاد الحالة الأليمة لكي تعالجها. فالكائن الموجود معقول إعطاؤه احتياجاته، ولا يمكن أن يكون معقولاً إيجاده لكي يعطى احتياجاته. فلا يعقل إذن إيجاد الإنسان لكي يكون سعيداً، ولكن المعقول أن يبحث عن السعادة حينما يحكم عليه بالوجود.

وهل الغنى والكمال المطلقان يتلاقيان مع الرغبة في استخدام الآخرين وفي البحث عن الظفر بثنائهم وعبادتهم؟

إن أشد الناس رغبة في أن يمدحوا أو يخضع لهم الآخرون هم الضعفاء والفاسدون والمنحرفون والأطفال، فالكمال المطلق ترفع واستغناء مطلق، حتى عن الامتداح والعبادة. فهل في وجود هذا المخلوق أو في وجود العالم وفق رضاه وهواه، شيء يشبه النظام الذي يمكن أن ترفع نسبته بافتخار إلى القدرة المطلقة في كمالاتها؟

إن الإنسان لو فرض كوناً لكان كوناً لا نظام فيه، فكيف إذن يصدق الزعم القائل: إن إيجاده ـ أي الإنسان ـ بظروفه الحادة، وضروراته ونقائصه، وهمومه وأخلاقه المتكلفة الأليمة، آية من آيات النظام العبقري الذي تؤهله عبقريته لأن تجعل منه برهاناً تتدارسه جميع العقول في جميع العصور على وجود الإله الكامل في جميع صفاته؟

إن أكثر الناس تواضعاً وعجزاً ليرفض باشمئزاز وغضب وكبرياء أن يكون له خادم مثل خادم الله هذا، أي مثل الإنسان، إذا كان سيعطيه ويخلص له ويحبه ويفهم أوامره مثلما يفعل مع الله الإنسان الذي رفعه الإعجاب به إلى أن يجعل الكون كله يزحف تحت قدميه بمذلة؟

ما هي أسباب الإغراء أو الإغواء في هذا الإنسان؟

ما هي قوته أو مزيته التي جعلت الإله الكبير الوقور يفقد اتزانه تحت تأثيرها، فيقتحم الأهوال والمتاعب، والعبث الأليم، ويصنع هذه المأساة الكونية، متحملاً تبعاتها وهمومها من أجل الإنسان؟

هل القصة تعني أن الإله قد عشقه فخلقه، وخلق كل شيء من أجله، أم تعني أنه خلقه فعشقه؟

على الأول كيف يعشق شيئاً قبل أن يوجد فيراه، ويرى مفاتنه ويصاب بحبه؟

وعلى الثاني كيف تكون النتيجة قبل السبب، أي كيف يخلقه قبل أن يعشقه ليعشقه؟ ولماذا خلقه قبل أن يكون هناك حب ليكون سبباً للخلق؟

وكيف يمكن خلق هذا العالم كله من أجل عشق ما مهما كان العاشق ومهما كان المعشوق؟

وهل يصلح هذا العالم أن يكون هدية معقولة أو محترمة لتقدم إلى عشيق ما مهما كانت رذائله وتواضعه؟

لقد نزلت الأخلاق والتعاليم العنيفة المعاقبة ضد من يعشقون، وضد من يرشون، فكيف إذن تعشق الآلهة كل هذا العشق العنيف؟ وترشو بكل هذه الرشوة الكبيرة التي هي كل الكون بكل ما فيه من فئران وعفونات، وأحزان وشموس، ومحيطات لا تعني شيئاً مفهوماً؟

وماذا في الإنسان خلب لبَّ الإله العظيم الوقار؟

أأخلاقه؟

أعلمه؟

أقوته؟

أجماله؟

أخلوده؟

أبذاءاته؟

أحروبه وخصوماته وأحقاده؟

أم خروجه عليه وعلى تعاليمه ورسله وكتبه المنزلة التي ذهبت بلا ثمن؟

كيف استهوى الإنسان الإله حتى وجد فيه لعبته الكبرى وعشقه المذل؟

وكيف خدعه هذا الكون الفاحش المتوحش حتى وجده صالحاً ليكون هدية مختارة لحبيبه الإنسان؟

وإذا كان الله يريد لنفسه سروراً، ويريد أن يخلق شيئاً يلهو به، ويصنع له هذا السرور، أفلا يستطيع أن يفعل ما هو أفضل من ذلك؟

إن أحدنا لو أراد أن يختار لنفسه وسيلة سرور أو لهو أو محبة، وكان مطلق القدرة والكمال. لما كان محتملاً أن يختار مثل اختيار الإله لنفسه، ولكان محتوماً أن تكون لعبته المفضلة أعظم جداً من لعبة الإله التي هي الإنسان. واختياره للإنسان بالمستوى أو بالصيغة التي اختاره بها، إما لأنه لا يستطيع غير ذلك، أو لأنه لا يريد غيره، والذي لا يستطيع أو لا يريد أن يخلق ابنه العقلي والروحي والأخلاقي خيراً من الإنسان، لا يمكن الاقتناع بأنه فاضل على أي مستوى من المستويات، أو قادر على مستوى أي إله من الآلهة.

والذين يتصورون الكون مخلوقاً ومرصوداً لفائدتهم فقط، وأنه لهذا رائع النظام - لأنهم يجدون فيه أحياناً ما ينفعهم ويرضيهم، ويتلاءم مع بعض احتياجاتهم وجوعهم - يشبهون الحشرات النباتية حينما تتصور هذا التصور لنفسها، مقتنعة وزاعمة أن كل النبات الموجود في الأرض إنما خلق وزرع من أجلها، وأن الكون من أجل هذا منظم، قد نظمه أعظم إله.

أو يشبهون الحيوان المفترس حينما يأكل الحيوانات الضعيفة، ثم يزعم أنها قد خلقت لتكون طعاماً له، وأن الكون لهذا رحيم يستحق أن يعبد، بل ثم يخرج منه أفراد يدعون أنهم أنبياء أرسلهم الإله الرحيم الطيب الذي خلق الحيوانات الضعيفة لتكون طعاماً للحيوان المفترس. وقد تنزل عليهم حينئذٍ الكتب المقدسة كما نزلت على أنبياء البشر.

أو يشبهون الحاكم الطاغية أو اللص الاجتماعي الكبير حينما يجد مجتمعاً ضعيفاً غبياً يستسلم للطغاة واللصوص ليسرقوه ويسحقوه ويضلوه، فيتصور، أي ذلك الطاغية أو لص المجتمع - أن الكون جميل ومنظم، بل وأن الإله جميل ورحيم وعادل، لأنه قد شاء له أن يطغى ويظلم، ويقتل ويسرق، وأنه يوجد تقدير وتدبير، لا أفضل ولا أذكى منهما، يهيئان له ما يريد ويسوقان كل شيء لمصلحته.

إنه ما من فوضى، أو جهل، أو فساد، أو ألم أو أي شيء، إلا وفيه فائدة أو ملاءمة لشيء ما على صورة من الصور.

إن الشمس تلائم الإنسان، وتلائم الحشرات التي هي عدوة الإنسان، فهل خلقت الشمس لتلائم الشيء ونقيضه، أي لتلائم الشيء ولتكون أيضاً ضده؟

هل من التدبير أن تقصد إيجاد المرض والشفاء منه في حالة واحدة، وفكرة واحدة، ولغرض واحد؟

إنه لو جاء الكون على أي وضع من الأوضاع ـ لو جاء مخالفاً لما جاء عليه، لوجدنا فيه كل النظام، والروعة التي نجدها فيه اليوم، والتي وجدها فيه آباؤنا من قبل فحولوها إلى أشعار وصلوات، وأنبياء وكتب موحى بها، وأصابهم الصعق والانبهار، والإغماء العقلي والاعتقادي، من الإعجاب بالحكمة المتبرجة وراء كل ألم وعبث، وظلم وغباء، وجهل وموت يعيشه الكون.

إنه لا توجد حدود عقلية أو غير عقلية تفصل بين الملائم وغيره، لقد ظل البشر في كل التاريخ، وفي أكثر المجتمعات يرون في أشنع الآلام والمظالم والتفاهات كل ما يتمنون ويتخيلون من ملاءمة.

لقد وجد البشر ملاءمة في الأمراض والفقر والجوع والطغاة، وفي أبلد النظم والعقائد والأرباب، وفي جميع ما يضلهم ويقتلهم ويهبهم المذلة، ولشدة اقتناعهم بالتلاؤم مع كل ذلك حولوه إلى إيمان وعبادات.

إن التلاؤم أو الشعور به هو دائماً حاجة وليس حقيقة.

هل مما يلائمنا أن نوجد لنحيا، ونتعذب، ونمرض، ونشيخ، ونموت، ويتعاقب على إذلالنا وقهرنا وتجهيلنا الجبارون والمعلمون والوعاظ الجهلاء؟

أو هل مما يلائمنا أن نخلق خاضعين للخوف والأوهام، والجوع والجنس، والتناسل والغضب، والحقد والحسد، والحب والبغضاء، وكل الانفعالات الغبراء المتناقضة.

أو أن نجيء في هذه الصورة وهذا التركيب وهذه الخصائص وهذا الضعف وفي نفس المكان.

أو أن يخلقنا الإله لكي نطيعه فلا نطيعه، بل نعصيه ونعجز عن عبادته، فيغضب علينا ويفتح لنا كل أبواب ومنافذ الجحيم؟

أليس الملائم لنا حتماً ألا يخلقنا، أو إذا خلقنا أن يجعلنا قادرين على الإيمان به وعلى عبادته، وعلى الاستقامة النفسية والأخلاقية.

أو إذا جعلنا عاجزين عن ذلك أن يفقد كل مشاعر الغضب والرغبة في الانتقام وفي خلق الجحيم وملئه بالناس، الذين لا يستطيعون أن يكونوا أفضل أو أردأ من خالقهم؟

وإذا كان الإله الطيب لم يرد من خلقه للكون إلا أن يخلق شيئاً ملائماً لنا فهل بحث عما يلائمه هو وصنع هذا الملائم له؟

هل جئنا نحن في إيماننا وسلوكنا ملائمين له؟

إننا حتماً لسنا ملائمين لمشيئة الإله وشهوته، كما أنه هو ليس ملائماً لنا، إن فقد التلاؤم بيننا وبينه آت منا ومنه، إنه ليس خارجاً على التلاؤم معنا أكثر من خروجنا نحن على التلاؤم معه، ونحن لا نعاني من فقدان التلاؤم أكثر مما يعاني هو.

إن الإله يريد منا دائماً غير ما نحن، ونحن نريد منه دائماً غير ما هو، فلم يحدث ما أردنا ولم يحدث ما أراد. فما أعجب إلهاً يصنع لعبيده ما يلائمهم، ثم لا يصنع عبيده ملائمين له، أو يريد لعبيده الملاءمة التي لا يريدها لنفسه، أو يحققها لهم، ثم لا يحققها لنفسه!

*

وقد تكلم الناس كثيراً عن الصدفة مؤكدين أنها لا يمكن أن تصنع عملاً صحيحاً مفهوماً. قالوا، لو أننا ظللنا أبداً نلقي بحروف الطباعة كيفما اتفق لما أمكن أن يخرج من ذلك صفحة واحدة يمكن أن تقرأ وتفهم وتؤدي معنى من المعاني، قالوا: ولو أننا كتبنا الأرقام من واحد إلى عشرة مثلاً على عشر بطاقات ثم خلطناها، ثم رحنا نلقي بها بعد خلطها بلا قراءة لها أو قصد، لما كان هناك أي احتمال في أن تتدخل الصدفة لتجعلها متتابعة من واحد إلى عشرة أو من عشرة إلى واحد.

وهل يمكن أن نلقي بمواد البناء إلقاء لتجعل الصدفة من هذا الإلقاء بيتاً حديثاً كاملاً بغرفه ومداخله وأبوابه ونوافذه وكل ما يحتاج إليه مثلما يفعل أعظم مهندس معماري؟

ويمكن الإكثار من سرد الأمثلة الأخرى الكثيرة المشابهة التي تعني أن الصدفة لا يمكن أن تخلق عملاً صحيحاً مفهوماً.

ومن المحتوم أن يقال: نعم، إن الصدفة لا يمكن أن تبدع الأعمال على مقاسات منطق الإنسان وأسلوبه وسلوكه وحاجته، ولهذا فإنه لا يوجد في الكون شيء جاء طبق المنطق أو السلوك الإنساني، أو جاء بأسلوب يرضاه منطق الإنسان أو أخلاقه، بل إن كل ما في الكون هو زندقة وفوضى، وعبث وجنون، وغير مفهوم وغير صحيح، لو حوكم بتفكير الإنسان وتصرفه وحاجته.

إن التفكير والسلوك الإنسانيين يراد لهما أن يكونا متوافقين مع حاجات الإنسان وضروراته ومشاعره، ومنطق الطبيعة وسلوكها ليسا كذلك، بل هما خارجان على الإنسان وعلى جميع قيمه ومثله وأمانيه، إن بين المنطقين والسلوكين تناقضاً وتشاتماً بل وقتالاً. إنه لا شيء في هذا الكون يحدث بالأسلوب الإنساني، إذن ليس فيه أعمال صحيحة مفهومة، بل كل ما فيه يشبه الإلقاء بحروف الطباعة الذي لن يحدث عنه إخراج كتاب ما، ويشبه الإلقاء بمواد البناء الذي لن يشيد بيتاً حضارياً مستجيباً لكل الاحتياجات الإنسانية أو الاشتراطات الهندسية.

لقد تقايأت الطبيعة أفعالها ووحداتها،أي شموسها وكواكبها، وأنهارها وبحارها، وإنسانها وحشراتها، بلا نظام أو منطق، كما تفعل الصدفة، أي كما يلقى بمواد البناء وبحروف الطباعة. وأعمال الطبيعة مهما كانت قيئاً وخبطاً عشوائياً لا بد أن تكون شيئاً ما، وخاضعة لشيء، لا بد أن تكون خاضعة لذاتها وقوانينها، وذاتها وقوانينها التي هي صدفة لا بد أن تكون شيئاً ما وملتزمة بشيء على نحو غير أخلاقي وغير إنساني. فالطبيعة في قذفها أو في تقايئها لنفسها ولوحداتها وسلوكها لم تراع مصلحة أحد أو حاجته، وإنما أطلقت نفسها من غير قصد ولكن بقانون ذاتي اضطراري، فالكواكب والشموس والأمطار والأنهار والنبات والحيوان والعناصر والآلام والمسرات والأحزان والموت والحياة والإنسان والذباب، وكل الأشياء كائنة بأسلوب الصدفة الذي يوزع العشر البطاقات وحروف الطباعة حين يلقى بها جزافاً، إن حروف الطباعة والعشر البطاقات لا بد أن تكون في نفسها شيئاً حينما يلقى بها جزافاً، مثلما كان الكون الذي يكون ويلقي بنفسه جزافاً، ومع هذا لا بد أن يكون شيئاً ما، لا بد أن يكون شموساً وأنهاراً وصحارى وحقولاً وبشراً. وما نراه بعد هذا أعمالاً كونية منتظمة وبأسلوب كأن فيه منطقاً وتدبيراً راجع إلى أننا قد ألفنا من قوانين الطبيعة وأعمالها الخاضعة لقوانينها منطقاً وقانوناً نفسر بهما الأحداث ونطبقها عليهما مع أنهما خارجان على منطقنا وقوانيننا الإنسانية خروجاً لا التقاء فيه.

إن الكون في غيره صدفة وفي نفسه قانون، وإن الصدفة قانون من جانب واحد.

ولما كانت الطبيعة ذات ذاتية حاكمة نفسها محكومة بنفسها جاءت أعمالها متشابهة ودائمة، وهذا التشابه والدوام هما قوانينها التي نعدها أحياناً رائعة وحكيمة مع أننا لو فسرناها بمنطقنا وأقمنا مقارنة بين منطقنا وسلوكها لما وجدناها رائعة ولا حكيمة، بل لوجدناها متوحشة وفاسقة ومتناقضة وسخيفة وشراً من أعمال الصدفة بل شراً من أعمال المجانين. وإذا استمر الشيء يتكرر أصبح قانوناً من نوع ما مهما كان سخيفاً وظالماً، فالقانونية ليست إلا ضرباً من التكرار.

إن الكون بكل ما فيه ليس إلا حروفاً وأرقاماً ومواد بناء تلقى إلقاء بلا تدبير ثم نقرؤها مغلوطة، كما هي، ونحول قراءتنا المغلوطة لها إلى أفكار وقوانين بل إلى آلهة وأنبياء وصلوات، بل ليس الكون حروفاً وأرقاماً وإنما هو كتل فقط تلقى إلقاء.

إن الأرقام والحروف توضع على مقاس الإنسان، أما الكون فالإنسان يوضع على مقاسه.

ولا يصح أن نسأل: وهل يمكن أن يطبع كتاب أو تصنع سيارة أو يشاد مصنع بدون فاعل مفكر قادر منفصل عما يفعل لنستدل بهذا على أن الكون لا يمكن أن يوجد ولا أن يقوم بذاته، ذلك لأن هذه الأغراض من تفكيرنا ووضعنا وإرادتنا نحن البشر. والطبيعة لا تعمل ما نريد كما

نريد بأسلوبنا وتفكيرنا، وإنما تعمل بأسلوبها هي وطريقتها التي قد يكون فيها ما نريد دون أن تقصد، والتي لن يكون فيها أي تفكير مهما وجد فيها تفكيرنا ما يستفيد منه.

إن السيارة مثلاً فكرة، والطبيعة لا تعمل بالفكرة بل بالطاقة والضرورة الذاتية. ولهذا فإن الطبيعة لا تصنع السيارة ولا الكراسي ولا تستطيع أن تصنعها مع أنها تصنع ما هو أعظم وأبرع جداً؛ أليست تصنع الزهرة الطبيعية وتعجز عن صنع الزهرة الصناعية، وتصنع العين ولا تصنع النظارة وتصنع الشمس ولا تصنع السراج، وتخلق مناجم الحديد الهائلة ثم لا تستطيع صناعة الإبرة؟ فلماذا تفعل الأكبر ولا تفعل الأصغر إذا كانت تفعل بذكاء ومنطق وتدبير؟ وإذا كان الله هو الذي يفعل ذلك واجهنا هذا السؤال:

وكيف يصنع الله هذا ولا يصنع ما هو أقل منه جداً ـ كيف يصنع الله الإنسان ولا يصنع ملابسه أو أسنانه الصناعية أو شبابه الذي قد مات؟ وكل ما يمكن أن يقال جواباً عن تصرف الله أمكن أن يقال جواباً عن تصرف الطبيعة. إذ لو كان هذا الاعتراض صحيحاً لكان اعتراضاً على قدرة الله وعلى أنه هو الخالق للكون، ذلك لأن الله أيضاً لا يصنع السيارات ولا يطبع الكتب ولا يقيم المصانع.

فإذا كان الذي لا يفعل هذا لا يمكن أن يوجد الوجود، ولا أن ينظمه أمكن حينئذٍ أن يقال: وإذن لا يمكن الإيمان بأن الله هو خالق العالم إلا إذا صنع السيارات وأجهزة الراديو وزينات المنازل التي نصنعها نحن، والتي نريدها ونحتاج إليها صنعاً مباشراً بالأسلوب الذي نصنعها به.

أما إذا كان صانع هذا لا يلزمه أو لا يستطيع أن يصنع هذا أصبح معقولاً أن تصنع الطبيعة أضخم الأشياء ولا تصنع أصغرها. فالاعتراض المذكور إن كان صحيحاً هو اعتراض على الفاعل في هذا الكون سواء أكان هو الله أم كان هو الطبيعة، وليس اعتراضاً على الطبيعة وحدها. والطبيعة إن كانت هي الفاعلة، والله إن كان هو الفاعل لا يصنعان كل كبير ويعجزان عن كل صغير، بل يصنعان بعض الأشياء الكبيرة وبعض الأشياء الصغيرة ثم لا يفعلان ما عدا ذلك من صغير وكبير.

إن الخلق الموجود في الكون خلق بالذات والضرورة لا بالمنطق أو الإرادة، لهذا لا يمكن إخضاعه لأي منطق أو إرادة.

وإذا قيل: وكيف تجيز عقولكم أن تتكون الشمس أو الأرض أو أية شجرة بذاتها أو من ذاتها مع أنه من المستحيل أن تتصوروا أن أجزاء الساعة تتكون أو تتركب بذاتها، وما الفرق؟ كان الجواب:

إن الساعة عمل إنساني، صممها وأخرجها الإنسان على مستوى احتياجاته وتجاربه، فلا يمكن أن تتكون بذاتها، كما لا يمكن أن يصنعها سوى الإنسان حتى ولا الله نفسه، فهي

ليست وجوداً كونياً بل وجود إنساني، والطبيعة ليست إنسانية وكذا الله، أي إن الله والطبيعة لا يصنعان وفق أسلوب الإنسان واحتياجاته. إن المؤمن يؤمن دون أن يعترض على نفسه بأن الله قد خلق الشمس وكل الأكوان خلقاً مباشراً، ولكنه لا يمكن أن يؤمن بأن الله قد يخلق أجزاء الساعة أو قد يركب أجزاءها بالأسلوب المباشر لتؤدي عملها وفق ما يفعل ويريد الإنسان. فكيف وما الفرق؟

إن صناعة الإنسان لا بد لها من صانع هو الإنسان نفسه، فالطبيعة والإله لا يمكن أن يصنعا للإنسان ما يصنعه الإنسان لنفسه، بل إنهما ـ أي الطبيعة والإله نقيضان وخصمان للإنسان مهما وجد في عملهما أشياء كثيرة توافقه.

وليس استحالة أن تصنع وتركب الساعة نفسها راجعة إلى أن كل كائن لا بد له من مكون، ولكن راجعة إلى أن كل عمل إنساني لا بد له من تصميم الإنسان ووضعه. ومن اللغو افتراض الشيء إنسانياً وكونياً أو إنسانياً وذاتياً. وكما أن حبة القمح تتكون قمحاً فقط، ولا تتكون عنباً أو زيتوناً فكذلك الكون الطبيعي يتكون تكوناً طبيعياً، ولكنه لا يمكن أن يتكون تكوناً إنسانياً أي لا يمكن أن يخلق صناعة إنسانية.

فالكون يتكون شموساً وأقماراً وأشجاراً وجبالاً وأنهاراً وحيوانات وبشراً، ولكنه لا يتكون سيارات أو ساعات أو مصانع.

ولو كان هناك من يسأل: وكيف يصنع الكون الشموس والنجوم ولا يصنع الأدوات المنزلية وملابس النساء ولعب الأطفال لكان هذا السؤال مثل أن يقال: وكيف تصنع شجرة التفاح ثمار التفاح ولا تصنع عناقيد الكروم.

إن الطبيعة ـ وكذا الله لو كان هو الفاعل ـ لا تحاول أن تقلدنا ولا أن تتلاءم معنا، ولكننا نحن الذين يحاولون تقليدها والتلاؤم معها، وهي ـ وكذا الله على افتراضه الخالق ـ لا تفعل بالأسلوب الذي به نفعل، أما نحن فقد نفعل بأسلوبها أو بأسلوب الله إذا كان هو المطل من وراء هذا الكون. ونحن نفعل بأسلوب الطبيعة لأننا لسنا إلا الطبيعة في إحدى صيغها أو في أعلى صيغها ومستوياتها. ومنطق الطبيعة ـ أو منطق الله إذا كان هو العارض لنفسه من خلال هذا العبث الأكبر ـ مخالف لمنطقنا إذ ليس لها منطق وإنما لها وجود، أما نحن فليس الوجود إلا وعاء لمنطقنا.

إن تصرفها أي تصرف الطبيعة ليس إلا جنوناً أو إجراماً في منطقنا.

ولو أن الطبيعة ـ وكذا من يحكم الطبيعة إن كان لها حاكم ـ حوكمت أمام أية محكمه بشرية لتحاسب بالمنطق الذي يحاسب به الإنسان ويحاسب به الإنسان نفسه لكان الإعدام أقل جزاء تتلقاه عقاباً لها على أنبل أفعالها، عقاباً لها على إنزالها الغيث وإعطائها الحياة، لأنها تنزل

الغيث وتعطي الحياة بأسلوب بليد وشرير جداً، تفعل ذلك دون أن تحتاط أو تقيم لما تفعل أية حسابات أو شروط أو وقاية، ودون أن تقصد نفعاً أو خيراً لأحد.

ولكن البشر لم يحاكموا الطبيعة لأنهم لا يستطيعون أن يفعلوا، وإنما ذهبوا يناضلون كي يغيروها ويصنعوا منها وجوداً أو كوناً إنسانياً.

ولكن أليس البشر يحاكمون الطبيعة شتى المحاكمات وإن كان ذلك بأسلوب آخر؟ أليست محاولة الخروج عليها وترويضها وقهر شرورها وغبائها نوعاً عنيفاً من المحاكمة لها والطعن في عدالتها وأخلاقها؟

والذين يرون في الكون مثالية عقلية أو أخلاقية لا يفطنون إلى أن هذا لو كان صحيحاً لكان من العصيان والضلال محاولة تغييره أو الغضب منه أو عليه، بل إن ذلك لو كان صحيحاً لكان كل ما فيه من آلام وأخطاء ونقائص ومظالم شيئاً مقدساً، إن محاولتنا حينئذٍ لتغيير أي شيء في الطبيعة أو الاحتجاج عليه إنما تعني محاولة تغيير الإله والاحتجاج عليه والرفض له.

إن محاولة التغيير للطبيعة أو لأي شيء فيها أسلوب من أساليب المحاكمة للإله، إن جميع البشر يحاكمون الإله الذي يؤمنون به محاكمة صامتة، لأنهم جميعاً يغضبون على الطبيعة ومنها ويحاولون تغييرها والخروج عليها، إن كان هو الموجود، ويحاكمون الطبيعة إن كانت هي الموجودة.

*

كان للناس سؤال قديم ولا يزال حتى اليوم يتجدد في كلامهم أو في تفكيرهم. يقول هذا السؤال: «هل يوجد الشيء نفسه». وكأن الذين يسألون هذا السؤال يعنون بالإيجاد خلق ذات الشيء من العدم، فكانوا لذلك يجيبون على هذا السؤال بالنفي، أي أن الشيء لا يخلق نفسه. وكانوا هم وجميع المفكرين الذين سألوا هذا السؤال أو أجابوا عليه يحسبون أن الشيء لو أوجد نفسه من العدم لكان معنى هذا وجوده قبل وجوده، لأن صانع الإيجاد يجب أن يكون موجوداً قبل من يقع عليه هذا الإيجاد، أي أن الشيء يجب أن يكون موجوداً من حيث كونه خالقاً قبل أن يكون موجوداً من حيث كونه مخلوقاً. إنهما لا يتحدان إلا بقدر ما يتحد اليوم والأمس والغد في عمر الزمن.

ولكن هل الأمس غير اليوم، وهل هما شيئان؟ ما صفات الأمس وما صفات اليوم، هل بينهما حدود ذاتية أو منطقية، وهل وجود هذا غير وجود هذا، هل هذا الفراغ غير هذا الفراغ، هل لهما تفسيران وحكمان مختلفان، هل يوجد فرق بين أي وقت وأي وقت آخر؟

لعلنا حينما نعد الأمس واليوم حقيقتين متعددتين نكون مثل من يسير حول دائرة فيها

علامة، فكان كلما طاف حول الدائرة ومر بالعلامة ظنها علامة أخرى وأدخل في حسابه التعدد مع أنه لا تعدد إلا فيه هو.

إن الزمان ليس إلا افتراضاً نفترضه كما نفترض أشياء كثيرة، ونحن نراه متعدداً وقصيراً وطويلاً وقبلاً وبعداً لأننا نحن كذلك، لا لأنه هو كذلك. والفرق بين ملايين الدهور وبين أقصر لحظة زمنية يساوي مجموع الفرق بين أعمالنا ومشاعرنا وأفكارنا في هذا الزمن الطويل وبين أعمالنا ومشاعرنا وأفكارنا في هذه اللحظة القصيرة المفترضة ـ أو يساوي مجموع الفرق بين حالتين من حالات الكون الذي نحن جزء منه، إنه لا طول ولا قصر في الزمن بل في الأشياء. فالزمن يعيش فينا ونحن لا نعيش فيه، ونحن نخلقه وهو لا يخلقنا، وهو بنا يطول ويقصر، ولسنا نحن نطول أو نقصر به، لأنه هو ليس شيئاً ولكننا نحسب الأشياء به كما نحسب به أنفسنا.

وليس طول الزمن أو مروره هو الذي يضعفنا أو يهرمنا أو يفنينا، ولكن الذي يفعل بنا ذلك هو أفعالنا وانفعالاتنا واستهلاكنا لأنفسنا بالطاقة التي ننفقها وبالحركات التي تتحول إليها ذواتنا وحياتنا، ونحن نفترض لذلك زماناً نقدره بما يقع منا وما يقع لنا وما يقع حولنا.

إنه يوجد وجود جزء نحن منه افترضنا له شيئاً لا وجود له أسميناه «الزمن». وهذا أي كون الزمان فرضاً لا شيئاً يضع أمامنا حقيقة هي:

إن ما وجد فهو موجود وجوداً مطلقاً لا تمر به بداية ولا نهاية زمنية إذ لا زمان، وإن ما كان معدوماً في أية لحظة يمكن تصورها فهو معدوم عدماً مطلقاً لا يقبل حالة غير العدم إذ لا توجد حالات متعددة تتغير بها طبيعته.

وحيث إن الزمان لا يعني أشياء متعددة وليس هو متعدداً فمن المستحيل أن يتحول الموجود إلى معدوم أو المعدوم إلى موجود، لأن التحول من العدم إلى الوجود أو العكس لا يكون إلا بتعدد الزمن.

ولكن على هذا إشكالات لعل منها أو من أقواها:

إنه إذا لم يكن الزمن شيئاً موجوداً فما معنى تعاقب الحوادث وتقاربها وتباعدها، ما معنى كون هذا الحدث بعد هذا الحدث، وما معنى القرب والبعد بين الحدثين؟

وقد يكون الجواب أن هذا التعاقب المفهوم بالتقارب والتباعد تعاقب ذاتي لا زماني، وهو مرتبط أو مفهوم أو مفسر بحركة الكون وأحداثه وبحركتنا نحن وأحداثنا.

فما نعده مدى ما من الزمان طال أم قصر إنما هو في الحقيقة مجموعة حركات لا معنى للزمن فيها، ووقوعها متعاقبة لا يرجع إلى التوزيع الزمني ولكنه يرجع إلى القصور الذاتي وإلى

الضرورة الذاتية. فالزمن يقاس بنا ونحن لا نقاس به، والفرق بين أطول مدة وأقصرها هو فرق حركات وضرورات لا فرق زمان.

وحين نفترض الزمان بلا حركات وأفكار وبلا مشاعر متعاقبة تعاقباً ذاتياً لا زمانياً فلن نستطيع أن نتصور فرقاً بين بلايين الدهور وبين ما نسميه ثانية واحدة.

إن الزمان كالمكان أو كالفراغ المكاني لا حدود ولا وجود ولا أبعاد أو أعماق له بدون وجود أو افتراض كائنات تحدده وتوجده أو تفترضه. وليس من المستطاع لهذا أن نجد فرقاً بين الزمان والمكان مع أن الفرق بينهما فيما يظن ويبدو من الحقائق التي لا ينبغي الاختلاف فيها. إن الفرق بين الزمان والمكان فرق لغوي، وإن البعد المكاني بين جرم وجرم يساوي الطاقة المبذولة، أو التي يمكن أن تبذل لتحقيق جرم وجرم يساوي الطاقة المبذولة، أو التي يمكن أن تبذل لتحقيق هذا البعد أو لإزالته. ولا يمكن تصور أي بعد بين الشيء والفراغ، فالبعد لا يكون إلا بين الشيء والشيء، والفراغ ليس شيئاً.

إنه لا يمكن أن يوجد بعد بين جرم ما وبين مكان ما، إن البعد لا يكون إلا بين جرم وجرم، وبدون الأجرام المتعددة لا توجد أية أبعاد.

إذن فالزمان هو مجموع أحاسيس الحياة بنفسها وبما حولها. وإذا كان الزمان وهماً كان تصور وجود المعدوم أو عدم الموجود وهماً أيضاً لأنه قائم على افتراض الزمان حقيقة على افتراضه حقيقة ذات تعدد.

*

نعم إن الشيء لا يوجد نفسه ولكن السبب لهذا شيء آخر، إن الشيء لا يوجد نفسه من العدم لأنه لا شيء يوجد من العدم، لا لأن الشيء لا يخلق نفسه. فالجواب صحيح ولكن السبب غير صحيح.

ولو كان ممكناً أن يتحول العدم إلى وجود بإرادة ما أو بقدرة ما أو بكلمة ما لكان من الممكن كذلك أن يتحول ذلك العدم أو أي عدم آخر تحولاً ذاتياً أو تلقائياً إلى وجود، فحدوث العدم أي وجوده أي صيرورته موجوداً سواء أوجد بنفسه أم بغيره هو في الحقيقة حدوث ذاتي بلا إحداث ولا محدث، لأنه قبل وجوده لا يمكن أن يقع عليه إحداث ولا أن تتوجه إليه أية إرادة ولا أن يوجه إليه أي خطاب لأنه لا شيء، أما بعد حدوثه أي بعد صيرورته موجوداً فلا يحتاج إلى ذلك، أي لا يحتاج إلى أن يوجد أو يطالب أو يؤمر بالوجود أو تمارس فيه عملية الإيجاد لأنه قد أصبح موجوداً وقائماً بذاته.

فالحجة القائلة: إن الشيء لا يوجد نفسه حجة قائمة على تفسير آخر أشمل، قائمة على أن المعدوم لا يكون موجوداً.

إن كل شيء يخلق ذاته لكن لا بمعنى الإيجاد من العدم، فالشخص يخلق شخصيته، والحيوان المنوي يخلق الإنسان تحت ظروفه وفي بيئته الملائمة، والإنسان الأول المتأخر هو الذي خلق الإنسان المتحضر، والجاهل البسيط الذي كان يخاف من الرعد والبرق والخسوف ويصلي ليرشو ويرضي الآلهة الغاضبة، ويقدم قوته وقوت عياله نذرواً لها، هو الذي خلق العبقري الذي كسر حاجز السماء، وحبة القمح تخلق القمح والسنابل ـ وهكذا كل شيء يخلق نفسه دون أن يخلق الشيء غيره، فالعنب لا يخلق التفاح، والنخل لا يخلق الشعير، وهكذا لا شيء يخلق غيره بينما كل شيء يخلق ذاته.

وإذا حدث لهذا تطور يشبه أن يكون الشيء قد خلق غيره في أحقاب الدهور فهو ضرب من التطور الذاتي أي من خلق الشيء لذاته.

إن قولنا: الشيء إما أن يكون موجوداً أو غير موجود هو مثل أن يقال: الشيء إما موجود ومعدوم وإما لا موجود ولا معدوم، إن ذلك تقسيم لغوي لا فكري، فالشيء لا يكون غير موجود كما لا يكون موجوداً ومعدوماً أو لا موجوداً ولا معدوماً، إذ الشيء هو الموجود فقط.

إن الموجود هو وحده موضوع الحياة والتفكير، والعدم لا يمكن أن يكون موضوعاً إنسانياً ولا موضوعاً عقلياً لأنه لا شيء، ولهذا لا يكون افتراضه أصلاً للوجود إلا خطأً كبيراً.

*

الله أما إن يكون قوة فاعلة أو وجوداً فقط، أي وجوداً لا فعل له، على الافتراض الثاني ما ثمنه وفائدته، وما الدليل حينئذٍ على وجوده لأنه لا يمكن أن يعرف إلا من فعله، والذين يزعمون أنهم قد عرفوه يزعمون أنهم قد عرفوه من أعماله الكبيرة الصالحة.

وإنه لو كان الله موجوداً للزينة فقط لا للعمل والخلق لكان زينة لم يرها أو يستفد منها أحد لأنه لا يوجد في أي متحف أو معرض أو حديقة أو ميدان عام أو في معبد، كما لا يوجد في سلوك أحد ولا في قلبه أو أخلاقه أو بيته. فما قيمته إذن كزينة؟

إن الزينة وجود ورؤية، وافتراض الله وجوداً فقط يرانا دون أن يتدخل أو يساعد، ونؤمن به دون أن نتعامل بسلوكنا معه لا يمكن أن يتحول إلى جمال نفسي أو فكري فينا.

أما إن كان قوة فاعلة فهو إما أن يكون فاعلاً كل شيء أو فاعلاً بعض الأشياء، إن كان فاعلاً بعض الأشياء فالأشياء التي لم يفعلها كيف حدثت ومن فاعلها؟ إنه بالأسلوب الذي

استغنت به عنه تلك الأشياء أو بعض الأشياء ـ مهما كان ذلك الأسلوب ـ يمكن أن تستغني به كل الأشياء.

وإذا ثبت مبدأ الاستغناء بطل مبدأ الافتقار، والبرهان في الحالتين واحد، فإذا ثبت بطلانه في حالة فما الذي يثبت صحته في الحالة الأخرى المماثلة؟

إن القانون الذي أوجد أصغر هباءة أو وجدت به أصغر هباءة ثم عاشت به وجودها الفعال الدائم هو القانون الذي أوجد هذا الكون الكبير كله أو وجد به هذا الكون ثم عاش وجوده الكبير.

أما الافتراض الثاني القائل: إن الله فاعل كل شيء فهو افتراض يجلب على نفسه كل احتمالات التوريط والتحقير والعار.

وافتراض شيء ما خالقاً لكل شيء ليس فيه أي معنى من معاني التكريم أو الامتداح، بل ليس فيه شيء من الرفق أو الإشفاق على ذلك الذي قسا عليه كل القسوة بافتراضه خالقاً كل الأشياء. وليس ذنب هذا الافتراض أنه مستحيل فحسب، بل الذنب فيه أنه أقصى وأقسى أساليب التشنيع والاتهام لمن أريد امتداحه به. ولا يمكن تصور أي حاكم أو طاغية متأله يقبل راضياً بأن يتهم بأنه الفاعل لكل ما في الكون والحياة والمجتمع والناس من أشياء طيبة ورديئة، من عيوب وآلام أو مسرات وحسنات.

فاتهام الإله أو امتداحه بذلك أسلوب لا مثيل له من أساليب الإهانة أو الغباء القليل المثال.

ومن الاعتراضات التي تهدم الزعم بأن الله هو الخالق لكل هذا الجنون والعبث أن المشاهدة كلها في كل الحالات والظروف والأوقات لا تجد إلا أن الأشياء جميعاً محكومة بذاتها لا بالأوامر ولا بالإرادات الخارجية.

ومنها أنه لا أحد ـ مهما كان مستواه من الحماقة والفساد والانحراف ـ يرضى بأن يخلق الكون لو كان هو خالقه بالمستوى والأسلوب الذي خلقه الله به بكل ما فيه من عاهات ونقائص وعجز وفوضى، إذا كان قادراً أن يخلقه على نحو أكثر ذكاءً وبراءةً وعدلاً وحباً.

ولا يمكن أن يقع في تصورنا حاكم أو صانع رديء أو كريه أو جاهل تفسق أو تضل مواهبه أو أخلاقه أو تعجز ليحكم رعيته وبلاده أو يخرج أعماله بالأسلوب والمستوى الذي يصنع الله به الكون ويعامل به الناس.

إنه لا يوجد أي خالق يمكن أن يفخر بانتساب هذا الوجود إليه.

إنه لتكريم للإله وتنزيه له وتدليل على فضيلته أن نرتفع بذاته وضميره وبموهبته الفنية

والأخلاقية عن مسؤولية هذا الانحطاط الأليم الفظيع الموجود في هذا الكون وفي كل الكائنات على مستوى هو فوق كل قسوة وسفه وفجور وبلادة.

ليس كل وجود أو فعل مزية أو امتداحاً، وكم من وجود يرفض العدم أن يهبط إلى حضيضه فراراً من عاره وذنبه وأحواله، ويرفض أن يكون موجوداً فعالاً مثله، وإذا حدث فعل ذميم كانت نسبته إلى من ينسب إليه قذفاً واتهاماً يعاقب عليه. والذي لا يستطيع أن يكون موجوداً ولا فاعلاً خير من الذي وجد ليفعل الظلم والجهل والرذيلة لأنه لا يقدر أو لا يريد أن يصنع غير ذلك.

والله لن يكره من أنكر وجوده أكثر من كراهته لمن آمن بوجوده لينسب إليه الجهل والعبث والظلم الموجود في العالم وينسب إليه الآلام والأمراض والعاهات التي تصيب الشيوخ والأطفال وتصيب صغار الوحوش والحشرات.

إن خلق النمر أو الصرصار أو الذباب ثم إصابته بالعمى أو بالعجز عن الحركة لذنب لا تستطيع كل الشموس والأنهار والحقول الممتلئة بالجمال والعطاء أن تغفره أو تعتذر عنه.

إن ألف ابتسامة تواجهنا بها الطبيعة لن تستطيع أن تستر عاهة واحدة توقعها بشيخ أو يتيم أو حيوان بريء.

ومنها أن الذين ينفون عن الكون وجوده الذاتي أي وجوده من ذاته بكل قوانينه وصفاته واحتمالاته ـ وهم كذلك منه ـ ويجعلونه فقط طعاماً أو لعبة لشهوة أو لقدرة جنونية فيها جوع دائم إلى العبث واللهو والتعذيب والتناقض والخروج على الذكاء والقانون، وفيها جوع دائم إلى رؤية الدموع والآلام والهموم، فاعلة بالإرادة والقهر ـ هؤلاء يفقدون التفكير الحضاري والتفسير المنطقي للأشياء، وينحرفون في تعاملهم العقلي مع الكون والناس ومع أنفسهم، وكذلك في فهمهم للأخلاق.

والإنسان لا يمكن أن يكون ذا منطق علمي وحضاري، ولا ذا أخلاق إنسانية أو كونية، ولا أن يضبط توازنه أمام الحياة والكون الأحمقين، ولا أن يتكافأ في صراعه الأليم مع الظروف غير المتدينة إلا إذا كان يؤمن بالقانونية الكونية المقيدة بنفسها لا بمشيئة الآلهة الرديئة أو مشيئة الآلهة الطيبة، ولعل الآلهة الطيبة أخطر على البشر وعلى العالم من الآلهة الرديئة. والذين يعيشون في عالم تحكمه الآلهة ـ لا القانونية والذاتية الكونية والإنسانية ـ كيف يمكن أن يكونوا عقلاء أو فضلاء، أو كيف لا يصابون بالجنون والاتكالية؟ والاتكاليون كيف يمكن أن يكونوا أقوياء أو فعالين أو مقاومين لأي ظلم أو عذاب؟ أولا تفقد الحيوانات المفترسة خصائصها الافتراسية وتضعف أظفارها وأنيابها، أو تنسى أن لها أظفاراً وأنياباً، أو أن لأظفارها وأنيابها وظيفة ما، لو

أنها عاشت طويلاً في ظروف اتكالية وعلّمت أن تكون كذلك، كالظروف التي تعيش فيها عقول المؤمنين وعقائدهم؟

وإنه لشيء فوق الطاقة والعقل أن تجمع في ذاتك بين الإيمان بإله قوي كامل رحيم يفعلك ويفعل كل شيء حتى رغباتك وأفكارك ـ يفعل كل ذلك على أفضل الاحتمالات والمستويات، وبين قدرتك أنت واهتماماتك على أن تفعل حياتك وظروفك، أو حقك في أن تفعلها بالأسلوب الذي تريده، إنه فوق الطاقة أن تكون خالقاً ومخلوقاً، وأن تكون مؤمناً وذكياً، أو مؤمناً ومسؤولاً.

وهل يمكن أن يصنع الله كل شيء ثم تجد أنت ما تستطيع أن تصنعه؟ إذا كان الله يصنع كل شيء فلا شيء تستطيع أنت أن تصنعه، وإذا كنت أنت تصنع شيئاً فإن الله إذن لا يصنع كل شيء، فالجمع بين الإيمان بالإله الخالق لكل الأشياء وبين الإيمان بالإنسان الفاعل أو الخالق لبعض الأشياء هو فوق كل احتمالات العقل. ولكن البشر ـ وهذا قد يكون من الخير لهم ـ يفعلون دائماً ما ينافي العقل أو ما لا يصدقه العقل.

إن تفكير الإنسان لا يمكن أن يطيع إيمانه أو يتقيد به أو يتلاءم ويتكافأ معه، كما يفعل سلوكه في خروجه على إيمانه وعلى تفكيره. إن المفكر جداً أو العالم العبقري قد يؤمن بأبلد وأسخف الآلهة والأديان والمذاهب والنظم، كما قد ينحدر في سلوكه وشخصيته إلى أقل المستويات الإنسانية والأخلاقية، وإن الجاهل أو من لا يملك أية موهبة عقلية أو فكرية، أو يستطيع ذلك، قد ينكر كل الآلهة والأديان.

فالذي يؤمن لا يؤمن لأنه ذكي أو غبي، ولا لأنه رديء أو فاضل ولا لأنه صديق للآلهة أو عدو لها، ولا لأنه يبغي بذلك راحة لعقله وضميره، وكذلك الذي يكفر.

إن الإيمان ـ وكذا نقيضه ـ مزاج وظروف وخضوع وتلقين وبحث عن اللهفة والافتضاح، وتوزيع للنفس والفكر والخيال في الطرقات وبأسلوب جماعي وإعلاني.

إن الإنسان محتاج دائماً إلى أن يوزع نفسه ويلقي بها في شتى التعبيرات تحت أقدام الآخرين وفوقهم وداخل مشاعرهم واهتمامهم، والإيمان وسيلة جيدة لهذا التوزيع والإلقاء ـ الإيمان بمذاهب أو إله أو طاغية أو بأية حماقة، وأفضل أساليب الإيمان هو الذي يعطي المؤمن الفرصة ليكون صارخاً ومتعرياً جداً دون أن يشعر بالعار أو الافتضاح أو بالتحقير، الإيمان جهاز بصق للذات على الآخرين!

إن المؤمنين جداً يمكن أن يتحولوا كافرين جداً تحت الظروف الأخرى المناقضة. والذين يجعلون الناس يؤمنون أو يكفرون بالأرباب والمذاهب والنظم والحماقات أو بنقيضها هم الأنبياء والدعاة والقادة والمعلمون، إن هؤلاء وحدهم هم العارضون في الأسواق لهذه السلع الشريرة.

ولو أن الدعاة الكبار الذين لقنوا الناس الإيمان بالسماء لقنوهم الكفر بها لأصبح أتباعهم كفاراً، ولو أن الذين لقنوا الكفر لقنوا الإيمان لجاء أتباعهم مؤمنين، ولو أن الذين لقنوا الإيمان بإله واحد لقنوا الإيمان بعدة الآلهة لآمنوا بها وتعصبوا لها مثل إيمانهم بالإله الواحد وتعصبهم له، ولو أنه لقنوا صفات إلههم أو صفات آلهتهم على نحو مضاد للصفات التي لقنوها لقبلوا ذلك التلقين بالحماس الذي قبلوا به التلقين المضاد أو التلقين المعروف القديم.

إن الآلهة تقبل كما يطرحها منتجوها في السوق دون أية اشتراطات أو اعتراضات، والذين يشترطون لطعامهم لا يشترطون لأربابهم. وينبغي أن ندرك أننا حينما نقاوم الأوهام الكبيرة أو ترفضها عقولنا لا نفعل ذلك لأنها تقتل المؤمنين بها أو تعوق نموهم الحضاري أو العقلي أو العلمي، أو لأنها تفعل ذلك بنا نحن، بل نقاومها لأننا محتاجون إلى المقاومة، ولأننا لا بد أن نقاوم شيئاً، ولأنها تتحدانا، ولأن المؤمنين بها يتحدوننا ويؤذون أبصارنا. وأرجو ألا يكون سخيفاً أو مؤذياً جداً أن أكرر أنه لا يوجد أي خوف أو أي خطر على أي إنسان أو على أي مجتمع من عقائده وأربابه ومذاهبه مهما كانت سخيفة أو فظة أو عدوانية، كما لا يوجد أي خوف أو خطر على السلوك المنحرف والفاسق من الإيمان بأية عقيدة صالحة ولا بأي رب ورع فاضل.

ولكن الخوف والخطر هما دائماً في العجز عن التفكير أو عن النضال أو عن امتلاك الموهبة.

إن آلهة الإنسان وعقائده لا تستطيع أن تقتله مهما كانت قاتلة، أو تضعفه مهما كانت ضعيفة، أو تبقيه في الجهل مهما كانت جاهلة، ولكن الذي يقتل الإنسان ويضعفه ويجعله جاهلاً هو هربه وعجزه وظروفه الشريرة المضللة.

لماذا آمن ويؤمن البشر بالآلهة؟ كان يقال أو قد يقال: إنهم آمنوا ويؤمنون ليجدوا حلولاً لمشاكلهم العقلية والنفسية ويسكتوا أصوات الاحتجاج الدائمة التي تواجههم كلما رأوا أو عانوا، إنهم آمنوا ليريحوا عقولهم ونفوسهم من القلق والضياع والتطلع، وضمائرهم من الاشمئزاز والإنكار، لأنهم يجدون في الإيمان بالآلهة تفسيرات وكأنها الأجوبة المقنعة الذكية لتساؤلاتهم عن الكون وغموضه، وعن الماضي والمستقبل والحاضر، وعن رهبة الليل وأسرار النجوم وضخامة الشمس، وعن حكمة الأمراض والمجاعات والموت، وعن وقاحة الشهوة والحقد والحروب والحب والبغض، وعن مسيرة الكون الدؤوب التي لا يعون لها نهاية أو بداية أو غاية أو تفسيراً أو طريقاً أو ضميراً.

كان يقال أو قد يقال: إن العقيدة هي الحل السهل للمشكلة الصعبة، والتفسير غير العلمي لوضع أو واقع يحتاج إلى تفسير علمي، وإنها هي الرقية والتميمة للمريض الذي لا يجد طبيباً أو شفاءً أو أملاً، والحلم الجميل يراه من ضل في التيه الواسع الرهيب ثم أغفى على غير رجاء

بعد أن أرهقه التعب والجوع والسؤال دون جواب ـ إن العقيدة هي الاستمناء بالذات لمن عجز عن الجنس، وهي الجواب الخاطىء عن السؤال الصحيح، وهي البحث عن أسباب الاقتناع بالجهل حيث لا توجد أسباب الاقتناع بالعلم، وإنها كذلك هي الخروج من الكون عجزاً عن البقاء فيه وخوفاً من البقاء فيه.

ولكن هل صحيح أن الإيمان يمنح العقل والنفس الراحة والتفسيرات المقنعة ويسكت ضجيج التساؤلات؟ وماذا لو لم يؤمن الإنسان بالآلهة، هل يكون ضياعه وقلقه وخوفه حينئذٍ أكثر وحشية وعنفاً؟

ماذا لو آمن الإنسان بأن الأشياء هي الأشياء والكون هو الكون فقط، لو آمن بأن الأشياء أو الكون هو الخالق المخلوق، العاقل والمعقول، ولا شيء غير ذلك أو وراء ذلك؟

إن إيماني بأن الشمس هي الشمس فقط وأن البحر هو البحر فقط، وأن الطوفان والزلزال والوباء هو الطوفان والزلزال والوباء فقط ـ إن إيماني هكذا ليمنحني الراحة والذكاء والتفسير المعقول المقنع أكثر من أن يمنحني ذلك إيماني بأن الشمس ليست هي الشمس فقط، بل هي الشمس والإله، وأن البحر ليس هو البحر فقط بل هو البحر والإله، وأن الطوفان والزلزال والوباء ليست هي نفسها فقط بل هي الإله وحكمته ورحمته وحبه وصداقته وعدله.

إن إيماني بأن الأشياء هي الأشياء يمنحني ما أبحث عنه من راحة واقتناع وصفاء دون إيماني بأن الأشياء هي الله وليست هي نفسها، أو هي الله وهي نفسها أيضاً.

حينما أؤمن بأن الشجرة هي التي تنمو وتهب ثمارها أكون مستريحاً ومقتنعاً ـ لو كان التفكير بالعقل ـ أكثر من أن أستريح وأقتنع حين أومن بأن روحاً، بأن ملاكاً أو شيطاناً هو الذي يجعل الشجرة تكون كذلك ـ وكذلك إيماني بأني أنا الذي أكون أو لا أكون، أستقيم أو أضل، أطيع هواي أو أعصيه، يهبني الراحة والتفسير المقنع أكثر من أن يهبني ذلك إيماني بأن قوة أخرى في داخلي أو في خارجي، فوقي أو فوق الشمس هي التي تصوغني هذه الصياغة أو تلك.

إن اتهام الله أو أية قوة أخرى خفية بأنها هي المسؤولة عن ذنوبنا وأخطائنا وعن مزايانا وقوتنا هو أبعد الأشياء عن إعطائنا الأمان أو الاقتناع.

إذن الإيمان بالآلهة وبأنها الخالقة المدبرة للعالم ولكل شيء ليس فيه الراحة المنشودة، ولا التفسير المقنع الإقناع الكاذب الذي نبحث عنه.

ثم كيف، وهل الإنسان يبحث عن الراحة العقلية أو النفسية وعن التفسيرات النهائية المشبعة لجوع التساؤلات؟ لعل الإنسان يهرب من ذلك ويتعذب به، ولعله يقتات ويسعد بالقلق

الروحي وبالبحث عن المشاكل العقلية المتعبة غير المنتهية أو المحلولة وعن التناقضات الحادة. ولعله لو دخل الجنة ولقي الله في حفاوة وانفراد وتفرغ وعرف منه مواجهة كل الحقيقة، فلم يبق له شوق أو تساؤل أو غموض لتعذب بذلك وأنكره ورفضه وكره الله الذي علمه كل الأشياء، ولحاول حينئذٍ أن يهرب منه ومن جنته الخامدة الغبية الصامتة عن الاحتجاج والتفكير والسؤال.

من أجل هذا فإن خطراً كبيراً يهدد الجنة بعد أن يجربها المؤمنون ويجربوا العيش فيها ويعرفوا كل الحقيقة، إنهم قد يثورون ضد البقاء فيها ويبحثون عن الطريق إلى الجحيم، كما أن خطراً يهدد الإله نفسه حينما يلقاه السعداء فيعرفون عنه كل الغموض اللذيذ المعذب، ويمنحهم كل ما يريدون ويتلهفون عليه، إنهم حينئذٍ قد يثورون ضد الإله وضد عطاياه وجواره المريح.

إن الإله والجنة هما العذابان والعقابان المدخران للبشر في الآخرة تحت شعارات الإثابة لهم والإنعام عليهم!

رثائي الصادق الحزين لمن سوف يحكم عليهم بالجنة!

كم تجني على إنسان ما وعلى كرامته وسعادته حينما تحبسه في مكان خرافي خامل، لتجرده فيه من كل شوق ونضال وتفكير، ومن كل تساؤل واهتمام وخيال ورجاء في التغيير أو الخروج والمفارقة، ملقياً به تحت كبرياء أقوى وأكبر كائن جبار ليضع الطعام في فمه، والكسل في أعضائه وعقله، والنساء الطريات في فراشه، لا يستطيع أن يهرب أو يفارق أو يصرخ أو يحتج أو يرفض أو يكره أو يفكر ويناقش؟

إن الإنسان لا يبحث عن السعادة المسترخية في ظروف عيش مترف، ولكنه يريد أن يناضل بفكره واهتماماته وبكل ذاته، شاعراً بالخطر والأمل، بالخوف والأمان، إن هذا هو النموذج للسعادة الإنسانية المبحوث عنها بالشعر والخيال والمذاهب والإيمان بالآلهة والعقائد وبالخصومات والحروب والعداوات والشتائم. ولهذا فإن من المشكوك فيه أن يكون أهل الجنة أكثر سعادة أو شعوراً بالسعادة من أهل النار.

إن السعادة هي أن تفكر وتناضل وتخاف وتحرم وتنال وتشعر مشاعر متناقضة، بل وتحيا حياة متناقضة، وليست السعادة هي أن تجد وتشبع وتسترخي وتعيش في حماية الآلهة القوية وعلى موائدهم الزاخرة بالطعام والكسل والخمول والعبادة والشكر للمنعم الأعظم.

إن السعادة النابضة بالشعر والنشوة الراقصة هي أن تموت خارج نفسك في معركة غير نموذجية في مستوياتها الأخلاقية والمذهبية والنفسية!

الإنسان لا يبحث لأنه يريد فقط أن يعرف، بل ولأنه يريد أن يبحث بشرط ألا يعرف أو بدون أن يعرف، لكي يتعذب ويشعر بالعذاب، فالراحة العقلية التامة ليست هي النموذج

للسعادة الإنسانية. إن الراحة العقلية التامة مثل الراحة البدنية التامة أي التي ليس فيها أية معاناة أو نشاط، إن الراحتين ليستا في مصلحة البشر وليستا مطلبين من مطالبهم، إن إعطاءهم اليقين والمعرفة الكاملة تعذيب لهم وإذلال وقتل، مثل إعطائهم الكسل الكامل.

*

يستدل أحياناً على هذه القضية ببرهان العجز عن النفي ليكون برهاناً على الإثبات ـ هم يقولون أحياناً إنه لا دليل على أن الله ليس موجوداً، إذن هو موجود، أو فيحتمل مع التواضع جداً أنه موجود.

ولكن كيف يكون العجز عن النفي إثباتاً؟ كيف يكون عجزك عن أن تنفي أن لفلان ابناً عبقرياً، أو أنه مريض بالسرطان، أو أن له زوجة في بلد آخر يخفيها ـ كيف يكون هذا العجز عن النفي يعني الإثبات؟ إذن يمكن أن يقال إنه لا دليل على بطلان تعدد الآلهة، إذن فالآلهة كثيرون أو لا مانع من ذلك، وكذلك إذن يمكن أن يقول أي إنسان عن نفسه: إنه إله وإنه هو الذي خلق العالم أو إنه ابن إله أو إنه رسول قد أمره الله بهداية الناس وكلفه بتبليغ رسالة ما، أو أنه هو المسيح أو موسى أو محمد أو أحد رجال التاريخ الماضين العالميين، قد بعث من جديد ليصنع دوره من جديد.

فإذا قيل له: وكيف تجرؤ على هذا الزعم وما الذي يثبت صدقه؟ قال لأنه لا يوجد ما يثبت نفيه!

إنه بهذا المنطق تستطيع أية حشرة، يستطيع الذباب مثلاً أن يزعم أو أن يزعم له أنه إله العالمين أو نبي أرسله رب العالمين، لأنه لا يستطاع التدليل على بطلان هذا، أي لا يستطاع التدليل على أن الذباب ليس إلهاً أو نبياً، وكل ما لا يستطاع التدليل على نفيه يجب إثباته بالأسلوب الذي أثبت به وجود الإله. وبهذا المنطق أيضاً لا يصح إنكار الأوثان ولا ألوهية الشمس والنجوم والأنهار، ولا إنكار عبادة البقر والحشرات، ولا إنكار أي شيء من الخرافات والأديان والمزاعم الأخرى الفاضحة التي لا يمكن التدليل على رفضها.

وهكذا، كل ما لا يستطاع إبطاله يجب إثباته لأن المعدوم لا يمكن أن يكون دليلاً على عدمه لأنه معدوم، والمعدوم لا يكون إثباتاً، وإنما يمكن الاستدلال على عدم المعدوم بوجود ينافي وجوده!

فإذا قيل: إنه يستطاع إبطال أمثال هذه الدعاوى بالتحدي أي بأن يقال مثلاً:

إذا كان هذا الذباب هو إله العالم أو رسولاً لإله العالم فإننا نطلب منه، بأسلوب التحدي وغرضه، أن يأكل الشمس أو أن يحولها إلى رغيف عالمي ليأكل منه كل الجياع في العالم دون

أن ينفد أو تحتاج الشعوب الجائعة العاجزة أن تستجدي الخبز من الآخرين بأسلوب الطفولة الضارعة المتحدية، أو بأسلوب الباكي المهدد أو المهدد لأنه باك أو الباكي بأسلوب التهديد، أو المهدد علناً وخطابة والباكي سراً ومناجاة ـ كما نطلب منه ـ أي من الذباب ـ أيضاً بأسلوب التحدي وأغراضه حينما يزعم أنه إله أن يقتل جميع الطغاة المنتشرين في العالم، يذلون كرامة الإنسان وكبرياءه ويسحقون ذكاءه ورخاءه، وأن يقضي ـ أي الذباب ـ على كل الأمراض والمجاعات والآلام، ويرتفع بالبشر إلى مستويات عقلية وأخلاقية وجسدية أعلى وأفضل.

فإذا لم يستطع ـ أي الذباب أن يفعل ذلك أو يرد على التحدي أي رد بطلت ألوهيته ونبوته وكل دعاويه، وثبت حينئذٍ أنه ليس إلا ذباباً يقع على العفونات ثم ينتقل منها إلى طعام الإنسان وعيونه متحدياً لشممه وشموخه ولإيمانه بالنظافة، يفعل ذلك في موكب من النشوة والزهو ومشاعر الانتصار على الإنسان المتعالي بمذاهبه وعقائده وشعاراته، المتدلي بحياته ومستوياته النفسية والأخلاقية.

إذا قيل هذا قيل:

لو كان هذا التحدي والاستدلال به صحيحاً لأسقط ألوهية الإله أيضاً لأنه مهما طلب منه تحت ضغط التحدي وبلا تحدٍ وتحت كل الظروف والحالات فإنه لن يفعل شيئاً وسيهزم حتماً أمام كل التحديات في جميع الأوقات. ومع هذا فقد يكون التحدي أسلوباً صحيحاً أو برهاناً صحيحاً، ولكنه يسقط حينئذٍ ألوهية الإله وألوهية الذباب معاً لأنهما لا بد أن يعجزا أمام كل تحد.

إن قضية الإله وقضية وجوده ليست من القضايا الصغيرة التي تترك مفتوحة أمام الاحتمالات وأمام النفي والإثبات، إنها قضية كبيرة جداً والأدلة على إثباتها يجب أن تكون كبيرة وضخمة جداً، وكذا الأدلة على نفيها. وإذا لم توجد هذه الأدلة الكبيرة الضخمة لهذا الرأي أو للرأي المضاد لم يصح النفي ولا الإثبات.

وفكرة الإيمان لم تجيء من العجز عن الإنكار، ولكن جاءت من أنه لا يمكن إلا الإيمان. إن فكرة الإيمان بالله عند المؤمنين تملأ عليهم وجودهم، إنهم لو أغلقوا كل رؤيتهم وعقولهم وأحاسيسهم لظلوا لا يرون ولا يفهمون ولا يحسون سواه، ولو أنهم هربوا من كل مكان لوجدوه أمامهم أيضاً، إنهم لا يستطيعون الهرب منه أو الشك فيه أو العجز عن رؤيته، لأنهم هم هو، هم قطعة صغيرة منه. وهل يستطيعون ألا يجدوا أنفسهم أو ألا يروها أو ألا يثبتوها إلا بالعجز عن إنكارها؟

إنه إذا أمكن أن يكون الإله غير موجود فلن يكون موجوداً، لأن الإله ليس احتمالاً من الاحتمالات. وهو لا يمكن أن يستدل عليه بمثل هذا المنطق الذي معناه:

«حيث إني لا أعلم ولا أستطيع، إذن أنا أعلم وأستطيع».

إن الله في جميع افتراضاته ليس وجوداً ذاتياً، ليس لوحة في متحف، ولا جثة محنطة في مقبرة تاريخية، ولا شيخاً مريضاً مسجلاً في ديوان المحالين على التقاعد، لا يثبت وجوده سوى توقيعه أمام موظفي المعاشات وسوى سجل الطبيب الذي يعالجه من أمراض الشيخوخة ويثبت أنه لا يزال حياً. ولكن الله في جميع افتراضاته وجود كوني فعال هائل، إنه علم وعدل مطلقان، وإنه رحمة وقدرة مطلقتان، وإنه فضائل مطلقة، إنه كمال لا حدود له، وإنه فنان وشاعر لا حد لعبقريته، وإنه كل الحب والصداقة والخير. فهل يوجد الله في هذه المستويات في أي مكان أو في أي شيء؟

إن مكان الله هو الكون والإنسان، ولا يوجد أي مكان ولا أي شيء غير الكون والإنسان يعرض الله ذاته بهذا المستوى فيه، فإذا لم يوجد الله بصفاته هذه في الكون أو في الإنسان فأين يوجد؟

إنه لا وجود لأي شيء بدون صفاته وشروطه، وصفات الإله وشروطه ليست موجودة، بل إن كل وجود ينافي وجود هذه الصفات والشروط.

من الهزل الزعم أن الكون أو الإنسان محكوم بمشيئة إله أو بعدله أو برحمته أو بقدرته أو بذكائه، فهل يوجد إذن في الكون أو في الإنسان أي إله؟ وهل يوجد الإله في مكان أو في شيء لا توجد فيه صفاته؟ وإذا لم يكن الله موجوداً في العالم ولا في الناس بل ولا في الحيوانات والحشرات التي يقتلها العبث والضياع والجوع ثم الموت الذي ليس أقسى في قسوته وفي فقده للمعنى والمنطق من الحياة ـ نعم إذا لم يكن الله موجوداً في شيء من هذا لأن أفعاله وأخلاقه ليست موجودة فيه، بل موجود نقيضها فأين إذن يوجد؟

وإذا كان من المنطق أنه لا فعل ولا أثر بدون فاعل ومؤثر فكيف يمكن وجود فاعل ومؤثر بدون فعل وأثر؟ وهل يمكن افتراض حكومة وجيش وشرطة كاملة الأداة لا تفعل شيئاً يدل عليها؟ هل توجد حكومة بلا حكم، أو هل يوجد إله بدون صفات إله، أو حيث توجد صفات تناقض صفات الإله، أو حيث لا يوجد إلا كل ما يناقض الإله ويسبه؟ إن الكون الذي هو دليل الإله أو الذي يراد منه أن يكون دليل الإله هو الدليل المناقض للإله. إنه لا إله لولا الكون ولا إله مع الكون، فالشاهد الوحيد للإله هو الشاهد الوحيد ضده، إن شاهد الألوهية هو قاتلها.

بدون الكون بأي شيء يمكن الاستدلال على الخالق، ومع وجود الكون أي شيء فيه لا يرفض الخالق؟

لقد حاول المؤمنون أن يفروا من الإيمان بالصنعة والحكمة والعدل من غير صانع وحكيم وعادل، فصاروا إلى الإيمان بالصانع والحكيم والعادل من غير صنعة ولا حكمة ولا عدل. إن

المسألة تنتهي في معناها إلى أنها إيمان بإله أو افتراض وجود إله من غير ألوهية، وهذه قد تكون نتيجة محتومة، فالبشر مهما آمنوا بالآلهة فلن يوجد فيهم من يستطيع أن يؤمن بالألوهية، إن الإيمان بالألوهية غير مستطاع مهما كان الإيمان بالآلهة مستطاعاً لأن الإيمان بالألوهية يعني أن الكون إله، وكون الكون إلهاً يعني أشياء كثيرة رديئة، يعني الهجاء لمعنى الإله والهجاء لنا، ويعني أيضاً أننا غير موجودين.

وآخرون يوجبون الإيمان أو يرجحونه لأسباب غير منطقية، بل لأسباب نفسية أو أخلاقية أو نفعية أو إنسانية، لأن الإيمان فيما يظنون يهبهم الرضا والسرور والأمل والصبر على ما يلقون ويرون.

ولكن هل يستطيع الناس أن يؤمنوا على مثل هذه الحسابات، هل يستطيعون أن يؤمنوا لمجرد أن الإيمان أفضل لهم؟ هل أستطيع أن أرى نفسي وأقدرها بالصورة والمكانة التي أريدها، أو بالصورة والمكانة التي هي أفضل لي وأفضل في حكم الآخرين ورؤيتهم؟ هل أستطيع أن أرى المرآة كما أريد أن أراها؟ هل أستطيع أن أعتقد، أو هل يكون شيئاً طيباً أن أعتقد بأني أفضل الناس وأعلمهم وأقواهم وأجملهم وأشهرهم لأن هذا الاعتقاد أفضل لي، ولأنه يهبني البهجة والارتياح والكبرياء، أو لأني أريد أن أعتقد ذلك؟ وهل إذا قال الطبيب للمريض إنه يفيدك أن تؤمن بأنك غير مريض بل إنك أعظم الناس صحة وإنك لن تموت يستطيع المريض أن يؤمن بذلك؟

وكم هو عجيب أو مخيف أو بشع أن يؤمن كل إنسان بما يريد لنفسه وبما هو أفضل له وبما يجلب له السرور والرضا.

إننا نحن البشر نريد جميعاً أو قد يرضينا جميعاً أن يكون العالم الذي نعيش فيه عالماً كله مسرات وحق وعدل وصداقة ومحبة وجمال، لا آلام فيه ولا عداوات ولا أحقاد ولا نقائص أو غباء أو جهل أو فناء، فهل نؤمن أو هل نستطيع أن نؤمن، أو هل يجدر بذكائنا وأخلاقنا أن نؤمن بأن عالمنا كذلك؟ أليس خيراً لنا أن يكون لنا آلهة فضلاء لا عداد لهم ليتنافسوا في صنع مرضاتنا وسعادتنا، وليتعاونوا على القيام بوظيفة الألوهية، مكملاً بعضهم بعضاً، وحينئذٍ لا يضعفون أو يغفلون أو ينامون أو يقصرون.

فهل نؤمن بوجود هؤلاء الآلهة جاعلين من حاجتنا إليه برهاننا عليه؟ هل يعقل أن نريد هذا الإيمان، وهل لو أردناه استطعناه، وهل لو أردناه واستطعناه فعلناه، وهل لو حدث كل هذا نكون فضلاء أو عقلاء؟

وإنه لمفيد لنا أيضاً أن يكون الإله الذي نؤمن به ذا طبيعة واحدة، يعطي ويعفو ويغفر ويهدي ويحيي ويعالج ويرضى، لا ذا طبيعة مركبة فيها إلى ذلك الانتقام والمنع والاضلال والأمراض

والقتل والقسوة والغضب. فهل نؤمن به وحداني السلوك والهوى لأن ذلك أفضل لنا وأجدر بأخلاقه هو؟

وبعد فكيف يكون وجود الإله أفضل لنا؟ إن وجوده يعني محاسبتنا ومراقبتنا، ويعني الثواب والعقاب ويعني الجنة والنار.

ويعني أيضاً أن يصوغنا كما يشاء لا كما نستطيع أو نريد ونستحق. إن الأفضل لنا ألا تكون فوقنا قوة هائلة مطلقة مثل قوة الإله، تسلبنا الحرية وتحاسبنا أقسى محاسبة وتضعنا تحت أقوى رقابة وتخلقنا بمشيئتها ثم تحكم علينا بالخلود في الجنة تحت أضعف الاحتمالات وأقلها، وتحت أقسى الشروط وأعصاها، أو في الجحيم تحت جميع الاحتمالات وفي كل الظروف.

إن أضعف احتمال من احتمالات الجحيم ليبصق على كل احتمالات الجنة ويسخر منها ـ أعني لو كانت الجنة شيئاً طيباً ومرغوباً فيها، وأن رجفة واحدة من رجفات الخوف من أهوال الجحيم لتغطي على كل أفراح الجنة وأشواقها وعلى كل حورياتها وغلمانها، وأن زفرة واحدة من زفرات النار لتحول كل جمال الجنة وشهواتها إلى دمامات وغثيان، وتحول التفكير فيها إلى أوقح أساليب البذاءة.

إن وجود الإله يجعلنا محكوماً علينا بأن نعيش عراة، ونشعر أننا عراة، وأننا لا نستطيع أن نستتر، إننا حينئذٍ نعيش تحت أقسى وأقوى رؤية آمرة ناهية فيها كل معاني التطلع المتدخل والإرهاب الرهيب.

إن وضع الإنسان دائماً عارياً تحت نظرات الإله القاسية لهو نوع فظيع من التعذيب والفضح والافتضاح، ولئن كان عجيباً أو فظيعاً أن يتحمل الإنسان كونه مرئياً هكذا فإن أعجب وأفظع من ذلك أن يتحمل الإله كونه رائياً هكذا، إن هذه القضية ليست قضية فضح فقط بل وافتضاح أكثر ـ إنها عذاب للعاري وعذاب للناظر.

فهل من الأفضل حقاً للإنسان أن يكون فوقه إله؟ وإذا كان ذلك هو الأفضل حقاً فهل يستطيع الإنسان أن يمتلك دائماً الأفضل أو أن يقتنع به؟ فالذين يقولون يجب الإيمان لأن الإيمان أفضل لنا قوم يعالجون قضية نفسية ومنطقية وإنسانية معالجة لفظية، أي يحلون الواقع أو يحاولون أن يصنعوا الواقع، أو يكيفوه بالمقارنة اللفظية بين الأشياء ونقائضها، أي بين ما يريدون ويرونه الأفضل لهم، وبين ما يرفضون ويرونه الأردأ لهم!

إن الإيمان لا يدرك بالممارسة أو بالأخذ أو بالاختيار أو بالمقارنة بينه وبين نقيضه، إنه لا ينال بوضع اليد، وإنما هو حالة نفسية واقتناعية تصنعها ظروفها المختلفة الموجبة، وهي حالة لا تؤخذ بالطلب وبالأمر أو بالاختيار بين شيء وشيء.

إن الذي لا يستطيع أن يؤمن لا يستطيع مهما اقتنع بأن إيمانه سيصنع له أضخم فردوس في السماء أو في الأرض، أو يمنحه انخداع العالم به ورضا الناس جميعاً عنه واتباعهم له في غباء وطاعة.

ومع هذا فالإيمان ليس بهذه المكانة من الصداقة والبر بالبشر، بل إنه ـ أي الإيمان ـ خصم قاتل لو أمكن أن يوجد مؤمن يتوافق مع إيمانه ويحترمه. فالذي يدرك أن الحياة، أو أن الأشياء أسباب ومسببات، وأن الارتباط بين هذه الأسباب والمسببات ارتباط آلي محكوم بذاته المحكومة بنفسها، لا تتدخل فيه مشيئة إله ولا أية روح ولا أي تفكير، ويدرك أن الخير والشر وكل شيء نتائج وقوانين طبيعية، لا يستطيع أي إله أو أي منطق أن يتعدى عليها ـ نعم، الذي يدرك ذلك يكون حتماً أكثر وثوقاً بالحياة والكون والأشياء وبنفسه، وأكثر رضا عما يحدث، وعن الضربات الآلية الغبية التي تحكم الطبيعة، من المؤمن الذي لا يرى في الوجود إلا قدرة مطلقة مستبدة تعبث بها الانفعالات وحب الذات، لا يستطيع أن يفهمها أو أن يخضعها أو يضبطها بقانون منطقي أو أخلاقي ولا بأية آلية أو أية تقاليد قديمة أو حديثة، أو بأي أسلوب من أساليب السمت النبيل.

إن المؤمن لو استطاع أن يلتزم معنى إيمانه لوجب أن يصاب بالجنون!

إن آلية الكون هي الضمان لكي نثق به ونتعامل معه، ونستقر فيه وننام فوقه، ونرتب أمورنا معه، ونشيد من جسمه وأعضائه أعمالنا وبيوتنا ومصانعنا كأنه صديق، كأنه أعظم صديق أمين، بل كلا، فالصديق ـ أي صديق ـ لا يمكن أن يوثق به أو بأخلاقه وأهوائه وتقلباته كما يوثق بآلية الطبيعة وصدقها الذي ليس أخلاقياً.

إننا جميعاً لنثق بالجدران وبالكراسي التي نجلس عليها، وبالخزائن الحديدية وبالمحاريث التي نشق بها صدر الأرض ـ نثق بأمانتها وصدقها أكثر مما نثق بأي زعيم أو قديس أو صديق أو بأي روح سماوي، لأن الجدران والخزائن والمحاريث لا تستطيع أن تخون أو تكذب أو تنحرف أو تتقلب تحت الظروف والإغراءات المتقلبة.

أما الكائنات المفكرة المريدة القادرة فإنها تستطيع ذلك أي تستطيع أن تكذب وتخون وتضل، لهذا لا يمكن أن نثق بها كما نثق بالحجارة وبالطبيعة الآلية.

وجميع تقديراتنا وأعمالنا الذهنية والمادية ونشاطاتنا كلها قائمة على افتراض أن الكون آلي لا تتدخل فيه أية مشيئة، ولا أية قدرة مطلقة ولا أي إله طيب يرضى ويغضب ويحاسب ويعاقب ويقول للشيء كن فيكون.

هل يمكن أن نثق بالتعامل مع الكون لو كان فوقه إله له مذهب من المذاهب أو عقيدة من العقائد المتعصبة، يعاقب على الخروج عن ذلك المذهب أو تلك العقيدة، كما يفعل أصحاب

المذاهب والعقائد والثوار المتعصبون القساة؟ إننا بنفي هذا الاحتمال نتعامل مع الطبيعة كعميل لا يستطيع أن يخون أو يقاتل بالمذهب والعقيدة والفكرة وبالدفاع عن النظام وبالرضا والغضب وبالحب والبغض والأهواء المتقلبة كما تفعل الآلهة والبشر.

إن الذي يرقد بجوار نهر أو تحت نجم، وهو يراهما محكومين بآلية لا تملك حرية الغدر والعدوان أو الخروج على نفسها سيكون اطمئنانه إليهما، ووثوقه بأسبابه وهدوءه النفسي أعظم مما يحدث للمؤمن الذي يراهما محكومين بالمشيئة الجبارة الفعالة بلا قيود، أو أعظم مما يحدث لمن يراهما خاضعين للأخلاقية أو للمذهبية أو للدين أو للتفكير أو للرضا والغضب. فالذي تحكمه الأخلاق أو المذاهب أو الأفكار أو الأديان أو العواطف لا يمكن أن يكون مأموناً.

إن أخطر الناس وأكثرهم وحشية وخلقاً للخوف هم أصدق الناس وأقواهم مذهبية وتديناً وأخلاقية، إنهم أقسى وأكثر توحشاً من القتلة واللصوص العاديين.

عجباً! كيف لا يصاب بالجنون أو بالموت رهبة وانصعاقاً من يقف فوق جدار تمسكه روح، أو من يعيش في عالم تحكمه وتأمره وتنهاه قوة روحية مطلقة تهزها وتهز وقارها أن يشتهي الإنسان، وأن يستجيب لشهواته الطبيعية، وتخضع ـ أي تلك القوة الروحية ـ لجميع الانفعالات الصغيرة والكبيرة، وترقب كل شيء حتى النظرات الهامسة والخفقات المختنقة خوفاً ـ ترقب كل شيء بتوتر متعصب، وترضى وتغضب بلا ميعاد أو وقار، وتعاقب على الرأي والمذهب والخلاف والرغبة، وتتحرك بالرأي والمذهب والخلاف والرغبة أقسى مما يفعل أي زعيم ثوري!

وقد احتالت الحياة على أن تجعل المؤمنين غير متوافقين مع إيمانهم، إذ لو توافقوا مع اعتقادهم بروحانية الطبيعة أي بكون الأرواح تحكمها لوجب أن يفروا منها ـ أي من الطبيعة ـ كما يفرون من الوحوش الضارية الجائعة الطليقة، ولم يكن ممكناً حينئذٍ أن يهدؤوا فوقها إلا بقدر ما يستطيع المرء أن يهدأ بين أشداق وأظفار الأسد الجائع المغضب.

ولكن كيف يقال إن الحياة قد احتالت؟ أليست هذه فكرة لاهوتية؟ هل الحياة تحتال وما هي الحياة ولماذا تحتال؟ وهل لديها هدف تريد أن تحققه بهذه الوسيلة الاحتيالية؟ ولمن هذا الهدف أو يخدم من؟ إذن الحياة لم تحتل لتجعل الإنسان غير متوافق مع إيمانه، ولكن الإنسان نفسه بالتناقض مع إيمانه وبالتصادم بالأشياء أصبح في سلوكه وفي إحساسه خارجاً على إيمانه.

إن المؤمن إنسان مركب، فالحياة تلقنه أنها آلية ذاتية فيتعامل معها على أنها كذلك، أما عقائده فتعلمه أن الطبيعة روحانية محكومة بالمشيئة من الخارج، فيؤمن ولكنه يضطر إلى عصيان إيمانه، فالذي يلائمه يطيعه ولو لم يؤمن به، والذي لا يلائمه يعصيه مهما آمن به، فجاء الإنسان ـ وهذا شيء دائم لا يختلف ـ عاصياً لأربابه مهما آمن بها وعبدها بل واحترمها، مطيعاً لحياته

وضروراته المخجول منها مهما احتقرها أو لعنها ـ وكذلك هو دائماً مع مذاهبه ونظرياته كما هو مع أربابه وأديانه.

كيف يمكن أن يكون الأفضل للإنسان أن يعيش كل حياته مهدداً بالغضب والانتقام السماويين، فإذا مات واجه ما هو أشد وأفجع، واجه الحساب والعقاب وجهنم التي لن يفلت منها لأنها قد وضعت شروط للإفلات منها لا يقوى عليها حتى ولا الذين بشروا بها وحذروا منها، بل حتى ولا المعاقب المجازي بها لو كان مكلفاً بالتزامها، كيف يمكن أن يشعر بالسكينة أو الرضا أو بالتفاؤل من يعيش تحت هذه الاحتمالات؟

أي قرار أو راحة أو مزية لمن يعيش بين عوالم لا حصر لها من الأرواح المصابة بالغضب والورع والغيرة والبسالة التي تعاقب من تقاها وأخلاقيتها على الابتسامة والفرحة والنجوى، وعلى اللمس المرتجف حتى ولو كان بدون ري أو ارتشاف، والتي لا تطيق أن ترى المسرورين والمنشدين أناشيد الترحيب بالقمر أو المقبلين لطلعته من وراء السحاب والمسافات، والتي تدخر كل أساليب التنكيل بمن يناقشون الكون أو لا يصلون لأخطائه، أو يحتجون عليه لأنه خلق الإنسان دون أن يستأذنه في خلقه أو في الصورة التي يخلقه عليها أو في الظروف التي يلقى به فيها، والتي ترى الأشياء دون أن تراها الأشياء، والتي تصيب ولا تصاب، وتقتل بلا جيش أو سلاح.

كيف يكون الأفضل للبشر أن يكون فوقهم طاغية لا حد لقدرته ولغيرته ولغضبه ولحبه لذاته ولبحثه عن المجد الذاتي، أو فوقهم طغاة لا عدد لهم من النوع نفسه؟

ما أعظم الفرق بين مشاعر من يقف أمام ليث مكتوف بالأسوار الحديدية التي لا يمكن اقتحامها وبين مشاعر من يلقى أمام وحش طليق فيه كل الأظفار والأنياب والجوع والغضب والجنون والقوة، وفيه أيضاً كل الإيمان بأعنف العقائد والنظريات.

ما أخطر الحيوان المفترس لو كان مفكراً ومتديناً وأخلاقياً والمؤمن بأن الكون محكوم بإله أو بأية روح تفكر وتريد وتتحرك بالإرادة وبالمذهب والنظرية وتؤاخذ على ذلك، هو كالذي يقف أمام الوحش الطليق الذي فيه كل الأظفار والأنياب والجوع والغضب والقوة مع كل الإيمان بالنظريات والمذاهب!

إننا في حالة آلية الكون نكون فيه سادة نحكمه ونوجهه كما نشاء بقدر ما نستطيع، أما في حالة روحانيته وعبوديته فإننا نكون فيه عبيداً مقهورين بقوة غيبية مثله لا نستطيع أن ننتصر عليها ولا أن نتفاهم معها، أو نعرف متى تفعل أو تكف عن الفعل، متى توقف النهر وإلى متى تتركه جارياً.

فأية الحالتين أفضل لنا، وأيهما نختار لو وضع أمامنا الخيار؟

إن الكون لو كان محكوماً بقدرة مفكرة مريدة مطلقة في قدرتها وإرادتها وتفكيرها لكان محتوماً أو محتملاً جداً فناؤه تحت حالة من حالات غضبه أو انزعاجه وتوتره وتقلب تفكيره أو احتجاجه على نفسه وفراره منها.

إن المفكر المريد القادر قد ينتحر في عمره القصير، فكيف لا ينتحر الكون في عمره الذي لا بداية ولا نهاية له لو كان مريداً مفكراً قادراً، أو لو كان محكوماً بالإرادة والتفكير والقدرة المطلقة؟

إن المفكر المريد القادر لا يحتمل أن يستمر يحكم هذا الكون ويشاهد آلامه وذنوبه ودماماته دون أن يقول له تفكيره ذات مرة: إن من الذكاء أن يفني كل شيء، وإن أبشع مستويات الغباء أن يستمر هذا العبث الأليم الحزين بلا نهاية، أو دون أن تدفعه إرادته أو قدرته المطلقة إلى الرغبة في أن يفني كل شيء في حالة من الحالات الكثيرة التي تتعاقب عليها الإرادة أو تتعاقب على الإرادة ثم تنفذها القدرة ـ بل إنه لمن المحتوم حينئذٍ أن تنتحر تلك القدرة المريدة المفكرة تحت أحد الظروف الكثيرة الملائمة للانتحار، وحينئذٍ لا بد أن يكون هذا الكون قد زال، لأن الحامي له من الفناء والخالق قد زال.

إن الانتحار أو التفكير فيه مستوى من مستويات القدرة والإرادة والمنطق.

ولكن سبباً واحداً قد أبقى الكون مستمراً في مسيرته الطويلة التي لا يدري عنها شيئاً، هذا السبب هو أنه بلا قدرة مفكرة حرة، ولم تكن تحكمه مثل هذه القدرة.

ماذا يمكن أن يحدث لو كانت الشمس والأجرام الأخرى كائنات روحانية حرة مفكرة، تؤمن بالمذاهب والنظريات والأخلاق والآلهة وتختلف عليها وتتعامل بها؟ من الصعب والفظاعة أن نستوعب حينئذٍ في أذهاننا كل الصورة الرهيبة التي لا بد أن يصير إليها الكون، إن هذه الصورة لا بد أن ترهق خيالنا وأعصابنا، وإن كان من المحتمل جداً أن يبتسم لها تفكيرنا ارتياحاً وترحيباً لأنه قد يرى فيما لا بد من حدوثه تحت ذلك الافتراض شيئاً طيباً وذكياً.

كيف لو كانت الشمس مثلاً روحاً مفكرة فاعلة بالتدين والمذهب والرغبة والمنطق والأخلاقية، أو لو كان القمر أو الأرض كذلك ثم اختلفا بأن كان أحدهما يدين بالإسلام أو بالشيوعية والآخر يدين بالنقيض، أو بأن كان أحدهما قومياً عربياً ثورياً حيادياً إيجابياً، والآخر شعوبياً رجعياً عميلاً للاستعمار، ثم التحما في نزاع مسلح؟

ثم كيف لو كان أحد الأجرام الكونية اشتراكياً عدوانياً بذيئاً متوتراً كالاشتراكيين الذين نعرفهم اليوم، والذين يمارسون اشتراكيتهم وعدوانهم وبذاءتهم وتوترهم فينا وضدنا، وكان البشر لا يدينون بهذه الاشتراكية التي هذه هي بعض صفاتها أو بعض صفات المنادين بها؟

أو لو كان أحد هذه الأجرام رأسمالياً أو إقطاعياً أنانياً سارقاً مستغلاً فظاً قاسياً، وكان البشر لا يدينون بهذه الرأسمالية الاقطاعية التي هي بعض صفاتها؟

كيف يمكن حينئذٍ أن نتصور ماذا سوف يفعل ذلك الجرم الكوني الاشتراكي بالبشر غير الاشتراكيين، أو ذلك الجرم الكوني الرأسمالي أو الاقطاعي بالبشر إذا كانوا يرفضون ذنوب الرأسمالية والاقطاعية؟

لقد كان من المستحيل أن يبقى الإنسان موجوداً أو يبقى الكون كذلك لو كان الكون عاقلاً مريداً روحياً، له مذاهب وعقائد ونظم وله قدرة يفعل بها، أو لو كانت تحكمه الأرواح أو الأديان أو المذاهب أو النظريات أو المثل أو النظم المختلفة. لقد كان محتوماً حينئذٍ أن يتعاقب عليه الثوار منه، يحكمونه ويحكم بعضهم على بعض بالموت، متهماً بأنه خائن أو متعامل مع الرجعية أو مع أعداء الثورة.

إنه حينئذٍ لا بد أن تقوم الشمس مثلاً بثورة ضد الآخرين أو المخالفين المتهمين بالفساد أو بأية تهمة من التهم التي يتحدث عنها كل ثائر يريد أن يقفز على الحكم أو يشفي آلامه المختلفة بالانتقام ممن ليسوا هم سبب آلامه، ثم لا بد كذلك أن تحكم الشمس الثائرة المنتصرة على أحد أتباعها أو على مجموعة كونية أخرى بالإعدام بتهمة معاداة الثورة العسكرية التي فجرتها هي وحدها أو متعاونة مع المجموعة الشمسية ـ كما لا بد أن يحدث العكس أي أن تثور مجموعة كونية أخرى ضد المجموعة الشمسية، أو أن تثور توابع الشمس ضد الشمس كما يحدث أن يثور جندي من جيش الملك أو من حرسه ضد الملك.

لقد كان المفروض أو المحتوم حينئذٍ أن يقتل الكون بعضه بعضاً باسم الثورات التي لا بد أن يشقى بها الكون كما شقي ـ وسوف يظل يشقى ـ بها البشر. وقد يكون هذا الذي كان لا بد أن يحدث في الكون شيئاً جميلاً ومريحاً وطيباً.

إنه كان خطراً على الكون أن يكون ـ أي الكون ـ مفكراً ومريداً وقادراً وذا مذاهب ونظريات وعقائد وآلهة، ولكنه كان خطراً طيباً أو ليس رديئاً جداً، إنه حينئذٍ سوف يدمر نفسه ويقتل بعضه بعضاً بالثورات والحروب وأحكام الإعدام، وقد ينتحر أيضاً. ولكن أي خسران في هذا؟ ومن الذي سوف يخسر حينئذٍ؟

إن أية خسارة تخشاها أو تصيبك لن تكون إلا وأنت موجود حي، إذن فالوجود والحياة هما كل الخسران أو سببه أو وعاؤه أو ظروفه.

لقد عاش الإنسان طويلاً يقتات بخطأ شهير كبير، لقد ظل يؤمن بوجود قدرة مطلقة وذات مطلقة، وكان يتصور ذلك دون معاناة، كان ولا يزال يتصور ذاتاً لا حدود لأبعادها ولا لأعماقها.

إن القدرة أو الذات المطلقة وهم، إنها لا وجود لها ولا يمكن وجودها، بل وجودها ينافي وجودها ـ إن القدرة المطلقة أو الذات المطلقة أو الوجود المطلق يساوي العدم المطلق.

ماذا لو وجدت هذه الذات أو القدرة المطلقة؟ كيف يمكن حينئذٍ أو على أي قياس تتحدد في إرادتها أو فكرتها أو في فعلها أو في ظروفها؟ إن كل الفروض والاحتمالات والتصورات حينئذٍ سواء لديها، فكيف تختار أو كيف تكون أو كيف تخرج نفسها وتعبر عنها؟

هل يمكن أن يوجد جسم لا حدود له، ولو وجد مثل هذا الجسم فماذا يعني؟

إن الأشياء المطلقة تعني استحالتها في نفسها كما تعني استحالة غيرها، إنها لا يمكن أن تكون مفهومة أو مطلوبة أو موجودة، فالذي يجعل الأشياء مطلوبة ومفهومة هو تحدد القدرة نفسها أي عجزها بالنسبة لذاتها وبالنسبة لغيرها. إن كل ما يمكن أن يحدث إذا لم تكن القدرة متحددة غير مطلقة يكون حينئذٍ ممكناً إمكاناً متساوياً في حكم تلك القدرة المطلقة المفروضة.

والإمكانات في نفسها لا حدود ولا صور لها، والذي يضع حدودها وصورها هي القدرة التي تعمل فيها وتحددها وتعطيها صورها، فأي تلك الإمكانات هو الذي سوف يكون حدودها وصورتها وتعبيرها، وعلى أي منطق أو قانون أو مستوى ستختار تلك الحدود والصورة والتعبير، ولماذا كانت هذا دون هذا ودون كل هذا ولأي الأسباب؟ ولا يوجد فرض نفرضه إلا وهو مساو لغيره من الفروض في حساب أو إحساس أو حكم القدرة المطلقة، إذ لماذا أي فرض دون كل الفروض الأخرى المساوية؟ ومعنى هذا أنه لا وجود ولا شيء لو وجدت قدرة مطلقة.

إن الوجود والحياة عملية احتياج وتوافق، والتوافق والاحتياج أو البحث عنهما من صفات العاجزين، أو لا يكونان بدون عجز.

فالقادر قدرة مطلقة سواء لديه أن يفعل وألا يفعل شيئاً، وأن يفعل الشيء ويفعل نقيضه، وأن يفعل الشيء، وأن يهدمه، إنه لا يستطيع هو أن يعرف ماذا يريد، بل إنه لا يمكن أن يريد شيئاً. إنك إذا أردت شيئاً فأنت عاجز وفاقد شيئاً على نحو من الانحاء.

إن العاجز عجزاً مطلقاً كالقادر قدرة مطلقة، كلاهما لا يمكن أن يفعل ولا يمكن أن يكون موجوداً.

وفكرتنا عن الخير والحق والواجب والأصلح والعدل لا تعني إلا عجزنا واحتياجنا. إنه لتناقض أن نتصور قدرة مطلقة ثم نتصورها فاعلة أو باحثة عن الحق والخير والواجب والأصلح لأن ذلك كله ليس إلا تعبيراً عن التحديد، التحديد الفكري والإرادي والزماني. والفاعل لا بد أن يكون متحدداً في كل أبعاده ومعانيه، في تصوراته وإراداته وحركته ومنطقه وعاطفته، حتى العاطفة يجب أن تكون متحددة وإلا فلا شيء.

والقدرة المطلقة لا يمكن أن تفعل لأن الفعل تعبير عن الانفعال، والانفعال تعبير عن الحاجة والعجز والخوف والشهوة.

الموجودات لا تكون مطلقة، والمطلقات لا تكون موجودة لأن الوجود نفسه تقييد، والموجود محدد لا محالة. فكلمة «الوجود المطلق» كلمة لا معنى لها. والقيود والحدود هي من الصفات اللازمة للموجود دون المعدوم، ولا يمكن أن يتحرر موجود من أحكام وجوده وقيوده. فالوجود عبودية وعجز.

وإذا تصورنا موجوداً مطلقاً كنا كمن يتصور معدوماً متحدداً.

لنفترض أنك كائن مطلق في قدرتك وفي كل معانيك فهل يمكن حينئذٍ أن تخلق الشمس مثلاً؟ إنك لن تخلقها إلا إذا أردت خلقها، ولكن غير العاجز لا يمكن أن يريد، لأن الإرادة أسلوب من أساليب العجز.

ثم لماذا تخلقها أي الشمس؟ ألنفسك أم لغيرك؟ لنفسك لا يمكن لأنك مطلق، ولغيرك لا يمكن أيضاً إذ كيف يوجد غيرك، ولماذا توجده، فالإيجاد احتياج وعجز، وقد افترضناك مطلقاً أي لا تحتاج ولا تعجز؟ ثم لماذا تفعل من أجل ذلك الغير لو كان موجوداً؟

وأيضاً على أي قياس سوف تخلقها أي تخلق الشمس حينئذٍ؟ إنه يمكن بالنسبة لقدرتك المطلقة أن تخلقها على أي قياس وبأية صورة وبأي حجم وفي كل الظروف الممكنة والمحتملة والمتصورة؟ فلماذا تخلقها بهذه الصيغة دون جميع الصيغ الأخرى المماثلة؟ هل خلقتها كذلك لتكون متلائمة مع الأشياء الأخرى أو مع منطقك وفنك؟ ولكن الأشياء الأخرى لماذا تخلقها، وعلى أية صيغة تخلقها ولماذا تفعل ما يلائمها أو تبحث عنه، ولماذا يلائمها هذا دون غيره، ولماذا أنت نبيل لكي يفرض عليك نبلك أن تصنع التلاؤم بين الأشياء؟ إما أن تكون قد خلقتها كما خلقتها لتكون متلائمة مع فنك ومنطقك فكيف؟ وهل لمنطقك وفنك حدود لتتلاءم مع شيء دون شيء؟

إن الذي يتلاءم منطقه وفنونه مع أشياء دون أشياء هو المحدد دون المطلق.

إن تخيلنا للقدرة غير المحدودة، وحديثنا عنها ضرب من الاشتهاء لمفقود طالما تمنيناه.

فتصورنا للألوهية بكل أبعادها الضاربة في أقصى متاهات الأوهام ليس إلا تعبيراً غير ذكي عن أمنية غير ذكية.

قد يبدو أحياناً أن المؤمنين ـ نقيض ما كان يقال ويظن ـ أكثر انزعاجاً وبكاءً وانهياراً من الجاحدين أمام تزاحم الآلام والأحداث الشريرة الحزينة. فإذا كان هذا صحيحاً فقد يكون أحد أسبابه أن الجاحدين يكونون مدركين أنهم أحرار من أسر تلك القوة المطلقة غير المفهومة وغير

المفهوم ماذا تريد، وماذا تريد أن تفعل، وحينئذٍ يصنعون وجودهم وأخلاقهم وأوضاعهم كما يستطيعون، ولا تملى عليهم إملاءً. فهم يعلمون أنهم يدافعون عن أنفسهم وعن حياة يصنعونها هم، لا عن أشياء مجهولة منفصلة عنهم.

وقد يكون السبب أن المؤمنين يكونون غالباً ضعفاء بظروفهم ومواهبهم، لهذا آمنوا، لقد آمنوا لأنهم ضعفاء، ولم يتحولوا إلى ضعفاء لأنهم آمنوا، أو لقد اجتمعت عليهم أو فيهم أسباب وظروف الإيمان والضعف، دون أن يكون أحدهما سبباً للآخر، أي أنهم ضعفاء ومؤمنون، وليسوا ضعفاء لأنهم مؤمنون، وليسوا مؤمنين لأنهم ضعفاء.

إن الناس ينهارون ويبكون، أو يثبتون ويغنون أمام وقاحات الطبيعة لأنهم أقوياء أو لأنهم ضعفاء، لا لأنهم مؤمنون أو غير مؤمنين. والأفكار والعقائد والمذاهب لا تهبنا القوة أو الضعف مهما كانت قوية أو ضعيفة، ولكن نحن الذين نجعل الأفكار والعقائد والمذاهب قوية أو ضعيفة أو نجعلها تبدو كذلك، كما أنها لا تهبنا الذكاء أو الغباء ولا الدمامة أو الجمال.

إن المنكرين قد يكونون أقدر على تنظيم حياتهم تنظيماً علمياً قوياً، كما قد يكونون أعرف بذلك، وهم ينظمون حياتهم هذا التنظيم ـ إذا فعلوا ـ لأنهم قادرون لا لأنهم منكرون، وهم قادرون لأنهم استطاعوا أن يكونوا كذلك تحت الظروف الملائمة.

إنه ليس من الصواب اتهام الإيمان بأنه هو الذي صنع ضعف المؤمن أو قوته، كما أنه ليس كذلك من الصواب أن نتهم الخروج على الإيمان بأنه الصانع لمزايا غير المؤمن أو لرذائله.

*

ومع هذا فما الذي يجب أو يمكن أن نشعر به إزاء وجود الإله إذا كان موجوداً؟ هل المفروض حينئذٍ أن ننظر إلى وجوده كفضيلة وصداقة وحب وهداية طيبة، أم ننظر إليه كمحنة ومأساة نعاني منها ونواجهها بصبر أو بجزع وبكاء، ونعايشها بحنق العاجز المغلوب على أمره ـ بحنق وحيرة من يرى الكون كله يسقط فوقه؟

هل نشعر بالسعادة والرضا والحب والاحتمالات المنتظرة الملائمة إذا كان الإله موجوداً، أم نشعر نحو وجوده بالرهبة والقهر والهزيمة والبكاء، كما نشعر نحو أقوى وأعتى طغيان جاء إلينا ليسحقنا ويفرض جبروته علينا ويتصرف فينا كمريض يتعالج من آلامه بتعذيبنا وتحويلنا إلى صلوات وضراعات لكبريائه التي لا يمكن الشفاء منها، ليفعل بنا على حساب آلامنا لحساب مسراته الغامضة ما يريد، ولا يفعل لنا ما نريده نحن رحمة بنا أو صداقة أو شهامة أو عدلاً أو محبة، على حساب إرادته التي لا يمكن أن يعرف كيف تكون؟

إن هذا الكون ـ وهو الهبة الوحيدة التي وهبنا إياها هذا الإله الطيب ـ كون مشوه ونحن

نعيشه ونعيش فيه مشوهين بكل التشويهات الأخلاقية والفكرية والنفسية والسلوكية التي لا بد أو التي كان المفروض أن تجعلنا نشعر بالرهبة والكآبة والضآلة والاشمئزاز والغيظ والسخط والخجل، لا بالفخر أو السرور أو الكبرياء.

ولكننا لطول إلفنا لأنفسنا وممارستنا لها، ولطول إلفنا وممارستنا لهذا الكون المهين الذي أهداه لنا ذلك الإله النبيل هان علينا كل شيء مهين، هانت علينا أنفسنا وهان علينا كل ما نلقى ونمارس ونرى من عار وسقوط ودمامة وبذاءة وألم، وفقدنا القدرة على الشعور المضاد لكل ما نمارس أو يمارس ضدنا أو فينا من حقارات وتفاهات.

لقد ذهبنا ـ لطول ما هانت علينا أنفسنا وهانت علينا الأشياء لطول الإلف والممارسة ـ نشكر ونرضى ونغني ونصلي ونفاخر ونخطب امتداحاً لمستوياتنا النفسية والأخلاقية الباذخة. وقد كان المفروض أن ننكر ونغضب ونكتئب ونخفض من شموخ هاماتنا تواضعاً وشعوراً بالخجل والعار مما نحن ومما نريد ومما نصنع ونحيا ومما ننتظر ومما يصعد إليه طموحنا، ومما يصنع لنا السرور والتباهي.

إن الناس جميعاً يمارسون أنفسهم وحياتهم والآخرين والكون الذي يعيشونه والإله الذي يؤمنون به ممارسة هي العار والبذاءة والافتضاح والتفاهة، ولكن إلفهم الطويل لهذه الممارسة جعلهم لا يرفضونها ولا يخجلون منها، بل يمجدونها ويعرضونها كأمجاد يذل عرضها الحاسدين والمنافسين.

إن أكبر وأعظم زعيم في العالم ليمارس زعامته ونفسه والآخرين بأسلوب هو الحقارة والسقوط والغباء والسخف، ولكن كيف يرى هو نفسه أو كيف يراه الآخرون!

*

صديقي القارىء، قد تجد أنت كما قد أجد أنا في هذا الكلام شيئاً مما ننكر ونرفض ونهاب. والواجب على من يواجه مثل هذا الموقف ويشعر نحوه بالمرارة وبالإساءة إلى الله والحزن من أجله لخروج الخارجين عليه ـ الواجب على من يواجه مثل هذا أن يؤمن ويتدين أكثر وأن يضاعف من إيمانه وتدينه لكي يعوض على الله إيمان من خرجوا عليه، وليسدد حساباته وديونه الواجبة الأداء على الذين لم يستطيعوا أن يؤمنوا ويسددوا.

إن الإله إذا كان يغضبه ويسيء إليه ألا يؤمن به كل الناس ويصلوا له، وإذا كان يطالب الناس جميعاً بأن يمنحوه إيمانهم وعبادتهم ليرضى ويسعد، فالتفسير لهذا أنه يبحث عن مقادير معينة وكبيرة من الإيمان والعبادة لكي يبتهج ويغفر.

فإذا كفر فريق من الناس أو بدا لنا أنهم كفروا فالواجب علينا حينئذٍ أن نؤمن نحن ونعبد

أكثر وأكثر، ليكون في عبادتنا وإيماننا التعويض المرضي والكافي للإله، وأن نشعر بأن علينا الالتزام بهذا السلوك التعويضي، وأن نتعمده وأن نقتنع بأن الإله يرحب به ويرضاه منا. وتسديد التقصير والديون عن الآخرين العاجزين أخلاقية لا يرفضها الناس ولا ترفضها الآلهة الطيبة، وتسديد ديون وحسابات الإله هو أفضل الأساليب الأخلاقية.

وكما أنه يجب على البشر أن يكونوا متضامنين ومتعاونين أمام حماقات الطبيعة المعادية وفي خلقهم للظروف المواتية لهم، فإنهم كذلك يجب أن يكونوا متعاونين ومتضامنين في وجه غضب الإله الرهيب وفي تسديد حساباته وديونه وفي خلق الظروف الإيمانية والعبادية المرضية له.

إن الإله يبحث عن حالة ترضية معينة يؤديها له البشر، وهو لا يشترط شروطاً فيمن يوجدون له هذه الحالة، لا يشترط أن يوجدها كل الناس أو بعضهم أو قوم معينون، إنه يريد فقط حساباته وديونه على البشر، وليؤدوها ويسددوها كيف شاؤوا.

إذا كان كل الناس يهبون الإله مستوى معيناً أو مقادير معينة من الإيمان والعبادات والحب، ثم تخلى بعضهم عن أداء واجبه من هذا الإيمان والحب والعبادات فنقص بسبب هذا ذلك المستوى المعين أو المقادير المعينة من الإيمان والعبادة المرفوعين إلى الإله كان مفروضاً أن يغضب الإله وأن يطالب بتسديد المستوى المعلوم الذي يحدث عنده رضاه، فإذا ضاعف الفريق الطيب من إيمانه وصلواته وحبه للإله الغاضب فأوجد بهذه المضاعفة المستوى المطلوب الذي يصنع رضا الإله والذي كان يؤديه جميع البشر وجدت حالة الترضية التي لا بد منها للإله، والتي يريد أن يجدها لدى الناس سواء أدوها جميعاً أم أداها فريق منهم أراد أن يسدد حساب من تخلوا عن مكانهم في طابور المؤمنين العابدين.

إذن فالمطلوب من المؤمنين أن ينشطوا في إيمانهم وتدينهم وضراعتهم للإله كلما رأوا المارقين والمقصرين ليكون نشاطهم هذا تعويضاً للإله وتسديداً لديون إنسانية، وهذا أفضل من كل غضب وكره يحمله الذين يؤمنون على الذين لا يؤمنون.

وإذن فالمطلوب من كل زنديق أو شاك أو متخلف عن مكانه في صفوف المؤمنين المصلين أن يعلن عن ذلك لكي يعوض عنه في تسديد حسابات الإله المؤمنون الآخرون الباقون على إيمانهم واستقامتهم بالمضاعفة من الإيمان والاستقامة.

ولكن أي دين على البشر للإله، أو أية حسابات يطالبهم بها؟

إن المؤمنين يرون أن الله قد خلق الناس لعبادته، وهل من خلق أو صنع شيئاً أو إنساناً لكي يخدمه أو يعبده أو يحقق له مصلحة أو هوى نفسياً يكون الموقف موقف دائن ومدين، أي يكون الخالق أو الصانع الباحث عن مصلحته وهواه وعن أن يعبد ويخدم دائناً للمخلوق أو

المصنوع، ويكون المصنوع أو المخلوق مديناً يمن عليه ويطالب بالحسابات والديون التي لا بد أن يؤديها هو أو يؤديها الآخرون عنه وإلا فلا بد من الغضب والعقاب؟

إن من أوجد إنساناً أو حيواناً أو شيئاً ليكون له عبداً أو خادماً لا يمكن أن يفترض دائناً أو محسناً يستحق الشكر، بل الصواب أن يفترض مديناً وأن يكون المخلوق المصنوع دائناً لخالقه وصانعه!

*

كل التاريخ في كل المجتمعات والمستويات يدل على أن عقائد الإنسان دائماً تهدد تفكيره، ولا يهدد تفكيره عقائده، وإنه دائماً يخشى من طغيان الآلهة على البشر، ولا يخشى من طغيان البشر على الآلهة.

ولكن من جهة أخرى يخشى دائماً على آلهة البشر وعقائدهم وتفكيرهم من سلوكهم وأهوائهم، فمهما كان طغيان الآلهة والعقائد فإنها مهزومة دائماً في معاركها ضد الأهواء والسلوك.

إن المنتصر الذي هو الآلهة والمعتقدات، والمهزوم الذي هو التفكير والمنطق كلاهما مهزوم في نضاله ضد الظافرين الأعظمين اللذين هما الهوى والسقوط السلوكي والأخلاقي.

إنه لا يحدث أن ينتصر الناس على عقائدهم وأربابهم، إنه لا يحدث أن ينتصر تفكيرهم أو شرفهم أو حريتهم، وإذا بدا أن هذا حدث فالمعنى أن عقائد وأرباباً أخرى قد انتصرت تحت شعار انتصار الإنسان، بينما الإنسان مهزوم في الحالتين، أي مهزومة أخلاقه وكرامته ومنطقه. والإنسان حتماً يعصي أربابه وعقائده ولكنه لا يحتج عليها، وإذا احتج عليها فليس لمصلحة كبريائه أو ذكائه أو حريته أو شرفه، بل لمصلحة معتقدات وأرباب أخرى قد جاءت لتزاحم غيرها، ولتفترس الإنسان وتذله. إن المفروض على الإنسان أن يتخذ دائماً موقف المقاومة لطغيان آلهته وعقائده ومذاهبه، محاولاً أن يصيبها بالوهن والهزائم انتصاراً لحريته وكرامته وذكائه، لا أن يفعل العكس.

إن انتصارنا للأرباب والعقائد والمذاهب والمعلمين والزعماء هو انتصار للأعداء، لتسلط الآخرين وطغيانهم علينا، أما مقاومتنا لأربابنا وعقائدنا ومذاهبنا ولزعمائنا وكل معلمينا الذين قد ماتوا والذين لا تزال جثثهم فوق كبريائنا فهي المقاومة المشروعة أبداً، والمهزومة أبداً أيضاً.

إن الإنسان دائماً مصلوب العقل والحرية والشرف تحت أقدام أربابه وعقائده ومذاهبه مهما صلبت مذاهبه وعقائده وأربابه تحت أقدام رذائله وتلوثه النفسي والسلوكي.

والناس يريدون بالآلهة والمذاهب والعقائد والنظم أن يشاتموا أو يقاتلوا الآخرين، ولا يريدون بها أن يستقيموا أو يتطهروا أو يتحابوا أو يعرفوا.

لقد كانت أي الآلهة والعقائد والمذاهب في كل التاريخ والمجتمعات أنواعاً متطورة من الأسلحة والشتائم والميادين الحربية المعلنة الحرب، ولم تكن صلوات أو معابد أو صداقة أو معرفة أو بحثاً عن المعرفة مهما بدت أو زعمت كذلك. كان الله ـ وكذا كانت العقيدة والمذهب والنظام، سلاحاً في أيد تحركها أهواء متباغضة، ولم يكن ـ أي الله أو العقيدة أو المذهب أو النظام مغتسلاً سماوياً تتطهر به القلوب من الحقد والتعصب، أو العقول من الجهل والبلادة، أو الأخلاق من العدوان والبذاءات!

إن الذي يؤمن أكثر هو إنسان يتعصب ضد الإنسان ويعاديه أكثر.

إن الناس يتعصبون لأربابهم ومذاهبهم ومعتقداتهم ونظمهم بقدر ما يكرهون الآخرين ويعادونهم، أو لأنهم يكرهون الآخرين ويعادونهم، ولا يتعصبون لها لأنهم يحترمونها، أو بقدر ما يحترمونها!

*

البكاء نقد للكون والحياة

«التفكير هو احتجاج الإنسان على الطبيعة، أما التناسل فهو استسلام الإنسان للطبيعة وفسوق الطبيعة بالإنسان.

إن الذين يبكون ويحزنون تحت وطأة نظام أو مذهب أو عقيدة أو إله أو حاكم، هم قوم ينقدون ذلك النظام أو المذهب أو الحاكم أو الإله، ويحتجون ضده بأسلوب أعنف من التفكير والكلام، ولكن الناس جميعاً يغفرون نقد الآلهة والمذاهب والنظم والحكام بالبكاء والحزن ضدها أو منها، ثم يقاومون كثيراً نقدها بالتفكير.

ما أقبح الصورة التي كانت ترى في كل مكان، ما أقبح أن تجد كل المذاهب والطغاة والأرباب والنظم المتناقضة المعادية للصدق والنزاهة في كل مجتمع وعصر من يبيعون لها أخلاقهم وعقولهم. لقد توزع هؤلاء البائعون على كل المذاهب والنظم والأرباب والطغاة في كل التاريخ على كل المستويات وبكل الأساليب بكل الأثمان. ولم يكن يوجد المشتري دون أن يوجد البائع ــ كان البائعون، البائعون لذكائهم وشرفهم دائماً أكثر من المشترين، كانت النفوس المعروضة للبيع تزحم دائماً الأسواق.

لم يكن السؤال: هل يوجد من يبيع، بل كان السؤال الدائم: هل يوجد من يشتري!

إن السقوط العقلي والأخلاقي أسلوب عنيف من أساليب النقد، إن الذي يخاف أو يحتاج فيكذب وينافق ويتلوث هو إنسان ينقد الطبيعة أو الإله أو النظام أو المجتمع أو الحاكم الذي يعيش تحت قبضته.

إن الذي ينافق طاغية فيتحول إلى قصيدة بذيئة في إضفاء المدائح عليه هو أعنف هاج له، إن ذلك يعني أن ذلك الطاغية يفرض السقوط ويعلم السقوط ويحوج إليه ويجزي عليه ويجعل الحياة مستحيلة أو عذاباً بدون سقوط.

إنه لا أحد ينقد الطاغية مثل الذي يسقط ليستطيع التلاؤم مع عهده».

إذا كنت لا تستطيع أن تفكر كما ترى، أو أن ترى كما تجد، أو أن تقول كما تفكر، فإما أن تصمت عن الكلام والرؤية والتفكير، وإما أن تقول ما لا تفكر، وتفكر ما لا ترى، وترى ما لا تجد.

الصمت عن الكلام والرؤية تشويه ومحال، والصمت عن التفكير صمت عن رؤية الحياة والذات والناس والأشياء والمذاهب، والصمت عن النقد مع التفكير جبن أو هوان أو خسة أو انتحار.

إنك لا تستطيع أن تصمت عن التفكير إلا إذا استطعت الصمت عن كل رؤية، إن صمت الفكر يعني الصمت عن رؤية الليل والنهار وعن رؤية كل دمامة وألم وجمال ولذة، إنه صمت عن كل معاناة، عن معاناة الأشياء ومعاناة الذات. إن التفكير هو أشمل الأشياء في حياة الإنسان، أي في احتمالاته وافتراضاته، فإسكاته لا يكون إلا بإسكات كل أحاسيس الحياة ورؤيتها والرؤية بها، وإلا بإغلاق كل المنافذ بين الإنسان وبين كل الأشياء.

إذا كنت ترى وتسمع وتتألم وتتلذذ فأنت حتماً تقبل وترفض وتتلاءم وتتنافر، وإذا كنت كذلك فأنت حتماً تفكر، أنت حتماً تفكر ولو ضد التفكير، فكل الناس يفكرون، ولكن أكثرهم يفكرون ضد التفكير. إذا كنت تحيا فأنت حتماً تفكر ولو لمقاومة التفكير.

لقد حكم على الإنسان بأن يكون مفكراً كما حكم عليه بالموت والحياة وبأن يكون في هذه الصورة وبهذه الغرائز والاحتياجات، فالتفكير ليس خيراً أو شراً أو اختياراً، وليس واجباً أو حراماً أو أخلاقية أو ضد الأخلاقية، وإنما هو حالة وجود لا تدبير فيه مثل الرؤية والسمع والغضب والرضا والإحساس بالجنس، ولكن مجالاته وأساليبه أشمل.

هل نفكر لأننا نريد أن نفكر أم لأننا لا نستطيع ألا نفكر؟ ولماذا لا نستطيع ألا نفكر؟ وهل نريد التفكير لأننا نريد أن نريد، أم لأننا لا بد أن نريد؟ هل نرى ونسمع ونخضع للجنس بالإرادة؟ وإذا كنا نفعل ذلك ونستطيعه بالإرادة فهل هذه الإرادة بإرادة أم بدون إرادة؟

نحن جميعاً نستعظم أن يفقأ الناس أعينهم ويقتلعوا آذانهم، أو أن يؤمروا أو يلزموا بذلك تحت حوافز دينية أو وطنية أو أخلاقية، وقد نعجز أن نتصور وجود قوم يفعلون مثل هذا أو يؤمرون ويلزمون به لأن هذا لو حدث لكان عقاباً على الوجود وعلى الضرورة والطبيعة، ومثله معاقبة الرؤية أو السمع بالتفكير هو معاقبة على الطبيعة والضرورة والكينونة، وهل يعاقب على ذلك؟

وإذا كان الانتحار شيئاً فظيعاً، وإذا لم يكن من المحتمل أو مما يحدث كثيراً وجود مجتمع يبارك الانتحار ويجعله شريعة، فهل نعلم أن منع التفكير أو الامتناع عنه أسلوب أبشع أو أعلى من أساليب الانتحار الدائم المتكرر، إن المنتحر يموت مرة واحدة، أما الممنوع أو الممتنع عن

التفكير فإنه ينتحر دائماً دون أن يموت، ينتحر كلما رأى أو مارس دمامة أو عبثاً أو ظلماً أو غباءً أو حقارة دون أن يستطيع الاحتجاج بالتفكير والكلام.

إن التفكير في جميع مستوياته وموضوعاته ليس إلا احتجاجاً ما، ولكن بأسلوب أعلى وأعمق من مجرد الغضب أو الكراهية أو أحد التعبيرات الانفعالية. أليس فظيعاً أن ترى لوحة فنية تشوه وتلوث دون أن تغضب أو تنكر بتفكيرك أو بإرادتك؟ وهل تستطيع أن تصمت بمنطقك أو بغضبك أمام منظر تلك اللوحة المشوهة الملوثة؟ أليس أشد قبحاً من ذلك أن ترى طفلاً يبكي لأن الطبيعة أو المجتمع يسحقه، ولأن الإله يتخلى عنه لضربات الطبيعة والمجتمع، دون أن تعاني وتبكي وتحتج بتفكيرك وشعورك؟ والمعاناة الفكرية هي أعلى أساليب التفكير.

إن الذين لا يفكرون هم أشد عقماً من الذين لا يلدون.

إن التفكير مستوى إنساني، أما الولادة فمستوى من مستويات الطبيعة، كل الذين يفكرون هم في مستوى الولادة، ولكن ليس كل الذين يلدون هم في مستوى التفكير. التفكير هو عمل الإنسان في التاريخ، أما الولادة فهي عمل التاريخ في الإنسان، التفكير هو احتجاج الإنسان على الطبيعة، أما الولادة فهي استسلام الإنسان للطبيعة وفسوق الطبيعة بالإنسان.

إن الذين يقتلون تفكيرنا يقتلون فينا احتمالات غضبنا واحتجاجنا على التاريخ ورؤيتنا له وعلى الطبيعة ورؤيتنا لها، ويقتلوننا بعدد ما يمكن أن نفكر. إن قتل أي احتمال فكر فينا ليس إلا قتل مرحلة من مراحل وجودنا الإنساني الأعلى أو قتل أسلوب من أساليب تعبيرنا عن الطبيعة. أما من يقتلون حياتنا فلا يفعلون بنا إلا ما تفعله الطبيعة أو الموت بكل الأحياء.

إن التفكير هو الولادة الخاصة بالإنسان، فكل الأحياء يتوالدون، ولكن ليس كل الأحياء أو كل من يتوالدون يفكرون، فالتفكير هو الإنسان في أعلى مستوياته، أو في أقسى أو أفظع مستوياته.

إن الحياة تعبير وهي لا تستطيع أن تكون صمتاً، إنها لا بد أن تستهلك ذاتها في شتى التعبيرات أو في تعبيرات ما، والفرق بين حياة وحياة يساوي الفرق بين تعبير وتعبير، والفرق بين الإنسان والبعوضة أو بين الإنسان العبقري والإنسان المتواضع يساوي الفرق بين هذا وهذا في تعبير كل منهما عن حياته أو في استهلاك كل منهما لذاته أو لحياته. إنها لا بد أن تكون تعبيراً في النبات والحيوان وفي الحشرة كما هي تعبير في الإنسان إلا أن أساليبها التعبيرية متفاوتة، وكلما عظمت الحياة عظمت أساليبها التعبيرية. وأعلى ما تكون هذه الأساليب أو أكثر ما تكون حينما تكون في الإنسان لأن الحياة الإنسانية أعلى حياة أو أصعب حياة. ولا يمكن أن تكون حياة أو توجد بدون تعبير.

والتفكير هو أقوى أسلوب أو أبهظ أسلوب لتعبير الحياة عن نفسها، لأن التفكير هو كل

الحياة مع كل التفكير. فالتفكير لا يكون بلا حياة ولكن الحياة تكون بلا تفكير، بل كل الحياة بلا تفكير، والاستثناء هنا لا يكون إلا لأعلى حياة في أعلى إنسان.

فالتفكير الإنساني هو شوط الحياة الأعلى أو هو أسلوب احتجاجها الأعلى ضد نفسها وضد ظروفها، معبراً عنها كلها، معبراً عنها في نفسه وفي غيره أي فاهماً مفسراً لها ومحتجاً عليها متدخلاً فيها دون أن يوجدها أو يساعد على إيجادها أو يحرض عليه.

إنه ليس شيئاً يصيب بالدهشة فقط بل ويصيب بالذعر والحزن أن يعيش إنسان ما كل هذا الكون والحياة والمذاهب والنظم والآلهة والمعلمين والناس، أو يتعامل معها ومعهم دون أن يصطدم بها وبهم تفكيره، أي دون أن يعانيها ويعانيهم وينقدها وينقدهم، أي دون أن يفكر فيها وفيهم وضدها وضدهم.

كيف يعيش إنسان واحد دون أن يتألم ويغضب وينكر؟

وكيف يتألم ويغضب وينكر دون أن يفكر، وكيف يفكر دون أن ينقد؟ لهذا كيف يمكن أن يوجد إنسان واحد لا يفكر ضد مذاهبه وأربابه ومجتمعه وزعمائه ونفسه، ناقداً محتجاً؟

إن الرؤية والممارسة بلا غضب ورفض وشعور بالعذاب موت، وإن الغضب والعذاب والرفض بلا تفكير بلادة وهوان، وإن التفكير بلا نقد محال.

إذن كيف أمكن أن يوجد إنسان واحد استطاع أن يحيا كل هذه الطبيعة والعبث والعقائد والأرباب والمعلمين والزعماء دون أن يغضب ويرفض ويفكر وينقد؟ إن أي إنسان لا يستطيع أن يغلق جميع حواسه ومشاعره دون كل هذه الآلام والدمامات والنقائص والأحزان، إذن كيف يستطيع أن يغلق تفكيره دون كل ما في الطبيعة والناس والذات من ذلك؟

كيف يوجد إنسان دون أن يرى، وكيف يرى دون أن يفكر، وكيف يفكر دون أن ينقد ويرفض؟

إن أجمل الآلهة والمذاهب والنظم والناس وأفعال الطبيعة لا بد أن تصطدم بنا ونصطدم بها، أي لا بد أن يقع بيننا وبينها تناقضات حادة، وهذا يعني أنه كان من المفترض الدائم أن نفكر ضد كل شيء أي أن نتناقض معه بتفكيرنا. إذن كيف حدث هذا؟

كيف حدث أن كل الناس ـ إلا من يحسبون زنادقة منبوذين وخارجين على جميع المقاسات البشرية ـ لا يفكرون ضد مذاهبهم وأربابهم ومعلميهم وعلاقاتهم بالطبيعة، بل ظلوا يمنحون كل أشيائهم كل اقتناعهم ورضاهم الفكري بأسلوب لا مثيل له في الصبر والقناعة، وفي التسامح الذي لم يكن عن ذكاء أو نبل؟

إن جميع الناس يبكون ويحزنون ويصرخون، بل ويلعنون، من قسوة الآلام والمظالم والهموم

التي تتعاقب عليهم، والتي تأكل أعصابهم وحياتهم وتسخر مما في عقائدهم وأربابهم وعالمهم من فضيلة وصدق ومحبة. ولكن كيف يمكن أن نحزن ونبكي ونضج بالصراخ ثم لا نفكر؟

إن الحزن والصراخ والبكاء والسباب أساليب عنيفة من أساليب الاحتجاج ضد ما هو كائن وضد ما يرى ويعلم ويمارس، إذن كيف أمكن أن يوجد احتجاج عنيف على مستوى البكاء والكآبة والسباب دون أن يوجد نقد عنيف أي تفكير عنيف؟ إن الذي يحزن أو يبكي أو يسب إنما هو إنسان ينكر، وهل يكون إنكار دون أن تكون مقاومة فكرية؟

إن الأحزان والغضب والدموع ألوان من التفكير ولكن بلغة عالمية، فالذي يقول: أنا حزين أو غاضب أو موجع القلب ليس إلا إنساناً يقول:

أنا أفكر ضد ما أجد وأواجه وأعيش، إنه يقول: ما أقبح وأظلم ما أرى وأعلم وأمارس!

إن الحزن والسباب والبكاء ليس رضا بل هو غضب حتماً، وإذا كان غضباً فغضب على من؟ والغضب ليس تقبلاً وإنما هو رفض، وإذا كان رفضاً فرفض لمن أو لأي شيء؟ والرفض أليس نقداً؟ وإذا كان نقداً فنقد لمن أو لأي شيء؟

إذن فالذين يحزنون ويبكون إنما هم قوم ينقدون ظروفهم التي يتعاملون معها ولكن بلغة وأسلوب أعنف.

والناس يغفرون لمن يبكون ويحزنون تحت وطأة نظام أو مذهب أو إله أو حاكم ما، ولا يرون أن هؤلاء الباكين الحزانى إنما هم قوم يفكرون بعنف ضد ذلك النظام أو المذهب أو الإله أو الطبيعة أو الحاكم، وينقدونه ولكن بأسلوب آخر من أساليب التفكير والنقد.

إن الذي يصرخ من ألم نزل به هو إنسان كأنما يقول لإلهه أو دينه أو مذهبه أو نظامه أو للطبيعة أو للحاكم الذي يحكمه: أنت رديء وفاسد وظالم، أنت ضد المنطق والأخلاق.

ولكن المذاهب والنظم والحكام والآلهة ظلت تتقبل من يبكون ضدها أو منها أو تحت وطأتها وقيادتها وتتسامح معهم، ثم ظلت ترفض التهاون أو التسامح مع من يفكرون ضدها أو ينقدونها بالكلمات ـ لقد ظلت تتقبل من ينقدونها ويتهمونها بالدموع والآهات واللعنات، وتسحق من يتهمونها أو ينقدونها بالتفكير.

وهل من الذكاء أو العدل أن نؤاخذ من ينقدون أربابهم أو حكامهم أو الكون الذي يعيشون فيه بكلامهم، ثم نغفر لمن ينقدون أولئك بدموعهم وأحزانهم وصراخهم؟ إن الذي يصرخ من بشاعة أعمالي وأخطائي ومن إساءاتي إليه لهو أكثر نقداً لي واحتجاجاً على ذنوبي من الذي ينقدني بمنطقه مهما كانت قوة وقسوة هذا المنطق الناقد، وإن الذي يئن من ألم أوقعه به الإله أو

أوقعته به حكمة الإله لأكثر هجاء للإله ومعارضة لإرادته وحكمته من الذي يوجه إليه أقسى ألفاظ النقد.

ويظهر أن الآلهة والبشر ليسوا مهذبين أو أذكياء كما يفترض فيهم وينتظر منهم ويقال عنهم، بل هم مفترسون متوحشون بمشاعرهم، ولعلهم يسعدون جداً برؤية الآلام الواقعة بالآخرين حتى ولو كانت في المعنى هجاء أو نقداً لهم. فالذين يبكون ـ وإن كانوا ببكائهم ينقدونهم ويحتجون على أخطائهم وسوء أخلاقهم ـ يرضونهم لأنهم بذلك يشعرونهم بتفوقهم وتسلطهم عليهم إلى حد البكاء منهم، ويشعرونهم بأنهم أضعف منهم، ويرضونهم أيضاً لأنهم يتألمون، والتألم موقف ضعف، والمتألم موقفه موقف الأضعف من صانع الألم، ولأن في البكاء شيئاً من الضراعة، وهذا يعجب غرورهم وشهوة الافتراس والعدوان فيهم.

أما النقد فليس كذلك، إنه وإن كان يعني أحياناً أن المنقود أقوى وأكثر اعتداء على الناقد، لهذا يدافع عن نفسه بالنقد، وهذا قد يكون موقف ضعف ـ نعم وإن كان الأمر أحياناً كذلك إلا أن النقد لا يعني حتماً الضعف والضراعة اللذين قد يعنيهما موقف البكاء، بل إن النقد قد يعني موقف القوة والتحدي والمبارزة. لهذا يرحب الآلهة والحكام الطغاة وسائر البشر بمن يبكون ويحزنون أي بمن يبكون ويحزنون منهم مع أن الحزن والبكاء هما أقوى وأصدق أساليب النقد والاتهام بل والسباب، ثم يقاومون النقد بالتفكير أو التفكير الناقد أو الذي يحتمل أن يصبح ناقداً، مع أن النقد بالتفكير أو التفكير الناقد لا يمكن أن يكون إلا تعبيراً عن الحزن والبكاء أو حالة من حالاتهما.

إننا بدون حالة الحزن والبكاء أو بدون معناهما لا يمكن أن ننقد أو نفكر.

فالحزن والبكاء هما المسؤولان عن النقد وعن التفكير الناقد.

*

هل نستطيع أن نستجمع في خيالنا فداحة الآلام والمضايقات التي لا بد أن يعانيها كل من منعوا من الحزن والضحك والكلام والشكوى والحب والبغض، أو منعوا من أن يعبروا بغير ذلك من الأساليب التي يعبر بها الأحياء عن حياتهم المزدحمة المتراكمة بالهموم والآلام والاحتجاجات النفسية والفكرية التي تحتاج إلى فضاء خارجي واسع لتطلق فيه إطلاقاً دائماً؟

إذا كنا سنتصور هؤلاء ـ إن كان المحتمل تصور وجودهم ـ من أشد الناس اختناقاً وعذاباً فماذا يمكن أن نتصور قوماً قد حرم عليهم بل منعوا، أو امتنعوا بوسيلة من الوسائل عن أن يروا بعقولهم أي شيء مما أمامهم ومما يجدون ويعلمون ويعانون، أو أن يحتجوا ضده أو ينقدوه نقداً فكرياً؟

ولكن البشر قد احتالوا للتخلص مما لا يمكن التخلص منه، لقد احتالوا لذلك بلا تدبير، أو تصرفوا تصرفاً عشوائياً فجاء تصرفهم وكأنه تدبير.

إنه لا يمكن التخلص من نقد الكون والآلهة والناس والمذاهب في حياة من يحيون هذا الكون وهذه الآلهة والمذاهب والناس، إذن ماذا يصنعون؟ لقد هربوا من النقد بالتفكير والكلام إلى النقد بأساليب أخرى أصبحت بديلاً مألوفاً. وهي أساليب يمارسها كل الناس على اختلاف مستوياتهم الثقافية والحضارية والأخلاقية لتكون بديلاً عن النقد الأصعب والأذكى، وهو النقد الفكري.

إن الناس جميعاً يبكون ويحزنون ويشكون ويلعنون، وهذا نوع من النقد أو الاحتجاج الذي هو بديل عن النقد المنطقي، وهذا النقد له مزايا كثيرة يتفوق بها على النقد المنطقي، ذلك لأنه لا يحتاج إلى مستوى معين من الذكاء أو المعاناة، ثم إنه لا يثير أو يخيف المنقودين، بل إنهم قد يرحبون به ويشعرون إزاءه بالغبطة والكبرياء. إذن هو شيء ليس فيه أي خطر على الناقدين لأنه لا خطر فيه على المنقودين، فهو بديل صالح مقبول جداً، بديل يقبله الشاكون والمشكو منهم.

ثم إن لهذا النقد البديل مزية أخرى، تلك هي أنه لا يحتاج إلى وسيلة من وسائل النشر الصعبة أو الممتنعة أحياناً. وقد يكون من مزايا هذا البديل أنه يريح من الناحية النفسية أكثر، إذ إنه لا يحتاج إلى كل القيود والاشتراطات والتجويد والأناقة التي يحتاج إليها النقد بالتفكير.

إن النقد بالبكاء والصراخ وسيلة أولية من وسائل النقد، وهي صارخة ومعبرة عن الانفعالات أكثر من النقد بالفكر، لهذا يجد فيها الناس راحة وعزاء أكبر.

والإنسان لا يكون إلا ناقداً لأن الكون وكل ما يحدث فيه وعنه لا يكون إلا مناقضاً له أي للإنسان، ولكن أساليب النقد مختلفة، فأرقى الأساليب النقدية هو النقد بالتفسير والتعليل وفهم الشيء مقدمة ونتيجة، وسبباً ومسبباً، وظالماً ومظلوماً، أو ظالماً مظلوماً، أو لا ظالماً ولا مظلوماً، وذكاء وغباء. ومثل هذا النقد لا يكون إلا بالمنطق المتعامل مع الأشياء ومع نفسه بالثقافة والجسارة والتأمل الواعي، وهذا هو سلوك الإنسان الأعلى أو المصاب بمرض الاحتجاج والتساؤل والرؤية الحادة للطبيعة، وهذا أكثر مشقة من مجرد الاحتجاج بأي تعبير: بالبكاء والغضب والسباب والصراخ مثلاً.

والنقد بأي أسلوب من أساليب الاحتجاج ضد الطبيعة والأرباب والمذاهب والأشياء ليه مزية خاصة بالإنسان، بل إن للحيوانات أساليب احتجاجية ضد ما تلقى وتواجه، إنها تغضب وتخاف وتتألم وتصرخ وتهرب وترفض وتكتئب، وهذه كلها أساليب احتجاجية على مستوى ما.

بل إن الكون كله ليس إلا أساليب مختلفة من أساليب الاحتجاج أي من أساليب النقد

للنفس وللأشياء الأخرى التي يتعامل معها، وليس تغيره وتدمره وموته وتصادمه إلا ألواناً من أعمال الاحتجاج أي من أعمال النقد، والذي يتجاوز ذاته أو مذهبه أو ظروفه هو أكثر نقداً لها من الذي ينقدها بالتفكير والكلام ويبقى فيها.

والذي يموت منتحراً هو أعنف رفضاً للحياة من الذي يستمسك بالحياة وينقدها بالكلام والمنطق.

والإنسان هو أعلى وأشمل مستويات النقد لأنه أكثر الأشياء احتجاجاً ورفضاً وتغيراً ومقاومة لما يناقضه، إن الإنسان هو أكثر الأشياء رفضاً للنقد ومقاومة للطبيعة والأرباب والمذاهب والناس ولنفسه، وهو كذلك أكثر الأشياء فهماً للأشياء ـ الإنسان عملية نقد دائمة وشاملة، ولكنه مع ذلك هو أكثر الأشياء رفضاً ومقاومة له.

إن البشر يرفضون النقد ويقاومونه بأديانهم ومذاهبهم ونظمهم وتقاليدهم وحكامهم، أي هم يرفضون النقد ويقاومونه بمنطقهم، ولكنهم مهما رفضوه وقاوموه فإنهم يفعلونه أي يفعلون النقد بنسبة لا تزيد ولا تنقص، أي لا تزيد إذا قبلوا النقد ومارسوه، ولا تنقص إذا رفضوه وقاوموه، أي إذا فعلوا النقد بالمنطق أو رفضوه أيضاً بالمنطق.

إن الإنسان ناقد حينما يكون غير ناقد، بل وحينما يعاقب على النقد، والذي يحدد مستوى النقد ومداه هو قدرة الناقد وعجزه، لا نقده بالفكر ولا رفضه له بالفكر أيضاً. إن قوماً قد ينقدون جداً بالتفكير ثم لا يتغيرون إلا قليلاً وببطء شديد، وإن أقواماً لا ينقدون البتة بالتفكير، ولكنهم يتغيرون على مستوى أسرع وأشمل.

عملية النقد بالسلوك منفصلة عن عملية النقد بالتفكير، فكل الأشياء ما عدا الإنسان ناقدة بالسلوك، غير ناقدة بالفكر، والإنسان ناقد بالسلوك وبالفكر، أي أن مستواه هو أن يكون كذلك. ولكن ليس نقده بالفكر هو الذي جعله ناقداً بالسلوك، ولهذا فإن رفضه للنقد بالتفكير لا يجعله رافضاً للنقد بالسلوك، ولهذا أيضاً فإن أكثر الناس نقداً بالتفكير لا يعني أن يكون أكثرهم نقداً سلوكياً أي أكثرهم تغيراً وتجاوزاً لما كان مما يقع عليه النقد.

إن النقدين ـ أي السلوكي والفكري ـ قد يقترنان، ولكن اقترانهما لا يعني التلازم أو السببية.

*

ما الذي يمكن أن يصنع من لا يستطيعون أن يحولوا غضبهم على الدمامات والآلام والجنون إلى نقد واحتجاج، إلى أفكار رافضة غاضبة؟

إنهم لا بد أن يحولوا ذلك إلى فسوق وعبث وصغائر وأحزان إذا عجزوا عن تحويله إلى

منطق جارح محارب. فالاشمئزاز من التفاهات والعبث يتحول ـ إذا قمع عن أن يكون تفكيراً ـ إلى فحش وعربدة وكراهة، وإلى حسد وقسوة، وإلى استغراق انتحاري في ممارسة الرغبات الجنسية، وإلى أفانين من الصغائر لا حدود لها.

إن الحاجة إلى التفكير إذا لم تتحول إلى تفكير تصبح شيئاً رديئاً ومدمراً.

ليس التفكير أحياناً إلا شهوات محولة، وليست الشهوات المفعولة أحياناً إلا تفكيراً مصروفاً أو ممنوعاً أو مهزوماً. إن الرغبة الجنسية أو الرغبة في العدوان على الآخرين قد تتحول تفكيراً، وإن التفكير أو احتمال التفكير ـ إذا قمع ـ قد يتحول إلى رغبة جنسية أو ممارسة، وإلى عدوان على من لا يستحقون العدوان. إن أكثر الناس استغراقاً في الجنس وفي الهموم وفي الانفعالات المعادية الهدامة هم أقلهم تفكيراً ونقداً للمذاهب والأرباب والطبيعة، وإن أكثرهم تفكيراً ونقداً هم أقلهم ممارسة جنسية ورغبات عدوانية وغلامية.

إن المعصية في كثير من تعبيراتها ليست إلا تفكيراً ممتنعاً أو غائباً أو خائفاً، ما أكثر ما تكون الرغبة في تناول الخطيئة والتفاهة تعويضاً عن تفكير مكبوح وتزييفاً لاحتجاجاته المتراكمة.

وحرية الأعمال الشائنة قد تكون أسلوباً من الاحتجاج يعلنه قوم قد فقدوا حرية التفكير أو القدرة عليه أو حرية العمل المفكر. والحياة إذا لم تتوزع أفكاراً أو أعمالاً تقودها الأفكار توزعت ذنوباً وتفاهات بلا أفكار أو آثاماً بلا وقار. والمفكرون الذين يجدون الظروف الملائمة لكي يوزعوا همومهم وردود الفعل الناتجة عن تصادمهم المستمر بحماقات الأشياء ورؤيتهم الدائمة للقبح الصادم لخيالاتهم وأمانيهم ـ لكي يوزعوا ذلك إلى أفكار معبرة وناقدة ـ يكونون أقرب إلى العافية النفسية والأخلاقية من الذين لا يستطيعون أن يجدوا مثل هذه الظروف.

ومع هذا فقد يكون التفكير فراراً من العمل وتعويضاً عنه أو عجزاً ودفاعاً عن العجز وتسويغاً له ومحاولة للتخلي عن الالتزامات بحجة ما، كما قد يكون حالة من التوتر النفسي أو العصبي، أو أسلوباً من مجارحة الآخرين ومشاتمتهم والتطاول عليهم، أو تعبيراً عن الفراغ والتفاهة، أو رغبة في هدم إنسان أو مذهب أو نظام، أو يكون نوعاً من طلب الاستعلاء والانتصار والتفوق والإذلال بلا أي هدف أكثر من ذلك.

وقد يكون التفكير فراراً إلى الغباء ومقاومة للذكاء والتقدم، وقد يكون تبديداً للذات والطاقة بأي أسلوب من أساليب التبديد، وقد يكون أيضاً معنى من معاني الضياع والتلهي وعرض الذات والتحدي.

لهذا فقد يصبح التفكير تعويقاً للتقدم وأسلوباً من أساليب التعويق، وليس إسراعاً به أي بالتقدم.

قد يكون المعنى أن الذين يفكرون أكثر يتأخرون أكثر.

ومهما كان التفكير صحيحاً وعظيماً فإن حوافزه لا تكون نبيلة أبداً، كما أنه لا يكون بالقصد بل بالضرورة. لا يوجد من يفكر لأنه لا يريد أن يفكر بل لأنه لا يستطيع ألا يفكر، كما لا يوجد من يفكر لأنه فاضل نبيل بل لأنه محتج هارب متألم رافض. إن التفكير ليس بحثاً عن الأفضل أو الأصوب، ولكنه قد يكون الأصوب أو الأفضل.

من المحتمل ألا يكون التفكير بحثاً عن التقدم بل مقاومة له وبديل عنه حتى ولو أعطى هذا التقدم.

كل الناس لا بد أن ينفقوا ذواتهم بلا خطة سابقة أو منطقية وبلا ذكاء بل وضد الذكاء، إن البشر محتوم عليهم أن ينفقوا أنفسهم ويلقوا بها بعيداً عنهم مثل حمل ثقيل أليم قد أُلقي فوقهم كعقاب لا كمكافأة، وكشيء متعب لا يعني أية قيمة لا كسلعة ثمينة اكتسبوها بنضال وشوق وذكاء. والذين لا يستطيعون أن ينفقوا ذواتهم في أفكار وفي أعمال تطور الحياة لا بد أن ينفقوها في أشياء مضادة وانفعالات سخيفة هدامة.

كل الناس يحترقون، وكلهم يحولون أنفسهم إلى حرائق، فيكونون شيئاً أو يكونون شيئاً آخر، أي يكونون شيئاً أو يكونون غير شيء. وهم لا يحترقون ليكونوا هذا أو هذا بل فيكونون هذا أو هذا، فالمطلوب هو أن يحترقوا وليس المطلوب نوع الحريق أو نوع نتيجة الحريق أو هدف الحريق، إن شيئاً ما لا بد أن يحرقوه وهم لا يبالون بالوسيلة التي يحرقونه بها، ولا توجد لديهم وسيلة محددة أو موحدة. والشيء الذي لا بد منه والذي لا يختلفون فيه هو أن يحرقوا هذا الشيء بأي أسلوب، أي أن يحرقوا ذواتهم.

إن في بيوتهم وفي ثيابهم قمامات وهموماً وأوحالاً لا بد أن يتخلصوا منها، والأسلوب الذي يتخلصون به ليس شيئاً مفروضاً أو مقصوداً.

إن الذي لا يحترق ليكون لهباً أو ضوءاً لا بد أن يحترق ليكون دخاناً أو رماداً، ولو حرم على الناس أن يحترقوا وأغنوا عن الاحتياج إلى عمليات الاحتراق لكان ذلك أكبر تعذيب لهم. وتوزيع حياة الإنسان ليس خطة أو تضحية بل فرار وضرورة، ليس عملاً له هدف بل حركة انتحارية.

إنه لا هدف لأعمالنا غير استهلاك وجودنا حتى حينما نقاوم الفناء ونفعل اللذات، وحتى حينما تكون أعمالنا بحثاً عن الضرورة والحاجة وهرباً من الألم والجوع.

إن الجياع الضعفاء المحرومين الذين يدبون في إيمان وهوان وتواضع خافضي الرؤوس فوق الأرض النجيبة الممتلئة بالاحتمالات المجهولة دون أن يستطيعوا تحويل احتمالاتها إلى ثراء

وامتلاء ونجابة في موهبة الأرض وفضيلة في أخلاق الحقول، ليسوا أعظم عجزاً وخسراناً من أولئك الذين يتحركون في ذهول تحت ذواتهم ومواهبهم البشرية، مغلقي العقول عن رؤيتها، لا يستطيعون أن ينظروا إليها أو يجدوها أو يتعاملوا معها ليحولوها إلى ثراء في العبقرية أو إلى رفض للآلام والمذلات التي تزحم تاريخ الإنسان وتحوله إلى تشوهات تتحدى كل قصائد الإعجاب التي يصوغها البشر تمجيداً لتاريخهم ولحياتهم ولأربابهم ذات الحكمة والرحمة. وتحول الذات الإنسانية إلى رفض ولو بالبكاء هو أكبر معاني الإنسان، فالذين لا يحولون ذواتهم إلى احتجاج ونقد ورفض بل وإلى بكاء ضد الطبيعة والمذاهب والآلهة والناس لن يستطيعوا تحويل الطبيعة إلى موضوعات إنسانية على المستوى الذي يفعله المحتجون الرافضون الباكون.

هل يستطيع الإنسان أن يصنع الطبيعة ما لم يحتج عليها ويرفضها وينقد وقاحاتها، ولو ببكائه واشمئزازه وهمومه ضدها ونظراته الغاضبة إليها؟

إن البشر يعاملون الطبيعة أفضل جداً مما يعاملون ذواتهم، فهم يحاولون استثمار أرضهم وبحارهم وتحويل إمكانياتها الزراعية والصناعية والمعدنية والحيوانية إلى أقصى احتمالاتها ـ أو يجرؤون على ذلك دون أن يخافوه على أخلاقهم أو مذاهبهم أو أربابهم أو يروا فيه خيانة ما، ولكنهم يرفضون أن يفعلوا مثل ذلك في احتمالاتهم العقلية والنفسية، بل ويقاومون من يحاولون ذلك، أو هم على الأقل يخشونه ويرون فيه عديداً من الاحتمالات الخطيرة على أديانهم أو مذاهبهم أو نظمهم القديمة والحديثة أو على هيبتهم وسلطانهم.

إن البشر جميعاً لا يخافون حرية الأرض، حريتها في أن تعطي كل احتمالاتها، مثلما يخافون حرية الإنسان، حرية عقله واحتجاجه بأن يعطي كل احتمالاته. كل المجتمعات حتى أكثرها جموداً ورفضاً للجديد لا ترفض أو تخاف أي أسلوب من أساليب إعطاء الصخور والحقول والمعادن كل حريتها في أن تكون وتهب جميع إمكانياتها، ولكن لا يوجد مجتمع واحد يقبل أن يعامل فكر الإنسان أو غضبه مثل هذه المعاملة. إننا ندعو إلى تطوير أدواتنا وكل وسائل حياتنا أو نأذن بذلك ونمارسه ونؤمن به، ونرفض أن نفعل أو نقبل مثل هذا التطوير لذواتنا وأفكارنا وعقائدنا وأربابنا.

إننا لن نقاوم من يحاولون أن يغيروا أثاث بيوتهم ولكننا قد نسحق ـ وحتماً نفعل ذلك أحياناً ـ من يحاولون أن يغيروا أثاث أنفسهم الفكري أو العاطفي.

كيف تكون الأشياء كلها حلالاً ويكون الإنسان كله أو بعضه حراماً؟ كيف نجرب الصخور ويؤذن لنا بأن نجربها بكل حرية، ثم لا نجرؤ على تجربة ذواتنا ولا يسمح لنا بتجربتها بمثل هذه الحرية؟

نحن نخشى أنفسنا على أنفسنا، إننا نخشى أن نكون كل احتمالاتنا الفكرية والنفسية والذاتية مهما كان محتوماً أن نكون هذه الاحتمالات. والناس مهما كان محتوماً عليهم أن يتغيروا، بل ومهما كانت سرعة مسيرهم في طريق التغير فإنهم قد يرهبون أو يقاومون من يدعونهم إلى أن يتغيروا أي من يدعونهم إلى أن يفعلوا ما يفعلون أو ما هم فاعلوه حتماً في يوم من الأيام، فالبشر يرفضون في الغالب أو دائماً مستقبلهم المحتوم أي يرفضونه تفكيراً بالتفكير.

إن جميع ما يعيشونه من آلهة ومذاهب وتقاليد ونظم في عصر من العصور كان في يوم ما، مرفوضاً ومنكراً ومحارباً، كان مرفوضاً ومنكراً ومحارباً جداً كنظرية. إن واقع كل عصر كان خطأً وذنباً وجريمة وغواية في عصر سابق، وإن جميع الذنوب والأخطاء الفكرية التي كان يعاقب عليها أو تحرم في أزمان سابقة، أو أغلبها، قد أصبحت أو سوف تصبح واقعاً يعاقب على رفضه أو الشك فيه.

إن صواب اليوم كان خطأ الأمس.

*

ليت كل الناس يصابون بالصمت لأنهم جميعاً يكذبون ويضعفون حينما يوجدون في ظروف يشترى فيها الضعف والكذب، إن إصابة جميع الناس بالصمت ستكون حينئذٍ أفضل وأقل خطراً ومهانة من أن يصبحوا كلهم يتكلمون. إذا أصبحوا كلهم يتكلمون فالمعنى أن أكثرهم أو كلهم إلا قليلاً يقولون ما لا يعتقدون أو يريدون، إنهم حينئذٍ لا بد أن يبيعوا أنفسهم كمذاهب وعقائد ونظريات وأخلاق إلى جميع المشترين.

إن أساليب التحقير للنفس وللإنسان لا عداد لها ولا قاع لحضيضها، ولكن قد يكون أبشع وأبعد هذا الحضيض وهذه الأساليب في تحقير الناس لأنفسهم أن يتحول الإنسان إلى جهاز ذليل ليذيع من المذاهب والدعايات المهينة والبذيئة والكاذبة المتناقضة ما لا يعتقد أو يريد أو يحترم، بل ما هو ضد عقيدته وإرادته واحترامه لنفسه وللأشياء، كم من الوقاحات والهوان في الكذب لحساب الآلهة والمذاهب والنظم والطبيعة والزعماء والمعلمين؟ وما أكثر هذه الأكاذيب.

إن بيع الأرباب والمذاهب والنظم والزعماء، والبيع لهم شيء فظيع.

كم هي الأقلام والعقول والأفواه التي تتقبل بلا أية مقاومة، بل وبيرود لا حد له، أن تبيع كل كرامتها، بل التي ظلت تبيعها على مر التاريخ بيعاً فكرياً ونفسياً بأرخص الأثمان وبكل الأثمان لكل الطغاة والمذاهب والعقائد والغباوات الكثيرة المتناقضة المتعاقبة المتوحشة؟ إن الكذب الفكري والوطني والأخلاقي لحساب الأقوياء ولحساب المذاهب والكون والوطنية العدوانية هو من أكثر الأشياء وأخطرها وأدومها في حياة المجتمعات، إن البشر ضعيفو المناعة أمام الفرص المواتية لبيع شرفهم وذكائهم وأربابهم.

كان التاريخ يزدحم دائماً بهؤلاء البائعين الذين يبيعون كل ما عندهم من معاني الإنسان دون أن يبكوا أو يتعذبوا أو يبصروا دماماتهم الجارحة للعيون.

لقد كان الحكام والمذاهب والعقائد والتقاليد في جميع العصور تحارب البشر وتسحق كبرياءهم وتحاول تعجيزهم عن الرؤية والقراءة للأشياء، وكان أصحاب الأقلام والبلاغة والذكاء الذليل وموزعو الآلهة والنظريات على العالم يتحولون إلى جنود طيعين لهذه القوى المحاربة للبشر.

إن المجتمعات لا تواجه احتمالات خطأ الكلمة والتفكير فقط، بل تواجه أيضاً احتمالات بيعها، وهذه المواجهة أقوى خطراً، بل تواجه حتمية الخطأ وحتمية البيع. إذن فما أطول المسافة الفاصلة بين الإنسان وبين الرؤية الصحيحة الملتزمة؟

كم هم الذين يستطيعون أن يتجنبوا الخطأ حينما يحاولون أن يروا كل الطبيعة وكل الناس والمذاهب، وأن يفهموا كل ما يرون ويفكروا فيه ويتكلموا عنه، وكم هم الذين يستطيعون أن يرفضوا كل أساليب البيع بكل الأثمان في كل الأسواق المفتوحة أمام كل البائعين الذين يستطيعون أن يجدوا فيها كل المشترين؟ إذن كم هم الذين يستطيعون أن يروا الحق والصدق ويفهموهما ويقولوهما للناس بين هذا الزحام من أسباب العجز والغواية والخوف؟ كيف يمكن أن يوجد من يستطيع ذلك؟

إذا كان كل الناس يخطئون ويبيعون خطأهم، وكلهم يبيعون صوابهم إذا أصابوا للباحثين عن الخطأ فكم يبقى حينئذٍ من الصواب الذي يرفض أن يشترى؟ وإذن فأيهما أفضل وأقل ضلالاً وإفساداً للإنسان:

أن يصمت كل الناس أم أن يتكلم كل الناس؟ أيهما شر: أن يقدم للجائع طعام ليس فقط غير مفيد ومشبع، بل طعام مسموم أو فاسد قاتل، أم ألا يقدم له شيء، أن يترك الناس بلا تعاليم لا تقول الحق والصدق أم أن تقدم لهم تعاليم تقول غير الحق وغير الصدق، بل وتقاوم الحق والصدق؟ إذن ليت الناس كلهم خلقوا بلا تعاليم ولا أفكار إذا كانوا لا يستطيعون أن يقولوا الصدق والحق، ولا يستطيعون أيضاً أن يصمتوا عن قول غير الحق والصدق.

إذا كان ذنباً أو عاراً أن نصمت عن قول ما نعتقد ونريد ونحترم فماذا يمكن أن يكون إجماعنا على أن نقول ما لا نعتقد أو نحترم أو نريد ولو في بعض الأوقات في بعض المواقف والآراء؟

ما أقبح الصورة التي ترى في كل مكان بجهامة وضخامة، ما أقبح أن نجد كل المذاهب والطغاة والأرباب والنظم المتناقضة المعادية للصدق والنزاهة تجد في كل مكان وعصر من يبيعون لها أخلاقهم وعقولهم.

لقد توزع هؤلاء البائعون ـ وإن كان ذلك في الأكثر بلا خيار أو تدبير ـ على كل المذاهب والأرباب والطغاة والنظم في كل التاريخ على كل المستويات وبكل الأساليب بكل الأثمان. ولم يكن يوجد من يريد أن يشتري دون أن يوجد من يريد أن يبيع، وكان البائعون دائماً أكثر من المشترين، كان قانون العرض والطلب هو في الأغلب أو دائماً ضد البائعين ولمصلحة المشترين.

لم تحدث أزمة بيع للأفكار والأخلاق والتعاليم، وقد تحدث أزمة في الشراء، كانت النفوس المعروضة للبيع تزحم الأسواق دائماً، لقد كانت الصورة في أبشع مستويات الدمامة والإثارة.

إنه لم يكن السؤال:

هل يوجد من يبيع بل كان السؤال الدائم: هل يوجد من يشتري: وقد كان من غير المتوقع أن يعجز من يريد أن يشتري عن أن يجد من يريد أن يبيع له ما يشتهي شراءه احتجاجاً على مكانة المشتري أو على مستوياته أو على نوع أو رداءة البضاعة الفكرية والأخلاقية التي يطالب بها، أو على الشروط المطلوبة من البائع دون المشتري.

ولم تكن الاختلافات الفكرية أو المذهبية بين البائعين اختلافات فكرية أو مذهبية، بل كانت اختلافات في التسويق، أي اختلافات على السوق أو في التقدير. إنه في العصر الواحد والمجتمع الواحد كان المذهبان أو الطاغيتان أو الإلهان المتناقضان جداً يجدان من يبيع لهما النقيضين على مستوى واحد من الجرأة والحماس والاقتناع ورفع الصوت.

وهل يحتمل أن يكون الخلاف بين من يبيع الشيء ومن يبيع نقيضه خلافاً عقلياً أو مذهبياً؟ ولو أن احتمالات السوق والظروف جعلت بائع هذا المذهب أو النظام أو الإله يبيع نقيضه لباعه بنفس الشهوة واللهفة والافتضاح. ولم يكن هؤلاء البائعون يحددون نوع البضاعة التي يلتزمون بيعها أو يشترطون أية شروط لأسلوب البيع إخفاء لضعفهم ولمستوياتهم الإنسانية، وكذلك لم يكونوا يحددون الأثمان أو يبالغون في تصور هذه الأثمان.

ولعل أسوأ الأشياء أن هؤلاء الباعة قد يخفى عليهم أنهم ليسوا إلا باعة لا يملكون أي شرف، وقد يظنون في غمرة اندفاعهم أنهم أنبياء وقديسون منزهون، وأنهم فوق كل خوف أو ضعف أو كذب، ولهذا فما أكثر ما يتحدثون عن النزاهة والشجاعة والصدق والشرف. وقد يذهبون يعيرون الآخرين الذين قد يوجد احتمال بأنهم لا يعيشون كل الصدق والشجاعة والنزاهة والشرف في كل المواقف، وقد يدخلون في مفاخرة معلنة ضد الشمس: هل هم أم هي أعظم إشراقاً ونظافة.

وقد يفقد الإنسان الإحساس بالذنب والاستقباح للعار إذا طالت ممارسته له!

إذن فلعل المشتغلين بالتفكير والبلاغة وبيع المذاهب والأرباب هم أتعس الكائنات حظاً لأنه

لا يوجد من يحقرون أنفسهم مثلهم بمثل هذا الأسلوب، إذ يبيعون أفكارهم وألسنتهم بيعاً سوقياً تشهيرياً فيه كل معاني الهوان والسقوط وتعبيراتهما لكل المشترين المتناقضين بأحقر الأثمان والشروط.

ولكن لعل الأمر ليس كذلك، ولعل الإحساس بحقارة هذا البيع وضعته مبالغ فيه، لعل عملية البيع هذه قد فقدت قبحها وفقدت الشعور المضاد لها لطول التعامل عليها وكثرة الممارسين لها، بل لعلها قد أصبحت شهوة من الشهوات التي تمارس تحت عجيج الانفعالات الضاجة بالنشوة.

ليس الشعور الأدبي نحو شيء من الأشياء شعوراً محكوماً به على كل الناس، أو ثابتاً على مستوى واحد تحت كل الظروف وفي كل العصور.

إن الشعور الأدبي تقدير نفسي، والتقدير النفسي ليس وجوداً طبيعياً أو إنسانياً، وإنما هو رؤية نفسية لشيء لا صورة ولا حدود ولا حجم له. ولهذا فما أكثر ما تختلف هذه الرؤية والصورة المتخيلة.

إذن أليس احتمالاً من الاحتمالات أن البشر لو خلقوا صامتين لا يفكرون ولا يتكلمون لكان ذلك أفضل، ولكانت حينئذٍ احتمالات تقدمهم ومعرفتهم للحق والصدق واحترامهما لهما أكبر؟ ولعل التفكير والتعليم عملية معادية ومضادة للتقدم لا مساعدة عليه لأن جميع المفكرين والمعلمين محكوم عليهم ـ ولو في بعض الأوقات ـ أن يقولوا ما لا يفهمون وما لا يعتقدون أو يرون، وأن يصمتوا ولو أحياناً عما يعتقدون ويريدون ويعرفون، أو لعل هذا هو الذي يحدث في أكثر الأوقات في أكثر المجتمعات.

لعل الأفكار والبلاغة قد نصرت الأكاذيب والأوهام والطغيان والفساد أكثر مما نصرت النقيض، نصرتها لأنها تشترى، ولأنها تضل وتخطيء وترى الأشياء في الغالب بالمقاييس التي تحكمها وتعيش فيها.

وكم هي قليلة الأفكار والتعاليم التي تستطيع أن ترتفع فوق البيع والانخداع ورؤية الأشياء بالعيون والرغبات التي طالما رأتها بها النجوم القديمة الخالدة الناظرة إلى الغباء والأكاذيب والآلام بلا غضب أو ذكاء!

إن العقول والعيون لا تستطيع أن ترى بدون رغبة أو خوف، ومع الرغبة والخوف لا يمكن أن ترى أي العيون والعقول الأشياء، ولكن الرغبة والخوف هما اللذان سوف يريان الأشياء. والرغبة والخوف لا يستطيعان أن يتحولا عقلاً أو بصراً، إنهما لا يستطيعان أن يريا الأشياء أو يفهماهما أو يحترماها أو يحتقراها، ولكنهما يريدانها أو يخشيانها.

*

ولكن أليس السقوط الأخلاقي والعقلي أسلوباً عنيفاً من أساليب النقد؟

أليس الذي يخاف أو يحتاج فيكذب وينافق ويتلوث ويعصي مثله وأخلاقه إنما هو إنسان ينقد الطبيعة أو الإله أو النظام أو المذاهب أو المجتمع أو الحاكم الذي يعيش تحت قبضته؟

إن الذي ينافق طاغية من الطغاة فيتحول إلى قصيدة عصماء مفضوحة في إلقاء المدائح الحمقاء عليه هو أعنف هجاء لذلك الطاغية، إن ذلك يعني أن الطاغية يفرض على الناس السقوط، ويعني أن النظام الذي أقامه يعلم السقوط ويحوج إليه ويجعل الحياة مستحيلة أو عذاباً بدون سقوط، ويعني أيضاً أن ذلك الطاغية يرضى عن السقوط ويباركه ويجزي عليه.

ولست أرى أن أحداً يهجو الطغاة وينقد عهودهم مثل الذين يمدحونهم بمثل هذه المدائح التي تسقط الممدوح وتلعنه وتبصق على حكمه أكثر مما تفعل ذلك بالمادح المقهور، إن هذه المدائح ليست إلا نقداً واحتجاجاً باصقاً لاعناً.

ما أقسى المديح الهاجي، ما أبشع أن يمدحك من يلعنك.

إن عجزنا عن أن نكون فضلاء وعن أن نعيش تعاليمنا وأمانينا الأخلاقية والفكرية هو أبلغ هجاء للآلهة والكون والتعاليم والمذاهب، كما أن مرضنا وضعفنا وكآبتنا هي أبلغ هجاء لأجسامنا بقدر ما هي أبلغ هجاء للشمس والقمر والنجوم والبحار ولكل ما حولنا وفوقنا ولكل من فوق ما فوقنا وفوق ما حولنا.

إذن فالذين يبيعون أفكارهم وأخلاقهم هم بسقوطهم وضعفهم ينقدون طغاتهم ومجتمعاتهم كما ينقدونهم وينقدونها بدموعهم وأحزانهم، وكما ينقدون بذلك الآلهة والطبيعة، وكما ينقدون الآلهة أكثر حينما يصلون لها ويشكون إليها ضعفهم وآلامهم وعجزهم عن أن يكونوا كما تريد منهم وكما يريدون من أنفسهم.

إن سقوط الساقط ليس نقداً أو هجاء له، بل هو نقد وهجاء للقوى التي صاغته والتي تحكمه وتخيفه وتوجهه وتريد منه، بل تلك القوى هي الساقطة وليس الساقط هو.

*

ولماذا يعجز الإنسان عن أن يكون وسطاً، لماذا لا يرفض أن يكون تراباً حينما يعجز عن أن يكون كوكباً، ولماذا يصر على أن يكون كل النذالة حينما يقضى عليه بأن يكون بعض النذالة، ولماذا يسجد للصنم حينما يعجز عن تحطيمه، ولماذا يهتف للطاغية ويبيع أو يهب كل شيء فيه وعنده له حينما يكون عاجزاً عن نقده وإعلان الكفر به، ولماذا لا يصمت عن قول الباطل والكذب حينما يخاف من قول الحق والصدق؟

لماذا لا يكون وسطاً بين هذا وهذا، بين البطولة والنذالة؟

أليس أفضل لنا أن نكون جبناء مقهورين من أن نكون كذابين منافقين؟ أليس خيراً للمرء أن يكون مغلوباً جباناً صامتاً عن قول الصدق من أن يكون شجاعاً على الجهر بالكذب والنفاق، قوياً في مواكب الجبارين، منتصراً على فضائل العاجزين الذين لا يستطيعون أو يرفضون أن يكونوا كذابين منافقين محظوظين؟

ولكن أية قيمة لهذه المواعظ البليغة التي أحاول بسذاجة أن أعظ بها وحشية الطبيعة؟ وهل الطبيعة تستطيع أن تفهم لغة الوعظ وبلاغته؟ ألست هنا كمن يعظ البرغوث أو الصرصار ليكون شيئاً أفضل أو أنظف؟ أطلب من القارىء أن يغفر لي سذاجتي.

إني أدعو إلى الرثاء والصلاة من أجل من لا يستطيعون أن يكونوا رافضين متحدين، فلا يجدون مكاناً بين التحدي والرفض وبين أن يصبحوا دعاة ومعلمين لمعاني السقوط ولممارسته وابتكار أنواعه الجديدة.

ادعو إلى الصلاة والرثاء من أجل أولئك الذين يتعاملون مع كل أعضائهم ويرفضون التعامل مع بعض عقولهم، ومن أجل كل الذين يخافون على أربابهم ومذاهبهم وتقاليدهم وأخلاقهم من أتقى أفكارهم ولا يخافون عليها من أفسق شهواتهم ـ يخافون عليها من أن تراها العقول ولا يخافون عليها من أن ترى هي الفضائح ـ يخافون عليها ممن ينظرون إليها ولا يخافون عليها ممن يتعرون أمامها!

*

لقد كان محتوماً على الإنسان أن يتعارض مع نفسه ومع الكون والآخرين، لذلك كان محتوماً عليه أن يضعف ويكذب ويتعذب ويتناقض. وكل الأشياء تضعف وتكذب وتتعذب وتتناقض مثل الإنسان لأنها مثله تتعارض مع نفسها ومع غيرها، ولكن الإنسان يعبر عن ضعفه وكذبه وعذابه وتناقضه بأسلوب أعنف وأكثر تعبيراً لأنه أعنف ألماً وإحساساً بمواقفه وضروراته، ولأن له لغة وتفكيراً وهما أداتان من أدوات التعبير عن التناقض.

إن الشمس والقمر والبحر والسحاب والبرغوث وكل شيء يكذب ويضعف ويتناقض لأنه لا بد أن يكون على نحو ما في حالة تعارض واصطدام مع نفسه وظروفه ومع الأشياء الأخرى التي يتعامل عليها ويتأثر بها ويؤثر فيها. إن كل الأشياء محكوم عليها بما حكم به على الإنسان لأنها تعاني نفس الظروف والتناقضات التي يعاني منها، ولكن اختلف التعبير وصرامته لاختلاف المستوى.

إن ضعف الإنسان وانحرافاته السلوكية والفكرية ليست انحرافات أو تعبيرات أخلاقية أو منطقية بل طبيعية كحركة الأرض والنهر وضعفهما وانحرافاتهما وتعبيراتهما المختلفة المنافية للأخلاق والمنطق الذي يعرفه ويتعامل عليه ويستريح إليه الإنسان.

والطبيعة تصاب بالانحراف والخروج على المنطق والأخلاق وتوصف بذلك مثل البشر لأن الانحراف المنطقي والأخلاقي هو أن يكون الشيء على غير ما نريد ونتمنى ونفهم، والطبيعة ـ أي الشمس والبحر والنهر والنباتات ـ تكون خارجة على إرادتنا وأمانينا وأفهامنا وحينئذٍ هي منحرفة وغير أخلاقية. ولأن سلوك الإنسان هو سلوك طبيعي لا أخلاقي ولا منطقي أصبحت التعاليم والإقناع والمواعظ لا تصنع شيئاً في تغيير أفكار الإنسان وسلوكه لأن سلوكه وأفكاره تعبيرات طبيعية لا سلطان للمنطق أو الاخلاق عليها.

إن الإنسان طبيعة وليس شيئاً آخر، والطبيعة لا تؤثر فيها المواعظ والتعاليم والإقناع، إن جميع ما في عقول الناس وألسنتهم وخيالهم من مواعظ وبلاغة وبرهان لا يستطيع أن يغير طبيعة الجنس في الإنسان كما لا يستطيع أن يغير في خضوع الأرض والقمر لقانون الجاذبية.

والاختلاف بين الناس في سلوكهم وأفكارهم ليس سببه أخلاقياً أو منطقياً بل طبيعي، إن الذات الإنسانية تستجيب لهذا المؤثر ولهذا الظرف أو لنقيضه خاضعة لعوامل طبيعية لا لعوامل إنسانية أو أدبية، فالتفكير والسلوك تعبيران طبيعيان تخلقهما وتغيرهما عوامل طبيعية، ثم تجعلهما هذه العوامل الطبيعية قويين أو ضعيفين، خاملين أو نشيطين. والكاتب نفسه حينما ينقد هذا الوجود الإنساني أو يفسره لا يفعل بحوافز أخلاقية أو منطقية بل بتأثيرات طبيعية، إنه يفكر ويشعر مشاعر تدعى أخلاقية، ولكن لماذا يفكر ويستجيب لأفكاره، ولماذا يفكر على هذا النحو دون النحو المناقض، ولماذا يشعر هذه المشاعر المحسوبة أخلاقية؟ والجواب لا بد أن يكون: إنها الطبيعة، إنها الذات التي هي إحدى تركيبات الطبيعة.

إن كل شيء يبدأ من الطبيعة وتمنحه الطبيعة كل شيء فيه، إذن الطبيعة هي كل شيء.

هل توجد أفكار أو أخلاق خارج الطبيعة؟ إذن كيف يمكن أن تكون أفكارنا أو أخلاقنا غير طبيعية أو خارجة على الطبيعة أو منتصرة عليها أو على إملاءاتها وحوافزها وضروراتها؟ ليس ما نسميه أخلاقاً أو أفكاراً إلا مستويات وكينونات طبيعية، كذلك ليس ما نراه خروجاً على الأخلاق والمنطق إلا كينونة ومستوى طبيعيين معينين أيضاً، والفرق بين هذا وهذا هو فرق بين أسلوبين من المستويات والكينونات الطبيعية، أو بين نظرتين من نظراتنا إلى الأشياء أو بين إحساسين من أحاسيسنا بالأشياء، أو بين حكمين أو تعبيرين من تعبيراتنا اللغوية أو البلاغية.

إن الأفكار والأخلاق هي الطبيعة جاءت على مستوى إنساني أو جاءت في صيغة إنسانية أو محولة إلى معاملات وموضوعات إنسانية.

إذن لا أمل في إصلاح أو تغيير تفكير الإنسان أو سلوكه إلا بوسائل طبيعية أي إلا بتغيير الطبيعة وإصلاحها. وإذن سيظل البشر دائماً عبيداً خاضعين دون كبرياء أو ذكاء للمذاهب والنظم والآلهة والطغاة، وسيظلون دائماً يبكون ويسقطون ويكذبون، كما سوف يظلون

محكومين بقانون الجوع والجنس، مثلما ستظل الأرض خاضعة لنفسها وللظروف الطبيعية الخارجية التي تحكمها.

ولكن هل سقوط الإنسان شيء رديء، ولماذا هو رديء؟ وهل يسعد أو تسعد الحياة أكثر لو رفض السقوط ولم يقبل أن يهون وأن يبيع أو يهب ذكاءه وشرفه للمشترين أو للمنتصرين أو للضاربين بكل قسوة وغباء؟

هل سقوط الأرض تحت أقدامنا وسقوط الأشياء إليها وسقوطنا نحن إليها وعليها شيء رديء؟ وهل لو لم يحدث ذلك لكان أفضل لنا أو للأرض أو للكون؟

وهل من الخير لأي مجتمع أن يكون مجتمعاً نظيفاً شجاعاً رافضاً للهوان والكذب والضعف، لا يبيع حياته للطغاة والمذاهب والآلهة والتعاليم الغبية العدوانية ـ هل سيكون حينئذٍ مثل هذا المجتمع هو المجتمع الأفضل، بل هل يمكن أن يكون مثل هذا المجتمع مجتمعاً متعايشاً بعضه مع بعض، أو مرتفعاً إلى أي مستوى من المستويات، أو بالغاً أي هدف من أهدافه؟ إنه لو وجد مثل هذا المجتمع لحرمنا حينئذٍ من لذة النقد والهجاء، إننا حينئذٍ لن نجد هؤلاء الذين يعطوننا ـ متفضلين ـ أسباب الهجوم والتشنيع عليهم لسقوطهم وكذبهم ونفاقهم وبيعهم لأنفسهم.

وكم هو فظيع أن نحرم من هذه اللذة، لذة النقد والهجاء والهجوم على الإنسان وعلى الآخرين بحجة الغيرة عليهم أو الرغبة في إصلاحهم أو الغضب من فسادهم.

لعل أسوأ الأشياء هي أفضل الأشياء، لعل الأمر كذلك.

*

إن كل الناس يبكون ويحزنون ويتألمون ويكذبون ويبيعون شرفهم، إذن كلهم ينقدون الكون وأخلاقه ومنطقه مهما صلوا له ونزهوه، وهم ليسوا مذنبين، بل ضعفاء مقهورون!

إن أي قديس يبكي لآلام الضعفاء والمحزونين ليس أقل احتجاجاً على آلهة الكون وإنكاراً لها من أي ملحد يلعن تلك الآلهة أو ينكرها!

السوط أشهر كاتب للتاريخ

«لا توجد إنسانية فيها كل معاني الوحشية مثل المحافظة على حياة من لا يستطيعون التكافؤ مع الحياة، أو من لا يستطيعون أن يسعدوا بها.

إن البشر لا يرون إثماً في إعطاء الحياة من لا يستطيعون أن يحيوا، ومن سوف تصبح حياتهم أقسى تعذيب لهم وتشويه للحياة.

إن إطلاق النسل قد يكون وحشية غبية ولكنها قد تكون وحشية مشروعة، قد تكون عقاباً للطبيعة على عبثها وعقابها للإنسان الذي لم يستطع أن يتفوق على الخوف أمام العبث الحشري، أو يتخطى ذكاء الحشرات. هل يمكن أن يصل البشر إلى مرحلة التمرد على سلوك الحشرات فيهم، أو إلى التساؤل: لماذا تعيش الحشرات فينا؟

إن أهل كل عصر مسؤولون جميعاً عن الجنون الكبير الذي يقع في عصرهم لأنهم أوحوا به على نحو ما، ولأنهم لم يتدخلوا لمنعه.

إن أي مجنون لن يعلن الحرب دون أن يحسب للعالم حوله حساباً ما، ودون أن يصوغه هذا العالم صياغة ما ـ إن أي مغامر لن يستطيع أن يفعل جنونه إلا إذا شاركه بعض الناس، وباركه بعضهم، وسكت عنه آخرون، وأغراه الباقون.

كن سخيفاً مغفلاً ولكن دع الآخرين يكونون كذلك أيضاً، فلا ينبغي أن يكون سخف أو تغفيل واحد معين هو سيد كل سخف وتغفيل في هذه الدنيا».

*

الحضارة هي الإنسان مختلفاً متناقضاً متعدداً في أفكاره، ومذاهبه وتجاربه ومعارفه وكينونته، وفي حماقاته وصياغاته المختلفة، متجمعاً من كل ذلك كما تتجمع الروافد وقطرات الغمام لتصنع نهراً أو بركة أو أوحالاً. وهذا التجمع الإنساني الذي يصنع الحضارات بدون تدبير أو اختيار أو ذكاء يشبه بناءً ضخماً متألفاً من وحدات لا عداد لها، فالحضارة ليست سوى

وحدات إنسانية لا عداد لها، وهذه الوحدات الإنسانية هي عطاء أو حاصل ذوات لا عداد لها أيضاً، وهذه الذوات التي لا عداد لها والتي تجمع من روافدها نهر الحضارة الكبير وأوحالها المؤذية، هي مجموع آحاد البشر.

فالبشر في تأليفهم للحضارة أو في حتمية الحكم عليهم بالحضارة يشبهون العناصر والذرات والطعوم المتعددة المختلفة التي تتجمع في ثمرة من الثمار، أو يشبهون وحدات الأشجار والثمار والزهرات والألوان التي يتألف منها بستان أو حقل، أو يشبهون الكائن الحي المصبوب في أعضائه وأجهزته الذاتية المختلفة المؤدية للوظائف المختلفة. وإذا لم يكن للكائن الحي ولا للبستان ولا للثمرة وجود بدون الأعضاء والأجهزة والوحدات والذرات والعناصر والطعوم المختلفة فكذلك لا وجود للحضارة الإنسانية بدون آحادها المختلفين الذين تحولوا إلى وجود حضاري. ويراد بالآحاد هنا آحاد العقول والمواهب والكينونات المختلفة التي صنعت مدنية الإنسان، أو وجوده الذي نسميه مدنية. وهذه الآحاد المتعددة ـ آحاد العقول والمواهب والأفكار والكينونات والصيغ الإنسانية ليست إلا التعبير الكامل عن الاختلافات بين البشر.

فالحضارة هي الاختلاف والتعبير عنه بكل أساليب التعبير، أي هي الإنسان مختلفاً متناقضاً متعدداً معبراً عن اختلافه وتناقضه وتعدده بالمذاهب والتصادم والخصومات والحماقات والأهواء، وبابتداع العقيدة والإله ونقيضهما، وببناء الهيكل وهدمه، وبفعل الشيء ونقيضه وبالحماقة وبالوعظ ضد الحماقة.

ومعنى هذا أن من الأفضل أو الأقوى لاحتمالات الحياة والحضارة الإنسانية أن يتكاثر عدد البشر والشعوب وأن تستنفد كل احتمالات هذا التكاثر لأن ذلك يعطي كل الاحتمالات لتكاثر أسباب الحضارة والقوة والإبداع وتنوع الأساليب التي تعبر عن القوة والحضارة والإبداع والتي تصنع ذلك أيضاً.

لقد بلغ البشر اليوم مستوى حضارياً مثيراً، وهل كان من المحتمل أن يبلغوا هذا المستوى لو لم يبلغوا في تعدادهم ما بلغوا، هل كان من المحتمل أن يصنعوا كل هذه الأفكار والمذاهب والنظم والمعارف والرخاء، وكل هذه الإنجازات الصناعية والفنية والعلمية، وكل هذه النظريات في العدالة والقيم الإنسانية والتفسيرات لحقوق الحياة؟

إن لهذا التكاثر حتماً متاعب وهموماً جماعية وفردية كثيرة، بل إن في هذا التكاثر تعبيراً مفضوحاً عن أفضل مزايا الحشرات الكئيبة التي قد يكون مفروضاً على الإنسان حياءً أو خوفاً أو استقذاراً أو عقلاً أن يخالفها ويرفض منافستها في فضائلها الخالدة العقيمة.

ولكن هموم ومتاعب هذا التكاثر الذي يعاني منه الأفراد والجماعات هي مثل سائر الهموم والمتاعب التي لا بد أن يعاني منها كل موجود لأنه موجود، إذ إن التعب والتعقيد مفروضان

على كل موجود مهما كان مستوى وجوده. فالظروف لا بد أن تكون مضادة ـ على نحو ما ـ للموجود لأنه موجود، وهو دائماً محتاج إلى المقاومة والتسخير لكي يخفف من عذاب وطغيان هذه المضادة.

وليس في الكون حياة تستطيع أن تتخلص من المتاعب والهموم مهما حابتها الظروف السعيدة. وهذه المتاعب والظروف غير الملائمة قد يساعد على قهرها وتحويلها إلى ملائمة تكاثر البشر لا تناقضهم، كما أن الحروب قد تكسب بكثرة الجيوش لا بقلتها ـ أو على الأقل هذا هو الاحتمال المفضل.

إن كثيراً من الأسماء العبقرية التي نقلت الحضارة نقلات هائلة، والتي أعطت البشر الكثير مما عندهم وعالجت الكثير من آلامهم ومشاكلهم ـ نعم إن كثيراً من هذه الأسماء العبقرية لم يكن محتملاً أن يقرأها الإنسان في تاريخه لو كان تعداد البشر مثلاً نصف تعدادهم في الفترات التاريخية التي وفدوا فيها إلى مجتمعاتهم. إذن لقد جاء كل أولئك العباقرة إلى الحياة لأن تناسل البشر لم يحدد، ولو أنه قد حدد لتناقص عدد الذين جاؤوا منهم، ولبقي الكثيرون في عداد أولئك الذين وضعوا في حسابات التحديد.

وترك البشر يجيئون ويتزايدون بلا تحديد ليس لمصلحة من سيجيئون ممن لم يجيئوا فلا مصلحة لأحد لم يجيء في أن يجيء، بل ذلك لمصلحة الذين قد جاؤوا. فالقضية قضية تضحية بمن لم يجيئوا حين يتركون يجيئون رجاء أن يكون في مجيئهم ـ أي في مجيء أفراد منهم موهوبين ـ إنقاذ لأولئك الذين قد حكم عليهم بعقوبة المجيء، إن في هذا التفكير إذن أنانية عدوانية.

وهذا يشبه أن يكون هناك قوم يتعذبون تحت ظروف شريرة، فيبعث إليهم بأقوام آخرين ليقعوا تحت وطأة تلك الظروف على أمل أن يكون في تعذيبهم عزاء أو تخفيف عن أولئك المتعذبين.

وإذا كان إطلاق التناسل يعني التشبه بالحشرات فهذا التشبه ليس مزعجاً ولا شاذاً، فالبشر يشبهون الحشرات في كل أخلاقها وغرائزها واحتياجاتها وفي تعبيراتها عن نفسها. إن الحشرات ليست أكثر من البشر تفاهة أو جبناً أو تلوثاً أو غباءً أو هواناً أو هموماً أو أنانية، بل إنهم أكثر استحشاراً من أية حشرة يرفضون في أشعارهم وتعاليمهم وفي كتبهم المنزلة أن تكون مساوية لهم في عدل الله أو في منطقه، أو شريكة لهم في خيرات السماء المنتظرة.

حتى الشعر والغناء والرقص قد تتفوق الحشرات على الإنسان فيها، فليس الإنسان أفضل أو أكثر رقصاً أو شعراً أو غناءً من الحشرات. إذن ليس عاراً فريداً أو جديداً أن يكون البشر أكفاء وأشباهاً للحشرات في عملية التناسل والتكاثر.

وإذا شقيت أسرة أو تراكمت عليها الهموم والمشاكل لكثرة عديدها فقد تصنع منها كثرتها المؤلمة وهمومها نبوغاً وحضارة، بل قد تصنع منها علاجاً لمتاعبها، فالكثرة التي تصنع الأزمة قد تصنع التفريج للأزمة. وقد يكون تكاثر الأحاد في أسرة أخرى طريقاً إلى الرخاء والقوة والمجد.

إن مشاكل الوجود تحل بالوجود، فإذا كان وجود الإنسان أو إنسان ما ألماً فإن وجوده أو وجود إنسان آخر قد يزيل هذا الألم، ولا يمكن علاج متاعب الموجود بالعدم.

إن الإنسانية تتألم في آحادها ولكنها قد تمر من فوق آلامها لتخفف آلامها، أو لتحاول القضاء على آلامها. نعم إن الكثرة قد تصنع آلاماً ومشاكل وهموماً، ولكن الكثرة هي أيضاً التي تعالج الآلام والمشاكل والهموم. وهذه الكثرة في العدد هي كالكثرة في كل الأشياء ـ كالكثرة في إنشاء المصانع والحقول المزروعة وقطعان الحيوانات وغير ذلك ـ قد تضايقنا، أو هي حتماً تضايقنا، ولكنها كما هو المفروض والمنتظر قد تساعدنا على رفع المضايقات، وتهبنا أعظم مما تأخذه منا.

هل الأفضل أن يكون الإنسان موجوداً؟ عن هذا السؤال لا أوافق على أن يكون الجواب «نعم»، ولكن إذا كان موجوداً فهل الأفضل أن يتكاثر تعداده؟

أما عن هذا السؤال فمن المحتمل أن يكون الجواب نعم لأن تكاثره حينئذٍ قد يكون علاجاً لآلام وجوده، إذن قبل وجود البشر لا معنى لوجودهم ولا مصلحة لهم فيه، ولكن بعد وجودهم يصبحون محتاجين إلى الأسباب المساعدة على تحمل هذا الوجود، وقد يكون تكاثر عددهم من هذه الأسباب المساعدة.

إنه ليس المطلوب المزيد من مجيء البشر ليجاملوا الله أو يجملوا الكون بمجيئهم، بل المطلوب التخفيف عمن جاؤوا أو من سيجيئون بالتضحية بآخرين يقال لهم: جيئوا.

توجد احتمالات أو قوانين أكيدة بأن تضيق الأرض بالإنسان فيصبح عاجزاً عن مجرد الوقوف فوقها، فكيف يحتمل أن تظل معطية لاحتياجاته الغذائية وغيرها؟ ولكن أليس من الأفضل اقتحام هذا الخطر والتحدي له؟ قد يكون الأفضل اقتحام هذا الخوف ولو كان ذلك يعني أن يفنى البشر، أن يفنوا بقانون الفناء كما وجدوا وتكاثروا بقوانين الوجود والتكاثر.

وقد يكون معنى ذلك أن يبتكروا لأنفسهم حيلاً علمية منقذة، أو أن يموت الأضعف الأغبى ويبقى الأذكى الأقوى الأقدر على البقاء والإبداع، ولعل هذا ليس شيئاً سيئاً حتى ولا في حساب من سيفنون. ما أجمل الفناء في معركة العجز عن إبداع الحياة والتفوق فيها، لعل هذا هو أنبل وأقوى فناء.

إن الإنسان موجود، فهل هو شيء سيىء أن يتكاثر؟ إن الشيء السيىء حتماً هو أن يكون موجوداً، هذه هي القضية.

إن المفروض أن تتسع عبقرية الإنسان كلما اتسعت وألحت عليه ضروراته. وفي تقدير العلماء والمفكرين أن الكائن الحي لو فقد الضرورة والشعور بها لفقد حياته وإبداعه، وفي تقديرهم أيضاً أنه كلما ازداد إحساس الحياة بالخطر والألم احتالت في طلب النجاة وبرعت في الاهتداء إلى الوسائل المنقذة، وهم يرون أن الحيلة تخلق الوسيلة أو تلجىء إلى البحث عنها حتماً.

وقد تكون الحضارة كلها هي الضرورة متحولة من الشعور بها إلى الجواب عليها، ومن الإرادة إلى الفعل والمحاولة، ومن الألم إلى الرفض والمقاومة، أو من الألم إلى اللذة.

إن الشعب إذا كان مبدعاً ومستثمراً لنفسه وإمكانياته وظروفه نفعته كثرته ولم تضرره كما يرى اليوم في بعض الشعوب الكبيرة التعداد، أما الشعوب الأخرى الكبيرة المعذبة العاجزة عن إطعام أعدادها الكثيرة وعن إعطائهم الكثير من الاحتياجات الحاسمة، فليس السبب في ذلك العجز هو كثرة تعدادها. إنه توجد شعوب لا تملك التعداد الضخم ومع هذا فكم هي فقيرة ومعذبة أو جائعة، إذن إذا كان الشعب خاملاً وضالاً فلن تنفعه قلة عديده، كما يشاهد في كثير من شعوب العالم في كثير من أطراف الدنيا، فليست الكثرة دائماً شقاءً وخسراناً ولا القلة دائماً سعادة أو ربحاً أو رخاء.

إنه في الكثرة توجد دائماً احتمالات التقدم لأنها تعدد في مصادر القوة والحضارة لأن القوة والحضارة هما الاستفادة من جميع الأفكار والاحتمالات المخزونة في ذوات جميع الأفراد، فكلما تكاثرت الوحدات الإنسانية تكاثرت احتمالات القوة والتقدم، لأن القوة والتقدم ليسا شيئاً غير الوحدات البشرية.

إن البشر لم يصيبوا من الرخاء والقوة وأسباب السعادة في أي عصر من عصورهم مثلما أصابوا في هذا العصر الذي ارتفع فيه تعدادهم إلى مستوى لم يرتفع إليه في أي وقت من الأوقات.

والبشر لا يستسلمون للأوضاع الأليمة لأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان في طبيعة الظروف واحتمالات الإنسان، وإنما يستسلمون لمثل هذه الأوضاع لأنهم لا يعلمون ما هو خير منها، أو لأنهم لا يعرفون الوسائل التي تبلغهم هذا الذي هو خير، أو لأنهم لا يقدرون، أو يرفضون التضحية ومشقات النضال، أو لأنهم منعوا أو ضللوا وخوفوا، أو رهبوا مفارقة ما اعتادوا من أساليب الحياة وصورها السابقة التي جعلها الإلف الطويل شيئاً محتملاً أو شيئاً مريحاً وطيباً. وكان يقال ـ ولا يزال يقال ـ إن الشعور بالألم أقوى من نفس الألم، وإن الذين

يشعرون بالظلم هم الذين يقاومونه وهم الذين يتقدمون، وإن أسباب العجز والاستسلام هي فقد الشعور بالألم أو ضعف هذا الشعور، وإن القوة الخالقة الباعثة للإنسان هي أن يتعاظم شعوره بالآلام التي يعاني.

ولكن ليت هذا صحيح، إذن لأصبح الإنسان دائماً شيئاً عظيماً لأنه من السهل جداً أن يشعر بآلامه. وهل القضية بهذه السهولة؟

إن القدرة على مفارقة الألم ومعرفة وسائل مفارقته هما أقدر على مفارقته من الشعور به، بل إن الشعور بالألم قد يعني الصبر عليه وتحويل هذا الصبر إلى فلسفة وفضيلة وتدين ورجولة وشجاعة، ما لم توجد القدرة والمعرفة على التخلص منه. والقدرة على تجاوز الحياة المهينة أقوى من الإيمان بأنه يجب التجاوز لتلك الحياة، وأن البقاء فيها عار أو هزيمة، بل ان الإيمان بوجوب الرفض لتلك الحياة لا يعني شيئاً، والقدرة هي كل شيء وحتى بدون إيمان.

والطبيعة كلها ـ في كل وحداتها، في الحيوان والنبات والجماد ـ تفعل بالقدرة لا بالإيمان، والإنسان كذلك.

وأكثر الذين يخضعون للآلام لا يخضعون لها لأن شعورهم بها لم يتكامل، بل لأنهم لا يقدرون على التغير ولا يحاولونه لأسباب غير فقد الشعور بها.

فهوان الناس واستسلامهم لواقعهم المتعب هو في قدرتهم، في ذواتهم، وليس في احتمالات ظروفهم ولا في الطبيعة الخارجية.

وقد كنت أتناقض ولا أزال كذلك، وسوف أمضي مستمراً في هذا التناقض، كنت أتناقض في هذه القضية، قضية خصوبة التناسل، كنت أرى خلاف هذا الرأي الذي أكتبه هنا.

لقد كنت أنظر إلى الآلام الفردية والمشاكل المحتومة على كل وجود أكثر من نظري إلى المعنى الأعمق في هذه الخصوبة الرهيبة، وكنت أقدر القضية تقدير فرد يرى الألم والدموع والضياع، فيبكي ويتألم وينكر، فيحكم، ولم أكن أقدرها تقدير جماعة، تحسب وتقارن وتؤمل وتنتظر وتعلم وتتبلد عواطفها ودموعها أمام الدموع والآلام.

إن في خصوبة التناسل جنوناً وآلاماً لا ثمن لها، ولكن الوجود كله آلام وجنون بلا ثمن مقبوض ولا ثمن مؤجل.

وليس سخفاً فريداً أو عجيباً أن نتعالج من الجنون والآلام والتفاهات بالمزيد منها.

ولكن أليس في كثرة البشر احتمالات أكثر لمجيء الطغاة والمخربين والمجانين؟

إن موارد الحياة أو الموارد التي تصنع منها الحياة وجودها وذكاءها وغباءها وهمومها وأعراسها وبقاءها موارد لا احتمال لحصرها أو نفادها، فالفضاء الذي هو وعاء الكون لا يمكن

أن تكون له حدود أو نهايات، لا معلومة ولا مفترضة. إن افتراض تحديد الفضاء افتراض لا يؤيده شيء من قياسات الإنسان أو معارفه أو استنتاجاته أو تصوراته، وهو حتى ليس أمنية من أماني البشر. وإذا كان ذلك كذلك فالوجود الذي قد يستطيع الإنسان الانتشار فيه لا يمكن افتراضه محدوداً، بل لا بد من افتراضه مطلقاً مثل ثوبه الذي هو الفضاء، وإنه ـ أي الوجود ـ منتشر فيه أبعد وأوسع من انتشار الخيال، وإنه أكبر وأوسع من الإنسان بكل احتمالاته التناسلية.

وأي ذنب أو سخف في أن تصبح الأرض مكان تخصيب وإنتاج وتصدير للإنسان إلى كل الآفاق المجهولة والمعلومة البعيدة؟

ليترك البشر يتكاثرون ويقتلهم الجوع والزحام والأحزان والمسرات الصغيرة التافهة، ليتركوا يتكاثرون لتكثر فيهم احتمالات العبقرية والمغامرات، ولكي يحاولوا الانتشار والغزو لإبعاد الكون الكبير التافه. إن أمامهم حينئذٍ أحد احتمالين: العذاب والموت جوعاً، أو التفوق العظيم، وليس في الاحتمالين ما ينبغي لنا أن نرفضه أو نخافه. وإذا كنا نرفض أن نموت من التكاثر، مع أن هذا الموت ليس شيئاً فظيعاً أو مرفوضاً في حساباتنا، لأننا نقبل جميعاً أن نوجد كيف كان وجودنا، ثم نموت كيفما كانت حقارة الأسلوب الذي نموت به وحقارة الهدف أو الشعار الذي نموت تحته ـ نعم إذا كنا نرفض الموت بهذه الوسيلة فلا ينبغي أن نفترض أننا سوف نموت بها من كثرة التناسل إلا إذا افترضنا الكون محدوداً وأضيق منا، ثم افترضنا قدرتنا على النمو والإبداع والمحاولة محدودة. ولكن الافتراضان يرفضهما الكون، وترفضهما احتمالاتنا الدائمة.

وعلى كل الفروض ماذا يحدث لو تكاثر البشر حتى ضاق بهم الكون وضاقت بهم موارد الحياة في كل أبعادها وأعماقها؟ إن الحياة حينئذٍ لا بد أن تفعل الملائم لها أو تفعل ما تستطيع فعله، وقد تبقي الأقوى وتقتل الأضعف، أو تبقي الأقدر على التلاؤم وتنفي العاجز عن هذا التلاؤم.

وهذا الذي سوف يحدث قد يكون أفضل الاحتمالات ـ قد يكون أفضل من الإبقاء على الجميع: الأقوياء والضعفاء لأن عددهم قليل لا يوجب أن يقتل الأقوى الأضعف دفاعاً عن وجوده، أو لأنه لا يوجد مكان يتسع لهما معاً. ولا توجد إنسانية فيها كل معاني الوحشية مثل المحافظة على حياة من لا يستطيعون التكافؤ مع الحياة أو من لا يستطيعون أن يسعدوا بالحياة.

وقد اعتاد البشر ألا يروا إثماً في إعطاء الحياة من لا يستطيعون أن يحيوا، ومن سوف تصبح حياتهم أقسى تعذيب لهم وتشويه للحياة!

وهل هو افتراض موثوق به أن الحياة تحابي الأقوى ضد الأضعف؟ لعلها تصنع العكس لأن الأقوى يكلفها ويتحداها ويشترط عليها، أما الأضعف فلا يفعل شيئاً من ذلك بل يكتفي بمجرد وجوده، فهو بهذا يغريها بأن تجامله وتحافظ عليه لأنه لا يتعبها أو يرفض شيئاً من تفاهاتها

وعجزها وبلادتها. والأضعف هو الأكثر، وقد يكون الاهتمام بالأكثر الأضعف، لا بالأقوى الأقل.

أليست الحياة تحابي أضعف الحشرات وتيسر لها أسباب البقاء والتكاثر أكثر مما تحابي الحيوانات العليا جداً؟

والبشر أنفسهم ماذا يصنعون حين تضيق بهم موارد الوجود؟ المفروض أنهم سيأخذون بأسلوب يجعل الضعاف والمرضى والمتخلفين في تكوينهم وصفاتهم وعقولهم يتخلفون ويقهرون بل ويزالون من الطريق، ويجعل الأقوياء المتفوقين في خصائصهم البدنية والفكرية والنفسية يسيطرون ويبقون ويملكون جميع الأشياء. وإذا كان هذا الافتراض صحيحاً فإن الافتراض الآخر المترتب عليه:

أنه كلما اشتد الصراع والتزاحم المتسببان عن الفقر الطبيعي ارتفعت احتمالات تفوق الأقوياء وتخلف الضعفاء وهزيمتهم في هذه المعركة الشريرة المميتة.

وإذن فإن أعظم ما يخشى الآن على مستقبل الحضارة تكاثر ذوي الصفات الضعيفة لأن الحضارة تحارب نفسها اليوم بكل الأساليب، فهي تدافع عن كل المتخلفين في صفاتهم الموروثة والذاتية كما تدافع عن الأقوياء، بل لعلها تدافع عن الضعفاء أكثر بأساليب كثيرة متعددة التعابير. والضعفاء بخصائصهم المختلفة هم دائماً الأكثرون، وهذا يعني أن يسيطروا على الحضارة ويحكموا الأقوياء وتصبح الفلسفات والقوانين وكل النظم مواتية لما يريد الضعفاء ويتلاءم مع ضعفهم ضد الأقوياء وضد تفوقهم. هذا شيء يحتمل أن يقال وأن يقتنع به كثير من الناس. ولكن هل هو استنتاج صحيح؟

من الاحتمالات المحتملة التصديق أن الحضارة بذلك تصنع قوتها وتفوقها، ذلك أنها تحول الضعفاء إلى أقوياء وتعطيهم كل الفرص ليجربوا مواهبهم المكبوحة أو المخبوءة الضائعة أو المقهورة تحت الظروف المضادة، ومن مزايا الحضارة أنها تقاوم هذه الظروف المضادة وتلغيها، أو تحاول أن تفعل ذلك.

إذن فاهتمامها بالضعفاء أسلوب من أساليب البحث عن القوة والتفوق، وطريق إلى ذلك.

إن الحضارة بكل صيغها هي هبة العبقرية المتفوقة وحدها، والعبقرية قليلة جداً في البشر، وهي دائماً فردية لا جماعية أي لا شعبية.

إن العبقرية لا تساوي كل إنسان، بل تساوي أفراداً قليلين يجيئون على غير حساب أو تقدير أو قانون أو منطق، إنهم يجيئون وكأنهم تركيز أو تجميع فذ لملايين الناس أو لعشرات الملايين في فرد واحد.

كأن مجيء عبقري واحد ليس إلا اعتصاراً أو سرقة لموهبة الملايين لإعطائها فرداً واحداً لا يعرف من الذي دبر ونفذ له هذه السرقة وهذا المجيء.

ولكن هل هذه الملايين مظلومة أم محظوظة حينما خرج من صلبها أو من ترابها إنسان واحد ليكون أكثر منها كلها عطاء للحياة؟

واحتمالات وجود هؤلاء الأفراد القليلين في الأعداد الكبيرة إذا كانوا من عرق واحد وفي ظروف متساوية أكثر من احتمالات وجودهم في الأعداد القليلة من العرق نفسه في نفس الظروف. إن احتمال وجود عدة عباقرة في شعب من الشعوب حينما يكون تعداده مائتي مليون أكثر من احتمال وجودهم في هذا الشعب نفسه لو كان تعداده عشرة ملايين أو مائة مليون.

واحتمالات وجود عبقري واحد أو إنسان متفوق في إخوة عددهم عشرة أعظم من احتمالات وجود هذا العبقري أو الإنسان المتفوق في إخوة عددهم خمسة.

ومفروض أنه كلما كثرت التجارب على شيء ما، أصبحت احتمالات النجاح فيه أوسع، إن البحث عن إصابة الهدف في ألف طلقة نطلقها في الظلام أقرب إلى الذكاء من البحث عن إصابة هذا الهدف في مائة طلقة، واحتمال الحصول على جواد متفوق من بين مائة جواد أكثر من احتمال الحصول على هذا الجواد من بين عشرة جياد. وفي سبيل البحث عن المزيد من احتمالات العبقرية تهون التضحيات ومقاساة الآلام والمتاعب المحتومة في كثرة البشر العددية. إن تزايد الناس خطير، هذا شيء لا ينكر، ولكن في هذه الخطورة احتمالات أفضل، فأيهما نختار؟ هذه هي القضية.

إن إطلاق النسل قد يكون وحشية غبية، بل هو وحشية فظيعة حتماً، ولكنها قد تكون وحشية مشروعة، قد تكون عقاباً للطبيعة على سلوكها العابث، وعقاباً للإنسان الذي لم يستطع أن يتفوق على الخوف أمام العبث السخيف، أمام العبث الحشري الذي لولاه لما عانى شيئاً من الآلام والتفاهات والمواقف الوضيعة، عقاباً له أي للإنسان حيث لم يستطع أن يتخطى ذكاء الحشرات وسلوكها في عمليات التناسل.

إن الإنسان يحاول أن يضع لتناسله تفسيراً وتسويغاً، ولكن عملية التناسل لم تكن تعبيراً قط عن المنطق، أي لم تكن تعبيراً عن هذا التفسير والتسويغ، لقد كانت قبل ذلك وبدون ذلك ثم جاء المنطق أي جاءت التفسيرات والتسويغات، ولم يكن التناسل عند الإنسان منطلقاً عن المنطق إلا بقدر ما ينطلق تناسل الحيوانات عن المنطق، وبقدر ما يجوع وينام ويتعب بالمنطق.

إن التناسل عملية حيوانية حشرية يؤديها بالفكرة والهدف والأسلوب الذي تؤديها به الحشرة

والحيوان، ولا يمكن أن يعرف لماذا يؤديها ولا لماذا يرحب بها أو يصبر عليها أو يستمر في تأديتها بكل ما في ذلك من تفاهة وهوان وتعذيب.

إنه لا يوجد في أي احتمال من احتمالات منطق الإنسان أو مصلحته أن يتناسل أو يريد التناسل، إنه لا يتناسل لأنه بذلك يخدم الآلهة أو الكون أو نفسه أو يخدم أبناءه، بل لا يريد هذه الخدمة ولا يعرفها ولا يفكر فيها، بل إنه يؤدي هذه العملية ويريدها حتى لو كانت ضد الآلهة والكون والناس ونفسه بل وضد من يتناسل بهم. إذن فهو بهذا يعمل شيئاً ضد كل شيء حتى ضد مصلحته ومصلحة أبنائه الذين يفرض عليهم المجيء أو يفرضون هم عليه أن يجيئوا أو يفرض عليه وعليهم هذا المجيء.

إذن لماذا نتناسل؟ إننا نصاب بالتناسل وبإرادته كما نصاب بالموت والمرض والشيخوخة، وكما تصاب الأرض بالصحارى والجبال الشرسة وباحتمالات الزلازل والبراكين والجدب.

كان يقال أو يظن أن العملية التناسلية هي أنانية، ولكن حتى ولا هذه، بل هي عملية ضد الأنانية، أو هي أنانية، منحرفة جداً حتى أصبحت خصماً للأنانية العاقلة النافعة.

هل يمكن أن يصل البشر إلى مرحلة التمرد على خضوعهم لسلوك الحشرات فيهم، هل يمكن أن يقفوا جميعاً ليسألوا باحتجاج:

لماذا تظل تعيش فينا الحشرات، وأن يردوا على هذا السؤال بالمنطق لا بالخضوع لسلوك الحشرات فيهم، وأن ينفذوا رد المنطق عليهم بالوسائل العلمية؟ إنه لم يكن أي خيار لهم في فرض هذه العملية وفي حدوثها بالأسلوب الذي به تحدث، ولم تكن لهم قدرة أو معرفة لمنعها أو رفضها، وهم لم يريدوها ليدبروا بعد إرادتهم لها مجيئها، بل لقد وجدوها في الوقت الذي وجدوا فيه أنفسهم فاستمروا خاضعين لما وجدوا دون أن يعرفوا أو يسألوا: لماذا، كما وجدوا الحشرات والموت والآلام والحياة مفروضة عليهم وحولهم. فهل يصلون في المستقبل إلى طور التساؤل عما يجدون ثم التمرد عليه؟ هل يستمرون في قضية التناسل خاضعين لعبث الطبيعة وفسوقها بهم أم يرتفعون إلى طور الخروج عن الطبيعة وإخضاعها لذكائهم بالوسائل العلمية التي اتقنوا؟

*

لقد طال الفصل بين بداية الموضوع وسائره بهذا الاستطراد الذي طال كثيراً لقوة إحساس النفس به وإثارته لها. وكان الموضوع هو أن الحضارة ليست سوى الإنسان مختلفاً متعدداً معبراً عن اختلافه وتعدده بالمذاهب والأفكار وكل أساليب التعبير.

إن كل رأس يتفجر عنه فكر مخالف جديد ليس إلا قوة جديدة تنضم إلى القوة المتجمعة

من تراكم التفجرات المختلفة التي انطلقت من رأس الإنسانية الأعظم، وانطلقت عنه وفيه لتؤثر تأثيرها في بناء الحضارة، أو في آلام الحضارة وهمومها. والرؤوس التي تنطلق عنها الآراء المخالفة للآراء التي قبلها والتي حولها هي رؤوس تصلي لله مهما هزئت بالصلاة، وتحترم الإنسان وتعمل من أجله مهما تحدته وضايقته واحتقرته، إنها إحدى مصادر القوى في كون الإنسان وحياته وإحدى تعبيرات الطبيعة عن رفضها لنفسها ومحاولتها للتفوق عليها وتجاوز أحد مستوياتها ـ إنها أسلوب من أساليب احتجاج الطبيعة على نفسها واحتجاج الإنسان على تفاهاته وآلامه. وليس الذين يحولون بين الأرض وبين أعظم مصادر الطاقة فيها، أي يحولون بينها وبين الشمس ـ لو كان يوجد من يمكن أن يحولوا بين الأرض والشمس ـ ليس هؤلاء الذين يفعلون ذلك بأعظم ظلماً ممن يحاولون أن يحولوا بين البشر وبين أكبر منابع القوة فيهم، وهو تعددهم واختلافاتهم الذاتية والفكرية وتعبيراتهم عن ذلك بكل أساليب التعبير.

وإذا كان الذين سيستطيعون قبل غيرهم وأكثر من غيرهم السيطرة على كل طاقات الكون وتحويلها إلى أعمال إنسانية وإلى أجوبة وردود على تساؤلات الحياة فيهم سيكونون أكثر الناس قوة ورخاءً وانتصاراً، فإن الذين يستطيعون إطلاق جميع احتمالات التعدد فيهم، التعدد الفكري والسلوكي بكل ما في ذلك من تحديات وأخطار، سيكونون كذلك أكثر الناس رخاءً وقوة وانتصاراً.

وإذا كان لكل الأحياء والجمادات خصائص ذاتية تعمل بأسلوب ذاتي لا خيار فيه، وكانت هذه الخصائص تعبر عن طاقات هذا الوجود وحتمياته، فإن هذا الإنسان الذي يرى لنفسه وفي نفسه أنه أعظم وأفضل موجود تنصب فيه كل موهبة الإله وموهبة الكون لا يمكن أن يكون أقل من تلك الكائنات استحقاقاً لهذا الشرف الكوني العظيم، أو لهذا الشرف التافه الأليم.

وإذا كان لا يفرض على شجرة أو على حشرة أن تكون في عملياتها الذاتية مثل الشجيرات والحشرات الأخرى أو مثل الحجارة كما لا يستطاع ذلك ـ وإذا كانت أية شجرة أو حشرة لا تعد فاسقة أو كافرة بالآلهة أو بالأخلاق أو الأديان حينما تؤدي طبيعتها وقدرتها حرة ذاتية مهما خالفت الأشجار والأشياء الأخرى فكيف لا يكون الإنسان ـ في أقل حظوظه ومستوياته ـ مثل الشجرة أو الحشرة، له أن يخالف غيره ويخالف العالم كله؟

وعملية التفكير في رأس الإنسان، مصطدماً بظروفه وآلامه، تشبه سائر العمليات العضوية الوظيفية فيه، تجري على قوانين وضرورات تعد محاولة وقفها أو إضعافها أبشع أساليب الجنون والظلم والتعذيب، بل التفكير عملية عضوية مثل كل العمليات العضوية الأخرى وليس شبيهاً بها فقط، ومن الطغيان كما أنه من الغباء والوقاحة أن نصر على معاداة تفكير ما، أو كبحه لأننا وجدنا أنه إذا أطلق جاء مخالفاً لتفكير آخر أصبح متقرراً أو متكبراً أو منتصراً.

إن من أردأ الغباء والطغيان والتوقح أن نجعل تفكيراً ما هو المقياس دون كل الأفكار المخالفة له، وهو المقياس لها جميعاً.

وإنه لشيء تحت كل مستويات البلادة والإذلال للإنسان أن يفرض على جميع البشر بأن يجيء تفكيرهم في النصف الثاني من القرن العشرين مساوياً أو خاضعاً لتفكير أو لآلام رجل كان هنا منذ عشرين أو خمسة عشر قرناً، أو لتفكير ولأحزان رجل أو رجال يعيشون في هذا العصر، وإنه لأكثر من محال أن نرجو توحد عمليات الأفكار كلها في كل العصور أو في عصر واحد، ولو حدث هذا الذي لا يحدث لكان مأساة. وإذا كان الخلاف والتعدد محتومين ومشروعين بل ومطلوبين جداً لم يكن ممكناً تحديدهما بخلاف وتعدد معين دون أي خلاف وتعدد آخر.

إن كل خلاف وتعدد مثل كل خلاف وتعدد: إما أن يكونا مشروعين ومحتومين وإما أن يكونا محرمين ومستحيلين.

إن عاطفة واحدة من عواطف الإنسان في سائر أفراده لم يتفق لها أن تجري مع سائر آحادها في مجرى واحد إلى غاية واحدة، ولو حدث مثل هذا فماذا يمكن أن تكون حياة البشر؟ وتعدد العواطف والشخصيات واختلافها يعني حتماً اختلاف الأفكار والمذاهب والاتجاهات السلوكية. إن الأفكار في تنوع أعمالها واختلاف سبلها وأهوائها وطاقاتها، وفي اختلاف الأسباب التي تصنع الاختلاف والخصومات بينها لا يمكن كما لا يحسن أن تكون أقل في قدرتها على ذلك وحاجتها إليه من العواطف.

إن محاولة رفع الاختلاف بين الأفكار والعقائد وتوحيدها كلها في فكر واحد وعقيدة واحدة يساوي محاولة أن توضع الإنسانية كلها في إنسان واحد: في شهوته أو في ضعفه أو في ظروفه أو في نقائصه. وهل يمكن ألا يعلم الذين يحرمون الخلاف أو يشكون في قيمته كيفما كانت أبعاده وموضوعاته أن الحضارة والحقائق وكل المذاهب والآلهة التي يغارون عليها، أو يقاتلون دفاعاً عنها لم يبتكرها إنسان واحد، وإنها لم توضع أو تعرف باتفاق الآراء.

إن مصادرة حرية التنفس ليست أكثر ظلماً أو بلادة من مصادرة حرية الاختلاف الفكري أو العاطفي، وليست كذلك مقاومة الأعضاء لمنعها من أن تؤدي أعمالها خيفة أن تعمل ما لا يعمله الآخرون أو ما لا يحبون بأعظم حكمة وعدلاً من مقاومة العقول لمنعها من الرؤية كما تستطيع خيفة أن تكون رؤيتها أو مرئياتها غير رؤية أو مرئيات أولئك الذين قد ماتوا، أو غير رؤية ومرئيات هؤلاء الأحياء الطغاة المجانين الذين يريدون من كل العقول والمستويات أن تموت وتهبط احتراماً لعقولهم ومستوياتهم، وعبادة لغرورهم وكبريائهم ومخاوفهم.

فهؤلاء الذين يثبون ليقتلوا كل خلاف عليهم أو على المقاييس المتقررة أو القديمة، بحجة أنه

خروج وتمرد وضلال عن الطريق المسلوك أو المضمون أو المعروف، هم قوم يحاولون تحقيق أكبر الحماقات التي لا يمكن تحقيقها مهما وضع لها من الأجهزة، أو أنفق عليها من الدماء والآلام والأكاذيب.

ماذا لو أن الإنسان منذ بداية وجوده اهتدى إلى هذه الغواية واستطاع الاستمساك بها ـ أي إلى أن يقرر أفكاراً ومذاهب ومثلاً وأوضاعاً ومستويات للحياة موحدة منتهية، لا يستطيع تجاوزها ولا الخروج عليها، ثم استطاع أن يعتقل كل احتمالات حياته وأشواطها في معتقلات هذه الأفكار والمذاهب والمثل والأوضاع والمستويات، لا يعصي ولا يخالف، ولا يفكر في العصيان أو المخالفة؟

إنه ما من معرفة ولا مذهب ولا تقدم ولا فن ولا لون من ألوان الحياة والحضارة، حتى الآلهة والأديان نفسها ـ إنه ما من شيء من ذلك قد أصبح اليوم حقيقة تخاف ويحارب الخروج عليها ومخالفتها إلا وقد كان في تاريخ مضى رأياً جديداً منبوذاً مخالفاً للآراء السابقة المعروفة، يحرم التعامل عليه كما يحرم عليه دخول الأسواق أو المعابد أو المجالس العامة أو التحدث عنه. لقد ظل زمناً طويلاً غريباً مكروهاً مذعوراً يتسلل إلى السوق والعقول وإلى معاقل التاريخ الحصينة في ضعف ووجل وتنكر حتى أصبح هو القوة الطاردة لغيرها من السوق، وحتى أصبح يقاوم هو كل جديد، ويراه زندقة أو خيانة، كما كان الذي قبله يراه ويقاومه.

إن هذه الأفكار التي تعد اليوم جديدة وتطارد لأنها جديدة ستصير مع الأيام قديمة، يعد مخالفوها زنادقة ومنبوذين، وتحارب باسمها الأفكار التي سوف تكون أكثر منها جدة.

إنه كلما تعددت الأنهار ومصادر المياه وعظمت في أرض ازدادت احتمالات خصوبة هذه الأرض ورخاء أهلها، وكذلك كلما تعددت الأفكار والمزايا والخصائص المختلفة وعظمت في أمة من الأمم ازدادت احتمالات العظمة والقوة فيها. إن الشعب الأمريكي هو من أكثر الشعوب إبداعاً للحياة، ولعل أحد أسباب هذا الإبداع والنشاط هو تعدد أجناسه وأعراقه وبيئاته ومصادره التي تجمع منها، يحمل كل خصائصها الفكرية والثقافية والتاريخية والنفسية والحضارية، إن الشعب الأمريكي يحمل كل معاني التعدد الإنساني، لهذا هو نشيط ومبدع.

وهذا الشعب المجاور الخطير، بل هذه الحصيلة البشرية الرهيبة التي تحتشد على حدودنا أو داخل حدودنا أو داخل حياتنا، وتتكون في إهاب واحد لتصنع شعباً واحداً وموهبة أو قوة واحدة هي حصيلة كل الشعوب والمواهب، كل أفكارها وآلامها وتجاربها وهمومها وتحفزاتها وخبراتها وأمانيها ـ إنني أعني بذلك إسرائيل، إن علينا أن ندرك خطرها أو معناها أو قوتها، لأن علينا أن ندرك معنى تعدد الأفكار والمذاهب والمشاعر والأحلام والبيئات والفنون والآلام والهموم والخصائص في مجتمع من المجتمعات، وندرك أن كل ذلك يلتقي الآن في إسرائيل

على أحدث وأعنف مستويات العصر الحديث، إن علينا أن ندرك معنى التعدد الإنساني، وماذا يعني.

إن فهمنا لأخطار هذا التعدد والتجمع البشري في إسرائيل الرابضة داخل حاضرنا ومستقبلنا لأنفع لنا جداً من أن نتفهم ونفسر كل كتبنا القديمة، كل شعر شعرائنا، وأحاديث رواتنا، ونصوص معلمينا، وصلوات عبادنا.

ولكن حصيلة هذا التعدد والتجمع قد تكون في حالة أخرى هواناً وضعفاً، قد تكون في حالة أخرى تجمعاً للعجز والتخلف والغباء حينما يكون المجتمع مجتمعاً من شعوب ذات خصائص فكرية ونفسية وثقافية وتاريخية وحضارية متخلفة، من شعوب لا تستطيع ولا تعرف أن تفكر وتبدع.

*

ثم كيف؟

أنت لك عقيدة أو مذهب أو إله أو نظام، لغيرك غيره، فمع من الصواب، ومن الحكم في الاختلاف بينكما؟ كلاكما يزعم بطفولة فيها كل الكبرياء أنه هو الصواب كل الصواب، وأن الحكم هو البرهان، زاعماً أنه هو كل البرهان. إذن كل منكما هو الصواب كل الصواب، والبرهان كل البرهان، وإذن فمن هو الباطل كل الباطل، والخطأ كل الخطأ؟

إنك لن ترى منظراً ساخراً ومهيناً أبلغ من أن ترى رجلين أو طائفتين مختلفتين على المذهب أو العقيدة أو النظام أو الإله، تدخلان في حوار حاد، هذه الطائفة ترى أنها هي الحق كل الحق، وأن المخالفة لها هي الباطل كل الباطل، ثم تدعي الطائفة الأخرى نفس الدعوى! إن الرجلين أو الطائفتين لتستحقان كل الرثاء بدل الغضب أو الكره.

إنك قد تكون مؤمناً متديناً وحينئذٍ تذهب تقول إن الحكم في الخلاف ـ في أي خلاف ـ هو الدين، هو السماء بكل ما فيها من آلهة وأنبياء ونجوم، ولكن مخالفك قد يقول مثل قولك إذا كان مؤمناً ومتديناً، ويدعي كادعائك أنه هو الدين والآلهة والسماء والأكوان العليا، وأن إرادته وظروفه هي الإله والأنبياء والكتب المنزلة.

إن كل من يقول بكلامه أو بسلوكه: الحق معي أو عندي إنما يعني:

أنا الحق، أنا الله، أنا النبي، أنا الكتاب المقدس ـ إذا كان مؤمناً، أما إذا لم يكن مؤمناً وقال مثل هذا القول فكأنما يقول:

أنا الطبيعة، أنا الحياة، أنا التفسير للطبيعة وللحياة، أنا الذي يجري النهر وتطلع الشمس وتنبت الحقول من أجله، وعلى نموذجه، وبإرادته!

ومن المحتمل أن تكون جريئاً في إيمانك بنفسك أو في إيمانك بإيمانك، فتذهب تزعم بكل جرأتك أنه لا قيمة لخلاف مخالفيك، وأن القيمة كلها لرأيك أنت أو لك أنت، ومن المحتمل كذلك أن يكون المخالف لك جريئاً مثل جرأتك فيزعم مثل زعمك وحينئذٍ يتململ أبو العلاء من وراء العصور والقبور ليقول لكما ولكل الناس في كل الأزمان في كل خلافاتهم وادعاءاتهم:

وكم من فقيه خابط في ضلالة وحجته فيها الكتاب المنزل

إن قلت إن السيف وحده هو الذي عليه أن يقطع حاسماً في هذا الخلاف وفي كل خلاف، قيل لك: إن السيف حتماً يقطع ولكنه يقطع هنا وهناك، يقطع لك ويقطع ضدك، يقتل الملاك ويقتل الشيطان، يقتل النبي ويقتل الكافر به. إن السيف يقطع الشيء ونقيضه، ويقطع الحق بالجرأة والوقاحة التي يقطع بها الباطل، ويقطع في يدك كما يقطع في يد خصمك ـ إنه يقطع يميناً وشمالاً وفي كل الجهات دون أن يبكي أو يدخل في خصومة مع ضميره.

إن السيف حتماً حاكم وحاكم قوي، ولكنه دائماً حاكم جاهل، وهو يقرأ كل النصوص ويفسرها، ويفهم كل المذاهب والعقائد والنظم والآلهة ويحترمها على مستوى واحد من الفهم والقراءة والتفسير والاحترام، لا يتأثر هذا المستوى بأي مؤثر، لا يزداد قوة كما لا يزداد ضعفاً.

وهذا يعني أن يظل السيف دائماً شريعة محترمة معمولاً بها ومعترفاً لها قانونياً وأخلاقياً ـ ضارباً هنا وضارباً هناك.

إن جميع الناس ـ ولو في بعض الأوقات وتحت بعض الظروف ـ يحولون السيف إلى أقوى حجة لإقناع الآخرين المخالفين ـ كل الناس، ولو أحياناً، يحاولون أن يدللوا على الآلهة والمذاهب والنظم وعلى ذكائها وصدقها وتفوقها على الآلهة والمذاهب والنظم الأخرى بالسيف. ولعل أكثر مذاهب الناس وعقائدهم وأربابهم في كل التاريخ لم يكن لها من برهان فيه كل الإقناع أقوى من السيف بل غير السيف.

والعجيب أن الناس يفهمون السيف ويقتنعون بذكائه أكثر مما يفهمون أي منطق أو يقتنعون بذكاء أي تفسير يراد منهم أن يؤمنوا به!

والآلهة والمذاهب والنظم التي تقدم للناس على حد السيف لا تشعر بالعار أو الخجل بل ولا بالتواضع، إنها تتحدث باعتزاز وتفاخر عن قيمة المنطق وعما فيها من منطق، وتعيب الآخرين الذين لا يعيشون على المنطق وحده.

لقد كان السيف ـ ولا يزال ـ هو أقوى منطق عالمي، لقد ظل السيف هو منطق الآلهة والثوار وكل الطغاة، كما ظل منطق المذاهب والأخلاق وكل القيم المفترسة.

وقد تقول: إن عليّ أن أدين لمذهبي وإلهي وألتزمه، وما على الآخرين إلا أن يسيروا ورائي مغمضي العيون مقهوري الإرادة، وإلا فهم أعداء وخونة وضالون تجب إبادتهم بكل قسوة. ولكن هل يمكن أن يوجد من يقول مثل هذا الجنون؟ إن الناس جميعاً وإن كانوا لا يقولون ذلك قولاً يفعلونه بسلوكهم، بل ويقولونه بسلوكهم، إنهم يتصرفونه أبلغ مما يقولونه، ومهما أنكروه فإنهم يفعلونه على نحو ما وبأسلوب ما أو تحت بعض الظروف وفي بعض الحالات.

إنه مباح لك وعدل أن تدين بآرائك ولأربابك مهما كانت سخيفة وغير معقولة، ولكن عليك أن تفعل ذلك مبتدئاً من حدودك منتهياً عندها، لأنك لست كل العالم، ولأن في الفضاء الذي تتحرك فيه آخرين يريدون أن يتحركوا فيه أيضاً مثلما تريد أنت، ويريدون أن يعيشوا الجنون والحماقات التي تعيش أنت مثلها.

إن حقوق الآخرين في الجنون والحماقات مساوية لحقوقك، فليس لك أن تخضع سواك لجنونك وحماقاتك، كما أنه ليس لسواك أن يخضعوك لجنونهم وحماقاتهم، وإن الأرض تتسع لجنونك وجنونهم، إن الأرض لتتسع لكل غباء، وإن الشمس لقادرة أن تغفر للجنون كله بالعدل والمساواة والحنان.

ولا يوجد أي منطق يجعل لك الحق في أن يخضع لك الآخرون، كما لا يوجد أي منطق يعطي الآخرين الحق في أن يخضعوك لهم. إن لك أن تريد وأن يكون لك قلب يحب ويضعف، وبصر يرتفع إلى النجوم ويرى فيها سحراً أو دمامة وهموماً، وإن لك أيضاً أن تحتاج وتشعر وتتألم وتفعل بكل قدرتك وظروفك، ولكن من غير أن تفرض على الآخرين ذاتك، كما أنه ليس للآخرين أن يفرضوا عليك ذواتهم.

كن مغفلاً وسخيفاً ، ولكن دع الآخرين يكونون كذلك أيضاً، فلا ينبغي أن يكون سخف أو تغفيل واحد معين هو سيد أو إله كل سخف وتغفيل آخر في هذه الدنيا. ليس لك أن تحول عضلاتك إلى قوة ضاربة للآخرين، كذلك ليس لك أن تحول أفكارك ومشاعرك ورغباتك أو خلافك مع الناس إلى قوة ضاربة محاربة لهم وإلا كنت وحشاً مفترساً لا إنساناً.

وقد تقول هنا:

ومن قال إني لست وحشاً؟ نعم أنا وحش معي إنسان، أو إنسان معي أقوى وحش، فليس الوضع قائماً على أن هذا وحش أو إنسان، بل الوضع قائم على أن هذا وحش وإنسان. إن في كل إنسان وحشاً بل وحوشاً، ولكن ليس في أي وحش أي إنسان، ولكن لغة الوحش في الإنسان غير لغته في نفس الوحش.

إن للوحش في الإنسان عدة لغات لا لغة واحدة.

إن جميع البشر يريدون الخير أي ما يظنونه خيراً لأنفسهم كما يريدون لها الحياة، وليس بينهم أعداء لهذا الخير أو لحياتهم أي لذواتهم إلا أن تقديرهم لهذا الخير واتخاذهم الوسائل إليه يشبه تقديرهم للحياة واتخاذهم الوسائل إليها. وأنا لن أعتقد أنك تكره الحياة حينما أجدك تراها بغير بصري، وتصعد إليها بغير وسائلي ومصاعدي، وتمارسها بغير أعضائي، كذلك لن أراك عدواً لما نظنه أو ندعوه خيراً حين تسلك إليه غير طريقي، وتراه بغير عيوني وشهواتي، وتتلقاه من غير أربابي ومذاهبي.

ليس الحق الذي نزعم جميعاً أننا عبيده شيئاً يقبض عليه باليد أو يلقى به من اليد، وإنما هو وهمٌ غامض أو أمنية غامضة، بل هو لغة وشعار غامضان.

إن الحق شبح متستر ليس له أية علامة ذاتية أو عقلية أو علمية تدل عليه أو تحدده، إنه كائن غريب هارب ضائع متنكر في ضجيج تناقضاتنا ونقائصنا وقبور تاريخنا وأوضاعنا ومخاوفنا وآلامنا.

الحق حدود إنسانية وهمية متحركة، وليس حدوداً كونية أو وعياً كونياً، بل ليس وعياً إنسانياً، إنه في أصدق وأعلى مستوياته رغبة إنسانية لا وعي إنساني.

إن الحق هو الشيء ونقيضه، هو أنت وخصمك، هو مذهبك ومذهب مخالفك، هو القاتل والمقتول والأمس واليوم والغد، هو الإيمان بهذا الإله، وهو أيضاً قتل هذا الإله نفسه، هو كل المذاهب والعقائد وكل الخروج على كل المذاهب والعقائد. إن مجد الإنسان وقوته هما كل الإنسان، هما كل أفكاره وخلافاته وشهواته وأوثانه، وإن أقبح الأوثان لتشارك في إبداع الحياة والحضارة مثلما تشارك في ذلك أجمل الأرباب.

هل يمكن ألا يفكر الناس، وإذا فكروا فهل يمكن ألا يختلفوا في تفكيرهم؟ إنه محتوم أن يفكروا، إذن هو محتوم أن يختلفوا.

ولو كان الاختلاف إثماً لكان التفكير إثماً، ولو كان التفكير إثماً لكانت أسباب التفكير وموجباته إثماً، ولو كانت أسباب التفكير وموجباته إثماً لكان الإنسان الذي يفكر والكون الذي يتحول إلى أسباب للتفكير إثماً. وإذا كان الإنسان والكون إثماً فما هو الإثم وما هو غير الإثم؟

إنه لا يمكن أن يفكر الناس ثم لا يختلفون، وإنه لا يمكن أن يكون التفكير كله حراماً، ولو كان حراماً لما أمكن أن يكون ممتنعاً. إذن لا إنسان دون تفكير، ولا تفكير دون اختلاف. والذين يقولون يجب أن يمنع التفكير لأنه يجب أن يمنع الاختلاف هم في الواقع يقولون يجب أن يمنع وجود الإنسان أو أن يحول الإنسان إلى صرصار أعمى. والذين يحرمون الخلاف

الفكري هل يقصدون أن يحرموه ويبيحوا التفكير أم يقصدون أن يحرموا الاختلاف والتفكير معاً؟

القول بالأول غباء، والقول بالثاني غباء وجريمة. إن الاختلاف الفكري ليس موضوع تحليل وتحريم وأمر ونهي، لأن التفكير لا يمكن أن يكون كذلك، كما أن نفس الوجود لا يمكن أن يكون أيضاً كذلك، بل إن الأمر فيه ـ أي في الاختلاف الفكري ـ هل يوجد إنسان أو لا يوجد إنسان.

والسؤال: هل يجوز الاختلاف الفكري أو لا يجوز يساوي السؤال: هل يجوز وجود الإنسان أو لا يجوز.

قد تقول إن كنت مؤمناً ومتديناً:

إن الذي يفصل في هذه الخلافات هي النصوص الدينية، ولكن النصوص الدينية ليست إلا ذوباناً في محيط، وهمساً في عاصفة. إنك لو أردت أن تستخلص من مياه أحد المحيطات قطعة من السكر قد ذابت فيه ووزعت في كل مياهه، أو أن تميز همسة خافتة بعد أن تبددت في أصوات أقوى عاصفة لما كنت أقدر على ذلك من أن تستطيع تحديد المعنى في نص من النصوص، أو أن تفهم الحقائق أو معاني الكون والناس من النصوص.

إن النصوص نوع من البكاء أو الغناء أو التمني أو الغضب أو السباب أو الكذب أو الإعلان، إنها دائماً تعبير عن حالة ذات واحدة واقعة تحت ظروف معينة متحركة، وليست تعبيراً عن الحقيقة أو عن الكون أو عن الإنسان في كل حالاته وتحت جميع الظروف، بل ليست تعبيراً عن فكرة تلك الذات الواحدة أو عن كل حالاتها في كل ظروفها.

إن قائل النصوص نفسه لا يمكن أن يفهم نفسه أو ما يريده أو ما يريده الآخرون، أو أن يفهم تفسيراً للطبيعة أو للحياة من نفس نصوصه، بل لعله لا يفهم نصوصه أو لعله يعجب من غباء قائلها لو سمعها بعد أن قالها بزمن يكفي لتغيير ظروفه وحالته النفسية، أو يكفي لينسى أنه هو قائلها.

إن لكل مجتمع لغة واحدة أو عدة لغات معروفة، ولكن مع هذا فإن لكل إنسان لغة لا يمكن أن يفهمها كل الفهم سواه، لأن الكلمة ليست معزولة عن مشاعر قائلها الخاصة، وعن ظروفه وذاته الموزعة الحائرة الباحثة عن التواري والخديعة والمقاومة للآخرين.

إن قائل النص لم يرد بنصه أن يكون له نص يتحول إلى أخلاق أو تشريع أو تفسير للطبيعة أو للحياة أو للبشر، وإنما أراد أن يعبر به عن ضيقه وغضبه أو عن سروره ورضاه، أو أن يشاتم أو يضارب أو يهين إنساناً أو قوماً.

هل يمكن أن يكون للنصوص معان أو تفاسير محددة قاطعة متفق على فهمها بحيث يصبح الاختلاف عليها ممتنعاً؟ والجواب:

إن النصوص قد تكون لها أحياناً دلالات تظن قاطعة أو قريبة من ذلك، ولكن هذه الدلالات أو التفاسير المظنونة قاطعة لم تؤخذ من نفس النصوص، وإنما أخذت من ظروف النصوص ومن الظروف التي قيلت فيها ومن ظروف قائليها أو من ظروف سامعيها.

ولقد اختلف أصحاب النصوص أكثر مما اختلف من لا نصوص لهم. وقد كان من رأي الكثيرين الشارحين للنصوص بل الذين لا اهتمام ولا عمل ولا عبقرية لهم سوى شرحها أنه ليس لنص واحد في أي كتاب مقدس تفسير واحد قد يكون يقيناً أو مانعاً من الخلاف، قال بهذا فريق من أئمة الفقه والحديث والأصول والتفسير وعلم الكلام. وإنهم لجميعاً يقولون بذلك في سلوكهم مهما زعموا غيره في ادعاءاتهم. ولهذا فقد كانت تدور بينهم معارك عنيفة ودائمة حول تفسير الآيات والأحاديث، ولم يتفقوا على تفسير شيء من ذلك، بل فريق منهم يقول شيئاً وفريق آخر يقول النقيض. إذن كأنهم كانوا مجمعين على أنه لا توجد تفاسير قاطعة للنصوص، لكل النصوص مهما كانت في كثرتها ووضوحها وبلاغتها، ومهما زعموا وجود هذه التفاسير القاطعة. وكان الذين يجيئون بعد أولئك الذين تقاتلوا وتلاعنوا وتعادوا طويلاً حول البحث عن تفاسير للنصوص يديرون تلك المعارك بنفس العنف والغضب والحقد بل ويضيفون إليها معارك أخرى بتواترات وأحقاد وآلام وبذاءات وأسلحة أخرى، كما كانوا يكتشفون احتمالات وتفسيرات جديدة لتلك النصوص لتضاف إلى التفسيرات القديمة ولتكون ضياعاً وهموماً جديدة.

وكانت النصوص: الآيات والأحاديث أسباب اختلاف بينهم أكثر مما كانت أسباب اتفاق، كانوا يختلفون بالأسباب العادية التي تصنع الاختلاف بين الناس، ويختلفون أيضاً بسبب النصوص أي من أجلها وعلى تفسيرها والإيمان بها.

وقد يقال لهذا إنه لولا النصوص لكانوا أقرب إلى التفاهم والوفاق، وإن النصوص كانت أسباب خلافات كبرى بين البشر، كما كانت العقائد والمعلمون أسباب خصومات وعداء بينهم. وكان شراح النصوص يختلفون بقدر ما يجدون من النصوص، وبقدر ما تكون تلك النصوص واضحة مكررة.

لقد كانت دائماً تدور معارك طاحنة وسخيفة تحت رايات النصوص في أقوى عصور الإيمان بها.

ولم يتفق أصحاب النصوص على شيء مما اتفقوا عليه لأنهم وجدوا فيه نصوصاً صنعت لهم تفاسيرها إيماناً واتفاقاً، وإنما اتفقوا أحياناً لأنهم سئموا الخلاف وتعبوا منه، أو لأنهم وجدوا

سلوكاً سابقاً مسلماً لم يستطيعوا أو لم يريدوا الخروج عليه، وحينئذٍ زعموا أنهم اتفقوا بسبب النصوص، أو اتفقوا أحياناً لأن بعضهم قد قلد بعضهم. وأكثر آلهة الناس وعقائدهم وتقاليدهم وتصرفاتهم الجماعية لم تكن لها الشعبية القوية إلا بالتقليد، إنها لا شيء لولا التقليد.

لقد كانت اتفاقات الناس على المذاهب والأديان والعبادات وأساليب السلوك اتفاقات سوقية، أي إنهم كانوا يتفقون في بعض قضاياهم وشؤونهم تقليداً للسوق، وخضوعاً لإملاءاتها وضغوطها البليدة القوية، مفسرين للنصوص بها، ولم يكونوا يتفقون على نصوص أو شروح، أي لم يكونوا يتفقون لأنهم عرفوا واقتنعوا، بل اتفقوا لأنهم عجزوا أو ملوا أو خافوا أو بحثوا عن المصلحة.

إن الظروف والضرورات والأشياء الأخرى المشابهة هي التي تصنع اتفاقات البشر، لا النصوص من أي نوع، بل ولا المذاهب أو التفكير أو المنطق.

إن النصوص ـ وكذا المذاهب والفلسفات والآراء ـ قد تصبح سلاحاً في حرب وقد تدعو إلى حرب، ولكنها لن تصنع سلماً أو توفيقاً بين مختلفين أو متعادين، إنها لن تحسم الخلاف ولكنها قد تعمقه وتؤججه وتهبه الحماس.

إن اللغة وعاء لا يستطيع أن يحدد أو يفسر القائل والقارىء والمفسر أو يحتويهم، فالمشاعر والأفكار والظروف والنيات والاحتياجات والأهداف والحوافز التي يراد التعبير عنها بالألفاظ وتقييدها بها هي أكبر وأكثر همجية ووحشية وفوضى وخبثاً من كل اللغات والأساليب البلاغية. ولن يستطيع إنسان ـ مهما عظمت موهبته اللغوية ـ أن يجمع كل أحاسيسه وطاقاته الفكرية وأشواقه وتوهجاته النفسية في نص من النصوص ليكون مساوياً ومحدداً لها، كما لن يستطيع قارىء ـ مهما جل فهمه ـ أن يعي كل ما يعنيه الكاتب أو المتكلم الذي يقرأ أو يسمع كلامه من وراء حروفه، أو يعي كل ما تحتويه نفسه أي نفس الكاتب أو المتكلم.

فالحروف هي دائماً أضيق من الذين يكتبون، والذين يقرؤون، والذين يسمعون. إن اللغات أضيق دائماً من الإنسان بقدر ما هي أوسع منه. اللغة أي لغة لا تساوي الإنسان، بل هو دائماً أكبر أو أصغر منها، وهما دائماً متباعدان جداً، بل ومتعاديان ومختلفان جداً، هما غريبان أحدهما إلى الآخر.

وما أكثر الذين نفذوا إلى هذه الفجوة الواسعة جداً الكائنة بين الإنسان ولغاته وحولوها أي الفجوة إلى مخابىء لاقتناص الأسواق وقطعانها المصابة بضخامة الآذان، وبالاستعداد الدائم لتسليمها بسخاء عجيب إلى كل من يدقون لها أبشع الطبول.

إن الأذن جهاز رخيص، مبذول في كل الأسواق بلا أية كرامة أو حراسة!

إن النصوص حروف متجمدة متحددة، وإفهام الناس: القائلين والسامعين واحتياجاتهم وظروفهم وأساليب تعبيرهم عن أنفسهم متحركة متطورة، فكيف يمكن أن يحيط المتجمد المتحدد بالمتحرك المتجدد المطلق الذي يتطور ويتغير دائماً؟

كيف يمكن أن تكون صورة الإنسان في لحظة من لحظاته أو في موقف من مواقفه هي الإنسان في كل حياته، وكلمة الإنسان في أحسن افتراضاتها ليست إلا لحظة أو موقفاً في حياته؟ وكيف يكون الإنسان اليوم أو في يوم ما هو الإنسان أمس وغداً ودائماً، وكلمة الإنسان في أحسن افتراضاتها إنما تعني التعبير عن يوم من أيام الإنسان القائل لها؟

والقائل الذي يضع أغراضه أو إخفاء أغراضه في نص من النصوص ويقدمها إلى الآخرين ـ أي يقدم أغراضه أو إخفاء أغراضه ـ إما أن يكون إنساناً أو إلهاً أو جمعاً من الناس.

إن كان إنساناً واحداً فلا بد أن تتغير أفكاره بقدر ما يعيش ويواجه من ظروف مختلفة صعبة ومناقضة ومتناقضة أيضاً، لهذا لا بد أن تتغير تعبيراته عن ذاته، وهذا معناه تغير النصوص التي يقولها وتناقضها. فالذي تتغير ظروفه لا بد أن تتغير أحكامه وأفكاره ومشاعره ونظراته أي لا بد أن يتغير، والذي يتغير لا بد أن تتغير نصوصه وكلماته. ولو لم يحدث هذا للإنسان ـ لكل إنسان ـ لما كان كائناً حياً.

والذين يؤملون توحد الأفكار والمشاعر والنظريات بل والنصوص والشعارات في إنسان عاش فترتين متناقضتين من الزمن هم كالذين يرجون أو يتوقعون أن يكون لإنسان ما شعور واحد، وظروف واحدة، ورغبة واحدة، وشخصية واحدة، وإله واحد، وموقف وقلب واحد في كل حياته.

إن النبي ـ أي نبي ـ في هذه اللحظة ليس هو النبي في كل لحظة، وإن نبوته وتعاليمه اليوم ليست هي نبوته وتعاليمه في كل الأيام، كما أن اليوم ليس هو كل يوم، ليس هو أمس وغداً ودائماً. وما أعظم ذكاء الذين يتعجبون إذا وجدوا تناقضاً أو اختلافاً كبيراً في نصوص أو في حياة نبي قد عاش عشرين أو ثلاثين أو أربعين عاماً، كذلك ما أعظم ذكاء أولئك الذين يعنون أنفسهم بمحاولة التوفيق بين نصوص وحياة مثل ذلك النبي الذي عاش عدة عقود من السنوات.

إن هؤلاء الذين يحاولون ألا يجدوا خلافاً أو تناقضاً في حياة ونصوص أنبيائهم الذين عاشوا تحت ظروف وفترات متناقضة أو متعددة على الأقل لا يكرمون بذلك أولئك الأنبياء ولا يرفعون من قدرهم، بل هم يحاولون بما يفعلون أن يفترضوهم جمادات ويفترضوا لهم من بلادة العقل والنفس والحياة ما لا يفترضون لأقل الناس أو ما لا يحدث لأقل الناس.

إن الأنبياء لا بد أن يتناقضوا أو تتناقض مواقفهم ونصوصهم، لأنهم أحياء ويعيشون في ظروف حية.

والناس دائماً يخطئون في مدحهم لأنفسهم ومن يعظمون حينما يتحدثون عن الثبات الدائم على الرأي أو الموقف الواحد الذي لا يتغير مهما تغيرت الظروف والضرورات والأحداث المضادة!

أما الإله فلا محالة أن تتغير أوامره وشرائعه ونصوصه وتقديراته للأمور، لأن الذين يأمرهم ويشرع لهم ويفكر فيهم ويصوغ أوامره ونواهيه طبق احتياجاتهم، يتغيرون، وهم يتغيرون لأن ظروفهم واستجاباتهم تتغير.

إنه لمحال أن يتغير العبيد المأمورون دون أن يتغير الإله الآمر، وهل يمكن أن يتغير المأمور المشرع له ثم لا تتغير الشرائع والأوامر؟ أو هل يمكن أن تتغير الأوامر والشرائع دون أن يتغير المشرع الآمر؟ هل يمكن أن يتغير البشر دون أن يتغير الإله؟ وهل يمكن أن تتغير أوامر الإله وشرائعه دون تغير الإله نفسه؟

إن المفروض أن يكون الإله هو أكثر الأشياء تغيراً لأنه أحوج الأشياء إلى التغير، لأنه أكثرها مواجهة للمواقف المتناقضة وإحساساً بها ووقوعاً تحت المسؤوليات الكبيرة، ولأنه أكبر الأشياء وأقواها، والأكبر الأقوى هو الأحوج إلى التناقض، ولأنه الأذكى والأكثر فضيلة، والأذكى الأكثر فضيلة هو أيضاً أحوج الأشياء إلى التناقض.

أما القائلون المتعددون فيستحيل أن يتوحدوا في تفاسيرهم ونصوصهم بقدر ما يستحيل أن يتوحدوا في ذواتهم واحتياجاتهم وطاقاتهم وظروفهم وأهوائهم وهمومهم.

إذن فالنصوص لا يمكن أن تكون علاجاً شافياً من الخلاف، بل ولا مساعداً على الشفاء مهما كان مصدر هذه النصوص أو السماء التي هبطت منها، بل النصوص كما تقدم سبب هائل من أسباب الشقاق والعداوات والمعارك التي لا احتمال للانتصارات أو المغانم فيها.

وتناقض الأفكار والرغبات والشرائع والنصوص عمل من أعمال الحياة وطبيعة أو ضرورة فيها. والحياة تسلم من التناقض بقدر ما تضعف فيها معاني الحياة وتعبيراتها، والشخصية المتناقضة قد تكون شخصية حية مستجيبة لظروفها، والناس يسلمون من التناقض بقدر ما فيهم من الموت والخمول والبلادة والانعزال عن الأحداث.

والذين يحاولون أن يجدوا ذاتاً متوحدة، أن يجدوا إلهاً أو نبياً أو زعيماً أو بائعاً للبقول متوحداً ليأخذوا عنه حقائق أو أفكاراً أو شرائع أو أخلاقاً أو معاملات غير متناقضة هم قوم غرباء على الحياة وفي فهمهم لها، إنهم يعيشونها كما هي ولكنهم يفهمونها بأسلوب آخر.

والاختلاف يحدث حينما توجد ظروفه وكذا الاتفاق، وظروف الاختلاف والاتفاق ليست وجود نصوص ولا فقد نصوص، فالنصوص لا يمكن أن ترفع ظروف الخلاف بل إنها تحركها

وتوترها وتمنحها الوقود والمسوغات أحياناً. ومع هذا فقد تكون النصوص عاجزة أن تمنع أسباب الاتفاق إذا كانت موجودة.

إن معنى النصوص هو السقوط على المجتمع من خارجه، معناها أن يتدخل فريق ثالث من الخارج على المتخاصمين أو المختلفين ليزيدهم خصومة وخلافاً. فالنصوص إذن هي دائماً عدوان خارجي.

ماذا يحدث إذا وجدنا قوماً في شقاق فأردنا أن نعالج شقاقهم ونزيله بأعداد هائلة من النصوص الآمرة الناهية المحللة المحرمة المشحونة بالتوتر وبالفنون البلاغية اللفظية القارعة لكل ما في الدنيا من طبول؟ من الذين سوف يفهمون ويفسرون حينئذٍ هذه النصوص؟ إن فهمها وتفسيرها يحكمان عليها مع أنهما ليسا فيها، إنه ليس الفاهم القارىء المفسر للنص جزءاً من صاحب النص الذي يراد فهمه وتفسيره.

إذا حاولنا أن نعالج الاختلاف ونرفعه بالنصوص بقي الاختلاف وأسبابه كما هو وكما هي، وأصبحت النصوص أسباباً أخرى للخلاف وموضوعات ضخمة من موضوعات الجدل حول الأمور التي وقع عليها الاختلاف، وحججاً لكل فريق من المتنازعين يهديها إلى رأيه ويعزز بها خلافه وإصراره عليه، ويسوغ بها بذاءاته واختراقه لكل حدود الوقار والأدب، واهبة له القوة والجنون الغوغائي.

إن النصوص تفسر من الخارج أكثر مما تفسر من الداخل، بل هي لا تفسر إلا من الخارج، إن النصوص ليست محايدة حتى ولا إزاء ذاتها، إنها لا تستطيع أن تقرأ أو تفهم أو تفسر نفسها، بل محتوم أن تقرأها وتفهمها وتفسرها القوى والإرادات الخارجية، أي محتوم أن تملي عليها هذه القوى والإرادات الخارجية الأفهام والتفسيرات التي ترغب فيها. إن أهواء الطغاة والمجتمعات والمتعاملين عليها، أو بأسمائها، والمفسرين لها أو المفسرين لمصالحهم بأسمائها، وأحقادها وجهالاتهم هي دائماً التي تفسر النصوص، وليس من الممكن أن تفسر بالنصوص.

إن الكلمات والحروف هي دائماً ذليلة مغلوبة مستضعفة، يحقرها ويعتدي عليها كل الناس، أقوياؤهم وضعفاؤهم، فضلاؤهم وأنذالهم، يفترسونها ويلوثونها ويكذبون عليها ويكذبون بها.

إن الكلمات لا تنظف القائل لها أو القارىء أو السامع أو المفسر، بل انه يلوثها، وهو يحددها دون أن تحدده.

لو كان للناس نبيان لكل نبي دين يخالف دين الآخر فجاء نبي ثالث ليزيل الاختلاف بين النبيين السابقين، ويجعل من الدينين اللذين جاءا بهما ديناً واحداً ونبياً واحداً لبقي النبيان والدينان، ولأوجد هذا النبي الثالث ديناً ثالثاً، ولأصبح هو نبياً ثالثاً له همومه وظروفه وضحاياه وأتباعه وأعباؤه ونصوصه ومعاركه الآخذة من الإنسان دون أن تعطيه.

لقد كان النبي يجيء في موكب من أمجاد السماء وضجيجها وأضوائها ليحسم الخلاف القديم المحارب للبشر، فيصبح هو خلافاً جديداً مع بقاء الخلاف القديم كما هو، مع إضافة المشهيات والمنبهات والموترات إليه.

لقد اختلف المسلمون المثقلون بالنصوص حتى في عصر الصحابة، اختلفوا في جميع قضاياهم الصغيرة والكبيرة. ولم تستطع مواكب الآيات والأحاديث النازلة غضّة من السماء أن تعالج خلافاً من خلافاتهم، بل لقد كانت تصنع لهم الخلافات أو تزيدها تأججاً وقوة وعصياناً على الشفاء. لقد اختلفوا مع وجود النصوص واختلفوا أكثر على النصوص أو بسبب النصوص، وكذلك اختلف جميع أصحاب الأديان الأخرى مع وجود نصوصهم وكتبهم المنزلة وعليها وبسببها. لقد قال الخليفة عمر بن الخطاب: لقد مات رسول الله قبل أن يبين لنا ما هو الربا ـ مع ما جاء في الربا من الآيات والأحاديث المحرمة الناهية اللاعنة الشارحة.

إنه ما من شيء جاءت فيه أقوى النصوص وأكثر النصوص إلا وقد اختلف فيه أولئك الذين نزلت عليهم تلك النصوص، وإنه لم يحدث أن نصاً واحداً استطاع أن يضعف الخلاف بين المؤمنين، أو يضعف الخصومات والأحقاد الإلهية في قلوبهم، فكيف يستطيع أن يزيل ذلك؟ ومن الأمثلة المشهورة في التدليل على أن النصوص تتسع لكل الأخطاء والأهواء والتفاسير المتناقضة، وللتدليل على أن النصوص لا تعني إلا أن يسوغ بها كل فريق أهواءه ومصالحه وظروفه دون أن تعالج شيئاً ـ الحديث النبوي المشهور الذي جاء فيه:

«ويح عمار، تقتله الفئة الباغية»، وكان عمار هذا قد قُتل في جيش علي في قتاله لجيش معاوية. فقال أصحاب علي: إذن معاوية ومن معه هم الفئة الباغية، أما معاوية وأصحابه فقالوا إن الذين قتلوا عماراً هم علي وجيشه لأنهم هم الذين أخرجوه إلى الحرب، إذن هم الفئة الباغية!

وهكذا كان كل الناس يلقون على النصوص ذنوبهم دون أن تستطيع الدفاع عن نفسها. إن جيشين وخليفتين منسوبين إلى عصر الوحي لم يستطيعا أن يتفقا على معنى كلمة «قتل» ولا على من «القاتل» في مثل الظروف التي قتل فيها هذا الصحابي. فكيف إذن يمكن الاتفاق على أي تفسير لأي نص من النصوص؟ وبمثل هذا الأسلوب الذي فسر به الجيشان والخليفتان كلمة قتل والقاتل هنا يمكن أن يقال أيضاً:

ليس القاتل علياً ولا معاوية ولا جيشيهما، بل القاتل هو المعلم الأول الذي جاء بهذا الدين الذي اختلفوا عليه أو الذي صنع خلافهم، أو القاتل هو الذي مكن لمعاوية ليكون خليفة خارجاً على علي ومقاتلاً منافساً له، أو القتلة هم الذين أضعفوا علياً وأخروه ووضعوه في هذه الظروف التي جعلت مثل ابن أبي سفيان نداً له ومتفوقاً عليه، أو القاتل هو المقتول نفسه لأنه هو الذي

أخرج نفسه ووضعها في مكان الموت وأدخلها في مواطن الفتنة والجنون، أو القاتل هم كل أهل ذلك العصر الذين كان يستسيغ مثل تلك الحروب ويمارسها بمثل ظروفها وأسبابها وأهدافها ودعاواها.

وقد يستساغ منطقياً وأخلاقياً أن يكون أهل العصر ـ أي عصر ـ مسؤولين جميعاً عن الجنون الكبير الذي يقع في عصرهم لأنهم لا بد أن يكونوا قد أوحوا به على نحو ما، أو لأنهم سمحوا له أن يحدث ولم يتدخلوا ويفعلوا أي شيء لمنعه.

إن الذين يعيشون في عصر من العصور لا يمكن أن يعيشوا فيه معزولين عنه بأفكارهم أو أخلاقهم أو جنونهم، إنهم لا بد أن يأخذوا عنه ويتأثروا به ويغنوا أناشيده، ولا بد أن ينظروا إليه ويفكروا فيه حينما يتحركون أو يدبرون. إذن فهم جزء منه واستجابة له، وهو الصانع لهم أو على الأقل المؤثر فيهم المكيف لهم، أو الموحي إليهم. وإذن فكل من يعيشون في أي عصر يكون كل أهل عصرهم مسؤولين عن أخطائهم وجنونهم ـ لماذا أذنوا بذلك أو لماذا سمحوا به دون مقاومة ومنع.

إذا وقعت الحرب مثلاً في هذا العصر فإما أن تكون حرباً عامة تمارسها جميع دول العالم، أو تكون حرباً موضعية تمارسها بعض الدول. إذا كانت حرباً عالمية فالعالم كله مسؤول عنها، أما إذا كانت حرباً موضعية بين دولتين أو أكثر مثلاً فالعالم كله مسؤول أيضاً عنها لأنه لا بد أن يكون كله قد ساعد على وجود ظروفها وأسبابها والجرأة عليها أو التورط فيها، أو لأنه لم يصنع شيئاً لمنعها.

إذاً فأهل كل عصر مسؤولون جميعاً عن أي جنون كبير يقع في عصرهم أو من بعض أهل عصرهم، لأنه لا يوجد في هذا العالم من يعيش وحده بسلوكه أو بأفكاره ومذاهبه وشعاراته، أو بتوتراته وحماقاته.

إن العالم يصوغ كل من يعيشون فيه، أو على الأقل يؤثر فيهم ـ يصوغ تصرفاتهم ونظرياتهم وظروفهم المختلفة حتى ظروفهم النفسية.

إن أي مجنون يعلن حرباً في مكان ما، أو في كل مكان لا يمكن أن يعلنها دون أن تكون لديه أية حسابات أو تفسيرات للعالم الذي يعيش حوله، ودون أن يكون هذا العالم قد صاغه أية صياغة.

هل يستطيع أي طاغية أو حاكم رجعي أن يسحق الحريات في بلده ويتأله، أو يستطيع أي معلم سخيف أن يعلن تعاليمه السخيفة العدوانية ـ هل يستطيع هذا أو هذا أن يفعل ذلك لو كان العالم الذي حوله يرفض ويقاوم بصدق وقوة مثل هذا الطاغية والحاكم والمعلم؟ ولكن مثل ذلك يحدث لأن العالم أو أقوياءه أو بعض أقويائه يذهبون بانتهازية ونفاق يتملقون أولئك الذين

يصنعون ذلك العدوان والجنون ـ يتملقونهم خاضعين لحساباتهم الأنانية، وقد يدفعونهم ـ تملقاً لهم وخداعاً ـ إلى أن يمارسوا المزيد من هذا العدوان والجنون.

إن أي مغامر لا يستطيع أن يفعل جنونه إلا إذا شاركه بعض العالم وباركه بعضهم وسكت له آخرون وأغراه الباقون.

إن جميع الناس ـ ولا سيما الطغاة والأقوياء ـ يفسرون النصوص بإرادتهم كما يفسرون المذاهب والنظم والفلسفات، دون العكس. وإذا كانت الإرادة أو المصلحة هي الحكم أو المنطق أو اللغة التي تفسر بها دائماً النصوص فما معنى النصوص وما جدواها، ولماذا جاءت؟ إنه لا فائدة منها سوى تلويث أصحاب النصوص أي قائليها والالقاء بهم في أوحال وذنوب المؤمنين بهم وتحميلهم هذه الذنوب والأوحال.

وقد كان الاختلاف في أصول الدين وفروعه، ولم يزل المسلمون ـ وكذلك غير المسلمين علماء وجماهير في جميع العصور وتحت جميع الظروف يستدلون بنصوص القرآن والحديث على الشيء ونقيضه. وقد أخذوا من النصوص زندقة وإيماناً، استقامة وفسوقاً، عقلاً وخرافة، شجاعة وجبناً، حرباً وسلاماً، حرية وجبرية، تسامحاً وتعصباً، حباً وبغضاً، رأسمالية واشتراكية وشيوعية، ديمقراطية ودكتاتورية، ملكية وجمهورية، إمامة وخلافة، دعوة إلى الشقاق والخلاف، ونهياً عنهما.

لقد وجدوا في النصوص كل التناقضات، وجدوا فيها كل الناس والأهواء والظروف والمصالح والذكاء والغباء، وكل ما يريدون.

إن النصوص طيبة وصديقة للناس جداً، إنهم إذا أرادوا وجدوا فيها، وإذا لم يريدوا لم يجدوا أو وجدوا ما لا يريدون مرفوضاً وملعوناً في النصوص، فهي ـ أي النصوص ـ طوع أهوائهم، قابلة ورافضة.

والناس لا يجدون ما يريدون في النصوص، أي في نية النصوص وتدبيرها، وإنما يجدون ذلك في أنفسهم وظروفهم ومصالحهم واحتياجاتهم، فيجدون حينئذٍ في النصوص العون والتحليل والتسويغ. وإن النصوص لو لم تكن موجودة أو لو لم يكونوا مؤمنين بها لحللوا ما يريدون بأي شيء آخر، فالنصوص ليست إلا جهاز تحليل للشهوات.

إن الإثم دون نصوص يمارس تحت تبعة نفسه أو تبعة مذهب آخر، أما مع النصوص فإن الآثام تمارس محمولة على ضمير هذه النصوص.

لقد كان جميع رجال الدين المسلمين إلى عهد قريب جداً يؤكدون وجود الضمان الإلهي في الكتاب والسنة ضد قيام دولة يهودية، كان قيام إسرائيل شيئاً محالاً في تقديرهم لأن الله قد

ضمن ـ كما كانوا يفسرون النصوص ـ منع قيامها، فكانت الحراسة إذن ضد وجود الدولة اليهودية متروكة للسماء ولقواها التي لا تهزم. وكان هذا الضمان الإلهي يؤكد فوق كل المنابر وفي كل الإذاعات والصحف ووسائل الدعاية ـ يؤكد على جميع المستويات بكل أساليب البلاغة والجهر. ولم يكن يوجد من يستطيع التشكيك في قيمة هذا الضمان أو في قيمة التفاسير التي يقدم بها، أو من يجرؤ على طلب تفسيرات أخرى أو ضمانات أقوى. إن مجرد الشك أو التساؤل خيانة أوكفر، أو هما معاً.

فأين ذهبت اليوم تلك النصوص والشروح المضمونة بشرف الإله وأنبيائه وكتبه المقدسة؟ لقد كانت تلك التوكيدات المفسرة الممهورة بتوقيع السماء غفلة وحماساً وخطباً وأصواتاً عالية، ثم أصبحت عاراً وهواناً وهزيمة وتهديداً. ولقد كنت أتوقع أو أرجو أن يوجد من يسأل بعد أن ثبت كذب تلك التفاسير المنهوبة من النصوص ليقول:

إن كانت تلك النصوص والضمانات موجودة فلماذا كذبت، وإن لم تكن موجودة فكيف زعمت؟ إن هذا يعني أحد احتمالين إما أن النصوص وضماناتها لا شيء، أو أن تفاسيرها والمفسرين لها لا شيء، وكل النصوص بدون تفاسيرها والمفسرين لها لا شيء. إذن فالاحتمالان ينتهيان إلى أن كل النصوص لا شيء.

*

قد يرى قوم أن كل خلاف حر ومطلق إلا الخلاف على الدين أو في الدين. ولكن لقد تبين كما سبق أن الدين مستحيلة معرفته لأن الدين إنما يؤخذ من النصوص، والنصوص كما ذكر خرساء أو متكلمة بلغة لا تفسير لها، أو بلغة تفسر بالمعنى ونقيضه وبالنفي والإثبات.

إن النصوص لغة يفهمها الناس كما يريدون لا كما هي، لأنها لا دلالات ولا تفاسير لها في ذاتها، فهي إذن لا يمكن أن تعطي معاني محددة أو قاطعة. وإذا كانت النصوص لا يمكن فهمها فالدين كذلك لا يمكن فهمه.

إن الفصل بين ما هو دين وما ليس ديناً مستحيل أو شيء عابث، ولهذا فإنه ما من شيء يزعم فريق من المؤمنين المفسرين للدين أنه دين إلا ويزعم فريق آخر أن نقيضه هو الدين. والفريقان المتناقضان يزعم كل منهما بنفس النسبة والحماس والاقتناع والضجيج أنه وحده هو الذي يملك الله ويملك كل تفاسيره، كما أنه هو وحده الذي يملك أن يدعي بالجهر امتلاكه.

وفي زعم المؤمنين حتى المتحضرين منهم أن الدين قد عالج كل قضايا الكون والحياة والإنسان، ما كان وما هو كائن وما سوف يكون. وإذا كان الخلاف في القضايا الدينية ممنوعاً كان معنى هذا أن الخلاف في كل شيء ممنوع.

لقد ظلت الجماعات المؤمنة تعتقد وتلقن أن الدين بنصوصه قد جمع لها كل الأسرار والعلوم والغيوب والأشياء الجميلة الخالدة في كلمات صغيرة جميلة تكتب وتحفظ وتروى، وإن كل ما يحدث وكل ما يفعله العلم ليس إلا تفسيراً متواضعاً لهذه الكلمات البليغة التي جمع الله فيها كل براعاته وعبقرياته. وكان الأحرار جداً من هؤلاء المؤمنين هم الذين تسامحوا وزعموا أن كل شيء من شؤون الحياة والناس يجب عرضه على نصوص الدين وتعاليمه ودعاته فإن أقر وإلا فهو الضلال.

لقد اتقن المؤمنون بالنصوص فن الطفولة اتقاناً مثيراً.

أليس أكثر المجددين في المؤمنين تفكيراً يحاولون دائماً أن يقنعوا العالم الذين يعيشون على حساب حضارته أن كل المذاهب والنظم والشرائع الجديدة قد جاءت على أعلى وأفضل المستويات في الدين ونصوحه، وأن كل انتصار علمي يكسبه العلماء في أي ميدان من ميادين الحياة والكون إنما هو شيء قديم ومفروغ منه في نصوص القرآن، ولو على الأقل من حيث النظرية ـ إن ذلك قد صيغ في بلاغة سماوية لا مثيل لها في الشمول والعبقرية، لقد اختزنت النصوص من الآيات والأحاديث كل العلوم والنظريات والمذاهب والنظم اختزاناً مركزاً عجيباً في تركيزه واختزانه.

ليست معارف البشر ومذاهبهم ونظمهم في كل عصورهم ومجتمعاتهم إلا نشراً لما طوي في النصوص واكتشافاً لما اختزن في خزائن المقابر، ليست الأحداث كلها ـ الكونية والإنسانية ـ إلا تفسيراً للقبور وقراءة لها في عقيدة المؤمنين بالنصوص.

إن الله والكون موجودان بكل ما فيهما من أسرار وقوة في القبور.

حينما فجر الإنسان أول قنبلة ذرية قال الكثيرون من مفسري النصوص إنه لا جديد، فالقنبلة الذرية كنظرية وكقوة وكحدث مستقبل موجودة في الآيات والأحاديث، وحينما أطلقت الصواريخ والأقمار وانطلق الإنسان إلى الفضاء قالوا نفس الشيء، لقد قالوا نفس القول ويقولون مثله لدى كل قفزة علمية. وإنه إذا طبقت الشيوعية قالوا لا جديد، وإذا طبقت الاشتراكية قالوا أيضاً لا جديد، وإذا طبق أي شيء قالوا نفس القول.

وإذا عبدت القرود في أي مكان أو عصر وجد من يقولون إن مزايا القرود ومزايا عبادتها منصوص عليها في أفضل وأصدق النصوص، إن كل شيء هو بعض ما في النصوص، فالنصوص أكبر من كل الأشياء، إنها تفسر الله، وتفسر الطبيعة، وتفسر الناس، ثم تبقى بعد ذلك تحمل تفاسير أخرى كثيرة لأشياء سوف توجد ولأشياء لن توجد.

وقد يؤذيك كما قد يخجلك أن ترى شاباً أنيقاً قوي البدن نظيف الملابس متحضر الزي يحمل في بيته أو في جيبه أعلى إجازة دراسية، يجلس متراخياً في أحد النوادي العاجة

بالبذاءات والتفاهات، ينظر إلى المارة وفي الأكثر إلى المارات بحماس جنسي، يذهب يؤكد لمن حوله، ونظراته على المارات تقيس أعضاءهن، أن العلم لم يسبق إلى شيء وانه دائماً تابع مسبوق، وإن كل ما يصنعه ليس إلا تفسيراً جديداً لكتاب قديم.

وإذن فلا معنى للدهشة مما يرى من الأمور التي تبدو جديدة أو تظن جديدة، إنها قديمة قدم القبور والنصوص والآلهة.

وطاقة الاندهاش والتعجب تموت في نفوس المؤمنين الذين يرون أن كل شيء محكوم ومصنوع بالقدرة القديمة الخارقة المطلقة. فالذي يؤمن بالمعجزات التي تكون فوق الأسباب لا يصيبه الاندهاش لأي مشهد خارق يراه، وكذلك لا يصيب الاندهاش أو الانزعاج مثل هذا المؤمن لجسامة الآلام والمظالم والأخطاء مشاهداً لها أو معانياً، إنه يرى كل شيء عادياً لا عجب فيه حتى الظلم والجنون والألم والعبث، إن كل ما يحدث ويرى ليس إلا إبداع القدرة المطلقة وتدبير الحكمة التي لا يمكن أن تفهم أو تناقش أو أن تفعل ما ينتظره منها الآخرون أو ما يفترضه المنطق أو العدل أو الرحمة أو القانون فيها.

إنه لمن الخطأ أو الهرطقة أن نندهش أو نسأل إذا لعبت القدرة المطلقة أحد ألعابها العنيفة الأليمة، ولكنها القديمة المألوفة المتكررة.

إن الاندهاش هو أحد التعبيرات عن المواجهة لغير المتوقع. وقد تموت في نفسك كل لغات الانبهار والتساؤل إزاء أضخم ما يبدعه العلم أو تفجأ به الطبيعة من منكراتها وحماقاتها، أو يواجهك ويواجه الإنسان من مظالم وفساد وآلام إذا كنت مؤمناً بالقدرة المطلقة التي تفعل كل شيء بالمشيئة، ومؤمناً بالحكمة التي تدبر كل شيء حتى الألم والظلم والجنون والفساد لمصلحة الإله والكون والبشر.

ومهما يحدث فستقول حينئذٍ ببرود وبلاهة ذليلة: «سبحان الله» «ما أعظم حكمتك أيها الرب الرحيم» ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم﴾ ﴿إن ربك فعال لما يريد﴾ ﴿كل يوم هو في شأن﴾.

إن الأطفال أكثر انبهاراً ودهشة ورفضاً ازاء الجديد والمنكر والألم من الشيوخ الذين قتلت الآلهة والطبيعة والطغاة والآلام الدائمة في أنفسهم وعقولهم كل اشمئزاز أو رفض أو انصعاق أو حيرة أو تساؤل، لقد مات فيهم كل احتجاج أو تعجب أو انبهار.

إن المؤمنين يفقدون الشعور أو قوة الشعور بلذة المفاجأة أو بضغط الألم، والمفروض أن تسترخي في الإنسان احتمالاته الإبداعية كما تضعف فيه احتمالات الغضب والرفض إذا ضعف فيه الانبهار، ويضعف فيه الانبهار إذا لم يؤمن بأن في الكون والحياة أشياء عجيبة خارقة وأشياء منكرة مرفوضة غير مشيئة الآلهة المطلقة. إن ما يفعله المطلق لا ينبغي أن يصنع لنا دهشة

أو غضباً أو رفضاً، ولكن إذا فعل غير المطلق شيئاً خارقاً أو رديئاً أو مؤلماً وجب أن يملأنا بالدهشة والغضب والرفض.

واندهاش المؤمن إذا اندهش هو اندهاش استسلام وعبادة وضعف، أما الإنسان المفكر المتحضر فاندهاشه اندهاش محاولة ورفض وبحث عن الإبداع.

*

وقد يزعم الذين ينكرون الخلاف في القضايا الدينية أنهم لا يخشونه على الدين ولا على الأشياء المقدسة، وإنما يخشونه على الناس الذين لا توجد لديهم أية مناعة ضد الأفكار والمذاهب الأخرى الكاذبة.

إن كل الناس مستعدون للغواية، وهم لا يستطيعون، أن يعصموا عقولهم من أية غواية تعرض عليهم نفسها في دلال وزينة وتبرج وحرية، بل تعرض نفسها في دمامة وبذاءة ووقاحة. إن فساد الأفكار والمذاهب وسخفها وبطلانها لا يحمي الناس من الإيمان المفتتن بها، وهم لا يقدرون أن يفرقوا بين أفكار ومذاهب وبين أفكار ومذاهب أخرى، إن قيمة المذهب أو الفكر لا تأثير لها في القبول أو الرفض في سلوك الناس وإيمانهم.

ولا يوجد إلا أسلوب واحد لحماية الناس من الآراء التي يراد حمايتهم منها، هذا الأسلوب الواحد هو أن يحال بينهم وبين تلك الآراء فلا يسمعوها أو يروها في تعبيراتها التصويرية أو الحركية.

إن أية عملة مذهبية أو اعتقادية تعرض في السوق لا بد أن تجد من يتعاملون عليها ويخدعون بها مهما كانت زائفة، ولو رفضت لما كان رفضها لأنها زائفة، كما أن العملة المذهبية أو الاعتقادية الصحيحة التي تنتصر في السوق لا تنتصر لأنها صحيحة، بل تنتصر إذا انتصرت لأسباب أخرى.

إنه ليس في قدرة السوق ـ كل السوق ـ أن تميز بين الزائف والصحيح من المذاهب والمعتقدات والآلهة والمعلمين والزعماء. والذين يرجون منها أن تميز أو يطالبونها بذلك إنما يرجون محالاً ويتعاملون على محال.

وجميع الذين يدينون بالمذاهب والعقائد السوية ويصرون على الاستمساك بها ويرفضون نقيضها لا يفعلون ذلك لمناعتهم الذهنية عن السقوط في أوحال الغواية، بل لأنهم حموا من التعرض للغواية، ولأن تلك المذاهب والعقائد السوية قد فرضت عليهم أو وضعت وحدها أمامهم وأبعد عنهم نقائضها.

وأفضل المذاهب والأرباب قد تهزم أمام أضعف المذاهب والأرباب في معركة حرة. ولا توجد عقيدة أو إله أو مذهب ينتصر على نقيضه بمزاياه الذاتية.

إن ترك الناس مفتوحين أمام العقائد والمذاهب المخالفة الرديئة تهاجمها وتضللها يشبه ترك الأجسام أمام الأمراض المختلفة تواجهها بلا منع أو حماية، أو يشبه ترك البلاد مفتوحة أمام الغزاة، كل الغزاة.

إن المنطق كل المنطق لا يستطيع أن يوجد حماية ما لشيء ما. وليست القضية أن المنطق لا يستطيع فقط أن يحمي غيره، بل هو لا يستطيع أن يحمي نفسه، لا يستطيع أن يحمي نفسه من المنطق المعارض ولا من القوة المعارضة. إن المنطق دائماً، وإن المذاهب والأرباب والمعتقدات هي دائماً في موقف المحمي لا موقف الحامي.

إن قوة المنطق والمذهب والنظام كقوة الشرف، ليست قوته في ذاته بل في حمايته، إن هذه ليست لها حدود ذاتية، وإنما حدودها دائماً خارجية، إن الشرف ليس هو الذي يضع حدود الشرف، ولا هو الذي يحميها، وكذا المذهب والمنطق والنظام.

ولكن قد يقال إن الخوف على الدين من الآراء المخالفة، وكذلك الخوف على المذاهب التي نراها صحيحة ونريد حمايتها، يشبه الخوف على المصابيح الكهربائية من منافسة القناديل التي تسقى بالزيت، أو الخوف على الحضارة ومبتكراتها من منافسة البداوة لها ومن منافسة أدواتها البدوية بحجة أن الناس لا يستطيعون أن يحموا أنفسهم من الغواية والخطأ، ومن اختيار الأضعف والأسوأ، وإنهم لهذا قد يفضلون القديم الرديء على الجديد الجيد ويأخذون بالشموع والقناديل السلفية ويرفضون الكهرباء.

وهل يوجد من يخشى على الشمس من منافسة الشمعة لها، مقدراً أنه دائماً يوجد أقوام كثيرون ضعفاء الأعصاب والأبصار والتقدير، وأنهم لهذا قد يرون الشمعة أتقى وأقوى وأفضل وأبر نوراً من الشمس الضئيلة الداعرة الخارجة على الأخلاق وعلى احترام الآلهة؟ إن الخوف من التنافس الحر بين الأشياء، لأن أردأها قد ينتصر على أفضلها، يشبه الخوف من أن تتنافس الآلهة والأديان والآراء الصحيحة مع الأخرى المضادة الباطلة في خلاف فكري حر. وهذا الخوف يشبه أيضاً الخوف على المعابد من وجود الأسواق، وعلى الآخرة من وجود الدنيا، لأن بعض الناس أو أكثرهم أوكلهم قد يؤثرون الذي هو شر على الذي هو خير.

إن خوفنا على آلهتنا ومذاهبنا من الأفكار المخالفة ليس أكثر حصافة من خوفنا على المساجد والآخرة من الأسواق ومن الحياة الدنيا.

ولكن كيفما كانت المقارنات والتشبيهات فلا يمكن أن نجرؤ على التشكيك في أن المذاهب والآلهة الجيدة لا تستطيع أن تحمي نفسها بخصائصها الممتازة من أن تنهزم أمام الآلهة والمذاهب الأخرى المخالفة الزائفة المهاجمة لها بحرية.

وكيف يصح الالتفات إلى هذا الخوف مع أننا نحن المؤمنين نعتقد أن الشيطان هو الذي يضل النفوس ويزين لها الباطل والغواية ويفسد الناس.

والشيطان ـ ذلك العبقري العالمي والمفكر المجادل الباهر الحجة والمحارب الذي لا يغلب ـ موجود داخل الناس، داخل ذواتهم وحدودهم، يمارس جميع أعماله بلا حماية، من داخل الثياب والجلود والعظام. إنه يدير كل عملياته في مخابىء النفوس ومجاهلها، وفي أعماق أدق الوسوسات وأخفاها.

فهو إذن يستطيع أن يناقش ويرفض الآلهة والمذاهب والنظم التي نؤمن بها ونخاف عليها، ويقول ضدها في الطعن فيها التشهير بها كل ما يشاء دون أية معارضة خارجية يمارسها المخالفون المعارضون المرئيون والمسموعون.

والذين يفكرون ضد عقائدنا ومذاهبنا إنما يفكرون كذلك بإلهام الشيطان لهم، وإذن فالشيطان يستطيع أن يلقي بهذه الأفكار المعارضة إلى نفوسنا مباشرة وبدون أن يجعل من هؤلاء المفكرين وسطاء لما يريد أن يرمينا به، وهو حتماً أقدر منهم لأنه هو المبدع والمتخصص والمرصود لذلك والأكثر إخلاصاً. فلا معنى لاتقاء ما لا يمكن اتقاؤه، ولا معنى للخوف من أن تسمع آذاننا صوتاً تسمعه نفوسنا بكل الجهر وبكل اللغات والأساليب.

إنه لا حماية من المعارضة الفكرية ما دام الشيطان هو صاحب المعارضة وقائدها، فالشيطان يصنع في النفوس ما يشاء من الضلال والرغبة في الفساد دون أي تعبير خارجي أو محرض من البشر يفكر وينقد بصوت مسموع.

إننا نرى أن جميع الأفكار والإيحاءات الضالة التي يتقنها الداعون إلى الضلالة إنما ابتكرها وأوحى بها الشيطان وحده، بل قذفها قذفاً في وجدان ضحاياه ورغباتهم وعلى طريقهم. فالذين يضلوننا هم أيضاً مصنوع لهم ضلالهم، والذي صنع لهم ضلالهم يصنع لنا ضلالنا بالأسلوب نفسه.

إذا كان المضلون لنا يضلون من داخلهم، فكذلك نحن نضل أيضاً من داخلنا لأن الشيطان معنا بقدر ما هو موجود معهم، وكما يصنع الضلالات مباشرة في عقول الضالين وشهواتهم يقدر أن يصنعها كذلك في عقول وشهوات الآخرين مباشرة بدون عون من البشر. فلا معنى للخوف أو الحذر من طرح الأرباب والعقائد الضالة المخالفة في الأسواق، كما لا معنى للخوف أو الحذر من سير المرأة في الطرقات لئلا تذكرنا رؤيتها بها، وبأننا نشتهيها، لأنها موجودة في داخلنا حتى ولو لم نرها.

إننا نشتهيها مرئية كما نشتهيها غير مرئية بقدر ما نشتهي الطعام مرئياً وغير مرئي. إن فقدنا لرؤية الطعام لا يجعلنا نفقد اشتهاءه.

إن جميع الأشياء التي نتعامل عليها يجب أن نتركها للخطر تواجه كل قسوته واحتمالاته، فإذا كان الخلاف يؤكد هذا الخطر فإن علينا أن نبحث عن الخطر ونطلقه. ولا نفع للحياة ولا للبشر في بقاء الأشياء كما هي محروسة من جميع الأخطار.

إن الحياة والأشياء لا تتقدم أو تتكامل إلا بترك الإله يقتلِ الإله، والمذهب يقتل المذهب، والعقل يهزم العقل، والشيء يزيل الشيء.

إن المذاهب والأفكار والآلهة يجب أن تترك للموت بلا حماية أو رحمة كما يترك الحجر أو البيت يموت. ولا يخشى حرية الموت للآلهة والمذاهب والمعتقدات وحرية الدعوة إلى موتها إلا الذين لا يريدون أن يروا الاحتمالات والوجوه الأخرى مهما كانت طيبة، إما لأنهم يعتقدونها ضدهم، وقد تكون كذلك، وإما لأنها أقوى منهم، فهم يرهبون مواجهتها والتعامل معها كالذين يرهبون مواجهة الأضواء القوية أو الالتزام بالأعمال التي فيها إرهاق، إنهم إذن إما سيئون أو ضعفاء.

إن كثيراً من الناس ـ أو كل الناس على درجات ـ يريدون أن يستروا أنفسهم وما فيهم من ضعف ونقائص وما لديهم من أرباب ومذاهب وآراء بالصمت ـ إن الصمت قناع في تقديرهم عنها.

لقد كان الصمت في كل التاريخ غطاءً ضافياً تشعر تحته كل الأرباب والمذاهب والمظالم والطغيان والغباوات بالاستقرار والأمان بل وبالروعة، لهذا كان الناس يفزعون من دق الأجراس التي لا تنطلق من معابدهم كما يفزع الكثيرون من الوقوف أمام المرآة ومن النظر إلى كل جوانب الصورة فيها.

كم هي عدوة وقبيحة المرآة التي تبدي كل عيوب الوجه وتركز على هذه العيوب، بقدر ما هي قبيحة وعدوة الأفكار المخالفة التي تبدي كل عيوب المذهب أو الإله أو النظام الذي نؤمن به.

والناس في الغالب يرفضون حرية المخالفة لما يعتقدون لأن ما يعتقدون هو الحق فيما يعتقدون أو فيما يقولون، وهم لا يعون وعياً جيداً أن الحق ليس شيئاً غير الباطل أو نقيضاً له.

إنه لا يوجد شيء هو حق وشيء هو باطل كما يوجد شيء هو ذهب وشيء هو فضة أو تراب، وإنما يوجد شيء نرتبط به وشيء يرتبط به الآخرون أو أعداؤنا أو جيراننا.

كل الناس يعرفون الحق والباطل ويتعاملون بهما، وكلهم مخطئون، وكلهم مصيبون في مجموع آرائهم في أنفسهم وفي الآخرين.

إن الحق هو قدرة الإنسان وظروفه، هو آباؤه وتاريخه وملابسه وبلده وحجارة بيته ومكان

بيته، هو شيخه ومعبده وطاغيته. الحق هو السوط الذي يهوي على ظهره أو يرفع في وجهه، هو خصائص هذا السوط وتاريخه.

إن السوط هو أقوى وأذكى معلم للحق، كما أنه ـ أي السوط ـ هو أشهر كاتب لتاريخ البشر.

أما الباطل ـ أي في تقديري أنا ـ فهو ظروف الآخرين المخالفين لي ولمذاهبي وأربابي، هو قدرتهم وآباؤهم وتاريخهم وبلدهم وبيوتهم ومشايخهم ومعابدهم، وهو أيضاً السياط التي هوت عليهم وساقتهم إلى مذاهبهم وعقائدهم وقرأت عليهم فضائل أربابهم وفسرتها لهم.

إن الحق ليس وجوداً مادياً يعدد، أو يوضع في الميزان، أو تقاس أبعاده وأعماقه أو يحفظ في الأحراز أو في المعابد والبنوك، ولكنه شهوة، أو طاقة، أو مصلحة، أو ظروف أو تاريخ أو التزام أو الزام بالسوط، أو أكذوبة غنائية، أو أمل غلامي تهتف له النفوس، ويهتف للنفوس على بعد لا يمكن أن يقرب أو يبعد أو يتغير، ليلوح للمتطلعين الناظرين، وينشد لهم دائماً الأناشيد كحب جميل يطمع بوصاله ولا وصال، بل ولا خير في الوصال لو حدث الوصال.

إن الحق هو دائماً نوع من الرقص أو الغناء الذي لا بد أن يظل دائماً مجرد رقص وغناء، هو دائماً أسلوب من أساليب الوعود الكاذبة التي لا ينتظر ولا ينبغي أن تكون صادقة، لكي يظل دائماً المتحدثون عنه والموعودون به في نشوة وحركة وشوق وانتظار مصاب باللهفة. وهذا هو المسوغ والمجرع للحياة ولتفاهاتها وآلامها التي لا تدبير فيها.

ولو وجد الحق ـ لو وجده طالبوه ـ كما توجد الأشياء المادية وتحدد كذلك لفقدت الحياة أحلامها وإغراءاتها وأكاذيبها الجميلة القوية وأكاذيبها الساترة لقبحها وقسوتها.

إن الحق الواقف المتحدد المتفق عليه المأخوذ باليد هو العذاب والجنون والغثيان.

إنه لا يمكن القبض على الحق، ولكن يوجد من يزعمون أنهم يعيشونه ويفهمونه ويحددون مكانه بالمذهب أو العقيدة أو النظام.

وهؤلاء لا بد أن يتعصبوا وأن يرفضوا كل رؤية غير رؤية وجوههم، بل لا بد أن يرفضوا أي خلاف في أن وجوههم هي أجمل الوجوه في العالم، وأن الشمس ليست إلا انعكاس جمالهم، إلا انعكاس وجوههم المشرقة، بل لا بد أن يؤكدوا بذكاء واقتناع عظيمين بأن الله لا يوجد إلا في كتبهم ومحاريبهم، وأنه لو وجد في كتب الآخرين ومحاريبهم لما وجد إلا مشوهاً ضالاً خائناً زنديقاً.

إنهم لا بد أن يصروا على أن الله حينما خلقهم هم كان في ظروف نفسية وفنية وأخلاقية خير من الظروف التي كان فيها حينما خلق أولئك الآخرين.

لقد كان حينما خلقهم هم في أعلى مستوياته الذاتية والتاريخية، أما حينما خلق الآخرين فقد كان في أدنى هذه المستويات، لهذا اختارهم هم ليكونوا المعبرين الممتازين عنه وعن مزاياه، كما اختار أولئك الآخرين ليكونوا هم التعبير الدائم ضده. ولا سبب لهذا التفريق في الاختيار غير التفاوت في مزايا الفريقين الفكرية والأخلاقية والذاتية. لقد فرق بينهم في الصنعة والإخراج، وهذا التفريق في الصنعة والإخراج لا يعني غير التفاوت في حالات الصانع المخرج الذاتية. لقد فاوت بينهم، فكيف حدث هذا؟

لا يمكن أن يكون السبب هم لأنه هو خالقهم بدءاً بكل ما فيهم من عيوب ومزايا، فالمزية في هؤلاء منه، والرذيلة في أولئك منه أيضاً، فهل يمكن أن يعاقب على العيب الذي خلقه هو، ويثيب على المزية التي خص بها هو أيضاً؟ يعطي هذا ذكاءً وجمالاً، ثم يثيبه على جماله وذكائه بالمال والمجد، ويعطي ذاك دمامة وغباءً وضعفاً، ثم يعاقبه على ذلك بالفقر والخمول والهوان!

إن كان هذا هو عدل الإله ومنطقه فويل للإنسان من الآلهة، وإن كان هذا هو عدل الطبيعة ومنطقها فما أكثر تواضع وتسامح من يشعرون أنهم يتعبدون حينما يذهبون يمتدحون ذكاء الحياة وحكمتها وصداقتها للإنسان وقدرتها على الإقناع بأن مهندساً عظيماً وفناناً شاعراً يصوغها!

إن الضعف، أو الانحراف، أو الشذوذ، أو الخطأ في الصنعة لا يمكن أن يكون له من أسباب سوى ذات الصانع الذي خلق كل احتمالات ما صنع أو من صنع، وكل ظروفه واستعداداته وما يكمن ويعيش فيه من انحرافات أو عجز أو خطأ، قبل أن يوجد وتوجد انحرافاته وأخطاؤه وعجزه.

فالصانع سابق صنعته مسؤول عن عيوبها ومزاياها، وصنعته هي التعبير الكامل عن مستوياته الفنية والأدبية.

إن الصانع لا يمكن فهمه أو تفسيره خارج صنعته، وهو لا يمكن أن يكون أقل أو أعظم منها، وكذلك الخالق لا يمكن تفسيره أو فهمه خارجاً عن مخلوقاته، وهو أيضاً لا يمكن أن يكون أعظم أو أقل منها.

إن خصائص الصانع والخالق هي نفس خصائص المخلوق والمصنوع، وإذا فاوت الخالق أو الصانع بين مخلوقاته أو مصنوعاته فلا بد أن يكون التفاوت أو الاختلاف بينها مقصوداً مطلوباً أو جزءاً من الخالق والصانع.

ولا يجوز أن يعاقب الصانع أو الخالق صناعته أو خليقته على اختلافها والتفاوت بينها، لأنه هو المخالف المفاوت بينها، بل إن اتفاقها حينئذٍ هو الخطأ والمعصية والفساد.

والتفـاوت الذي يوجده الخالقون أو الصانعون بين من خلقوا أو صنعوا ـ أو ما خلقوا وصنعوا ـ هذا التفاوت نوع من التضحية تتقبله أو تتحمله المخلوقات والمصنوعات إرضاء لشهوات الخالقين والصانعين أو لظروفهم واحتياجاتهم وضعفهم.

إن الإنسان الضال أو البليد هو شهيد مغبون ضحت به رغبة الخالق الذي وجد سروره ورضاه عن نفسه في أن يجعل إنساناً ما ضالاً منحرفاً بليداً ليتعذب ويعاني تكفيراً عن هموم الإله ورغباته وضعفه.

ولو كان هؤلاء يرون الله شيئاً واحداً مطروحاً بعدل ونزاهة على العالم من غير عجز أو ضلالة أو هوى أو انحراف لما ادعوه سبحانه كله لهم، ولما اعتقلوه كله واعتقلوا جميع مزاياه في أهوائهم وظروفهم ومذاهبهم وحدهم، مدعين أنه قد انحاز إليهم واختار أن يكون لاجئاً عندهم دون كل العالمين.

ولما أبصروه في معابدهم شاباً جميلاً عبقرياً، وشيخاً دميماً بليداً في معابد الآخرين! إن الله إما أن يكون حقاً وجمالاً في كل مكان وعند كل الناس وفي جميع المذاهب والمعابد، أو ليس حقاً ولا جمالاً في أي مكان ولا في أي مذهب أو معبد ولا عند أي إنسان.

ولا توجد طفولة أعمق من طفولة من يظنون أن الله موجود في مذاهبهم ومعابدهم بمقادير أكثر أو أفضل مما هو موجود في مذاهب المخالفين ومعابدهم.

كيف لا يخجل أي إنسان من سذاجته حينما يرى الله في مرآته أجمل مما يراه في مرائي الآخرين؟

*

إن القرآن لم يحاول أن يصادر المعارضة والخلاف، لقد خاض كل أساليب الخلاف مع المشركين المخالفين مستثيراً الخلاف معهم، طالباً أن يعارضوه ويناقضوه ويأتوا بسورة أو بسور من مثله، ليعرض ذلك على الناس جميعاً، على الكافرين والمؤمنين، من وجدوا ومن سوف يوجدون، لينظروا ويقارنوا ويحكموا أيهما أقوى وأحق بالتصديق والاتباع: القرآن أم الخلاف عليه، محمد أم خصومه.

وهذا معناه إعلان المناقضة العامة بل الدعوة إليها.

ولا يمكن أن يوجد التحدي ويعلن عنه، ثم يمنع المخالف الذي يوجه إليه التحدي من أن يعارض ويخالف ويعلن بكل صوته عن معارضته وخلافه. إن التحدي هو أعلى أساليب المناقضة، والمناقضة هي أعلى أساليب الخلاف، بل أعلى أساليب الدعوة إلى الخلاف وتحويله إلى شريعة ومزية وحق من حقوق من يكون الخلاف عليه.

وإذا كان القرآن قد نادى بالمعارضة والمناقضة ودعا إليهما، بل كلف بهما حتى كأنه لا يصبح مستكملاً عرضه لنفسه وإعلانه عنها إلا بأن يعارض ويناقض ويدعو إلى ذلك ـ نعم إذا كان ذلك كذلك فإنهم لخارجون على القرآن وعلى من جاء به كل المؤمنين الذين يرفضون مخالفته ويقاومون من يخالفونه مهما كان مستوى هذا الخلاف وعنفه وخطره وموضوعه وأسبابه.

لقد أصبح الاعتراض على القرآن بكل أساليب الاعتراض تكليفاً دينياً، والمؤمنون الذين يرفضون ذلك يحرمون القرآن والدين من شهوة المبارزة والعرض والإعلان عن الذات في ضجيج من الخصومات.

والدعوات المذهبية والثورية لا تسعد بدون هذا الضجيج وبدون المبارزات والخصومات الإعلانية.

إن الثوار والمذهبيين يمارسون الخصومات كأعظم نشوة جنسية!

إن القرآن الموجود الآن يطالب كل البشر والمخالفين أن يناقضوه وأن يحاولوا أن يصنعوا قرآناً مثله أو أفضل منه إن استطاعوا، ويدخلوا معه في مفاخرة أو مناظرة أو مضاربة أو مشاتمة بكل ما يستطيعون من عناد ووقاحة وبلاغة، ليبطلوا دعواه عن نفسه أنه معجز أو أنه من عند الله. وهذا يعني حتماً أن يقولوا فيه وضده كل ما يقدرون عليه من نقد وتجريح وإبطال. وإذن لو وجد اليوم من يحاولون ذلك لكان حقاً مشروعاً من حقوقهم.

بل إن ذلك ـ أي معارضة القرآن ومحاولة التفوق عليه ـ شيء واجب على المؤمنين أن يوجدوه ليحققوا له رغبته في الضجيج والإعلان والتوتر والمخاصمة.

إن المؤمنين لن يكونوا مستجيبين لدينهم إلا إذا ألفوا كتباً أو ألفت بينهم كتب تعارض القرآن وتناقضه، لأنه قد دعا إلى ذلك وأوجبه، وهذا يسعده ولن يغيظه، كالزعيم الثوري الإعلاني الذي يسعده أن يُخَاصِم ويُخَاصَم، وأن يخوض في البذاءات وتخوض فيه البذاءات، وإلا قرِضَ وانطفأ ومات.

وقد نقل القرآن مذاهب الكافرين والمخالفين في الدين ونقل مقادحهم وخلافاتهم ومناقضاتهم العنيفة الجارحة، وحولها قرآناً خالداً يتلى في المعابد وفي كل مكان وزمان، ويعبد الله ويصلى له بتلاوته وبالاستماع إلى تلك المقادح والمناقضات. ولم يخش على المؤمنين أن يسمعوا تلك المذاهب والآراء المخالفة بل المحاربة المتهمة المجرحة.

وهل يوجد فرق بين الاستماع إلى المقادح القديمة في القرآن أو إلى المقادح الحديثة ـ هل يوجد فرق بين أن يسمع ما قد قيل قديماً طعناً في القرآن، أو أن يقال مثله الآن طعناً فيه وخلافاً

عليه؟ إن هذا يساوي أن تؤلف كتب حديثة خاصة لتجمع فيها كل الآراء والطعون القديمة الموجهة إلى القرآن وإلى تعاليمه، بل ويزاد عليها أشياء من نفس النوع. وحين يظن المؤمنون المنكرون للخلاف اللاعنون للمخالفين أن العملين أو الأسلوبين ليسا سواء، لأن القرآن لا يذكر الطعون فيه والآراء المخالفة له إلا ليسفهها ويبطلها، لا يكونون مصيبين في ظنهم هذا إذ يقال لهم حينئذٍ:

اتركوا المخالفين والطاعنين يقولون ما يريدون قوله ثم لتقوموا أنتم أو سواكم بعمل المسفهين لهم المدافعين الرادين عليهم كما صنع القرآن.

ولا فرق بين أن تذكر المناقضات والمطاعن في كتاب، والرد عليها في كتاب آخر، وبين أن يوضع الشيئان في كتاب واحد مثلما فعل القرآن.

والقرآن في هذا التسامح أو في هذه الرغبة الإعلانية كان يعبر عن أخلاق المجتمع الذي جاء إليه لكي يستطيع أن يتخاطب ويتلاءم معه. فالمجتمع العربي في الجاهلية كان يتقبل كل خلاف، ويعيشه دون أن يطارد المخالفين أو يرى فيهم خطراً عليه أو تحدياً لأصنامه أو كبريائه أو نظامه. لقد كان ذلك غير معقول في تصوره، لم يكن يتقمص مثل هذه البلادة التي تقول:

«لا تخالفني في صورتي أو في عقائدي وإلا عاديتك وحاربتك».

وقد يكون القرآن حينما دعا إلى مناقضته وتحديه إنما كان يبحث عن تلك الرغبة العامة العنيفة في جميع المذهبيين والدعائيين ـ أعني الرغبة في الإعلان والضجيج، إن هذه رغبة مرضية في كل هؤلاء المتوترين لا يمكن شفاؤها، وهي رغبة لا تبحث عن هدف، إنها هي الشيء وهدفه.

إن القرآن لم يطارد التوراة والإنجيل والكتب الأخرى القديمة مع أنها مخالفة له، وفيها ما يناقضه وما يراه زندقة وتحقيراً للإله والأنبياء، بل لقد دعا إلى إحضار هذه الكتب وقراءتها.

ولو كان يرفض المعارضة والاختلاف عليه، ويبيد الكتب التي تعبر عن هذه المعارضة والاختلاف لما ترك التوراة أو الأناجيل أو أي كتاب قديم، وكذلك لو كان يبيد المخالفين نفياً أو قتلاً أو يعاقبهم لأباد أهل هذه الكتب أو عاقبهم، ولم يكن ممكناً حينئذٍ أن يقبل منهم الجزية والاستسلام ثمناً للابقاء عليهم. وهل يجوز لنا نحن أن نقبل رشوة أو هدية أو ضريبة ممن قتلهم أو نفيهم واجب لنبقي عليهم؟

وكما قبل الإسلام معايشة أهل الكتاب دون قتل أو نفي أو مضايقة كذلك قبل معايشة المشركين والمنافقين المعروفين، وما عرف أن شعباً أو إنساناً طورد أو قوتل في زمن الرسول بسبب عقيدته المخالفة. وجميع ما وقع من حروب وقتل أو نفي أو مضايقة إنما وقع لأسباب سياسية

كما يقع مثله دائماً بين أهل الدين الواحد وبين من لا دين لهم، بل وكما يقع بين الحيوانات والحشرات.

لقد قاتل الرسول وقتل وعاقب، لأنه كان حاكماً وقائداً وسياسياً، ولم يفعل ذلك لأنه كان رسولاً، بل لقد أقام الحدود، قطع يد السارق وجلد أو رجم الزاني وأدب شارب الخمر كحاكم يريد أن ينظم ويؤدب ويهاب، لا كرسول يتقرب إلى الله ويرضي دينه ويرفعه بمثل ذلك. لقد قاتل الرسول وقتل وضرب وغضب كما أحب وكره وأكل وشرب ونام وتعب وخاف وأحب النساء وتزوج، لقد فعل كل ذلك لأنه كان إنساناً يعيش فوق الأرض بأعصاب الأرض وهمومها وجوعها، لا لأنه كان نبياً يتخاطب مع السماء ويعبر عن أخلاق الآلهة بسيوفه ورماحه، ويصلي لها بالبغضاء والوحشية.

من الممكن أن يقال هنا:

إن الإسلام قد كان متسامحاً، وأخلاقياً إنسانياً مع المخالفين في البدء حينما كان في موقف الأضعف، أو حينما كان ضعيفاً، ولكن بعد أن أصبح قوياً منتصراً قادراً أن يفعل رفض التسامح وسخر منه، وذهب يضرب ويسحق بحسم وعنف لا حدود لهما، ويعاقب على كل أنواع الحرية ويضيق بها أشد الضيق. وهذا التبدل أو التغير في الأخلاق والتفكير لتغير الظروف معروف في سلوك جميع الثوريين والمذهبيين.

فالثوريون والمذهبيون يكونون طيبين جداً وأصدقاء للحريات والتسامح إلى حد الفدائية، بل إلى حد المرض والبكاء نبلاً. فإذا تغير الموقف وأصبحوا أقوياء تحولوا إلى قتلة وإلى أقسى الأعداء لكل حرية وتسامح.

وإذا كان هذا التفسير صحيحاً ـ والظاهر أنه صحيح ـ لم تتغير الفكرة المطروحة هنا، فالاختلاف بين السلوكين اختلاف في الظروف والقدرة والموقف، لا في المذهب أو الدين أو المنطق، فالمذهبيون والثوريون حينما كانوا في البدء متسامحين وأصدقاء للحرية كانوا كذلك لأنهم ضعفاء، وحينما تحولوا إلى أعداء للحرية والتسامح أخيراً تحولوا كذلك لأنهم قد أصبحوا أقوياء، وكذلك فعل أصحاب الأديان.

فالسلوك هنا سلوك حكام وطغاة وساسة، لا سلوك آلهة أو أديان أو مذاهب أو تفسيرات ثورية.

والضعيف دائماً يريد الحرية والتسامح لأنه يستفيد منهما وهو ضعيف، فإذا أصبح قوياً عاداهما أو خاف منهما لأنهما أخذ منه حينئذٍ.

إذن فالرسول قد قاتل وقتل وعاقب كحاكم يتكلم بأعضاء الأرض، لا كنبي يتكلم بأخلاق النجوم!

*

وقتل المخالف أو إيذاؤه خروج على الدين والأخلاق، فالذين يفعلون ذلك يؤيدون الفضيلة بالخروج عليها وبمحاربتها في الآخرين، لأن من قوتل أو أوذي لخروجه على مذهب أو عقيدة لا يؤمن بها فلا بد أن يخدع وينافق إذا كان لا يستطيع أن يقاتل ويقاوم، ولا يستطيع كذلك أن يموت ويتعذب دفاعاً عن الجهر بما يعتقد.

ونفاق المكره المغلوب هو الرد المهذب على السلوك الوحشي، هو المقاومة العقلية في ظروف لا تستطيع فيها أن تموت ولا تستطيع أن تقاوم بغير سلاحك السري وهو عقلك.

إني لا أعلم أنه يوجد موقف هو أحق بالاحترام والرثاء والغفران من موقف المنافق المهذب ازاء التعصب الغبي المقاتل الذي يفرض عليه ما لا يقبل عقله وما لا تتحمل حياته.

إذا كنت في قوم من العميان المتعصبين القادرين على البطش بك، وفرضوا عليك أن تؤمن بما لا تستطيع الإيمان به، أو أن تركع لأصنام لا تستطيع الاقتناع بمزية الركوع لها، وإلا قتلوك أو عذبوك، فماذا تصنع؟ هل تموت وتتعذب أم تنافق أي تستسلم لهم بلغتك وتقاومهم بعقلك من داخلك؟

إن الاستسلام اللغوي مع المقاومة العقلية أسلوب من أساليب المقاومة الداخلية أو المقاومة المنتظرة للسلاح.

إن جميع المعلمين والطغاة يشتمون النفاق ويخطبون ضده، ولكنهم جميعاً ينافقون ويعلمون النفاق أو يكرهون عليه، إن الوعظ ضد النفاق هو لغة الموتى. إنك أحياناً لا تستطيع أن تؤمن ولا تستطيع أن ترفض وتقاوم، والأغبياء أو الطغاة الذين حولك يفرضون عليك الإيمان ولا يمكنونك من المقاومة، إذن أنت حتماً ستنافق!

إن من يجعلك تبكي هو المذنب، لا الباكي الذي هو أنت.

كم أنت ذكي وعادل حينما تفرض على إنسان النفاق ثم تلعنه لأنه منافق وتخطب ضد النفاق!

والذين شتموا النفاق وعلموا ضده لم يفعلوا ذلك لأن النفاق في حسابهم رديء أو ذنب أو ضعف، ولكن لأنهم يريدون أكثر منه، لأنهم يريدون من الذين يلجئونهم إلى النفاق الإيمان، ولا يكتفون منهم بالنفاق الذي هو طاعة وإيمان من الخارج فقط.

إن الذي ينافق إنساناً إنما يقاومه مقاومة داخلية أي إنه يعصيه من داخله ويعطيه من خارجه،

أي إنه يطيعه بأضعف سلاحيه وأداتيه، ويعصيه بأقواهما. فإذا غضبنا على من ينافقوننا فلأننا نريد منهم أن يطيعونا من داخلهم وخارجهم، إذ نحن نخشى مقاومتهم الداخلية لأننا نخشى أن تتحول إلى مقاومة خارجية.

ولسنا نغضب على المنافقين لنا لأننا نكره النفاق ولا لأن النفاق شيء رديء.

إذا كان إنسان يؤمن بنا ولنا، وإنسان ينافقنا، وإنسان يعارضنا، إننا حينئذٍ سنفضل الأول ثم الثاني، إذن نحن لا نكره النفاق أو نرفضه ولكننا نريد أكثر منه.

ومع هذا فقد نفضل أحياناً من ينافقوننا على من يؤمنون بنا، لأنه قد يكون في نفاق من ينافقوننا دلالة ما، فيها إرضاء لنا، فنفاق الآخرين لنا قد يعني أنهم يهابوننا أو يخافوننا أو يحترموننا. وهذا قد يعجبنا ويدخل علينا المسرات، ولا سيما حينما يكون هؤلاء المنافقون لنا من الأقوياء أو الأذكياء أو الكبار.

كم يرضينا ذلك الذي يخافنا أو يكبرنا أو يحتاج إلينا، فينافقنا!

وأكثر من لعنوا النفاق وذموه هم المعلمون والزعماء والقادة، مع أنه لا أحد يرحب بالمنافقين مثلهم. وقد لعنوا النفاق لأنهم يريدون الإيمان الداخلي، ويرفضون أن يقاوموا ولو بالتفكير، والنفاق مقاومة فكرية وأحياناً مقاومة أخلاقية.

إن الطغاة والزعماء والدعاة يذمون النفاق ويكرهونه لأنهم يخافونه لأنه احتجاج أو رفض أو لعن من الداخل، كما يخافون الناقدين والمعارضين، لأنهم احتجاج ورفض وسباب من الداخل والخارج.

إن النفاق لم يلعن لأنه أخلاق، بل لأنه مقاومة.

إن إرهاب المخالف في الدين يعني دعوته إلى النفاق الديني، وهل يشرف الله أو يسره أن يعبد أو يدعى الإيمان به نفاقاً؟ هل يشرفه أو يسره أن تعبده أو تهتف به أعضاء وألسنة من تنكره عقولهم وضمائرهم؟ إنه قد يرضي الطغاة والأغبياء من البشر أن يعبدوا ويطاعوا ويمدحوا كذباً، فهل يرضي الإله ما يرضي هؤلاء الطغاة والأغبياء؟

إن الذين يفرضون على الناس أن ينافقوا الله أي أن يؤمنوا به، ولو نفاقاً، إنما يريدون في الحقيقة أن يطاعوا هم، وتطاع أفكارهم ومذاهبهم بحجة الإيمان بالله، والله ليس في حسابهم البتة. ولو كانوا يريدون الاحترام لله بما يفعلون لطلبوا من الناس أن يجاهروا بكفرهم به واحتجاجهم عليه ونقدهم له إذا كانوا يكفرون به ويحتجون عليه وينقدونه من داخلهم، لأن الله سيعلم ما في داخلهم فلا معنى لإخفائه.

الذي يكفر بالله أفضل عند الله من الذي ينافقه. إن النفاق لله مستحيل.

إذن فالذين يلجئون إلى النفاق الديني إنما يبحثون عن التفوق والانتصار والإملاء على الآخرين، ولا يبحثون عن احترام الله أو يبالون به، إنهم لا يريدون من الناس أن يحترموا الله ولو بالنفاق، وإنما يريدون أن يحترموهم هم.

وقد أباح الإسلام الزواج من المخالفات في الدين، وهل يباح الزواج بامرأة يجب قتلها أو امرأة يلعنها الله أو امرأة ستكون من سكان الجحيم؟ وأي إنسان هذا المؤمن الذي يتقبل بضمير ديني بارد أن تكون أم أولاده وربة بيته وصاحبة فراشه وموضع قلبه وخفقانه من عدوات الله الخالدات في غضب الله وناره؟ كيف يقبل أن تكون قطعة من الجحيم سيدة منزله؟ هل هذه قسوة أم رحمة أم تسامح أم شره جنسي هو شر من كل كفر وفسوق؟ كيف لا يرق مثل هذا الإنسان المؤمن رحمة بأولاده الذين يعلمون أن أمهم عدوة لله وخالدة في عذاب الجحيم؟ إن كل كفر بالله لأفضل من هذا التصور، وأفضل من أن تجمع بين اعتقادك هذا، وبين زواجك بامرأة مخالفة لك في الدين.

إذا كنت مؤمناً بأن الخروج على الدين ذنب أو عذاب، ثم تزوجت امرأة خارجة على دينك لتكون واهبة لك أبناءك، وصديقة لقلبك، وملكة على بيتك فأنت أكثر من إنسان لا دين له، بل أنت حينئذٍ إنسان لا ضمير ولا قلب ولا شهامة له ـ أنت حينئذٍ أفظع من وحش.

*

إن عداوة المخالف في الاعتقاد أو المذهب أو الإله أو الزعيم بقية من بقايا الإنسان المتوحش، لا تزال تعيش في الإنسان الذي قد تحضر.

ولكن هل الاختلاف على شيء من ذلك يصنع العداوة أو الكراهة، أم أن العداوة والكراهة هما اللتان تصنعان العداوة والكراهة، وتصنعان الاختلاف أيضاً؟

إن الناس أحياناً يختلفون لأنهم متعادون متباغضون، ولا يتعادون ويتباغضون لأنهم مختلفون.

إن أخلاق الناس وظروفهم وآلامهم ومشاكلهم وتناقضاتهم وإراداتهم المتحركة بأجهزتها الوراثية هي التي تجعلهم متباغضين متعادين، لا أفكارهم ولا مذاهبهم، ولكن الناس يجعلون من المذاهب والآلهة والنظم المختلفة أسباباً يفسرون بها نقائصهم وهمومهم وحماقاتهم تفسيرات دينية أو مذهبية.

إن البشر في حاجة إلى العداوة والبغضاء، لأن ظروفهم غير الملائمة وتناقضاتهم التاريخية والذاتية تفرض عليهم هذه الحاجة الأليمة. والناس في العادة يحولون عدوان الطبيعة عليهم إلى عدوان على أنفسهم وعلى جيرانهم وإخوانهم في الألم ـ إنهم يردون على غضبهم على الكون

بالغضب على الإنسان، أي إنهم يعاقبون أنفسهم كلما عاقبتهم الطبيعة لأنهم لا يستطيعون معاقبة الطبيعة.

إن الناس لو لم يجدوا خلافاتهم الدينية والمذهبية التي يجعلون منها أسباباً مشروعة لتعاديهم وتباغضهم لأوجدوا أسباباً أخرى لهذا التعادي والتباغض، أو لتعادوا وتباغضوا بلا أسباب مكتوبة ومخطوب بها.

إن كل الناس يتعادون ويتباغضون دون خلاف على الآلهة والمذاهب بل دون آلهة ومذاهب. العقائد والنظريات هي ظواهر للبغض والعداء والخلاف لا أسباب لها، أي انها إحدى ظواهرها.

إن اللصوص وقطاع الطرق والمهربين يتباغضون ويتعادون، وبالأسلوب نفسه يتعادى ويتباغض المؤمنون والمذهبيون والمصلون في معبد واحد لإله واحد، وكذلك أيضاً يتعادى ويتباغض الرجال الشرفاء الفضلاء جداً مهما اتفقت عقائدهم وأربابهم كما يفعل الرجال السيئون جداً.

إن أي زعيم لا يعادي أو يصادق الزعيم الآخر بقدر اتفاقهما أو اختلافهما على المذهب بل بقدر التلاؤم أو التناقض بينهما.

إن العداوة والبغضاء ظاهرة إنسانية لا ظاهرة دينية أو فكرية ـ البشر يتعادون ويتباغضون لأنهم موجودون على نحو غير ملائم ومريح، لا لأنهم مؤمنون أو مخلصون أو محبون للآلهة والمذاهب والنظم المختلفة. والحيوانات والحشرات تتعادى وتتقاتل بلا أسباب دينية أو مذهبية أو أخلاقية، ومثلما تصنع يصنع الإنسان.

إنك أيها المؤمن الورع جداً لا تعادي أو تكره المخالفين لك في الدين أو المذهب بقدر تدينك أو إخلاصك لمذهبك وإلهك، بل بقدر عجزك عن التلاؤم مع نفسك وظروفك ومع الطبيعة.

والمخالف الضال المحكوم عليه بالهلاك خليق برحمتك وعطفك ورثائك إن كنت حقاً متديناً مؤمناً محباً للناس راثياً لآلامهم، لأنك إذا اعتقدت بأن ذلك المخالف لك خارج على مشيئة الإله الذي يملك كل أسباب العذاب والثواب والقوة، هارب منه، وأنه سوف يخسر كل نفسه ليكون ملكاً للنار ليتعذب بكل أهوالها التي يسحق العقل والتوازن، ويصيب بأعلى مستويات الجنون مجرد تصورها والتفكير فيها، ولكي يكون محرماً عليه دخول الجنة التي فيها كل الأوهام السعيدة والشهوات البذيئة التي لا تستطيع أن تعقلها إلا إذا صلبت كل عقلك ـ نعم لأنك إذا اعتقدت بأن ذلك المخالف لك سيكون هذا بعض عذابه وخسرانه وجب عليك حينئذٍ أن تموت رقة ورحمة وبكاء عليه، وأن تحول كل ما يعيش فيك من الإيمان ومن صفات الآلهة

التي تؤمن بها إلى أخلاق برة لتعامله بها تعويضاً له عن خسرانه الرهيب. وليس عقلاً أو تقى أو نبلاً أن تعاديه أو تكرهه حينئذٍ.

هل تعادي أو تقسو على الإنسان الذي يلقي بنفسه في النار أو في أحضان البحر ليموت حريقاً أو غريقاً، أم تبكي عليه وترثي له؟

إن الذين يعادون أنفسهم ويشقونها لا يستحقون الغضب أو الانتقام تحت أي شعور أو شعار أو مذهب، كالذين يمرضون ويحزنون ويفقدون أموالهم أو حياتهم أو شرفهم. إن مجرد الرغبة في إيذاء النفس أو اضلالها وتجهيلها مأساة تستحق الرحمة والرثاء، وليس ذنباً يستوجب العقاب أو البغضاء.

والذي يرفض الإيمان بالله ويرفض البحث عما لديه من جزاء ويتحدى كل عقاب عنده هو إنسان لا يمكن أن يستحق غير الشفقة والحب، لأنه إما إنسان متجاوز في شجاعته لكل حدود البشر المعروفة، وكذلك في زهده، وإما إنه إنسان أعمى جداً حتى أنه لا يستطيع أن يرى الله مع عدوانه الرهيب على كل العيون، وملئه لها بذاته العنيفة ووجوده الكبير الجارح المتفجر فيها آلاماً ودمامات!

من هم الجديرون بعطفنا وأحزاننا الباكية؟ أليسوا هم الواقعين في الخطأ أو الألم أو الخسران؟

إن أحداً في هذا العالم لا يستحق عطف المؤمن وصداقته مثل الكافر الذي سيتحول إلى حطب أليم لغضب الإله وقسوته ولكل قدراته الجهنمية.

ولا ينبغي أن تصدق تلك السذاجة القائلة بأن إنساناً ما قد يعادي نفسه ويتحدى أكبر وأفظع الآلام إلى المدى الذي يجعله يرفض دخول الجنة ويتقبل الذهاب إلى النار ـ كمغامرة بسيطة ـ إلى المدى الذي يجعله يرفض الإيمان بالله تكبراً على ثوابه وملكوته، وتحدياً لعقابه وجبروته.

إن الناس ـ حتى الكبار الشجعان منهم جداً ـ قد يتنازلون عن كل حقوقهم في الحرية والكرامة والشرف والتاريخ ليرضوا طاغية صغيراً اتقاء لغضبه أو استجلاباً لثوابه ورضاه، فكيف إذن يمكن أن يستهينوا بكل ما عند الله من غضب وحرمان وعقاب ومن مثوبة ومحبة؟ إن الله كبير، كبير جداً، والدليل على أنه هكذا كبير أن هذا الكون كله ليس إلا غضبة من غضباته، ولعبة صغيرة من لعبه الكثيرة، وقصيدة متواضعة أنشدتها عبقريته من غير معاناة أو اتقان.

كيف يمكن أن يؤمن قوم بمثل هذا الإله ثم يتحدونه، يتحدون إيمانهم به؟ بل كيف يمكن أن يتحدوا أنفسهم بكل هذه القسوة والغباوة؟

أيها المؤمن المالك لله ولكل ملكوته وجناته وقلبه ـ أيها المؤمن المحرم على تلك الأهوال

المدخرة بعناية هائلة وعبقرية جهنمية في دركات الجحيم لكل من لم تكن حظوظهم مثل حظوظك، لكل من لم يؤمنوا مثل إيمانك، أيها المؤمن الطيب الرحيم كيف تغضب على إنسان مسكين ترك لك كل هذا التفوق العظيم عليه لكي ترى نفسك فوقه عالياً، عالياً؟

إن العدل والعقل يقضيان عليك بأن تحمد وترضى وتحب بصدق وعمق من تنحى لك عن الطريق ليكون لك الامتياز البعيد عليه ولم يدخل معك في منافسة على الله.

وهل تغضب إذا أصبحت قيصر أمة أو ملكها أو زعيمها أو غنيها أو عبقريها الأول، على من لم يكونوا مثلك، وتركوا لك احتمالات التفوق عليهم؟ أو هل تحقد على من تهاووا أمامك عمداً لتصل وحدك إلى أقدام الطاغية الرهيب بالنفاق والركوع، لتكون أقرب كاذب إليه، وأحظى عابد لديه؟

هل أنت تكره من خالفك لأنك تحبه وتريد له الخير والصدق؟ هل أنت طيب إلى هذا المدى؟ أم أنت تكرهه لأنك أناني مستبد، ولأن فيك وحشاً يحتاج إلى هذه الكراهة، بل لأن فيك إنساناً يقتات بهذه الكراهة؟ هل نكره من نحب لأننا نحبهم جداً؟ إن المؤمنين الذين يكرهون غير المؤمنين يزعمون أنهم يكرهونهم لأنهم يحبونهم!

هل بغضنا لأهل النار نبل وتقوى أم وحشية؟ وهل نحن نحب المؤمنين الذين سوف يدخلون الجنة معنا حباً مساوياً لكراهتنا أهل النار؟ إننا أحياناً نكره بصدق وحماس أهل النار ـ أي المخالفين لنا في الدين أو المذهب أو الإله، فهل نحب دائماً أهل الجنة ـ أي الموافقين لنا بمثل هذا الحماس والصدق؟

أيها المؤمن النبيل الكاره للناس لأنه يحبهم هل كفر الكافر أو مخالفة المخالف يمرضان الله أ يقتلانه أو يشقيانه، هل يضيرانك أنت، هل يمرضانك أو يقتلانك أو يمنعانك من الضحكات المنطلقة بلا وقار أو احتشام؟ هل يضيران الشمس أو القمر أو النجوم أو شيئاً في هذا الكون، فيبطلا حركته أو يقضيا على حياته أو يدمرا وجوده؟

هل كفر الكافر وخلاف المخالف يوقفان جريان الأنهار أو اخضرار الحقول أو إزهار الأزهار أو تورد الخدود الفتية أو رغبة الرجل في المرأة، أو رغبة المرأة في الرجل أو قدرتهم وقدرتهن على إعطاء الأبناء والبنات؟

إذن لماذا أيها المؤمن الطيب تقسو وتغضب وتكره حيث لا مكان للقسوة أو الغضب أو الكراهة؟

إن إنساناً ما آذى نفسه ولم يؤذ شيئاً غيرها، لم يؤذ الله ولا البشر ولم يؤذك أنت، لم يؤذ شيئاً أو حشرة في هذا الكون أكثر مما تؤذيها أنت أيها المؤمن الصديق فلماذا تعاقبه بالغضب

عليه؟ إن كان ذلك رحمة به لأنك أنت أيها المؤمن إنسان جم الرحمة فالرحمة تطالبك بألا تزيد الآلام عليه ببغضه ومعاداته والكره له، والمصاب يجب أن يواسى ويعزى بالعطف والرفق والإحسان، فكيف بأكبر مصاب، كيف بمصاب لا مثيل لمصيبته، مصاب ترك لك الجنة وذهب إلى النار في فدائية وترفع وشجاعة ستخجل منها كبرياء الآلهة وشجاعتها؟

إن الناس في العادة لا يحمدون الذين يعملون لمصالحهم الخاصة، والذين ينصرفون إلى اتقان الأسباب التي ترفعهم إلى صهوة المجد أو إلى بلوغ اللذات المادية والشخصية. وهم يرون في أمثال هؤلاء أسلوباً من أساليب الأنانية الذميمة المقاتلة! ولكنهم يعجبون جداً بالذين يزهدون في ذواتهم وشهواتهم، ويجدون فيهم نموذجاً للقداسة والترفع اللذين يستحقان الإعجاب والثناء. والمؤمنون الصالحون الباحثون عن الجنة، الهاربون من النار هم من النوع الذاتي الأناني، فلماذا يستحقون مودتنا واحترامنا مع أنهم ليسوا أفضل أهدافاً أو نيات من التجار والزعماء الذين لا يعملون إلا للربح والتفوق والانتصار؟

أما الرافضون للإيمان والعبادة والتقوى فهم من النوع المترفع الزاهد في الأنانية وفي مصلحته الخاصة ولو على وجه من الوجوه، فلماذا يستحقون عداوتنا وتحقيرنا مع أنهم من الذين يتعالون على طلب الربح والفائدة لأنفسهم؟ هل نعادي من يخرجون من أموالهم وبيوتهم وامتيازاتهم ومناصبهم وشهواتهم، ترفعاً وتواضعاً وزهداً في الشهوات؟

إننا جميعاً نحتقر الذين يتملقون القادرين بصلواتهم ومدائحهم، ونراهم جبناء وضعفاء وهابطين على المستويات الإنسانية العالية، ونحن كذلك نبجل المترفعين الذين يجهلون أو يرفضون الصلوات والطقوس والأخلاق المنحنية خوفاً أو طمعاً، ونعد هؤلاء إذا وجدوا كواكب سلوكية تمنح الإنسان التألق والقوة والشموخ. فلماذا لا نتناسق مع تفكيرنا؟

لماذا لا نحتقر المؤمنين المتملقين ضعفاً وغباءً، أو طمعاً في شهوات الجنة وخوفاً من عقاب الجحيم، ثم لماذا لا نبجل الرافضين المترفعين ولو على شهوات الجنة؟

إن الناس لا يحبون الناس ويحترمونهم، كما لا يرفضونهم ويعادونهم بقدر ما فيهم من فضيلة وخروج على الفضيلة، ومن مزية وفقد للمزية، ولكنهم يصوغون مواقفهم من الآخرين خضوعاً للظروف والمصالح والتاريخ، وبحثاً عن التلاؤم النفسي والاجتماعي والمادي.

إن أقوى المؤمنين إيماناً وتقى ليفضل دون أية معاناة نفسية أو مقاومة من دينه التعامل مع مخالفيه في الدين والمذهب، بحثاً عن المصلحة والشهوة والتلاؤم، على التعامل مع أتقى المؤمنين الموافقين له في الدين والإله والمذهب والنظرية.

بل لعل أتقى المؤمنين يفضل التعامل مع هؤلاء المخالفين تحت الظروف الملائمة على التعامل

مع نفس النبي الذي يؤمن به، أو مع صاحب المذهب الذي يتبعه، لو كان ذلك النبي أو صاحب المذهب موجوداً يبيع شيئاً أو يتعامل على شيء.

إنه لو كان أحد الأنبياء يعيش اليوم وكان يملك بنكاً ويقرض المتعاملين معه بشروط أقسى من الشروط التي يتعامل عليها الكافرون بذلك النبي الذين يملكون أيضاً بنوكاً، لاختار أتباع ذلك النبي التعامل مع بنوك أعداء نبيهم ورفضوا التعامل مع بنك نبيهم!

إننا نشاهد الآن ونعلم من التاريخ أن كبار الحكام والزعماء ورجال الدين من مسلمين وغير مسلمين يتعاملون ويتصادقون ويتوادون مع الكافرين بأربابهم وأنبيائهم ومذاهبهم أكثر مما يفعلون ذلك مع الموافقين لهم إذا اقتضت الظروف الأنانية ذلك، بل إنهم لينحازون إلى أعداء آلهتهم وعقائدهم، وقد يحاربون معهم ضد المؤمنين بأربابهم وعقائدهم.

ليست حماستنا في كراهتنا لمن يخالفوننا في العقيدة أو المذهب راجعة إلى احترامنا الصادق لأدياننا أو مذاهبنا وإلى غيرتنا عليها، ولا إلى كراهتنا للرأي المخالف.

ولكن هذا الخلاف الذي لا قيمة له في حساب سلوكنا وأهوائنا أعطانا الفرصة المشروعة أو المستساغة في تقديرنا لكي نحقد ونكره ونعادي من نريد عداءهم، ولكي نبالغ في تحقيرهم، شفاء لغيظنا الأناني وبحثاً عن الارتفاع والتفوق عليهم في سمت المدافعين عن الشعائر الواجبة. ولهذا فإننا نتحدث بمبالغة عن سيئات المخالفين ونمعن في معاداتهم أكثر جداً مما نصادق الموافقين ونشيد بحسناتهم، ما لم يكن لنا هوى خاص في ذلك.

والبشر جميعاً يرحبون بالرذيلة التي تفيدهم أكثر من ترحيبهم بالفضيلة التي لا تفيدهم، أما الفضيلة التي تؤذيهم فقد يلعنونها أكثر من لعنهم للرذيلة الفاعلة بهم نفس الشيء، وأما الفضيلة والرذيلة المحايدتان فقد يعادون الأولى أكثر من معاداتهم للثانية.

إننا لا نعادي أو نحاسب الآلهة أو المذاهب أو النظم، ولا ترضينا أو تغضبنا، وإنما نقف هذه المواقف المتناقضة من الناس أنفسهم لأنهم هم الذين يخيفوننا ويصنعون حقدنا وحسدنا أو غيرتنا أو رضانا وحبنا وإعجابنا.

إن أهواء البشر وأخلاقهم لا تخضع لمذاهبهم أو أديانهم أو تعاليمهم، وإنما تنطلق انطلاقاً وحشياً أو انطلاقاً إنسانياً ترابياً لا يقيده سوى الأرض وقوانينها. فهم حينما يعادون أو يغضبون لا يرتفعون بغضبهم وعداوتهم إلى النجوم بحثاً عن الضوء والارتفاع، ولكن يهبطون بهما إلى الأرض باحثين عن أنفسهم الباحثة عن همومها في الرمال، وعن ضروراتها المتقاتلة المعادية للسماء.

المؤمنون المتحدثون دائماً عن السماء لا يهبطون في تصرفاتهم ورغباتهم في أوامر الله أو في

فلسفات الإنسان، وإنما يتوالدون نابعين من طبيعة أنفسهم وآلامهم، ومن مهابط التاريخ البعيدة. يريد المؤمنون أن يرتفعوا فوق الإنسان ويكونوا أكبر منه، فينزلون تحته ويصبحون أصغر منه، أي يصبحون تحت تعاليمه ومستوياته المتحضرة، وأصغر منها.

إن المؤمن مهما حقر الإنسان وحاول أن يتجاوزه ـ لأنه أي المؤمن في ظنه يتخاطب مع الآلهة ليكون في مستواها ـ لن يستطيع أن يكون غير الإنسان العائش فوق الأرض المتغذي بديدانها، أو فوق النجوم التي لن تكون ديدانها أكثر شرفاً أو تديناً من ديدان الأرض.

المؤمنون لا يعترفون بموهبة الإنسان التي ترتفع به ليكون إنسانياً في آلهته ومذاهبه وصلواته، وهم لهذا يرفضون أو يتكبرون أن يأخذوا من منطقه وفلسفاته وتجاربه، بل وتفاهاته وآلامه، سلوكهم ومذاهبهم وإيمانهم وتفسيراتهم للأشياء، وحينئذٍ يظلون منفصلين عنه أو باحثين عن هذا الانفصال. وإنهم في خروجهم على الإنسان أو زعمهم الخروج عليه والتمني له ليحسبون أنهم قد سكنوا في السموات مع الأرباب، وزرعوا أخلاقهم ورغباتهم في بساتينها، جاعلين من الإله بستانياً يتقن فنونه.

واعتقاد المؤمنين بأن الإنسان ليس قادراً ولا جديراً بأن يستقل ـ بل ولا يصح له أن يستقل ـ بإبداع احتياجاته الروحية والفكرية والطبيعية يجعلهم دائماً يتدينون بمحاولة الفرار من أنفسهم والتنازل عنها للنصوص والقبور وللمغامرين من الدعاة والمذهبيين، كما يجعلهم كذلك يحاولون دائماً تدمير احتمالاتهم الذاتية وإخمادها، بينما يكونون في الحقيقة خاضعين بلا حساب لكل ما في الأرض من ضعف وتلوث وجوع إلى السقوط.

إن حديثهم عن السماء لن يحمي أعضاءهم من الجوع، أو من الخضوع لقوانين الجاذبية الأرضية، أو الجاذبية الكونية حينما يصبحون فوق جاذبية الأرض، فوق هامة أحد النجوم المتوحشة بكبريائها وتاريخها.

إن الغابة لتنادي دائماً المؤمنين، وتعيش في أحلامهم وأمانيهم وتصلي لها أعضاؤهم، مهما تحدثوا عن السماء والآلهة والقديسين، ولعنوا بأقوى البلاغة الدينية شهوات البدن وتحريضاتها!

إن روائح الجحيم لتفوح من أفواه الأتقياء ومن مواعظهم وتعاليمهم ومن أرواحهم لطول ما احترقوا بمخاوفهم وصلواتهم الكئيبة وببغضائهم الحزينة العدوانية وبتعاليمهم المتحدثة عن مجد النار وفضيلة الآلهة الجائعة المتكبرة على الإنسان وعلى آلامه وأحزانه الباهظة، ولطول ما استمعوا إلى بكاء الأرباب المتعذبة وإلى أنينها الغاضب ووعيدها المرتجف لشعورها الدائم بالهزيمة أمام نفسها وأمام رعاياها وتعاليمها وخيالها الذي يرفضه الكون، ولشعورها بأنها تعيش وحدها بمنطقها وقسوتها وأنانيتها وبكل همومها الكبيرة التي أطلقتها على نفسها وعلى الإنسان وعلى كل شيء دون أن تعرف كيف تتعالج أو تعالج منها أحداً. إنها تعيش في وحدة موحشة

حيث لا تجد صديقاً أو شبيهاً أو شريكاً يمنحها العون حتى ولو بالرأي أو العطف أو الرثاء أو البكاء.

إن جميع الذين يبكون إنما يبكون منها أو إليها أو أمامها، وليس فيهم من يبكي من أجلها، إن الباكين كثيرون ولكنهم جميعاً شاكون لا راثون. وما أقسى أن تجد كل شيء باكياً حولك دون أن تجد راثياً حينما تكون أنت في أشد ظروف المعاناة.

إن وحدة الذات والمستوى والخطيئة والحزن هي أقسى ضروب الجنون والعذاب.

إن النعيب المقدس المتحول إلى صلوات في آذان المؤمنين وإلى ثناء على الآلهة قد صنع لهم أخلاقاً غير إنسانية تحتقر الحب وتحترم البغضاء، وآذاناً غير أخلاقية تكره الغناء والشعر وتهوى الوعيد والسباب.

إن أسوأ ما في المؤمنين ـ وما في المذهبيين كذلك ـ أن أحقادهم وبذاءاتهم وعداواتهم وألوان الكراهة التي تفرضها عليهم ظروفهم ونقائصهم، ويفرضها عليهم ما في الشمس والنجوم والصخور من تناقض معهم، تتحول في عقائدهم إلى عدوان على الناس وإلى مدائح للآلهة وجميع أصحاب المذاهب والمعتقدات يحولون آثامهم الذاتية وآثام الطبيعة فيهم إلى معارك مذهبية أو عقائدية أو وطنية أو إنسانية، وإلى بذاءات مشروعة بالمنطق.

ولعل الإنسان هو وحده الكائن الذي يجمع في حالة واحدة بين أعلى مستويات الذكاء وأعلى مستويات الغباء، دون أن يشعر بالتناقض في ذاته أو يلحظ التفاوت بين البعدين والمستويين. إن الإنسان وحده هو الكائن الذي يصنع أقوى القيود ليقيد بها مواهبه واحتياجاته، متقدماً إليها بالعبادة والشكر، وملقياً بكل قدرته وحماسه وبلاغته في المعركة دفاعاً عنها وعن بقائها ومزاياها، ثم ليقيم أقسى المعارك لتحطيمها والتشنيع عليها ـ إنه دائماً يبحث عن القتال ضد نفسه وعن القتال دفاعاً عن نفسه، فهو يصنع القيود ثم يدمر القيود، إنه بهذا يعلن الحرب على نفسه ثم يدخل الحرب دفاعاً عن نفسه، وهو في الحالتين المهاجم المدافع، القاتل المقتول، الباحث عن الفهم والهارب من الفهم.

إنه أذكى من كل الأشياء وأغبى منها جميعاً، فهل هو حينئذٍ أذكى الأشياء أم أغباها؟

*

ما هو الصواب الذي يجب فرضه على الآخرين ورفض الاختلاف عليه، وهل هو شيء غير الحق، وما هو الخطأ الذي نعادي دون تهذيب من نعتقد أنهم ذهبوا إليه؟

إن الطبيعة لا تعرف لغة من اللغات، كما لا تتعلم مهما واجهت من الآلام وأسبابها، لهذا لا تتحدث أي الطبيعة عن الخطأ والصواب، ولا يحارب أو يلعن بعضها بعضاً باسم الخطأ

والصواب. إذن فالخطأ والصواب لغة وألم إنسانيان وليسا وجوداً كونياً، بل ليسا وجوداً إنسانياً، بل ليسا منطقاً إنسانياً، إنهما مشاعر إنسانية تحولت منطقاً إنسانياً أو حسبت منطقاً إنسانياً.

الطبيعة تكون فقط، وليس فيها أي ليس فيما يكون خطأ وصواب، والشيء لا يكون لأنه صواب ولا يرفض الكينونة لأنه خطأ، بل يكون أو لا يكون فقط بلا أحكام عقلية عليه. وكما أن الخطأ والصواب حكمان إنسانيان فإنهما كذلك حكمان على الإنسان وحده دون الطبيعة أو أي شيء فيها. فالإنسان يحكم على سلوكه وأفكاره بأنها خطأ أو صواب، ولا يحكم مثل ذلك على الطبيعة مهما أخطأت، مهما قتلت أو ظلمت أو أجرمت، إن الإنسان وحده هو الذي يحكم، وهو وحده الذي يحكم عليه.

وهل خص الإنسان نفسه بذلك لأنه يريد أن يحابيها أم يتحامل عليها؟

إن الحكم بالخطأ والصواب في تقدير الإنسان لا يكون إلا حيث يكون العقل والقصد والشعور، وعلى نحو فيه محاباة أو اختلال منطقي. ولكن لماذا لا يحكم إذن على أفعال الإله بأنها حيناً خطأ وحيناً صواب؟

إن الإله في عقيدة المؤمن هو المسؤول عن جميع أخطاء الطبيعة وآثامها، ولكنه مع هذا الاعتقاد لا يرى ما يفعله الإله إلا صواباً، إن الإله مصيب دائماً، حينما يفعل الشيء وحينما يفعل نقيضه، إذا قتل فهو مصيب وطيب، بقدر ما هو مصيب وطيب إذا أعطى الحياة، وإذا أعطى ثم أخذ في نفس اللحظة ونفس الظروف ولنفس الهدف فهو أيضاً مصيب، وهو يستحق الحمد والإيمان على جميع مواقفه المتناقضة، على مستوى واحد من القوة والحماس والاقتناع.

وقد كان المعقول والمفروض أن يخضع الإله لقانون الخطأ والصواب كما خضع له الإنسان.

كيف يحاسب الإنسان نفسه على موقف أو سلوك لا يحاسب الإله على مثله؟ كيف يغفر للإله ذنباً لا يغفره لنفسه؟ وكيف يكون الإله معذوراً في تصرف لا يكون الإنسان معذوراً على مثله؟ أليس العدل هو العكس؟ لقد حكم منطق الإنسان على الإله بالصواب فكيف لم يحكم عليه حينئذٍ إذا فعل النقيض بالخطأ؟ كيف يمكن الحكم على شيء بالصواب واستحقاق الشكر دون أن يكون ممكناً الحكم عليه في حالة أخرى مناقضة بالخطأ واستحقاق اللوم؟

هل في هذا محاباة أم إهانة وتحقير؟

إن الحكم على الفاعل في كل مواقفه المتعارضة حكماً واحداً لا يتناقض لا يمكن أن يكون معقولاً، ولا أن يكون فيه شيء من الاحترام أو التنزيه، بل ذلك نوع من الإساءة والهجاء. ولقد كان الذكاء ألا يحكم على أفعال الإله بالصواب حيث لم يكن ممكناً الحكم عليها بالخطأ، وألا يستحق الحمد في أي موقف من مواقفه حيث لم يكن ممكناً أن يستحق الذم في أي موقف من

المواقف الأخرى، ليكون كالطبيعة التي لا تستحق حمداً ولا ذماً، والتي لا تكون مصيبة ولا مخطئة مهما فعلت الصواب أو الخطأ، أو فعلت الخطأ والصواب، أو لم تفعل شيئاً.

الطبيعة إذن ليس فيها خطأ ولا صواب، ولا تعرف الخطأ والصواب ولا يحكم عليها بالخطأ والصواب، فالخطأ والصواب سلوكان إنسانيان وحكمان إنسانيان كذلك، لا يحكم بهما سوى الإنسان، ولا يحكم بهما على سواه، كما لا يعرفهما أو يتحدث عنهما سواه.

ومع أن الإنسان يتحدث عن الخطأ والصواب ويشعر بهما، كما يحاكم بهما الأشياء والناس، ويظن أو يزعم أنه يعرفهما بل ويراهما فإنه لا يعيشهما ولا يعرفهما ولا يستطيع أن يفعل ذلك إلا بقدر ما تستطيع الطبيعة أن تعرفهما وتعيشهما. ولا توجد وسائل أو مقاييس لمعرفة هذا من هذا، أو لمعرفة هذا وهذا أو هذا دون هذا.

إن الإنسان هو وحده الوسائل والمقاييس، أي أنه هو النص والتفسير والقارىء والمقروء والجهاز الذي يقاس به والذي يقاس عليه. والإنسان ليس متحدداً ولا ثابتاً ولا شيئاً واحداً، وهو لهذا مقياس أو جهاز ضبط لا يمكن أن يوثق به.

فمثلاً إذا كانت إرادة الإنسان أو منطقه أو ظروفه أو مصلحته أو عقيدته هي الصواب أو هي الخطأ فذلك متعدد ومختلف ومتحرك، وإذن لا صواب ولا خطأ.

نعم، إن الأشياء موجودة ويمكن معرفة أنها موجودة، ولكن وجود الشيء لا يعني أنه صواب، فالصواب ليس هو الوجود أو الشيء كما هو، بل الصواب ـ أي في حكم الإنسان ـ هو الوجود أو الشيء على نحو ما وبشروط ما أو في تفسير ما أو في إرادة ما وتحت ظروف معينة.

لهذا كانت معرفة الخطأ والصواب مستحيلة مع زعم الجميع في جميع العصور أنهم يعرفونهما، بل ويتعايشون معهما في جميع تصرفاتهم، ويتغذون بهما مع خبزهم اليومي، بل ولا يأكلون خبزهم إلا على مقاساتهما!

إن الصواب من الشمس هو الجزء الذي يشرق علينا منها ونراه حيث نحتاج إلى الرؤية وتريحنا الرؤية، أما الخطأ من الشمس فهو الجزء الذي يدخل منها إلى بيوت مخالفينا، ويقرؤون عليه مذاهبهم وأفكارهم، ويرون به وجوه أربابهم. وكل الناس ـ إلا من يعدون غير معقولين ـ خاضعون في رؤيتهم لأنفسهم وفي رؤيتهم الآخرين لهذه البلاهة العظيمة، وهم يتعاملون عليها فيما بينهم ومع أنفسهم وكأنه ليس فيهم عاقل أو مبصر يرى الآخرين كما يرى نفسه، أو يرى بيوت الناس كما يرى بيته.

إن كل الناس يتعاملون على هذه البلاهة ثم يظلون يتبسمون لأنفسهم ابتسامات لا يكدرها أو يحتج عليها شيء من غباوات الطبيعة وتفاهاتها وآلامها وعبثها!

إنه لا شيء يشتم ذكاء الإنسان ووقاره مثل أن يعتقد كل فريق أنه هو الصواب دون مخالفيه، إنه هو الشمس وإن مخالفيه هم الظلام، ثم يظل الجميع مع ذلك ينظرون إلى أنفسهم بإعجاب، ويغازلونها بأضخم الابتسامات التي لا تشعر أن في الكون شقاء وبلادة وعبثاً وأحزاناً صادقة.

إن الابتسامة التي لا ترى الدموع المتجمعة في كل العيون هي أقسى تعبيرات الوحشية.

إنه ما من شي يعد صواباً في حساب قوم أو تحت ظرف من الظروف، أو في ميزان من الموازين، أو في معبد من المعابد إلا ويعد خطأً في حساب آخر، وفي موازين ومعابد أخرى، أو تحت ظروف مختلفة لاختلاف الحسابات والمصالح والهموم والجهات والأحاسيس والتاريخ، وللاختلاف في قوة الرؤية وضعفها، وتحت حسابات أخرى كثيرة.

إن الخطأ والصواب يكثران ويتعددان ويتناقضان بقدر ما يكثر الناس والشعوب والهيئات، وبقدر ما تتناقض مصالحهم وأهواؤهم وظروفهم. وأعظم الفواجع التي تحدث لنا أكبر الآلام والأحزان والنكبات تحدث لآخرين في غير مكاننا أكبر اللذات والمكاسب، والحفار وصانع الأكفان يجدان في دموعنا مسراتهما ونجاحهما. وتجار الحروب والمغامرات والآلام، وكذا المنتصرون في الحروب والمضاربات، يظفرون بلذات وفوائد يصيب الآخرين نقيضها. ويختلف حكمنا على الأشياء بالخطأ والصواب بقدر ما يختلف إحساسنا نحو الأشياء ومواقفنا منها.

إن الصواب هو اللذة أو احتمال اللذة، والخطأ هو الألم واحتمالات الألم. فالصواب والخطأ إذن متداخلان تداخلاً يجعل التمييز بينهما مستحيلاً، إنهما ليسا شيئين يميز بينهما بل هما شيء واحد ننظر إليه بأحاسيس مختلفة وعلى أبعاد وبمقاييس مختلفة. إن الخطأ والصواب متعددان لأننا نحن متعددون، لا لأنهما متعددان، فأنا اليوم غيري بالأمس، وأنا غداً غيري اليوم والأمس.

لهذا فصواب الأمس خطأ اليوم وخطأ غداً، والعكس صادق.

إن التمثال الذي نقيمه في ميدان عام لزعيم من الزعماء ليفقأ عيوننا كلما نظرنا ليصنع لنا أشتات المشاعر والآراء المختلفة المتناقضة، فقد نرى فيه سرقة ووثنية وإهانة لكرامة المجتمع ووقار التاريخ، وقد نرى فيه أيضاً كذباً منحوتاً له تمثال أو مصوراً على جسد تمثال، وبصاقاً على الطريق العام وعلى وجوه المارة، وتشويهاً للرؤية، وإغلاقاً لجزء من الفضاء، وعبئاً ثقيلاً فوق المدينة، وتحدياً لفقر الفقراء وللذين لا يجدون بيوتاً، وتسخيراً للفن في تأليه أعداء الفن وتأليه من وجودهم لعنة لكل الفنون.

قد نرى في تماثيل الزعماء تذكيراً دائماً للإنسان بأنه صانع أوثان وعابد أوثان، وأنه لا يعبد الصنم حياً فقط بل ويعبده ميتاً، وأنه لا يعبده فقط بل ويدفع ثمنه وثمن عبادته له.

وأيهما أكبر دلالة على ذكاء الإنسان وجوعه العقلي والأخلاقي: إقامة المعابد للأرباب أم التماثيل للزعماء والطغاة؟

هل القصد من إقامة المعابد والتماثيل تكريم الأرباب والأبطال أم تطويع الجماهير وتعليمها العبادة والإيمان بالقوة؟

ومن جهة مقابلة قد يرى آخرون ـ ومنهم المستفيدون أو الذين يرجون أن يستفيدوا ـ في إقامة التماثيل رأياً مناقضاً لهذا الرأي مع أن العمل واحد في أسلوبه وصورته وخسائره ودلالاته.

وكما يختلف الناس في التقدير للقيمة الموجودة في نصب التماثيل للزعماء والأبطال فإنهم كذلك يختلفون في قيمة هؤلاء الزعماء والأبطال حكاماً وقادة، فقد يرى فيهم قوم منقذين ومعلمين، وقد يرى فيهم آخرون قتلة ولصوصاً ومخربين وأعباء على الحياة وأعداء للسلام وللصداقة بين البشر ومشوهين لذكاء الإنسان ولكل أساليب حياته. قد يرى قوم في الزعماء والأبطال والقادة أنهم في أحسن حالاتهم ليسوا أكثر من إيجاد المشكلة والألم ثم محاولة التداوي منهما!

إن الحياة ليس فيها صواب يعيش بلا خطأ، ولا خطأ يعيش بلا صواب، وصورة الحياة الكاملة هي الاجتماع والصداقة بين ما نراه خطأ وما نراه صواباً. إن بين ما نعده صواباً وما نعده خطأ امتزاجاً وتلاحماً يجعل التفريق بينهما شيئاً فوق القدرة بل ضد المصلحة والذكاء. فأي الأشياء والآراء نأخذ وأيها نرفض، أو أيها ننكر وأيها نرضى ونمنع الاختلاف عليه أو فيه؟ إنه ليس أحد الأمرين ـ أي الصواب والخطأ ـ هو الذي يكمل صورة الحياة ويصنع جمالها دون الآخر.

فالذين يريدون الصواب دون الخطأ إنما يريدون شيئاً لا وجود له أو شيئاً لا جمال ولا ألوان فيه، إذ لا شيء في هذه الحياة يحدث أثراً واحداً، لا شيء في هذا الكون له بعد واحد، كما لا بهجة للحياة بلا أبعاد وصور مختلفة.

والذين ينشدون الحياة المصيبة دون الحياة المخطئة هم قوم ينشدون البكاء والحزن ويرفضون الضحك والسرور، أو يطلبون أشياء لها جهة واحدة أو بعد واحد وليس لها جهات وأبعاد متعددة مختلفة.

إن الصواب فقط أو البعد الواحد فقط ليس طوراً من أطوار الحياة أو الوجود أو الأخلاق أو المنطق.

إنه مستحيل أن ننظر بكل قدرتنا على النظر دون أن تختلف المناظر، كذلك يستحيل أن نوجد من الصواب ونعيش به دون الخطأ، أو من الخطأ ونعيش به دون الصواب، أو أن يكون لنا إحساس واحد نحو كل الأشياء كل حياتنا، أو أن تختلف المناظر ثم لا تختلف الرؤية، أو أن تختلف الرؤية ثم لا تختلف المشاعر، أو أن تختلف المشاعر ثم لا تختلف الأفكار.

إن الذين ينظرون بعيونهم المجردة، والذين ينظرون بالأجهزة المقربة والمكبرة لا بد أن يختلفوا فيما يرون وفي طاقة الرؤية فيهم، فهل يكون أحد الفريقين مخطئاً والآخر مصيباً، ومن المخطىء ومن المصيب؟ وهل يكون اختلاف أحدهما على الآخر ذنباً أو غباء أو خروجاً على الآلهة والمذاهب الصحيحة؟ وهل نحكم لأصحاب المدى القريب والرؤية الكبيرة على أصحاب المدى البعيد والرؤية الدقيقة، أو نطلب منهم أن يتفقوا في مشاعرهم ومناظرهم ومشاهداتهم؟ وهل نحرم عليهم أن يختلفوا ونعاقبهم إذا اختلفوا؟

إن ظروفنا واحتياجاتنا ومصالحنا الحقيقية أو المرجوة هي أجهزة نظرنا المقربة والمكبرة وعيوننا التي نرى بها الأشياء.

إننا لا نرى الأشياء بأحجام أو بألوان الأشياء بل نراها بألوان وأحجام مشاعرنا نحوها وبألوان وأحجام عيوننا.

إن أحكامنا على الأشياء ورؤيتنا العقلية لها هي دائماً هبة أعصابنا وظروفنا وتأريخنا ومنافعنا، وهل يمكن أن تجعلنا هذه نقرأ الأشياء أو نراها قراءة أو رؤية واحدة، أو نحس بها إحساساً واحداً، أو نحكم عليها حكماً واحداً تحت كل الطقوس، وفوق كل النجوم، ومع كل التوترات؟

إن لنا أعصاباً وظروفاً وتاريخاً وتقاليد ورغبة في الجبن والطاعة والهوان، وإن الآخرين مثل ذلك، فكيف أو بأي منطق أو أخلاق نقبل أنفسنا أو نفرض أنفسنا حكماً أو حكاماً على الآخرين، ثم لا نقبل الآخرين حكماً أو حكاماً علينا؟

كيف نؤمن بقيمة وذكاء أعصابنا وتاريخنا وظروفنا وتقاليدنا ومصالحنا وبمنطق جبننا وهواننا، ولا نؤمن بقيمة أو بذكاء أو بمنطق ذلك في الآخرين؟ كيف نقبل ألوهية أعصابنا ومستوياتنا العقلية والأخلاقية والتاريخية ثم لا نقبل ألوهية ذلك عند الآخرين؟ وإذا كنا نعبد مستوياتنا، نعبد نقائصنا ومذاهبنا ومعلمينا وهمومنا التي وجدناها في البيوت التي ولدنا فيها فلماذا لا نرى لجيراننا أو لأعدائنا مثل هذا الحق؟ هل هذه طفولة أم هي الرجولة في كل مستوياتها وأعلى مستوياتها؟

إن الذين يصرون على أن تكون أفكارهم ومذاهبهم هي الحدود العالمية للمذاهب والأفكار هم كالذين يصرون على أن تكون ذواتهم هي الحدود الكونية للذوات.

وكما أن الله ليس موجوداً ـ كإبداع ـ في جسمك أكثر مما هو موجود في أجسام مخالفيك، كذلك ليس موجوداً ـ كصواب ـ في عقلك أكثر مما هو موجود في عقول المخالفين. وكما أنك لا تستطيع أن ترى الشمس وأن تعشقها أكثر مما يراها ويعشقها جيرانك المخالفون لك في الدين أو المذهب أو الشعارات، كذلك لا تستطيع أن ترى أكثر أو أفضل منهم الصواب والذكاء الموجودين في نظامها الذي قد تظن أنه ـ أي نظام الشمس ـ ليس إلا هتافاً وشهادة لمذهبك أو نظامك أو لأربابك.

وهل في الناس من قد يزعمون أن الكون كله ليس إلا تفسيراً لمزايا مذاهبهم وحياتهم؟ نعم يوجد أولئك كما يوجد من يدعون أن مذاهبهم ونظمهم ليست إلا تفاسير لنبل الكون وذكائه وقانونيته!

*

ومع أن الاختلاف والتعدد الإنساني هما التعبير الأعلى عن الحضارة، أو مع أنه لا يمكن أن تكون حضارة دون اختلاف وتعدد إنساني فإن الاختلاف على النصوص وفي تفاسيرها والتعدد في هذه النصوص وهذه التفاسير لا يطمعان في هذا الشرف، بل هما تعدد واختلاف يؤديان إلى العقم والبلادة والنضال ضد الحياة والذكاء، وهما يعنيان البداوة في أضعف مستوياتها. إن الخلاف على النصوص وفي تفسيرها خلاف لا يمكن أن يكون له حاصل إنساني أو حضاري، كما لا يمكن علاجه أو حسمه أو تمدينه.

الخلاف على النصوص وفيها ليس في الحقيقة خلافاً، ليس خلافاً عقلياً أو إنسانياً، وإنما هو تعدد في العبودية والأوثان والخصومات العقيمة.

معنى الخلاف على النصوص أن قوماً قد ماتوا كانوا مختلفين تحت الخضوع لظروفهم وشهواتهم ومستوياتهم، فجاء قوم ليسوا مختلفين هذا الاختلاف لأسبابه المذكورة فاختلفوا اتباعاً لأولئك الموتى الذين كانوا مختلفين لأسبابهم.

ولكن هل يمكن أن يختلف الناس بسبب النصوص أو على النصوص أو بأي سبب آخر ما لم تحتم عليهم ظروفهم أن يختلفوا أو ما لم تأذن لهم بالاختلاف؟ نعم، إنهم قد يختلفون بالنقل والوراثة والاستمرار والتتابع كما قد يظلون محافظين على الأزياء أو البيوت التي انتقلت إليهم بقانون الاستمرار. غير أن الاختلاف لن يكون فعالاً أو مجدياً بدون أسبابه.

أما الوجه الأول وهو أن الاختلاف على النصوص وفي تفسيرها يؤدي إلى البلادة والعقم فهذا لأن المشغولين بالنصوص وبالبحث عن تفاسيرها بكل اهتماماتهم وحماسهم تظل أفكارهم في خمول بل في عبودية وتمزق، بل هؤلاء تتشوه أفكارهم، إن عقولهم في بلادة وعبودية ذاتيتين ودائمتين.

إن نشاطهم الفكري يضيع كله في الفرار من التفكير ومواجهة أسبابه.

ليس الذين يشغلون بالدفاع عن النصوص وبالبحث عن التفاسير لها إلا قوماً هاربين من التفكير، وهم يعانون عملية هدم لا بناء فيها، يعانون عملية احتراق باهظة، إنهم كالذين يحتلون أو يمارسون العادة السرية بحثاً عن الأبناء، أو في أسلوب من يبحثون عن الأبناء، أو تعويضاً عن ذلك.

وأما الوجه الآخر وهو أن مثل هذا الاختلاف لا يمكن حسمه ولا ترويضه ولا الشفاء منه فسببه ما تقدم.

وأما دليله فهو أن هؤلاء المحتكمين إلى هذه النصوص المختلفة المتناقضة في ألفاظها وشروحها لم يستطيعوا أن يتفقوا على قضية من قضاياهم التي حكموا النصوص فيها، ثم لم يستطيعوا أن يروضوا هذا الخلاف أو أن يهذبوه أو أن يقاربوا بين أطرافه المتباعدة في كل تاريخهم، ولم تستطع الظروف ولا الضرورات القديمة أو الحديثة، ولا كل أساليب الحضارة والعلم أن ترقق من وحشية هذا الخلاف أو تخفض من جناحه أو تضعف من طبيعة النفور والكبرياء والتعصب فيه. وإذا تلاقى هؤلاء النصوصيون المختلفون أو تقاربوا أو صافح بعضهم بعضاً دون لعنات متبادلة مرفوعة إلى السماء فالمعنى أنهم قد ابتعدوا بقدر ذلك عن الإيمان بنصوصهم أو الاحترام لها، وليس المعنى أنهم قد تلاقوا على فهمها وتفسيرها أو تقاربوا.

إن تسامح المؤمن لا يعني إلا معنى واحداً هو أن إيمانه قد أصابه الوهن.

ليس الاختلاف على النصوص هو الاختلاف المبدع، ولا هو التعدد الذي يوجد حيث يوجد الرقي والحياة القوية المعقدة، إن ذلك هو الاختلاف الفكري والتعدد الذاتي الذي يعني المعاناة. أما اختلاف النصوص أو تعددها أو الاختلاف والتعدد في تفسيرها فهذا ليس إلا اختلافاً أو تعدداً لفظياً أو تاريخياً ليس فيه معاناة أو تجربة، إنه ليس اختلافاً على ممارسة الحياة بل اختلاف على أي القبور أقدم أو أكبر أو أكثر قداسة واتباعاً وزواراً ووحشية وافتراساً للذكاء الإنساني.

ولعل أغلب الاختلافات بين البشر حتى الاختلافات غير الدينية ليست إلا اختلافات على القبور، ليس في البشر من يستطيعون أن يحيوا كل حياتهم ـ ولو لحظة واحدة ـ خارج القبور. إن أكبر مراكز القيادات الفكرية والعدوانية والمذهبية للبشر وأقواها موجودة في المقابر، حتى أشد الناس لعناً للمقابر وثورة عليها هم محكومون بها في بعض حياتهم كل زمانهم أو في بعض زمانهم كل حياتهم.

إن القبور هي أضخم القوى المعادية المحاربة للإنسان.

ما أكثر الطغاة والقتلة الذين يدبرون أعمال القتل والطغيان من داخل قبورهم!

*

أنت كأي إنسان لست مساوياً في وجودك المادي أو في ظروف وجودك المادي لوجود الآخرين المادي أو لظروف وجودهم المادي، إنك لست نقلاً عن أية ذات ولا تقليداً لأي وجود ولا تكراراً لأية ظروف، إذن مفروض حتماً أن يكون وجودك الفكري والروحي ليس مساوياً لأي وجود فكري أو روحي آخر، فإذا جاء إنسان ما مساوياً في إيمانه ورؤيته لغيره كان ذلك يعني أنه قد تنازل عن وجوده ليصبح مجرد رواية ناقلة عن وجود آخر.

والبشر مضطرون أو هكذا ظنوا أنهم مضطرون إلى أن يجعلوا لأنفسهم صيغاً موحدة أو شبه موحدة سابقة ليصبوا فيها جميع الوجودات الأخرى، لكي يتحولوا إلى نقل ورواية، تنقل أو تروي ملايين الذوات نقلاً أو رواية عن ذات واحدة سابقة أو عن مجموعة من الذوات السابقة، لتصبح المجتمعات أساليب من النسخ والتسجيل المتكرر المحفوظ.

إن البشر يريدون أن يروا أنفسهم كالآخرين، وأن يروا الآخرين مثلهم تكويناً، وهم يرهبون أن يكونوا وحدهم في الصورة.

قد يرهب الإنسان أن يكون جواداً بين الحمير، أو صقراً بين الغربان، أو حقيقة بين الأوهام، أو صدقاً بين الأكاذيب، أو نظافة بين العفونات!

ومع أن البشر في كل المجتمعات والعصور كانوا ينسخون نسخاً عن نسخ محفوظة سابقة فقد كان الخروج على الأصل يحدث دائماً بقانون هو أقوى من كل قوانين الضبط والنسخ والتكرار، والمفروض أو المحتوم أن يخالف الإنسان نفسه ويخرج أو يتفوق عليها. ليس في البشر من يمكن أن يخضع دائماً لنفسه وأن يلتزم بحدود دائمة لها، وليس خروج الإنسان على الآخرين وتجاوزه لهم بأكثر من خروجه على نفسه وتجاوزه لها ورفضه إياها.

إن الإنسان لا يمكن أن يبقى كل حياته يوماً واحداً متكرراً، ولا أن يكون كل حياته قراءة واحدة أو نصاً واحداً لا يتغير، إنه لا يوجد لأية ذات حدود دائمة ولا حدود محروسة.

إن رفع الخلاف ـ لو كان ممكناً ـ هو أعظم عقاب وغباء وتشويه يصيب البشر، إن ذلك ـ لو كان ممكناً ـ لا يعني إلا منع التغير والتقدم.

إن اختلافنا في بصمات أصابعنا، ووزن أجسامنا، ومقاييس أبعادها وفي قوة الرؤية والسمع، وضعفهما لا يعني أن نتقاتل، أو نتشاتم، أو نتعادى، فكذلك اختلافنا في العقول، والظروف، والتاريخ، والاستجابات الذاتية الذي يعني أننا لا بد أن نختلف في تحديد صفات أوثاننا، وفي

أساليب صلواتنا وفي اختيارنا لحماقاتنا السماوية والمذهبية ـ لا يعني أو لا ينبغي أن يعني أن نتقاتل أو نتباغض، أو نتعادى.

إن الذي يقاتلك أو يكرهك، لأن مذهبك أو إلهك ليس على مقاسات مذهبه وإلهه كالذي يقاتلك أو يكرهك لأن مقاسات جسمك ليست على مقاسات جسمه.

وتوجد قصة مثيرة، وقد تكون غريبة جداً في تقدير كثير من الناس، وقد تروى للتدليل على قيمة الاختلاف، وعلى ما له من معنى في منطق الإله وسلوكه، أو في سلوك الطبيعة ومنطقها، أو في تفسير المفسرين للإله والطبيعة.

روى الراوون أو تخيل القصاصون أن أبا لهب ـ ذلك الشريف القرشي الذي رفض الإيمان بالنبي فهجاه القرآن هو وزوجته في السورة المشهورة ـ استطاع بعد أن مات بأسلوب من أساليب التسلل أن يلقى الله وأن يدخل معه أو ضده في حوار، فيه كل الإثارة والغرابة والقوة والجسارة في مكان تموت فيه كل الجسارات وتصمت كل الكلمات ويهون فيه كل العقل والشموخ. وقد جرى الحوار بينهما خاطفاً عاصفاً منتصراً منهزماً، كمعركة كونية رهيبة تقع بين الشمس والأرض.

قال أبو لهب لعنه الله:

يا إلهي لماذا اخترت محمداً نبياً ولم تخترني أنا نبياً، ولست أفهم أن في هذا نقضاً لحكمتك، أو استعلاء على قدرتك؟ فرد الله قائلاً:

لقد اخترت محمداً لأن فيه مزايا ليست فيك، قال أبو لهب:

لقد أجبت بما كنت أرجو وأتوقع أن تجيب به، إذن لقد وقعت أيها الإله العظيم في المأزق الذي أردته لك أو أردته أنت لنفسك. فمن الذي أعطى محمداً تلك المزايا التي جعلت منها أيها الكائن العادل سبباً لاختياره؟ أليس الذي أعطاه إياها هو أنت يا إلهي الكبير؟

إذن لقد أعطيت محمداً مزية، ثم جزيته عليها بالنبوة، ثم جزيته على النبوة بأن فضلته على العالمين، أما أنا فقد حرمتني من تلك المزية ثم عاقبتني على حرمانك لي بحرمان آخر، أي بأن منعت عني النبوة، وجعلتني كافراً، ثم جعلتني من أهل النار.

إذن لقد حابيت محمداً محاباة مبتدئة بلا سبب سابق، ثم جزيته على هذه المحاباة بمحاباة ثانية ثم ثالثة، أما أنا فقد ظلمتني مبتدئاً بلا ذنب أو استحقاق سابق، لأن البدء هو أنت دائماً، ثم جازيتني على ظلمك لي الأول بظلم ثان وثالث ـ إنك بهذا تعاقبني بما فعلت أنت، وتثيب محمداً بما فعلت أنت أيضاً. وقد كان ممكناً أن تفعل العكس يا إلهي، نعم كان ممكناً ـ وهذا لن يخفى عليك ـ أن تفعل لي ما فعلته له، وتفعل له أو به ما فعلته لي أو بي. وأي السلوكين

حينئذٍ هو العدل والذكاء، وأيهما هو الظلم والغباء؟ إن ها هنا ورطة محتومة لا يمكن الخروج منها، إن التفريق بيني وبينه في اختيارك وتصرفك شيء لا يمكن أن يكون معقولاً أو عادلاً ما دام البدء هو أنت دائماً. إنه محتوم عليك أن تفرق وتفاضل بين الأشياء المتساوية بلا أي سبب في نفس الأشياء، إن السبب هو أنت، فلماذا؟

أيها الإله لقد حابيت محمداً ثلاث مرات لتتحول إلى محاباة له دائمة، وظلمتني ثلاث مرات لتتحول إلى ظلم لي دائم - جزيته على المحاباة البادئة بتكرار المحاباة، وجزيتني على الظلم البادىء بتكرار الظلم، فأي شيء هذا أيها الرب العظيم؟ أريد أن أشكرك أو أحاكمك إلى منطقك أو إلى أخلاقك أو إلى ملائكتك أو إلى البشر أنفسهم، لدى أية محكمة من محاكمهم أو قانون من قوانينهم. إن اختيار محمد لهذه المحاباة المبتدئة ظلم بقدر ما اختياري لهذا الظلم المبتدىء ظلم.

ولو أنك وضعت قلبك علي منذ البداية ووضعت بغضك على محمد منذ البداية لكان شيئاً معقولاً بقدر ما كان العكس معقولاً، إنك لن تستطيع أن تكون معقولاً إلا بعمل ما به تكون غير معقول. وهذه ورطة لا بد أن يقع لي فيها كل الخالقين للأشياء من بدايتها، المستقلين بخلقها.

تقول القصة:

وهنا ازداد صوت أبي لهب وحماسه ارتفاعاً وفحيحاً وحشرجة صاعقة، بينما غمرت الإله الابتسامات التي فيها كل تعبيرات الشعور بالاقتناع والتواضع والاستحسان والحرج الباحث عن أي أسلوب من أساليب الاستغفار والتراجع الزاخر بالحياء الطيب النبيل. وقد قال بعد الإفاقة من الصدمة الهائلة بلغة فيها من النبل ما جعل الشموس ترتجف رهبة وحباً وحياء، وفي بعض الروايات أن الدموع هنا قد تسللت من قلبه إلى عينيه إلى خديه حتى لقد شعر أبو لهب بالرثاء والإشفاق على خصمه، وبأنه قد قسا عليه كثيراً:

اسمع يا بني، اسمع يا أبا لهب:

لقد صنعتك وصنعت محمداً وصنعت مبتدئاً فضائلكما ورذائلكما بلا أي سبب منكما أو فيكما، وقد صنعتكما مختلفين لأن الاختلاف غرض من أغراضي وتدبير من تدابيري وضرورة من ضروراتي، فالاختلاف بينكما ليس عقوبة لأحدكما، وتفضيلاً للآخر. لقد خلقت الجنة والنار والحقول المثمرة والصحارى والنهر والبركان والأسد والفأرة، فهل أثيب هذا لأني خلقته أفضل وأعاقب ذاك لأني خلقته أسوأ أو أقل؟ بل العدل والمنطق أن أفعل العكس، فالذي خلقته أقل مزايا يستحق عطفي وجزائي أكثر من الذي خلقته أفضل أو أقوى أو أعظم مزايا لأني قد ضحيت به وقبل التضحية بفدائية صابرة.

فأنت إذن يا أبا لهب جدير بأن تنال من الثواب والإعجاب لدي أكثر مما يجب أن ينال محمد، لأن حكمتي قد ضحت بك واختارت أن تجعل منك فدائياً يتعذب لكي يكون عذابه متمماً لمنطقي في هذا الكون، وواهباً لي سروري وشهواتي. ولو أني عاقبت بعض مخلوقاتي أو فضلت بعضها على بعض في الثواب أو الحب لكنت معاقباً لنفسي ومفضلاً بعضها على بعض، لو أني عاقبت إبليس أو أعطيت محمداً أو موسى من الأجر ما لم أعط أو أكثر مما أعطي فرعون أو أبا لهب الذي هو أنت لكنت بذلك معاقباً لبعض ذاتي بالعدوان على مخلوقاتي ومفضلاً لبعض منطقي وحكمتي على بعض، ومحولاً هذا العقاب والتفضيل إلى عقاب وتفضيل لبعض الناس وإلى تحقير للآخرين.

أي أبا لهب، أيها الصديق:

إني لن أعذب أحداً لأني جعلته مختلفاً عن الآخرين أو مخالفاً لهم، كما إني لن أعذب القمر لأني جعلته مختلفاً عن الشمس، أو أعذب الذباب لأني خلقته مخالفاً للإنسان، أو أعذب الصرصار لأني أردت أن يكون أصغر من الفيل، أو أعذب صفاتي لأن بعضها جاء أقوى أو أفضل من بعض، كما اني لن أعذبك لأني لم أهبك المزايا التي حابيت بها محمداً، بل لن أسوي بينكما في المكان عندي، بل سيكون مكانك أعلى وأجمل لأنك قد تعذبت وظلمت في سبيلي، في سبيل تحقيقي لذاتي، فمن العدل أن تنال التعويض.

أما محمد فلم يتعذب عذابك في سبيلي، بل لقد نال المجد والتفضيل بلا سبب منه أو فيه، بل بإرادتي التي لا سبب لها غير إرادتي.

إني أريد لأني أريد، لا لأن ما أريد أفضل مما لا أريد. وكيف يمكن أن يكون شيء أفضل من أي شيء مع أني أنا الكائن قبل كل شيء؟ فالكينونة كلها مني وبعدي، بل وأنا الذي أختار أن يكون شيء أفضل من شيء. إن العدل ألا يكون محمد مساوياً لك في مكانة المكان في دار الجزاء، ليس من العدل أن يكون مكان من ضحي به مثل مكان من ضحي بالآخرين من أجله، أو من جعل الآخرون وجعل شقاؤهم وقوداً لمجده، وحسابات في شهرته، وصلوات على قبره.

إذن أيها الصديق، أي أبا لهب:

اذهب وابحث لك عن مكان في ملكوتي أعلى من مكان محمد ـ أيها الصديق، أيها الفدائي العظيم في سبيل إرادتي التي لا أعرف كيف تفرض نفسها علي، وكيف تعذبني وتتحول إلى تعبيرات على الآخرين لا أدري كيف تتحول، وبأي منطق تتحول، وعلى أي قياس تفعل ذلك.

قالت القصة:

وهنا ضجت الملائكة قائلين: كلا، كلا أيها الرب الطيب، إن هذا سيغري بالفساد ويجعل الناس يرفضون الإيمان والاستقامة، إذ لا شيء حينئذٍ يخافونه أو يرجونه بالاستقامة والإيمان.

فرد الله عليهم قائلاً ـ وكأنه يفشي سره لأول مرة في التاريخ:

أي ملائكتي ومستشاري عرشي الطيبين، وهل الناس يؤمنون أو يفعلون الفضيلة خوفاً من العذاب أو بحثاً عن الثواب ـ أو هل يكفرون أو يفسقون رفضاً للثواب أو جهلاً أو إنكاراً للإيمان به؟ إن الناس يفعلون هذا أو هذا بحثاً عن التلاؤم مع أنفسهم ومع ظروفهم، وخضوعاً لظروفهم.

إن الإيمان بالعقاب والثواب لن يصنع الناس، وإن إنكار الثواب والعقاب لن يهدم الناس، إن الناس يفعلون الشيء أو نقيضه كما يحبون ويبغضون، إن تصرفاتهم ضرورات أو استجابات ذاتية.

*

وينبغي ألا ينزعج المؤمنون من الدخول في حوار ضد الإله أو مع الإله مهما كان أليماً أو رهيباً، فالحوار ضد سلوك الإله ومنطقه مشروع.

إن أول من مارسه هم أول من خلق من الكائنات العاقلة وأقربها إليه وأكثرها معرفة وحظوة عنده ـ أولئك هم الملائكة وإبليس. وكان موضوع محاورتهم آدم، فالملائكة قالوا ـ رافضين لمنطق الإله وسلوكه وإرادته ـ :

﴿أتجعل فيها ـ أي في الأرض ـ من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾. وهذا أقوى حوار ضد الإله يصوغه ويوجهه إليه مؤمن، بل أكبر وأفضل مؤمن يعيش معه. أما إبليس ـ وهو من الملائكة أو سيدهم أو كان معهم ـ فقد رفض حكمة الإله وأمره القاضيين بالسجود لآدم، ورأى في ذلك خطأً يوجب الاعتراض عليه ومجادلته وإعلان العصيان العقلي له بأسلوب عالمي. ولم ير الله أن يخفي هذا العصيان العقلي عن الناس، بل لقد حوله إلى منشور دائم تقرؤه كل الأجيال في كل العصور، وتصلي به في عباداتها.

وكأن الإله قد أراد أن يعبر أقوى تعبير عن إعجابه بحوار الملائكة وإبليس ضده ومعه، ذلك بأن وهبهم ـ أي الملائكة وإبليس ـ الخلود، وزاد إبليس تكريماً لأنه كان أقوى حواراً ضده فجعله منتصراً عليه وأكثر منه اتباعاً!

لقد أراد أن يكافئه أكثر لأنه قد حاوره بأسلوب أعنف!

ومن المحتوم أن يمل الله الامتداح المنافق الدائم، وأن يسعد بالحوار ضده، ولعل الذين يمارسون هذا الحوار هم أقرب إلى قلبه من جميع الراكعين بأعضائهم وأفكارهم تحت قدميه.

ليست جميع الأشياء إلا حواراً مستمراً ضد السلوك الآلهي، فكل العبث والآلام والمظالم والأخطاء والتفاهات التي يعيشها كل شيء حوار مستمر ضد هذا السلوك ولكن بلغة أخرى غير لغات الإنسان!

إن المريض والبليد والتافه والظالم والمظلوم هم أكثر حواراً ضد منطق الإله وأخلاقه من جيمع الزنادقة، بل أكثر حواراً ومعارضة للإله من إبليس الذي رفض السجود حينما أمره الله به!

وهل يمكن أن يكون الواقف فوق أعلى منبر في العالم يعلم ضد الله أكثر هجاء له من طفل مقعد يرى الأطفال يتقافزون أمامه فيصعد بقلبه ونظراته إلى السماء وإلى أبويه. لماذا أنا وحدي، دون أن يجد جواباً!

إني لو كنت إلهاً لوجدت في الأعمى الذي يحاول أن يبصر طريقه بعصاه احتجاجاً علي أقوى وأقسى من أن تتجمع كل لغات العالم وبلاغاته وأفكاره لتتحول إلى احتجاج واحد دائم مركز يصوغه كل ما في التاريخ والكون من غضب ضدي!

وإذا كانت الطبيعة مكان الله فإن كل ما فيها من جمال يتحول إلى دمامة وهجاء حينما تعرض شيخاً متهدماً لا يستطيع أن يعيش، ولكنه يرفض أن يموت، أو برغوثاً يموت من الجوع والوحدة لأن الإنسان يرفض أن يطعمه من دمه، أو يؤويه إلى فراشه، والطبيعة لم تدبر له غذاءه وسكنه قبل أن تخلقه.

إن عواء الحيوان ألماً لهو أقوى حوار ضد الطبيعة أو ضد الإله، وإن مثل هذا العواء ليسخر من جميع الصلوات في جميع المحاريب، ومن جميع الشعر والموسيقى في تمجيد الطبيعة!

*

العالم يشك والجاهل يستيقن

«أتمنى على الهيئات الدولية أن تقوم بعمليات تشكيك شاملة على مستوى عالمي، تعلم الناس كل الناس بكل الوسائل أن يشكوا في يقينهم، في يقين كل فريق بأن ما عنده من الآلهة والمذاهب والعقائد والنظم والتفاهات هو الأفضل والأصدق.

وأتمنى كذلك أن توجد في كل المجتمعات عمليات تشكيك من هذا النوع.

إن هذا التشكيك على المستوى الدولي أو المحلي أسلوب من أساليب الدعوة إلى السلام والحب العالمي وخلق ظروفهما، وأسلوب من أساليب مقاومة البغضاء والتعصب والحروب.

لست أجد فضيلة إنسانية أروع من أن يرفض أي إنسان الاقتناع بأن دينه، أو مذهبه، أو إلهه، أو وطنه، أو رأيه، أو موقفه، أو زعيمه، أفضل، أو أصدق، من دين عدوه، أو من إلهه، أو من وطنه، أو من رأيه، أو من موقفه، أو من زعيمه.

الشك هو أن تصرخ بكل صوتك، بكل حزنك وغضبك، احتجاجاً على كل ما تراه وتعمله وتمارسه، لأن فيه دمامة أو تفاهة أو ألماً أو ظلماً أو موتاً أو عبثاً أو خوفاً أو نفاقاً».

*

أنت تواجه وتمارس عالماً يناقضك ويؤلمك ويتحداك، ويكون غير ما تريد وتتوقع وتلقن، وأنت لا تستطيع مفارقته أو التلاؤم معه كما تشتهي، ولا تستطيع كذلك أن تصمت عن رؤيته أو قراءته أو الإحساس به أو التعذب بذنوبه. إذن أنت محكوم عليك بأن تشك، بأن تشك فيما تمارس وترى، وبأن تشك أيضاً فيما لا تمارس ولا ترى لأنك تشك فيما ترى وتمارس.

أما إذا لم تشك فأنت معجزة في قدرتك على الصمت عن الحديث مع نفسك ومع الأشياء التي تمارسها وتمارسك، ومع الآخرين الذين يكذبونك والذين تكذبهم.

أنت تشك، إذن أنت حتماً إنسان، وأنت لا تشك إذن قد تكون إنساناً. فالذي يشك هو

حتماً إنسان، أما الذي لا يشك فقد يكون إنساناً، قد يكون إنساناً تخرق عينيه الأرباب دون أن يراها أو يتحدث مع نفسه ضدها.

إنه مستحيل أن تقرأ الأشياء والناس أو تراها وتراهم ثم لا تشك، ولكن هل تستطيع أن تتعامل مع الأشياء والناس دون أن تقرأها وتقرأهم وتراها وتراهم، على أي مستوى من مستويات القراءة والرؤية؟ إن الشك هو الرؤية والقراءة ثم الحديث مع النفس ثم مع الآخرين عن هذه الرؤية وهذه القراءة.

فالذين لا يشكون هم الذين لا يرون، ولا يقرؤون، ولا يتحدثون مع أنفسهم ولا مع الآخرين.

هل الشك مستوى إنساني أم حالة إنسانية، وهل هو مستوى وحالة فرد أم مستوى وحالة جماعة أو مجتمع؟

إن كائناً ما غير الإنسان لا يمكن أن يشك، وإنه لشيء مثير أن يوجد شاك أو شكاك في المجتمعات المختلفة أو المغلقة، إن جميع ما لدى أمثال هذه المجتمعات من عقائد وآلهة وقبور ونقائص وتفاهات وآلام يتحول إلى نوع من الأزياء العقلية والتاريخية والأخلاقية التي يخضعون لها جميعاً كما تخضع الطبيعة لقوانينها، ويتتابعون عليها، كما تتتابع قطع الحجارة المقذوف بها إلى أعماق بئر.

ولعل جميع المجتمعات تجهل الشك ولا تمارسه، ولكن الفرق أنه يوجد في بعض المجتمعات من يشكون ويمارسون شكهم، أما المجتمعات الأخرى فليس فيها من يفعلون ذلك إلا قليلاً وعلى استخفاء ورهبة.

إن المجتمعات المتخلفة والمغلقة أو أغلب المجتمعات تتشابه في صفاتها ومستوياتها النفسية والعقلية، فلا تختلف غالباً في فهمها وتقويمها للعقائد والآلهة والأشياء وفي الرضا عنها والرؤية لها، كما لا تختلف غالباً في خيالها وأمانيها وهمومها، وفي قدرتها على الغضب العقلي مما تواجه وتمارس. إن التفاوت بين آحادها تفاوت ضئيل وغير جريء ولا فعال، بل هم متقاربون في صفاتهم الفكرية تقارباً يجعلهم متفقين في أحكامهم على الأشياء ورؤيتهم لها وتلاؤمهم معها مهما ناقضتهم وآلمتهم.

إنهم يرون جميع الأشياء من بعد واحد، وفي حجم واحد، ولون واحد وهم يمارسونها أو تمارسها دون أن يبصروها أو يسألوها أو يحاسبوها على أي ذنب أو خطأ فيها.

إن عيونهم حفر وليست عيوناً، ولهذا تسقط فيها الأشياء دون أن يستطيعوا رؤيتها.

والتفاوت بين الآحاد لا يوجد أو يكون كبيراً إلا حيث يكون التفاوت بينهم في التفكير والتعبير والمواجهة كبيراً، وهذا لا يكون إلا حيث يكون الشك.

ولكن الشك ليس فقط شكاً عقلياً، إن هناك شكاً آخر، هو شك السلوك والتعبير، أو الشك بالسلوك والتعبير، وهو الخروج على ما هو موجود وكائن ومقدس وتاريخي والتخطي له بالتغيير والتفوق.

إن الذين يتجاوزون ما يجدون من أرباب وعقائد ونظم ومذاهب ومستويات حياة وتاريخ هم أقوى الناس وأفضلهم شكاً وإن لم يمارسوا أي شك فكري، كما أن أضعف الناس شكاً، هم الذين يشكون بأفكارهم دون أن يتجاوزوا شكهم الفكري بالسلوك والتغيير.

الشك عملية نفسية وعقلية وأخلاقية باهظة ومعقدة وصعبة وخطيرة أحياناً.

إن الشك عملية لا يستطيعها أو يتحمل آلامها بكل أعماقها وأحزانها وتحدياتها إلا الإنسان الناظر بكل العيون إلى كل الجهات، المحتج بكل العقول على كل الأخطاء، المتألم بكل الأعصاب على كل الآلام، المفسر لكل الأحداث بكل الاحتمالات، المستمع إلى كل الزعماء من فوق كل المنابر، في كل المواقف، تحت كل الأكاذيب والتناقضات والبذاءات، القارىء لكل الأرباب، بكل اللغات، في كل المخلوقات، بكل العنف والحماس. ولكن هل يوجد من يستطيع كل هذا؟

إن معنى الشك أن تصرخ بكل صوتك، بكل حزنك وغضبك، من كل ما تراه وتعمله وتمارسه. إن الشك لا بد أن يحول طلعة الشمس وبسمة الزهر وجمال الطفولة إلى احتجاج وهجاء للإله الذي يصنع هذا ثم يعاقبه، ويعطيه ثم يسلبه، والذي يخلق الصحة ثم يفسدها بالمرض، والشهوة ثم ينتقم منها بالحرمان والعجز والخطر والخوف!

*

عملية الشك عقاب للإنسان، ولكنها مع ذلك عملية تنمي فكره وتقومه وتزيد في قدرته وفي إجادته لقراءة الكون والإنسان كما تفعل التمرينات الرياضية للبدن، إن الشك أسلوب من أساليب المصارعة والملاكمة ضد الأرباب والكون والناس، وضد المذاهب والعقائد والتاريخ.

إن الإنسان الذي يكون تحت سبب من الأسباب مستسلماً مستيقناً في جميع تعامله وممارسته لأربابه وعقائده وللناس والأشياء لن يستطيع أن يكون إنساناً محارباً في أفكاره أو في إبداعاته أو في تحديه للتفاهات والنقائص والهموم التي سيجدها مفروضة عليه وعلى جيرانه ومجتمعه وعلى آبائه الذين ماتوا تحت آلامهم هاتفين ومصلين لآلهتهم وزعمائهم القساة.

إن في اليقين كل احتمالات الجمود والاستسلام والعجز والطاعة والبلادة العقلية والنفسية ـ

إنه يميت احتمالات الاحتجاج والتفكير والمحاولة والرفض وموهبة الخيال، ولهذا فإن جميع الطغاة والمعلمين والمتعاملين على غباء الإنسان وهوانه يقاومون الشك ويلعنونه، ويحاولون أن يحولوا كل شيء حتى البراكين والزلازل والمجاعات والأوبئة والصراصير إلى منابر وأنبياء وكتب مقدسة تؤكد على مزايا اليقين والمستيقنين. ما أضخم وأقدم وأغلى الأجهزة الدعائية التي يبتكرها ويتقنها وينفق عليها هؤلاء بجنون ووحشية لتعليم اليقين وتحريم الشك.

إن أفضل طاغية مصلح معروف بأعظم مزايا الاستقامة ليشمل بفيض تسامحه أفسق الفساق، وأكثرهم سرقة وفساداً، ثم لا يستطيع أن يتسامح أو يفكر في التسامح مع أزكى وأنبل قديس، إذا كان من الشكاك الداعين إلى الشك في قيمة الألم أو الهوان الذي أصبح جزءاً من النظام الذي يقف فوقه ذلك الطاغية.

كما أن ذلك الطاغية قد يغفر بكل سماحته كل الذنوب والوقاحات والتفاهات التي يأتيها أغبى الأغبياء، إذا كان من دعاة اليقين الذين يرفضون الشك الذي يمارسه الناقدون للطغاة وللحياة التي تتقبل أن تهون وتخون حتى تهب نفسها للطغاة لكي يحاربوها في جميع مستوياتها الإنسانية.

إن جميع الآلهة والأنبياء والمعلمين، وجميع المذاهب والتعاليم الأخلاقية في جميع العصور لم تكن في حساب الذين فرضوا الإيمان بها على رعاياهم إلا أجهزة دعائية للتبشير باليقين والتبشير ضد الشك. إن أي زعيم أو حاكم أو معلم يقف ليثني على الله، ويمجد الإيمان به، أو ليثني على أية عقيدة أو مذهب أو نظام إنما يريد فيما يريد أن يقاوم الشكوك في المجتمع ويدعو إلى اليقين.

فالشك عدو متوحش يخشاه كل الطغاة والزعماء والمعلمين ويناضلون ضده بكل الأجهزة والأسلحة، أما اليقين فهو صديقهم الوديع.

إن اليقين هو الغطاء الذهبي الكثيف الساتر للدمامات.

إننا لو خلطنا كبار الزعماء والحكام والمعلمين وكثيراً ممن يعدون أساتذة وأدباء وكتّاباً ومفكرين ـ إننا لو خلطنا هؤلاء بالجماهير وأبناء السوق الكادحين في المجتمعات المتخلفة، أو في كثير من المجتمعات، ثم حاولنا أن نجد فروقاً بين الفريقين في تفسيرهم للأمور والقضايا الكبرى، وفي قدرتهم على رؤية جمال الإله ورحمته في دمامة الحشرة، وقسوة الأرض، وبذاءة الزعيم، لما وجدنا هذا الفرق، إلا أن يكون فرقاً لغوياً أي فرقاً في التعبير واللغة، فقد يتفوق أولئك في إجادة الكلمات وصياغتها صياغة حضارية وإعرابها إعراباً سياسياً دون أن تستطيع ذلك الجماهير وأبناء السوق الكادحون. إن لغة الفريقين قد تختلف بل هي تختلف حتماً دون أن تختلف الأفكار والرؤية للأشياء، أو يختلف القبول والرفض والذكاء والغباء، كما تختلف

الملابس والأزياء دون أن تختلف الذوات. ليس الفرق بين الزعماء والحكام ومن يعدون أساتذة ومعلمين ومفكرين، وبين الجماهير في كثير من المجتمعات إلا فرقاً في اللغة أو في الملابس، إن أكثر الناس ليتكلموا بأكثر الكلمات تقدماً ليعلنوا عن أكثر المعاني والأفكار تخلفاً.

ما أكثر الزعماء والمعلمين والكتّاب الذين يتحدثون بلغة أرقى الناس ليعبروا عن نفوس وعقول أضعف الناس.

إن إحدى مشاكل اليوم هي أن جميع المستويات الحضارية والإنسانية المختلفة جداً تتحدث بمستوى واحد من مستويات اللغة، ولعلها مشكلة دائمة.

إن الأنبياء والمؤمنين بهم، القادة والرعية في أغلب المجتمعات، لينطلقون من مستوى واحد، ويصاغون في قالب واحد، ويؤمنون بإله واحد، ويفسرونه بمنطق واحد، ويرونه في صورة واحدة ـ إنهم ليؤمنون جميعاً ويكفرون جميعاً، ويمتدحون ويذمون بالاجماع ويبصرون كل الأشياء والألوان والنجوم بلون واحد، وعلى بعد واحد، وفي حجم واحد، ومن مادة واحدة.

والتفكير الذي يفترض أن الحقيقة إما هذا أو هذا، أو هذا وهذا، أو لا هذا ولا هذا، أو هذا وهذا وغيرهما، أو لا حقيقة البتة ـ تفكير متعب وطويل ومعقد. والتفكير المريح والمقبول لدى أكثر الناس هو:

أن الحقيقة إما هذا فقط أو هذا فقط بالحسم والجزم. وليس الشك هو أن نعتقد أو نقول: إن الأمر إما هذا أو هذا ـ إن هذا هو شك المؤمنين والمبتدئين، بل الشك هو أكثر تعقيداً وإطلاقاً وطموحاً وجماحاً من ذلك.

إن الذي يرى الحقيقة محاصرة بين احتمالين، أو إلهين، أو زعيمين أو دينين هو مؤمن ومقيد، وليس شاكاً.

أليس أعظم الزعماء والقادة والمفكرين والوعاظ في هذه المجتمعات يشاركون البسطاء جداً في التخوف من حضارة المتفوقين وأساليبهم في الحرية والحياة، وفي لعنهم مهما اضطروا إلى ممارسة ما عندهم على نحو ما تحت الظروف الملزمة؟

أليسوا جميعاً يحقرون المنطق الإنساني، وينكرون قدرته على أن يكفي نفسه، ويغني عن القبور والنصوص والأصنام المقدسة مهما امتدحوا هذا المنطق بأسلوب الشعراء والواعظين؟ ثم أليسوا جميعاً يتلفتون إلى الوراء حينما يفاخرون بأمجادهم الميتة وبموتهم الخالد الذي لا يموت؟ إنهم جميعاً يقرؤون النجوم ويفهمون الكون والحياة والإنسان والمجتمع فهماً موحداً متساوياً، أو فهماً ليس متباعداً كثيراً؟

إن الله لا يختلف مستواه أو منظره أو رحمته وقسوته وأخلاقيته في رؤيتهم أو في تفكيرهم، لا حينما يرزقهم الأطفال ولا حينما يصيب هؤلاء الأطفال بالأمراض التي لا تشفى.

إن التفاوت بين البشر لا يكون إلا بتفاوت السلوك والقدرة والذات والعقل، وذلك لا يمكن أن يتفاوت من غير الشك. والشك كما تقدم احتجاج فكري على الأشياء، أو تجاوز سلوكي للأشياء. فالذين يؤمنون إيماناً قاطعاً مستيقناً سلوكياً وفكرياً بمسلمات دينية ومذهبية وأخلاقية ووطنية وفلسفية، ثم يستطيعون أن ينفذوا إيمانهم السلوكي والفكري، كيف يمكن أن يتفاوتوا أو يتغير مجتمعهم أو أي شيء فيهم؟

إن أي عبقري ـ من حيث توزيع الطاقة المخزونة في ذاته ـ لن يمتاز على أي إنسان بسيط لو أنه صرف بحيلة من الحيل عن تجاوز ما هو موجود، وعن أن يشك ويناقش ويخالف مسلمات ذلك الإنسان البسيط، مهما اختلفا في مقادير ما يملك كل منهما من الطاقة المخبوءة المقتولة بصولة اليقين، المدفونة تحت ثلوجه.

وهذه الطفولة العقلية المملوءة بالرغبة في تصديق الحشرات والآلام والعبث، وفي تصديق الكون والزعماء والدعاة حينما يتحدثون عن عاهاتهم ويحولونها إلى مذاهب وأديان وأخلاق وآلهة ـ نعم هذه الطفولة إنما تكونت تحت عوامل كثيرة ومعقدة، قد يكون منها التعويد الطويل على الحفظ والرواية عن السلف والتاريخ مع الزجر الدائم المهيب عن الاحتجاج الفكري، كما قد تكون ـ أي هذه الطفولة العقلية مزاجاً ومستوى ذاتياً أو إنسانياً.

والمجتمعات التي تقوم تعاليمها على تحفيظ النصوص والمبالغة في احترامها قد تتعود على الإيمان بالاستماع، وتخمد فيها طاقة النقد والمعارضة، وتتقاصر فيها مغامرات الشك.

ولكن أليس كل الإيمان في كل المجتمعات والتاريخ إنما هو إيمان بالاستماع؟

وقد تكون هذه الطفولة الفكرية استمراراً للطفولة الميلادية، فالأطفال محكوم عليهم بأن يكونوا في حالة تلقٍ وقراءة مصدقة، أي في حالة إيمان واستقبال لما حولهم ولما يسمعون ويؤمرون به، لأنهم في حالة فراغ واستماع فلا بد أن تكون آذانهم هي الجهاز الذي يستقبلون به الدنيا وأن يتعلموا كل لغة يقع التعامل عليها أمامهم غير مقيدين بلغة معينة سابقة أو مميزين بين لغة ولغة ـ إنهم لم يتعلموا بعد كذب العقول ومكرها ولا أكاذيب الدعاة والخطباء والقادة والمتحدثين عن الله، ولا أخطاء اللغات والبلاغة وعجزها، ولم يتعلموا كذلك أن أكثر الكلام أو كله لم يرد به أن يكون تفسيراً لقائله، أو دالاً عليه، بل تضليلاً عنه وإخفاء له، ولا أن جميع الكلام أو أكثره لا يعنى به أي شيء، لا يعنى به هذا المعني ولا نقيضه، ولا يعنى به أن يكون كلاماً على أي تفسير أو مستوى، وأن الآلهة والمذاهب والأخلاق والعقائد لا يمكن أن توجدها أو تصوغها الألفاظ. الضارعة أو الحزينة أو المرتجفة أو الصارخة أو المكررة.

لم يتعلموا أن أكذب الزعماء والمعلمين هم أحياناً أعلاهم صوتاً وأكثرهم توكيداً وفصاحة وقسماً وخطباً وبكاء.

وإن الكلمة البليغة قد تكون أكذب الكلمات وأقلها مستوى أخلاقياً وبلاغياً.

والأطفال بل وأكثر الناس لا يعرفون أن بين الحقيقة والحديث عنها فراغاً هائلاً تعيش فيه كل الزعامات والدعايات والنبوات الكاذبة، وتعيش فيه أيضاً الأحلام النبيلة.

فالطفولة إذن آخذة فقط، وهي كذلك مسلمة مصدقة وليست شاكة، لأن الشك أسلوب من أساليب العطاء، لأنه تصدير شيء ما أي تصدير للرأي والاحتجاج والغضب على شيء ما، والطفولة ليست في حالة عطاء على أي معنى من المعاني. فإذا ظلت جماعة ما سائرة في طريق طفولتها من غير أن تتعلم الخروج عليها والتجاوز لها ظلت طفولة في إيمانها وسلوكها ومذاهبها ومنطقها مهما أصابتها شيخوخة الميلاد والتاريخ.

فهذه المجتمعات المؤمنة الرافضة لكل مستويات الشك هي مجتمعات قد غاصت في قاع طفولتها الميلادية، فلم تستطع أن تطفو فوقها حتى بعدما أرهقتها الشيخوخة!

كم من التفاوت مثلاً بين اينشتاين ـ ذلك العبقري الكوني الذي يتحرك الكون كله في دهاليز مخه وقبضة قوانينه ـ ذلك الإنسان الذي كأنما اعتقل في مجاهل رأسه جميع عبقريات الآلهة.

نعم كم من الفرق بين هذا الإنسان الخارج عن الإنسانية الذي فسر بكلماته القليلة الرهيبة الآلهة العريقة التي كانت تحكم الكون بالمشيئة والهوى، وحولها إلى قوانين رياضية وعلمية عاجزة عن أن تفعل بالحب أو البغض أو المشيئة.

ـ نعم كم من الفرق بين هذا الإنسان الذي هو أينشتاين وبين أحد الجماهير في أحد الشعوب الواثقة بكل الآلهة والدعاة والمتكلمين، وبكل الكلام الذي ظل يرجم ذكاءها وكرامتها، في كل العصور، على كل مستويات الغباء والأكاذيب والتفاهات؟

ماذا لو أن أينشتاين هذا قد وجد وعاش في مجتمع من المجتمعات التي تعاقب على الذكاء وتضرب لتكون مستسلمة مؤمنة، وتزجر فيها موهبة الشك والتساؤل واحتمالات التخطي لما قد كان والتفوق عليه؟

إن على الإنسانية أن تغتبط جميعاً لأن هذا الإنسان قد ولد في النار، وعاش بين أهلها وفيها ثم ذهب إليها، ولأنه لم يولد في الجنة، ولم يعش بين سكانها، ولم يذهب إليها! ماذا كان يحدث لو وقع مثل هذا الافتراض، أي لو أن أينشتاين كان من أهل الجنة ولم يكن من أهل النار، لو كان مؤمناً ولم يكن شاكاً بعقله أو بتخطيه لما قد كان؟

إن من المحتمل أن يظل حينئذٍ خاماً إنسانياً خامداً مجهولاً في منجمه على أحسن الافتراضات، إن لم يصبح سمساراً، أو تاجراً صغيراً، أو حاكماً متألهاً، أو زعيماً كذاباً من هؤلاء الزعماء والحكام القتلة الجهال الذين راحوا أخيراً يتسلقون على إنسانية وكرامة شعوبهم التي تحررت من الاحتلال والنفوذ الأجنبي، وتحررت كذلك بأسلوب أعنف من حرياتها وشعورها بالأمن لتقع في قبضة هؤلاء الطغاة الصغار ليذيقوها من الاذلال والجنون والسفه والافقار ما يكاد يغفر لأولئك الغزاة الأجانب ذنوبهم العظمى!

وقد يصبح هذا المتحدي الأعظم للإيمان ـ لو أن هذا الافتراض قد وقع ـ على تقدير أقل تشاؤماً، مستشاراً شريراً صغيراً لأحد هؤلاء الطغاة الذين أخذوا يجيئون متتابعين كأبهظ عقاب للشعوب الناشئة وللحريات المكسوبة أو الموهوبة حديثاً بلا عناء أو أي نضال.

لقد كان من المحتمل جداً أن يصبح أينشتاين مستشاراً، أو وزيراً، أو صحفياً، أو شاعراً في جهاز طاغية من هؤلاء الزعماء الصغار، لتكون كل عبقريته صياغة المدائح لذلك الطاغية واكتشاف العبقريات في ذاته، أي في ذات ذلك الطاغية ـ لو أنه ـ أي أينشتاين ـ ولد وعاش في مجتمع يفرض عليه أن يكون مثل من حوله.

إن الذي يملك العبقرية ثم لا يستطيع أن يكون عبقرياً قد يكون رديئاً جداً أو مهزوماً جداً.

ماذا ينتظر أن يحدث لو أن هذا الإنسان السارق من الآلهة القديمة كل أمجادها قد فرضت على وجوده بيئة من هذه البيئات المؤمنة التي تدعو إلى التوحيد، وتعلم الناس أن الفعل لله وحده، وأن البشر عاجزون، وأن قيمتهم في أن يظلوا عاجزين؟

والذي يتفوق في أمته أو في الإنسانية ويحدث فيها تغييراً كبيراً أو مفيداً هل يمكن أن يفعل ذلك إلا لأنه يشك أولاً فيما هو موجود من المذاهب والنظم والأرباب والأشياء الأخرى، ثم يتحول شكه إلى حماس وتصميم لمقاومة هذا الموجود الذي أصابه الشك، وإلى اقتناع أو شك في أن من الممكن تغييره واستحداث ما هو أفضل منه، ثم يتحول هذا الشك إلى محاولة وابتكار؟ إنه أيضاً لا بد أن يشك في مقررات الأجيال ومستحيلاتها العقلية والدينية والكونية، ثم يمضي في نقض هذه الاستحالة وفي جعل هذه المستحيلات واقعاً في الحياة أو ممكناً من ممكناتها ـ إنه لا بد أن يرفع لعنة الاستحالة بأن يشك بعقله أو يتجاوز الاستحالة بسلوكه.

لم تكن هذه المنجزات الكبرى التي تعيشها حضارة الإنسان اليوم ـ قبل أن تكون ـ إلا ارتجافاً خافتاً من الشك النبيل تحرك مستخفياً في طريق كله ظلام، متلصصاً إلى أحد الرؤوس وفي أحد الرؤوس العظيمة التي حكم عليها بأن تكون أحد المناجم الحضارية.

إنه لو حذف الشك كله من حساب البشر لكان معنى هذا حذف الحضارة كلها من

حسابهم ـ لو طبع البشر جميعاً بغباوة التسليم العقلي لما هو موجود، أو الوقوف بين يديه بضراعة وقنوت دون محاولة للتغيير والتخطي أو للاقتحام والتدمير.

حتى الأنبياء والزعماء الروحيون لم يكونوا إلا شكاً، لقد بدأوا سيرهم من الشك فيما حولهم من آلهة وعقائد وعبادات وأقوام وأشياء أخرى.

ولو لم يصابوا بهذا المرض العظيم، مرض المتفوقين، أي لو لم يصابوا بمرض الشك فيما هو كائن فهل كان محتملاً أن يكونوا أنبياء وأن تهبط عليهم الرسالات من السماء ليعلموا أشياء جديدة ويسحبوا من السوق الأشياء القديمة؟

ولكن واعجباً! بل ولكن لا عجب!

إن هؤلاء الذين صاغهم الشك أو علمهم الشك أن يكونوا أنبياء ومعلمين للبشر، أو هؤلاء الذين جاؤوا بحجة الشك هم أكثر الناس عداوة ومقاومة لخالقهم وهاديهم العظيم الذي هو الشك، أو هكذا يزعم لهم أتباعهم ويتهمونهم بما يفعلون هم.

وقد أصبح الأنبياء في هذا مثل الثوار الذين يصلون إلى الحكم بوسائل ثورية، أو يسرقون الحكم باسم الثورة وتحت الشعارات الزاعمة أن الثورات هي أنبل الأعمال، وأن الثوار هم أنبل الرجال، بل وأنهم هم القوة الفاضلة في هذا الكون التي يفعل الله بها إرادته الصديقة للإنسان وتفعل بها الطبيعة قوانينها التي تهب البشر الرخاء والتقدم ـ فإذا وصلوا إلى الحكم من هذا الطريق وبهذه الحجة أصبحوا أشرس الأعداء للثورات وللثوار.

إن الثائر لا يثور لأنه يحترم الثورة أو يريدها للمجتمع، ولكن لأنه يريد أن يكون ثائراً، وإن النبي لا يريد النبوة أو الشك ولكن يريد أن يكون نبياً.

لقد ظل البشر في جميع العصور وتحت جميع الظروف والمستويات الحضارية والثقافية يملكون يقيناً كثيراً وشكاً قليلاً مهما اختلفت أربابهم وأديانهم ومذاهبهم ونظمهم. إن هذه أي أربابهم وأديانهم ومذاهبهم ونظمهم حقاً تختلف وتموت، ولكنهم لا يقتلونها أو يرفضونها، وإنما تقتلها أرباب ومذاهب وأديان ونظم أخرى لتحل مكانها.

إن البشر ينتقلون من اليقين إلى اليقين، ومن الإيمان إلى الإيمان، ولا ينتقلون من اليقين إلى الشك أو من الإيمان إلى الرفض، بل ينتقلون من اليقين بهذا الإله أو المذهب أو النظام إلى اليقين بإله أو مذهب أو نظام آخر هو أشرس وأقوى. ولم تكن عملية الانتقال نوعاً من الشك أو الرفض، بل نوعاً من الفرض والاستبدال المحتوم بالقوة.

لقد كانوا في ذلك كعبيد العصور القديمة الذين ينتقلون من سيد إلى آخر ليواجهوا عبودية قد تكون أقسى.

ما أحوج البشر إلى أن يؤمنوا قليلاً إن كان لا بد من الإيمان وأن يشكوا كثيراً.

وإذا كان من مصلحة الآلهة والسادة والأقوياء والمعلمين والمترفين والمحظوظين أن يتأكد الإيمان بأن كل شيء جيد وحق ومنطق وضمير إله، فهل في ذلك مصلحة أو كرامة للإنسان ـ أي هل في ذلك مصلحة أو كرامة لمن يقع عليهم عبء الإيمان؟

إن اليقين بحث عن الخضوع لا عن الفضيلة أو الحقيقة، لقد كان اليقين دائماً بحثاً عن القيد لا عن الرب الطيب.

إن اليقين سلاح يستعمله الأقوياء والماكرون والمنتفعون ضد الضعفاء المغلوبين، أو يستعمله الأقلون ضد الأكثرين، ليست المذاهب والعقائد والآلهة والنظريات التي يراد بها محاربة الشك إلا أساليب حربية يراد بها هزيمة المجتمع وإذلاله والانتصار عليه من داخله.

إن قوماً يريدون أن ينتصروا على قوم، فيجعلون اليقين من أسلحتهم لبلوغ هذا الانتصار.

*

يدعو أحد الفلاسفة الرحمة والتسامح والعطف والبساطة والتواضع «بنات الشك» ويسميها «الفضائل الوديعة».

ولئن كان هذا القول صحيحاً فإن عكسه سيكون أيضاً صحيحاً بنفس النسبة والتفسير، أي فالعنف والفظاظة والكبرياء والغرور والتعصب والبغض هن بنات اليقين، وهن الرذائل العنيفة أو الفضائل العدوانية.

وصاحب الفضائل الوديعة يكون دائماً أفقاً مفتوحاً يتقبل النمو والتكامل والتفاعل مع الآخرين، ومع الأشياء الأخرى ومع كل ما حوله، ويستقبل الأفكار والمذاهب والنظم والتجارب القادمة من بعيد والزائرة أو المقتحمة لأرضه، بالمودة والإنصاف والتسامح وبالقراءة الجيدة لها.

أما صاحب الرذائل العنيفة أو الفضائل العدوانية، المصاب باستقبال قيوده بالجزم فإنه يكون أبداً مغلقاً ومعادياً لكل الآخرين والمخالفين ولكل الأشياء الأخرى، إنه معادٍ ومبغض ومتوتر كئيب ومتعصب على كل الجبهات. ولعل من الأشياء المحتومة أن يصاب بالغرور والبلادة العقلية والفظاظة الأخلاقية والرغبة في العدوان المؤمنون باليقين، الذين يرون أنهم هم وحدهم المالكون لكل الآلهة، ولكل تفاسيرها ولكل الحقائق والصواب والذكاء، وأن مذاهبهم وآلهتهم ونظمهم وحماقاتهم وأهواءهم وتفاهاتهم هي وحدها الذكية والفاضلة، أما آلهة كل الآخرين ومذاهبهم ونظمهم وحماقاتهم وتفاهاتهم وأهواؤهم فهي البليدة والفاسقة والمفضوحة.

وهؤلاء المستيقنون المتعصبون لا بد أن ينظروا بازدراء متعجرف إلى كل معرفة وحضارة أو مزية تجيء عمن لا يؤمنون إيمانهم ولا يعيشون في ظروفهم.

وغير مستطاع أو شيء غير عادي أو غير متوقع أن نجد في هؤلاء المتعصبين قوماً متسامحين يرون بكل عيونهم كل المزايا البعيدة، ويتقبلون فضائل الآخرين ويفهمونها ويتأثرون بها في ذكاء واعتراف وشجاعة، أو يحترمونها بمحبة وعدل، أو يؤمنون بحرية أولئك الآخرين وبظروفهم المغايرة الحاكمة عليهم بأن يكونوا كما هم مثلما حكمت عليهم هم ظروفهم بأن يكونوا كما كانوا ـ نعم غير مستطاع أن يكونوا كذلك ما لم يعدلوا في رؤيتهم لأنفسهم وللآخرين، وفي رؤية المزايا الموجودة عند الأعداء والمخالفين، وفي رؤية الرذائل الموجودة عندهم هم ـ أو ما لم تتسع عيونهم لكي تستطيع رؤية الآخرين على المستوى الذي تستطيع به أن تراهم هم ـ أو ما لم يتسامحوا حتى يعترفوا بوجود الآخرين على مستوى وجودهم هم، وإنهم ليسوا هم وحدهم الموجودين، أو أن الوجود ليس مشروعاً لهم وحدهم، بل هو مشروع للأعداء بالمستوى الذي هو مشروع لهم.

ولكن هذا لا يكون ما لم يضعف فيهم التعصب والحقد، وهذا لا يكون ما لم يضعف فيهم اليقين ويقوَ الشك، لكي يتكون فيهم مناخ نفسي وفكري معتدل، تستطيع الفضائل والأفكار الإنسانية المتسامحة غير الأنانية وغير العاجزة عن الرؤية الخارجية أن تنمو فيه.

ولا بد قبل هذا أو من أجل هذا أن يعيشوا في طقس ينضج فيه اعتقادهم واقتناعهم بأن للآخرين ـ كل الآخرين ـ حقوقاً في الخطأ والصواب، وفي الرؤية المستقلة، وفي الإعجاب بالذات أو في عبادة الذات، مساوية لحقوقهم هم.

كما لا بد قبل هذا أو من أجل هذا أن يتواضعوا ويتسامحوا إلى المدى الذي يجعلهم يعتقدون ويقتنعون أن من الاحتمالات الدائمة ـ وإن كانت احتمالات ضعيفة جداً أو وقحة وبذيئة جداً ـ أنه قد يكون لأولئك الآخرين من الذكاء والقدرة على رؤية الله ومصادقته وفهم أخلاقه وما يريد ضميره، ومن المزايا الأخرى مثلما لهم هم، وأن الشمس لا تطلع عليهم وحدهم أو تعشقهم وحدهم، وأن الليل لا يهبط على المخالفين أو تستريح له عيونهم وأعصابهم أكثر مما يهبط عليهم هم، أو أكثر مما تنام عليه عيونهم هم.

وأنهم ليسوا أكثر قدرة على مواجهة الشمس بأعصابهم أو عقولهم من الآخرين.

إن جميع الناس مهما كان منطقهم الذي يكتبونه أو يتحدثون به يتصرفون وكأنهم هم وحدهم المالكون لكل المزايا والذكاء والصدق والحق بل والحياة والشمس والقمر والنجوم، وإن كل الآخرين وكل المخالفين والأعداء لا يستطيعون أن يملكوا من ذلك شيئاً، وإنه مفروض عليهم لذلك أن يتحولوا إلى أتباع أو إلى رعايا لهم في المذهب والدين والأخلاق والنظام

ومعرفة الأرباب. إنهم قد يتحدثون وكأنهم ينكرون ذلك أو لا يقولون به، أما سلوكهم فيجعلهم يبدون وكأنه لا يمكن أن يوجد من يشك فيه أو من ينكر عليهم ادعاءه.

إن لك آلهة ونظماً ومذاهب، وإن للآخرين آلهة ونظماً ومذاهب، وأنت ترى ببساطة أن آلهتك ونظمك ومذاهبك هي وحدها الحق والمفروضة على كل البشر ـ تستيقن ذلك وقد تحارب عليه، كما تستيقن أن آلهة الآخرين ونظمهم ومذاهبهم هي الباطل.

فأنت إذن الذكي الخير الذي يعرف الحق ويتبعه، والآخرون إذن هم الأشرار لأنهم لا يتبعون الحق، أو هم الأغبياء لأنهم لا يعرفون الحق، أو هم الأشرار والأغبياء لأنهم لا يستطيعون أن يعرفوا الحق، ولأنهم كذلك لا يتبعون الحق ولا يريدون أن يتبعوه لو عرفوه.

إذن فأنت بلا شك، وبكل يقين، وبكل تواضع، الوحدة القياسية للإنسان الأعلى وللخير والجمال والذكاء.

وإذن أنت ـ وبلا كبرياء أو ادعاء ـ السيد الموهوب الذي يجب أن يطاع ويتبع ويعبد، لأنه الحقيقة كلها في كل مستوياتها، أما الآخرون، أما مخالفوك كل مخالفيك فهم العبيد الأذلاء الذين عليهم أن يطيعوك ويتبعوك، بل ويعبدوك بلا مرارة، بل وبغبطة. وهم إذا لم يفعلوا كل ذلك بمرح ومحبة فيها كل معاني الطاعة فإن لك، بل فإن عليك أن تقاتلهم إذا كنت قادراً على ذلك لأنهم خونة أو زنادقة أو ضالون وأغبياء. إن إبادتهم مفروضة تديناً أو مذهبياً أو إنسانياً أو أخلاقياً.

وهذا هو التفسير المتواضع الذي يعنيه ويدعو إليه إيمانك ويقينك بما لديك من آلهة ومذاهب ونظم وتقاليد وزعماء وتفاهات، رافضاً بل لاعناً كل تساؤل أو شك فيما لديك، وفيما لدى الآخرين والمخالفين، ورافضاً كل محاولة لوضع الآخرين في قياس معك على أي مستوى من المستويات.

هل البشر أطفال إلى هذا المدى؟

إذن ما دلالة كل هذه العبقريات التي أنجزوا والتي تبهر الرؤية قوة وروعة؟ هل هم جائرون ومحابون لأنفسهم على هذا المستوى الرديء المخجل؟

إذن ما هذه النظريات والقوانين التي أبدعوا ووضعوا وطبقوا في معاني العدل؟ قد يكون الإنسان شيئاً لا يمكن تفسيره بهذا ولا بهذا لأنه ليس هذا ولا هذا.

والمشكلة أنه لا يوجد جهاز يقاس به ذكاء الإنسان وغباؤه أو أخلاقه غير الإنسان نفسه، فهو الشيء الذي تقاس به كل الأشياء دون أن يوجد ما يقاس هو به، إنه مقياس نفسه كما أنه مقياس كل الأشياء.

وكيف يقاس الشيء بنفسه؟ هذه هي المشكلة.

والمنظر الذي يجلد ذكاء الإنسان بكل السياط، ويلعن أخلاقه بكل اللغات منظر زعيم دولة عظمى يقف فوق العالم ـ وهذا منظر يتكرر دائماً ـ ليتحدث في أكبر ناد دولي، ليعلن كبرياءه بطفولة دولية لا مثيل لها في التواضع أو السخف، عارضاً ومادحاً دولته ومواقفها ونظمها ومذاهبها وخططها وتاريخها، وكأنه لا أحد في هذا العالم يملك الذكاء والصدق والبطولة والحق سواه وسوى دولته؟

ثم ينهض زعيم دولة أخرى عظمى ليفعل نفس الشيء بنفس الغرور والبذاءة والسذاجة والادعاء؟

ثم ينهض زعيم ثالث ورابع. وهكذا تتكرر القصة والمشهد على رؤوس العالم كله دون أن ينكر هذا العالم نفسه أو يجرر زعماءه من فوق منابرهم ليلقي بهم في تراب التواضع والحياء والوقار، وليعلمهم التجاوز لهذه الطفولة المعلنة عن غبائها.

ولو أن هؤلاء الزعماء صعدوا فوق هذه المنابر ليلقوا بكل ملابسهم الداخلية وليشيروا إلى جميع ما في أجسامهم العارية من عيوب وبذاءات لكانوا أكثر وقاراً واحتشاماً. وهل يختلف منظر هؤلاء الزعماء العظام في مواقفهم الخطابية هذه عن منظر أية مجموعة من الأطفال المهذبين حينما يتبارون في الكشف عن عوراتهم، وعن أحاسيسهم نحو هذه العورات، وعن تعاملهم مع أعضائهم الداخلية، وعن مزايا هذه الأعضاء والعورات، وعن القيمة الإنسانية والأخلاقية المودعة في هذه الأعضاء والعورات؟

ويزداد هذا المنظر العالمي اربداداً وهولاً حينما يقوم زعيم دولة أقل عظمة وقوة ليفصل ويوفق بين الزعيمين الكبيرين جداً، ولكي ينصحهما ويدلهما على الطريق الصحيح، وليعلمهما التواضع والحب.

وهذا الزعيم الثالث الذي تحول إلى نبي وفيلسوف وميزان للعدالة والذكاء، يتكلم أيضاً بنفس اللهجة والأسلوب والرضا عن النفس، مع اعتقاده الإضافي القائم على أنه قد أصبح في موقف من يستطيع أن يصلح بين الآلهة الكبار جداً، ومن يعلمها ـ أي يعلم الآلهة الحمقاء ـ التواضع والإيمان بالعدل وممارسته.

ومن الطفولة الشائعة التي يمارسها الكبار كما يمارسها الصغار أن تبدأ مخالفك بالافتراض الذي لا يخجل منه أحد مع وقاحة سخفه ـ أعني افتراضك الحق كله معك، ولا شيء منه مع مخالفك. وأنت ـ ومثلك الآخرون ـ تلتزم دائماً الإيمان بهذا الافتراض دون أن تحتج على نفسك أو تجادلها أو تسألها.

بأي منطق أو أخلاق جاز مثل هذا الافتراض؟ ألم تسأل نفسك ولو مرة واحدة، معاتباً أو معلماً: لماذا هذا الغباء؟

ما أكثر ما يغفر الإنسان لنفسه وما أكثر ما يصبر عليها ويحابيها.

إن الذي لا يرى إلا نفسه، ولا يرى الآخرين أو الأشياء الأخرى، فلا يرى الشمس أو القمر أو النجوم ـ لأنه مشغول برؤية نفسه واستعراض فضائلها ـ ليس أسوأ أو أقل ذكاء منك حينما تستيقن أن آراءك وأربابك ومذاهبك هي وحدها الصحيحة، وأن أرباب وآراء ومذاهب الآخرين هي وحدها الباطلة .

بأي ذكاء أو وقار تريد أو تفترض أن تكون بمذاهبك وأربابك وأهوائك مقياساً للآخرين دون العكس، وما الفرق؟ أيِ، طفل مغرور وبليد أنت!

أليس هذا يساوي اعتقادك بأن لك الحق في أن تقتل كل من سواك؟ إن اقتناعك بأن أصنامك هي وحدها الجميلة والطاهرة في هذا الكون، وأنها هي التي يجب أن تحكم العالم، وأن تخضع لها كل الأصنام الأخرى ليس أقل وحشية أو بلادة من اقتناعك بأنك أنت وحدك الوسيم الذكي النظيف في هذه الدنيا، أو بأن أبناءك هم وحدهم الذين يملكون كل ما في الكون من وسامة وفروسية ذهن، وأنهم هم وحدهم الذين يجب أن يتعلموا وتنشأ وتفتح لهم أبواب المدارس والجامعات وأن يسودوا أطفال العالم، بل وأن يقتل جميع الأطفال الموجودين في الدنيا فداء لأطفالك وإخلاء للطريق أمامهم وإبعاداً للمضايقات والمنافسات عنهم، خوفاً عليهم من الحرج أو الغضب أو من أي انفعال مؤلم أو رديء لو وجد غيرهم!

وحماقات البشر ليس لها حد أدنى ترفض الهبوط تحته أو تعجز عن الهبوط تحته. ومع أنه لا حد لتفوق البشر، فإنه بنفس النسبة لا حد لهبوط ذكائهم ومستوياتهم النفسية والسلوكية.

في حديث مشهور أن قوماً سألوا النبي محمداً عليه السلام عن الشك فقال:

«ذاك محض الإيمان». وفي حديث آخر أنه عليه السلام قال:

«نحن أولى بالشك من إبراهيم».

وكان إبراهيم قد أصابه الشك في الإله وفي قدرته وتساءل: من يكون إله الكون: أهو الشمس، أهو القمر، أهو النجم. وسأل الإله ذات مرة تحت إلحاح الشك قائلاً في لهفة من فقد اليقين:

﴿أرني كيف تحيي الموتى﴾ فقال الله له دون أن يرفض طلبه وتساؤله:

﴿أو لم تؤمن؟﴾ وكأنه كان شيئاً عادياً أن يكون غير مؤمن، وكان يمكن أن يقول جواباً على سؤال الله له: «نعم، لم أؤمن». وقد كان سؤال الله كأنما فيه توقع لمثل هذا الجواب. ولكن

إبراهيم تأدب واستحيى من أن يجيب بمثل هذا الجواب، وأجاب بجواب آخر فيه المعنى دون اللفظ إذ قال:

﴿بلى، ولكن ليطمئن قلبي﴾، إذن كأن قلب إبراهيم لم يطمئن، لهذا هو يطالب الله بأن يفعل شيئاً يجعله يطمئن.

والذي لا يطمئن قلبه إلى أن الله يحيي الموتى كيف يكون مؤمناً أو كيف يكون غير شاك؟

إن سؤال إبراهيم نوع من التحدي للإله، أو أسلوب من أساليب مطالبة الإله بأن يدلل على نفسه. ولم ينكر الإله هذا التحدي أو هذه المطالبة بالتدليل على النفس، بل وجد أن هذا شيء مشروع، وذهب يجاوب على التحدي إن كان الموقف تحدياً، وعلى المطالبة بالدليل إن كان الموقف موقف مطالبة بالدليل.

ولم يقل الله لإبراهيم «اخسأ أيها الزنديق أو أيها المرتاب، إن عليك أن تؤمن وتقتنع فقط وإلا قذفت بك إلى أعماق الجحيم».

إذن فالذي لا يطمئن قلبه بالإيمان مثل إبراهيم ويذهب يطالب بما يعطي الاطمئنان مثلما فعل إبراهيم لا يكون رديئاً أو مخطئاً في حكم القرآن. وإذا لم يجد من يصنع له برهان اليقين مثلما صنع الإله لإبراهيم فظل غير مقتنع ولا مطمئن القلب لم يصح الانكار عليه ولا اتهامه بالضلال أو الخطأ.

إن الشك علامة من علامات الذكاء، وسماحة الخلق، وصدق الإيمان، وإخلاص النفس، وشمول الرؤية. هل يشك إلا الأذكياء المتسامحون الطيبون المحبون للصدق والحقائق وللآلهة وللإيمان، المرتفعون فوق أنفسهم وجدودهم، المتفوقون عليها، الذين يرون الدنيا والآخرين ويرون لهم كما يرون أنفسهم وكما يرون لأنفسهم!

إن الشكاك لا بد أن يكونوا شجعاناً، لأن الشك اختيار ورفض ومقاومة، إن الشجاع الذكي الطيب المتسامح المحب لمذاهبه وأربابه وللحقائق والصدق لا يمكن أن يظل دائماً متجمداً ومتبلداً في فكرته وعقيدته وتعصبه دون أن يفهم ذلك أو يفحصه أو يناقشه ليحتاط له ويحميه من الزيف والكذب، لاعناً ومحتقراً كل شيء وكل إنسان خارج حدود ذاته ومذهبه ومعبده.

إن أكثر الناس شكاً في أربابهم وعقائدهم ومذاهبهم هم أكثر الناس احتراماً وحباً لها، كما انهم أكثرهم رؤية وصداقة للحقيقة. والذين يرفضون أن يفهموا أو ينصفوا أو يناقشوا أو يروا غير أنفسهم هم المستيقنون الرافضون لكل شك وسؤال.

إن الذي يحترم إلهه ومذهبه وزعيمه لا بد أن يناقشه ويدير عليه كل احتمالات الشك ومخاطره، والذي يحترم عمله يشك فيه أكثر.

إن الأديان ـ الإسلام وسواه ـ قد جاءت تدعو إلى سلوك نفسي وعملي معين، فآمنت بها مجتمعات مختلفة في سلوكها وثقافتها وظروفها التاريخية، ثم راحت هذه المجتمعات تنحت لنفسها وحياتها قالباً جديداً لتصوغ فيه أو لتصب فيه أفكارها وأخلاقها وبقايا معتقداتها المتأخرة.

والمتخلفون ـ بل لعل أكثر الناس ـ لا يدينون في العادة إلا للأمر والنهي العنيفين في إلزامهما وتوعدهما لمن يخالفون، سواء أكانا منسوبين إلى كبرياء السماء أم إلى جبروت الأرض، لأن المتخلفين أو أكثر الناس لا يعرفون السلوك أو النظام الذي يفرضه الفهم أو الضرورة الإنسانية أو التناسق الذاتي، أو التناسق بين الذات والظروف، وبين الذات والآخرين.

والمتخلفون بل وأكثر الناس لا يفهمون كذلك لماذا يطيعون إن لم يكن وراء العصيان العقوبة الاجتماعية أو الكونية أو دخول النار، وإن لم يكن في الطاعة الثواب المباشر السريع أو البطيء المحتوم أحياناً.

إنهم لا يفهمون إلا الوحي الذي يأمرهم من أعلى، ويجهلون أمر الذات للذات، وحاجة الذات إلى التلاؤم مع نفسها ومع الآخرين ومع الأشياء التي حولها ـ هم يؤمنون بالأوامر نازلة عليهم من فوقهم أو من حيث لا يعلمون، ويكفرون بها نابعة من شهواتهم وأعضائهم وظروفهم وترابهم.

إن جميع الآلهة والأنبياء والقداسات ليست إلا تراباً قد جاء في صورة إنسان وتعاليم منسوبة إلى مكان بعيد ـ لقد تحول التراب وضروراته وهمومه وقوانينه إلى أنبياء وآلهة ومذاهب وصلوات وتعاليم مقدسة!

وإنهم من جهة ثالثة ليعجزون عن التفريق بين آمر وآمر من حيث الذات الآمرة، إذن آمرهم والمشرع لهم يجب أن يكون واحداً لا شريك له.

لهذه الأمور الثلاثة تحاول المجتمعات غير المتقدمة أن تصوغ حياتها ونفسها صياغة دينية أو تظنها كذلك، وأن تضبطها بالعقائد والآلهة الأقوياء الغاضبين المستبدين القساة في املائهم وعواطفهم وكبريائهم، أو باسم هذه العقائد والآلهة، حتى وإن كانوا لن يطيعوها ـ إنه فقط مجرد شعور بوجود هذه التعاليم والأوامر.

إن المجتمعات عاجزة بأهوائها وسلوكها وتعقيدات وجودها وأغراضها الكثيرة المتشاجرة عن أن تنحت نفسها أو حياتها على مقاس الدين الذي نزل على نفس معينة، أو نادت به نفس معينة، ذات مواهب وخصائص وهموم معينة، تحت ظروف وضغوط معينة، محكومة بحدود زمانية ومكانية واجتماعية ونفسية خاصة أليمة بعيدة عن المثالية، وعن الحب والصداقة، وعن الرؤية الشاملة أو الإحساس الشامل. وهي مع عجزها المحتوم الدائم عن التزام العمل بهذا الدين

لا تجد بداً من أن تلقي بكل ما تفرز حياتها من أخلاق وعقائد وتفاهات ونقائص وآلام وضرورات في نهر الدين، متهمة له بكل ذلك، مصرة على أن تجعل منه لها وضوءاً أو كفارة أو اعتذاراً عن كل ما تفعل، بل وتفسيراً لكل ما تفعل.

ومع ركود هذا النهر وتكاثر ما يلقى فيه يتغير ويصاب بكثير من الآفات، ويصبح ذا طعم ورائحة ومنظر لا يوجد مثله في الأنهار الجارية المتجددة.

وحينئذٍ يتحول الدين إلى بقايا من الأخلاق والعقائد والأفكار والشهوات التي التزمتها أو رأتها أو تخيلتها أو تمنتها حياة شعوب متخلفة جداً ليس لها رقي عقلي أو حضاري أو أخلاقي.

وهذا يوجد افتراضاً رديئاً، هذا الافتراض هو أن المجتمعات والأفراد المتدينين قد يستعصون على التطور وأخلاق الحضارة، بل وعلى التدين أيضاً، ولهذا فقد يظلون يمارسون كل الخطايا والمظالم والبذاءات دون أن يشعروا شعوراً عميقاً بالذنب، بل دون أن يشعروا بأن عليهم حينئذٍ أن يتأدبوا ويستحيوا ويكفوا عن مد أيديهم لمصافحة السماء، أو عن مناداتها أو اتهامها بالتخلي عن الشرف والغيرة لأنها لا تزال مع تلوثهم الخطير حليفتهم وصديقتهم، كما لا يزالون مع ذلك هم المعبرين عنها، المفسرين برذائلهم وضعفهم الأليم لأخلاقها ومستوياتها الشامخة.

إن المتدينين قوم يتقربون إلى الإله بعصيانه، وإلى الفضيلة بالخروج عليها دون أن يضعف عصيانهم اعتقادهم.

إن المؤمنين الصالحين يكونون دائماً في موقف المخطىء العابد لخطئه، بل المتهم للإله بخطئه، ولهذا فإنهم لا يغضبون على أنفسهم أو ينكرونها أو يكرهونها مهما بدوا مشوهين في محاريبهم وأمام آياتهم وأربابهم وتفسيراتهم!

إذن ليس الدين هو الذي يتبلد في أي وقت أمام ضرورات الحياة وضغوطها القوية والدائمة، ويستعصي على التجديد، أو يحاول أن يستعصي ـ إنه ليس عدلاً اتهام الدين بذلك، بل الذي يفعل هذا هي الظروف والأوضاع والعجز والتعقيدات في طبيعة الوجود والحياة والأفكار ـ نعم الذي يفعل هذا هو كل هذه الأشياء التي تحولت إلى آلهة وأنبياء وكتب منزلة، والتي كانت تقتات بها حياة قوم متخلفين.

وشر ما في اليقين الديني، بل شر ما في كل يقين، عجزه عن نقد نفسه، لأنه ـ أي اليقين الديني ـ قد فرض منزلاً لا حيلة فيه.

ونقد الذات هو أعلى أساليب الدفاع عنها، وقد يكون أحياناً هو أمكر هذه الأساليب.

إن نقد الذات هو أبلغ قصيدة ينشدها ناقد ذاته في مدح ذاته على مستوى قل أن ينقده أو يعيبه أحد، بل على مستوى قل أن يدرك مكره وكذبه أحد. وإني لأعجب من الذين يمدحون

أنفسهم كيف لا يدركون أن نقدها أو ذمها هو أفضل أساليب مدحها! ولعل كثيراً من الناس لا يجرؤون على امتداح أنفسهم بهذا الأسلوب الذي يجيء فيه المدح بصيغة الذم والنقد، لأنه امتداح مبالغ فيه جداً، حتى لقد يرفضه السامعون، ولا يطيقون من يمدحون به أنفسهم لشدة غلوه وكبريائه وإثارته ودهائه.

ولعل آخرين أيضاً كانوا يحجمون عن هذا الأسلوب في مدح أنفسهم لأنهم لا يثقون بذكاء الناس، فكانوا يخشون أن يصدقوهم إذا نقدوا أنفسهم أو ذموها، دون أن يرتفعوا بهذا النقد أو الذم إلى أعلى مستويات الامتداح الذي يقصده الذامون الناقدون لأنفسهم.

إن أي ناقد لنفسه لا يقصد نقد نفسه مهما كان صادقاً في نقده، إنه حتماً يعني شيئاً آخر، ولهذا فإن الناقد لنفسه قد يكون أوقح وأسمج المادحين لأنفسهم!

وقد يباح لنا أن نكرر هنا:

إن الناس قد يتدينون لأنهم متأخرون، ولا يتأخرون لأنهم متدينون، وكذلك جميع من لديهم أفكار متأخرة، تتأخر أفكارهم لأنهم متأخرون، ولا يتأخرون لأن لهم أفكاراً متأخرة، فالدين وكذا كل تفكير متأخر هو مهرب أو تعبير عن حالة وليس سبباً.

ولكن هل الناس يتدينون لأنهم متأخرون، أم يتدينون تحت ظروف التدين حتى ولو كانوا متقدمين جداً كما سبق التفسير لذلك؟ إن المتقدمين والأقوياء والسعداء قد يتدينون ويؤمنون جداً، كما يحبون ويبغضون ويحلمون ويحتلمون ويتخيلون ويتمنون ويخطئون ويخافون ويحقدون ويحسدون، وكما يتدين ويؤمن أهل الوسامة والشجاعة والسلطان القوي. فالتدين والإيمان ليسا مستوى تقدم وتأخر أو قوة وضعف، بل هما حالة إنسانية توجد في جميع المستويات المختلفة.

إن الدين لا يكون قيداً ولا سبباً، فالذين يستطيعون أن يتخطوا الدين يتخطونه، والذين لا يستطيعون تخطيه يتخذون منه مأوى وتفسيراً وتبريراً ومحطة انتظار.

والعاجز عن التقدم لو لم يتأخر متديناً لتأخر غير متدين، والقادر على التقدم يتقدم متديناً وغير متدين، كما أن القادر على ظلم الناس الراغب فيه وعلى الانتصار عليهم وعلى اشتهاء الحرام وعلى رؤية الألم والظلم وتحملهما يفعل ذلك متديناً ومؤمناً، وغير متدين وغير مؤمن، كما أن العاجز عن ذلك يكف عنه متديناً ومؤمناً، ويكف عنه غير متدين وغير مؤمن.

*

إن الشك ـ على نحو آخر ـ نوع من الجبرية الفكرية، فهو يهاجم صاحبه ولا يستشيره،

يهاجمه مهما حاول إبعاده والهرب منه والاستغناء بكل الآلهة والقديسين والتعاويذ الدينية والروحية للنجاة منه.

إن الناس يصابون بالشك إصابة، ولا يجيء إليهم بالدعوة أو الرغبة أو الحب أو بقانون الصداقة. فالمخاصمة لمن يصاب بالشك وتنفذ في قلبه أو قلوب أربابه وعقائده ومذاهبه سهامه تشبه مخاصمة من يشعرون بالحر والبرد، ويرتجفون أو يبكون من وقع المرض. والخصومة في هذا أو هذا لا تفيد ـ ثم إنها مع ذلك حماقة وعدوان، وإنما المطلوب في الحالتين العلاج إن كان العلاج ممكناً وكان كذلك مشروعاً.

كل أعمال الإنسان تبدأ أول ما تبدأ ضرورة أو شهوة أو انفجاراً لا خيار فيه، متلقياً عن الخارج محرضاته ومثيراته، وعن الذات موهبتها وضروراتها. وهذه الانفجارات والضرورات لن يكون مكانها غير الرؤوس والأعصاب التي تتقاتل فيها الشكوك، وغير الذوات المستجيبة التي تلبي محرضات الشكوك، وتصنع أيضاً محرضات الشكوك.

إن عبقرية الإنسان وحضارته تعنيان شيئاً واحداً، تعنيان الشك بالفكر وبالسلوك، والأفكار والمشاعر المستقرة ـ وكذا السلوك المستقر ـ تصنع شخصية مستقرة أو تنبع عن شخصية مستقرة. وإذا استقرت الشخصية فقد ماتت أو هانت أو هزمت.

إن الشخصيات الحية النابضة هي الشكاكة المتخطية لوجودها ولما حولها والمحتجة عليه بالتفكير والشعور. ولئلا تموت الشخصية أو تهون أو تهزم يجب أن تنمو لأن الحياة نمو، وكل من لا ينمو ليسايرها ويتكافأ مع تعقيداتها وضروراتها ومشاكلها المتراكمة، يتخلف عنها، والتخلف عن الحياة فناء.

وهل يمكن أن تكون الحياة نامية ما لم تكن أفكارها وعقائدها ومذاهبها وآلهتها ومشاعرها نامية كذلك؟ وهل يمكن أن تكون الأفكار والمذاهب والعقائد نامية ما لم تكن شاكة وغير متقررة في صورة من صور الإيمان، أو في طور من أطوار الحركة والرؤية؟

والشخصيات المصابة بالتشكيك والتوجس وبالهموم الفكرية تظل دائماً حية متطورة لا تنال الأيام من حماسها وتجددها، ولا تفرض عليها وضعاً متجمداً متحدداً من الأوضاع، ولا تقيده بمذهب أبدي ولا بمستوى من مستوياتها.

إن الشك هو شباب الحياة وطاقتها المتحركة المحركة، بل إن الشك هو الحياة، لأن الموتى لا يشكون. ومهما طويت من الأعوام في حساب حياتك فلن يقتل ذلك عقلك أو يضعف حركته وتطلعه بلهفة إلى الآفاق البعيدة والواسعة والمجهولة ما دام حاراً وجارياً بعمليات التجديد التي يدخلها على بنائه!

والجسم يشيخ حين يعجز عن تجديد خلاياه بالأسلوب الذي يجدد به الجسم الشاب عمليات البناء فيه، وكذلك العقل يشيخ حينما يكون عاجزاً عن تغيير أفكاره وإضافة الجديد إليها ليزحم القديم ويغني عنه ويطرده.

واستقرار الأفكار وتقادمها يجعلانها باردة مسترخية، والأفكار الباردة المسترخية لا تستطيع أن تهب سعادة أو نشاطاً أو فضيلة أو ديناً، بل أو حتى إيماناً.

إن أفضل الأفكار هي الأفكار المفترسة. وكثير من الناس يبلسون أو يخمدون لأنهم فقدوا الحماس والقدرة على الافتراس الذي تهبهم إياه الآراء الجديدة المقاتلة، فيعجزون حينئذٍ عن أداء الحياة التي تنكر الوقفة، فيقفون كما يقف من سكن قلبه.

إن الشك نبض في العقل كما أن الحياة نبض في القلب، وليست وظيفة نبض القلب أعظم من وظيفة نبض العقل أو أنفع للحياة أو للإنسان. وهل يكون العقل الذي لا يشك نابضاً؟

والاحتياج إلى تجديد الآراء واستبدالها ـ وهذا هو الشك ـ مثل الاحتياج ـ أو أعظم من الاحتياج ـ إلى الخلايا الجديدة لتخلف القديمة الميتة في المادة الحية. والبشر حتى اليوم لم يستطيعوا أن يمدوا الأجسام بالخلايا التي لا تهرم ولا تموت، ولهذا لم يقدروا على دفع الموت عن الأحياء.

وقد كان عليهم أن يفهموا أيضاً أن العقول التي لا يتصل إمدادها بالآراء الجديدة تهرم وتموت.

كل شيء في هذا الوجود متغير ومتجاوز لذاته ولأربابه مهما أردنا له السكون والخلود، وعقائدنا وآلهتنا متغيرة ومتخطية لذاتها مهما قاومنا بإرادتنا وتفكيرنا تغيرها أو تحركها خارج حدودها أو تطلعها إلى الآفاق الأخرى. والمجتمعات في الغالب ـ ولا سيما المتخلفة ـ ترفض تغيير عقائدها وأربابها ونظرياتها مهما غيرت أساليب حياتها أو قبلت هذا التغيير. وقد ترفض بوحشية من يدعونها إلى هذا التغيير أو يريدونه لها، مع أن العقائد والآلهة والمذاهب هي أحق الأشياء بالتغيير.

وهل يمكن أن يتغير الشيء دون أن تتغير رؤيته، والحكم عليه والإحساس به والاستجابة له؟ والعقائد والآلهة والنظريات ليست إلا رؤية للأشياء وحكماً عليها وإحساساً بها، أو ليست إلا محاولة للرؤية والحكم والإحساس.

إن أي شيء لا بد أن تتغير صورته وقراءته إذا تغير هو.

والإنسان الذي يعيش بضعة عقود من السنين يتغير جسمه وكل شيء فيه تغيرات كثيرة إلا رؤيته لعقائده وأخلاقه وآلهته، وإلا رؤيته الغيبية أو الدينية للكون، وإلا آراءه في ذلك، فإنها تظل

كل هذه السنين الكثيرة ثابتة لا تتغير ـ بل على الأصح يراد لها أن تكون كذلك، أن تبقى كما كانت في عهد الآباء والأجداد والمعلمين والأنبياء الذين كانوا يصارعون آلهتهم فيصرعونها، والذين كانوا يتصورون تلك الآلهة على نموذج أطفالهم الذين يطلبون أن يمدحوا، ويغضبون إذا لم يمدحوا، بل يبكون ويصيحون ويحطمون الأشياء إذا لم يمدحوا، ويطربون إذا مدحوا، بل يرقصون ويغنون.

ومع ذلك فإن تلك العقائد والآلهة والآراء والرؤية لها لا بد أن تتغير مهما كانت المقاومة لتغيرها، إنها تتغير حتماً ونحن كارهون لتغيرها، بل ونحن لا ندري أنها تفعل ذلك.

إن خفق فكرك بعديد الآراء يشبه خفق قلبك بعديد الأشواق والأهداف: كلاهما يمنحك القوة والمسرة والحماس المتتابع، وأن الفكرة الجديدة كالرؤية الجديدة كلتاهما حياة جديدة.

إن استبدالك فكراً بفكر ليهبك النشوة والعافية كما يهبك ذلك أن تستبدل قلباً جديداً بقلب قديم، وشمساً تبزغ بشمس كانت بازغة.

وليس الشك إلا طموحاً فكرياً ـ والطموح الفكري هو أرفع أنواع الطموح ـ إنه طموح إلى اختيار أفضل الأرباب والمذاهب والنظم والعقول والرؤى، كما أن صفة الطموح هي أعظم صفات الإنسان. ولست أعني الطموح إلى الانتصار على الآخرين أو التفوق عليهم، وإنما أعني الطموح إلى الانتصار على الطبيعة لفهمها وقهرها.

والتصديق السريع السهل بما يورث ويروى ليس إلا قناعة فكرية، والقناعة الفكرية هي شر أنواع القناعات.

والطامحون بأفكارهم لن يقنعوا بما ورثوا ووجدوا في بيوت آبائهم وفي أحيائهم القديمة من آلهة ومذاهب وكتب ومصاحف قديمة. ومن قنعوا بما ورثوا من ذلك كانوا شراً ممن يقنعون بما يرثون من مال وحياة وحضارة وبيوت وملابس وأشياء أخرى عن آبائهم وتاريخهم القديم جداً، بل بما يرثون من صحة ومستويات إنسانية.

إن الشك أحياناً علم بما قد كان وتفوق عليه، فالشاك في هذه الحالة يعلم ما يعلمه الموقنون ويزيد عليهم أنه يعلم أشياء أخرى جعلته يشك فيما يعلم، وهم لا يشكون لأنهم لا يعلمون هذه الأشياء الأخرى التي يشك من يعلمها.

إذن فالكثير من الشكوك هي أقوى من اليقين وأكثر معرفة بما الشك فيه.

إن الشك هو عقل الإيمان وقلبه، يهبه النبض والحياة والذكاء والرؤية، وإذا فقد الإيمان الشك فقد كل معاني الحياة، وإذا فقدت الحياة الشك فقدت كل مزايا الإيمان.

فالإيمان بلا شك وجود متبلد أو بلادة تقاوم الحياة، والإيمان المتصارع مع الشكوك، المتغذي بأخطارها هو القراءة الجيدة للحياة، والاستجابة الدائمة لأوامرها ولضروراتها وتناقضاتها.

والمجتمعات ـ بل والأفراد ـ مهما اختلفت آلهتها ومذاهبها أو مهما أنكرت آلهتها ومذاهبها لا يمكن أن تكون بدون إيمان قوي، إيمان بشيء أو بإنكار لذلك الشيء. وليس الاختلاف بين المجتمعات والناس اختلافاً في قوة الإيمان أو ضعفه، أو في أن بعضها وبعضهم مؤمن وبعضها وبعضهم غير مؤمن، بل الاختلاف في نوع الإله والمذهب أو في نوع الإنكار. وسواء آمنت المجتمعات بإله قوي قاهر، أم بمذهب يرفض الإله ويقاومه فإن مستوى إيمانها قوة وضعفاً، يقيناً وشكاً لا يتفاوت. وإذا تفاوتت المجتمعات أو الأفراد في قوة الإيمان وضعفه فإن ذلك يرجع إلى خصائص المجتمعات والأفراد، لا إلى اختلاف المذاهب والأرباب، أو إلى اختلاف في صفات المذاهب والأرباب.

إن من أقوى القيود على التقدم الإنساني هي المعارف المنتهية، ولأن المعارف اللاهوتية معارف منتهية كانت دائماً نوعاً من القيود القوية على التطور والنمو، وكانت دائماً استهلاكاً في حساب البشر وفي حياتهم ولم تكن في وقت من الأوقات إعطاء أو إنتاجاً للحياة.

ولولا أنه لم يكن ممكناً أن يصير الإنسان لاهوتياً إلا في فترات متقطعة من حياته ـ ولولا كذلك أنه لم يكن ممكناً أن يحيا لاهوتياً مهما فكر تفكيراً لاهوتياً ـ لما قام له تاريخ من الحضارة والأفكار والأعمال. فالاستهلاك الذي هو عبقرية اللاهوتية النهائية في معارفها لا يمكن أن يعطي الحضارة أو الأفكار أو الأعمال القوية، ولكن الذي يعطيها هو الانتاج الذي هو عمل الإنسانية المتغيرة الشاكة المناضلة ضد قيودها وأربابها القديمة.

ولهذا فإن أسوأ المجتمعات حظاً هي التي يعظم حظها من اللاهوتيات ويطول عهدها بها ـ إنها تظل حينئذٍ تستنفد طاقاتها وتحيا على أرصدتها المذخورة الممنوحة حتى تفقد كل شيء، وحتى تسقط عجزاً وفقراً وتخلفاً.

ولكن هذا ليس إلا فرضاً عقلياً، ولا يكون واقعاً أبداً لأن المجتمعات لا تحيا على اللاهوتية ولا تخضع لها مهما كانت قوية ومهما كان إيمانها بها قوياً.

إن المجتمعات مهما كانت لاهوتية فإنها حتماً تضطر تحت ظروفها المختلفة إلى أن تأكل أربابها وعقائدها بكل وحشية، بل ليست حياة البشر بكل أساليبها وتعبيراتها إلا أكلاً للأرباب والمذاهب والعقائد حتى حينما يعلنون أكبر الحروب دفاعاً منها وإيماناً بها.

إن كل حياة هي افتراس لكل ما فيها من مذاهب وعقائد ومثل وأخلاق وآلهة مهما كانت تلك الحياة متخلفة أو تافهة أو متدينة.

فالحياة تحت كل ظروفها ونماذجها وأساليبها لا تكون إلا نفياً لكل إله وعقيدة وخلق ومثالية لأن الآلهة والعقائد والأخلاق والمثاليات لا تعيش إلا بعيداً عن الحياة.

إن الحياة ليست إلا خطواً فوق جثث الأرباب والمذاهب حتى حياة أفضل القديسين والمعلمين والمذهبيين هي خطو فوق جثث الأرباب.

*

قد يقال هنا:

إنه لا بد من اليقين إذا لم يكن بد من العمل والبحث عن الانتصار، إذ إننا لن نعمل أو نعمل أعمالاً قوية أو لن نكون أقوياء في عملنا ما لم نصدر عن يقين. وهذا اشتراط قد يبدو قوياً ومفهوماً جداً، ولكنه مع ذلك ليس إلا وهماً.

إن الناس لا يعملون لأنهم يعلمون بل لأنهم يريدون، وهم لا يريدون لأنهم يعلمون بل لأنهم يحتاجون ويحيون. ليس الذي يدفع الناس إلى الأمر تيقنهم له، بل رغبتهم فيه، أو اضطرارهم أو ظروفهم المختلفة أو كونهم أحياء، كالحيوانات والحشرات التي تندفع إلى الأشياء دون أن تعلم أو تستيقن شيئاً. إن الذي يقع في ظروف تدفعه إلى أن يعمل وإن لم يعرف أو يستيقن شيئاً عن النتيجة أو عن قيمة ما يعمل، بل إن كل الناس يعملون ضد يقينهم.

فليس من المفروض لتعمل شيئاً أن تعلم يقيناً بل أو ترجيحاً أن ذلك الشيء حق أو أنك بالغه لا محالة، بل يكفي أن تريده أو تضطر إليه أو تقع تحت انفعالات تجعل الاندفاع محتوماً مهما كان التقدير العقلي ناهياً ومحذراً، ومهما كان اقتناعك أو يقينك أو النتيجة التي تبحث عنها، بل مهما كان حكمك الفكري والأخلاقي على الذنب الذي تريد الوقوع فيه، أو العمل الذي تريد ممارسته.

لقد كان الناس في كل العصور يمارسون كل جنونهم في حروبهم بكل اهتمامهم وقوتهم وذكائهم من غير أن يستيقنوا الحق أو النصر في أية حرب يفرضونها على أنفسهم وعلى الآخرين، وهكذا كانوا جميعاً يعادون، ويخاصمون، ويشاتمون، وأيضاً يتاجرون، ويسافرون، ويغامرون، ويعشقون، ويتزوجون، ويهبون البنين والبنات للحياة دون أن يأخذوا منها، أو من الكون، أو من الإله، أو من مذاهبهم وعقائدهم، أو من المجتمع الذي يعيشون فيه، عهداً مستيقناً بأن من يهبون، أو من يلقون به من بنين وبنات لن يتركوا للضياع والسقوط والشقاء والطغاة.

ولو كان اليقين شرطاً مرعياً من شروط الحياة، أو شروط قبولها أو العمل فيها بجنون وتوحش لعاف الناس كل - أو أكثر - أعمالهم وأفكارهم ومذاهبهم والتزاماتهم وعواطفهم، بل

لعافوا ورفضوا كل المستقبل، وكل الآلهة وما لديها من وعود طيبة، إذ لا يقين في شيء من ذلك.

ولعافت حينئذٍ الطبيعة والحشرات والحيوانات كل سلوكها وعبثها وإصرارها الأليم الباهظ على مسيرتها الطويلة الغامضة التي لا تعرف نتائجها أو نهاياتها.

ليت اليقين شرط في الاندفاع، إذن لتوقف الكون عن المسيرة العابثة، ولتوقف البشر عن الاندفاع إلى سخافاتهم الممتدة بلا حدود أمامهم!

المفروض في اليقين أنه يصنع طقساً نفسياً وفكرياً بارداً يصيب مشاعر واهتمامات وأجساد المستيقنين بالبرودة المميتة، فلا يتحركون أو يرغبون في الحركة إلا ببعض نشاطهم وحماسهم.

والأعمال الكبيرة لا يطلقها أو يصوغها إلا الطقس النفسي المتوجس المتقاتل بالانفعالات المتصادمة المتصارعة بالخوف والرغبة في الأمن، بالأمل واليأس. أما اليقين الموحي بالسكون الداعي إليه، لأنه صيغة واحدة واحتمال واحد، فهل يمكن أن يكون وقوداً جيداً لحرائق التاريخ الكبرى؟

إن أي قوم يخوضون أية حرب لا يمكن أن يحاربوا حرب انتصار بكل حيلهم وذكائهم وقوتهم لو استيقنوا يقينين:

لو استيقنوا أن الحق الأزلي الأبدي يقاتل في صفوفهم، أو أنهم هم الذين يقاتلون في جيشه وفي صفه، ثم استيقنوا أن الحق منتصر ولا بد مهما كانت الظروف، أي لو استيقنوا أنهم منتصرون على جميع الاحتمالات.

إن استيقان النصر في الحرب ضد أعمال الانتصار فيها، أو هو عائق في صنع ظروف الانتصار فيها، فالذين يستيقنون أنهم منتصرون لأنهم يجب أن ينتصروا، أو لأنهم يدافعون عن شيء يجب أن ينتصر، حريون بألا يواجهوا الموقف بكل وجودهم واحتمالاتهم، وبأن يصيبهم الكسل والتواكل والاسترخاء، إذ سيرون أن للحق قوة غيبية أو ذاتية تنصره حتماً وإن لم يكن له أية قوة من أنصاره والمؤمنين به، ثم يرون أن إعطاء كل الطاقة والتفكير لقضية محتوم لها أن تنتصر نوع من الجنون أو على الأقل نوع من البلادة والانتحار.

إنك لو قاتلت إلى جانب الله في قضية يقاتل الله إلى جانبها، واعتقدت أن الله لا بد أن ينتصر حينما يقاتل دفاعاً عن شيء لكان محتوماً ألا تقاتل قتال من يبحث عن النصر ويحاول تحقيقه، وإلا لكنت زنديقاً أو مجنوناً أو منتحراً.

وجميع الذين قاتلوا في التاريخ دفاعاً عن الله الذي لا بد أن ينتصر، هم إما زنادقة أو مجانين

أو قوم يبحثون عن الموت انتحاراً، أو أنهم لا يدافعون عن الله، أو أنهم لا يعتقدون بأن انتصار الله محتوم!

أما الذين يشكّون في نتيجة الحرب فإنهم سيرون حينئذٍ أن ما يعطونها من قوتهم ووسائلهم المختلفة هو الذي يقرر حتماً مصيرها، وهذا يجعلهم يهبونها كل ما يستطيعون.

إنهم سيرون الحرب عملاً إنسانياً تفصل فيه أعمال الإنسان وحدها، فلا يرتفعون بها فوق الأسباب والنتائج القوية والذكية أو الغبية الضعيفة دون أي شيء آخر.

فلا يوجد حق ينتصر ولا باطل ينهزم، بل لا يوجد إنسان ينتصر لأنه على حق أو يدافع عن حق، ولا إنسان ينهزم لأنه على باطل، أو لأنه يدافع عن باطل، وإنما يوجد إنسان ينتصر لأن وسائله ذكية وقوية، وآخر ينهزم لأن وسائله ضعيفة وبليدة، أو لأن ظروفه غير مواتية.

إن الذين يشكون في الأشياء وفي نتائجها يعلمون أن عليهم أن يخلقوها، وان تصرفهم إزاءها هو وحده الذي يصوغها ويجعلها كما يريدون أو ضد ما يريدون، وحينئذٍ يصبون فيها كل ما لديهم من احتمالات وظروف وحماس، لأنهم يواجهونها وحدهم.

ولو أنه اقتتل فريقان: فريق يقاتل تحت راية الله الذي يؤمن به ويؤمن بأنه منتصر يقيناً لأنه الإله الحق، والحق محتوم انتصاره، والفريق الآخر يقاتل تحت راية الشيطان الذي يريد انتصاره ويشك في انتصاره ويعتقد أنه لن ينتصر إلا بقوة وسائله ـ أي وسائل المقاتل ـ وذكائها، لكان المتوقع أن ينتصر الذي يقاتل دفاعاً عن الشيطان على الفريق الذي يقاتل دفاعاً عن الله إذا تساوت الظروف والوسائل والقوة، لأن المقاتلين مع الشيطان الذي لا يقين معه سيكون حذرهم ونضالهم أعظم من حذر ونضال المقاتلين مع الله الذي فيه وعنده كل اليقين وكل الحق الذي لا بد أن ينتصر.

إن المطاردين للقنص الحرام لا بد أن يبدوا من الاتقان والمثابرة والذكاء أكثر مما يفعل مطاردو القنص الحلال.

إننا حينما نشك في الشيء يسعِّر الشك خوفنا وأملنا وتفكيرنا، فيصنع ذلك فينا قوة ومحاولات حذرة نحرص على اتقانها والتفوق فيها لنتقي احتمالات الشك ومخاطره ومواطنه.

إن الناس الخامدين والمتبلدين على ما لديهم من حياة وأعمال تافهة ومن مذاهب وآلهة ومستويات ذليلة هم قوم لا تهزهم أو تحركهم الشكوك المتسعرة.

الحياة المتوجسة هي الأذكى والأقوى، إن أحسن ظروف الحياة وأقواها ما كان دائماً مغامرة ومخاطرة وحذراً وشكاً، وبدون ذلك لا إبداع ولا حماس.

المستيقنون لا بد أن يصيبهم الخمول والغباء وضيق الأفق والعجز عن الرؤية الشاملة للأشياء

وعن القراءة لها والتخاطب أو الحوار معها، إنهم مغلقون، مغلقة فيهم أقوى النوافذ الإنسانية، فلا يبصرون وحوش الصعاب والتعقيدات والموانع التي تحاصر الأمر أو الموقف الذي يواجهون، ولا يبصرونه كذلك من كل جهاته، إنهم يتحركون وسط الأخطار والأعداء، أو يقفون بينها بلا رؤية أو حذر، إن الأخطار لتتخطفهم بسهولة وتكرار بأسلوب واحد، ومن طريق واحد، أو من كل الطرق، وبكل الأساليب دون أن يتعجبوا، أو يتساءلوا، أو ينظروا، أو يشكوا في قيمهم أو أربابهم أو زعمائهم أو وسائلهم، لقد وهبوا يقينهم بلا حساب أو شروط لكل الآلهة والعقائد والمذاهب والكون.

إن قدرتهم على اليقين تتحدى كل ما يعانون ويرون من الآلام ودمامات وأخطاء يمارسونها أو تمارس ضدهم.

المواجهون لكل شيء باليقين يعتقدون الأحداث كلها محصورة في قارورة، هي يقينهم، هي مذاهبهم وأربابهم وتفاهاتهم وتاريخهم، إن كل شيء يتصاغر في حسابهم كما يتصاغرون هم في حساب كل الأشياء، فلا يصنعون حينئذٍ الأحداث، أو يتعايشون معها بقوة أو ذكاء.

اليقين يسد المنافذ الواصلة بالمعارف الجديدة والمعارف الأخرى، وقد يرفض جميع المحاولات، ويصنع ضرباً من الاكتفاء الذاتي أو الاكتفاء التاريخي، تتقارب حدوده إلى أن يمتلىء بنفسه ويضيق عن كل شيء آخر في العالم.

لقد تلقينا نحن الحياة بكل يقين ورضا وثقة، وتلقاها الآخرون بيقين وثقة ورضا أقل وبتوجس وقلق وشك أكثر.

لقد حاربنا مستيقنين، لأننا كنا مستيقنين بوجود كل الآلهة، وكل الحق، وكل الذكاء والشجاعة، معنا وفينا، وحارب الآخرون أو خصومنا لا يملكون مثل هذا اليقين الذي نملكه.

لقد آمنا بأنفسنا وآلهتنا ومذاهبنا وآبائنا أقوى مما آمنوا.

لقد آمنا دائماً بأن الله كله، وبأن كل الأنبياء والقديسين والملائكة أجمعين، وبأن كل الكتب المنزلة.

لقد آمنا بأن كل ذلك لنا وليس معنا فقط، بل لنا ملكاً وخدمة، أما أولئك الخصوم أو أولئك الآخرون فلم يكن لهم مثل هذا الملك الكبير أو مثل هذا الإيمان بامتلاك هذا الكون العظيم. فماذا حدث؟ أو ماذا كانت النتائج في اصطداماتنا الطويلة بهم أو بالكون أو بالحياة؟

إن الآوي إلى الغابة، الشاك في كل ما حوله، ليفعل لحماية نفسه ويبدع في حذره وقوته أكثر مما يفعل المسترخي في أحد المعابد الراقدة في نخوة الإله، المستيقن من نصره ورعايته وحمايته له.

والذي يرى الله حيثما اتجه، متحركاً أمامه ووراءه وفي كل جهاته يحميه ويحييه هل يمكن أن يكون في حذره وإبداعه لوسائل النجاة مثل من لا يرى أين اتجه سوى الشكوك والمخاطر والخوف؟

وإذا لم يكن بد من رياح تنشر شراع السفينة، أو من طاقة تدفع بها إلى الآفاق البعيدة فلا بد كذلك من شك ينشر طبيعة النفس، ويدفع بها إلى الآفاق الأخرى.

إن اليقين توكل، والتوكل استسلام، إن الشك حذر، والحذر نشاط، لأن التوكل كاليقين معناه أن الحقيقة كلها هنا، هنا فقط؛ أما الشك فمعناه أن الحقيقة هنا وهناك وفي كل الجهات، فالبحث عنها يعني الانتشار والاتساع والكينونة المتطورة.



منذ بضعة وعشرين قرناً، وفي ليلة كانت كل الأشياء في الكون تبدو وكأنها تخوض أكبر مظاهرة كونية، تعبر عنها بالصمت والبلادة والشحوب، احتجاجاً على وجودها وخلودها الذي لا تجد له هدفاً أو تفسيراً في منطقها أو في منطق أي كائن آخر، والذي لا تفهم أن أحداً ما يمكن أن يستفيد منه أو يسعد به، والذي لا تجد من تستطيع أن تتهمه به، أي بوجودها المفروض عليه الخلود.

في تلك الليلة التي كانت النجوم فيها تنظر بقسوة وحزن واحتجاج إلى كل الجهات، كأنها تبحث ـ دون أن تجد ـ عن الكائن العجيب المختفي عن العيون حذراً أو حياء أو دهاء، ذلك الذي حكم عليها بهذا الجنون الكبير الذي تقاسيه منذ الأزل وإلى الأبد، بلا إجازة عمل، أو أجر عمل، أو شهوة عمل، أو قانون عمل، أو ضرورة عمل، بل وبلا تقاعد شيخوخة، أو انتظار وفاة تحسم المأساة.

في تلك الليلة التي كانت النجوم، وكانت كل الأشياء الكونية كأنها تقاسي أشد ضربات الشعور بالعار والافتضاح لأنها تؤدي عملاً لا تريده ولا يريده غيرها، وليس فيه نفع لها ولا لسواها ولا لمن حكم عليها بهذه السخرة.

منذ بضعة وعشرين قرناً، وفي ليلة كانت كل الأشياء الكونية تبدو وكأنها تمارس أعنف مظاهرة ضد آلهة الأشياء التي لا يمكن تصورها بلا مستوى ولا الغفران لها بمستواها، كما لا يمكن تغيير أخلاقها باسترحامها الذليل أو بالصلاة لها أو ضدها، أو بالتقادم في ممارسة الألم والعبث.

في تلك الليلة كان يوجد هنا، في الأرض، إنسان عظيم حزين، يحتج على الآلهة، وعلى الكون والناس وعلى نفسه بأسلوب آخر، يحتج عليها بالأفكار الأليمة التي يحولها إلى كلمات

قوية ستقرؤها الآلهة فتخافها على مجدها منها، ويقرؤها الناس فيفتتنون بالإيمان والإعجاب بها وبالانصراف إلى درسها ومحاولة فهمها.

وكانت الآلهة لم تكن بعد قد عرفت هذا الإنسان الحزين المخيف الذي سوف يصبح لها، بعد أن تعرفه، غيرة وأسى وتهديداً وخوفاً على سلطانها القوي القديم الموروث.

وقد جاء في احتجاج ذلك الإنسان ضد الآلهة والكون والناس ونفسه هذه الكلمات:

«العالم يشك، والجاهل يستيقن، والعاقل يتروى».

كلمات كأنها التسفيه الدائم العنيف للآلهة والطغاة والمذاهب والمعلمين المتعاقبين على التاريخ يسحقون الشك ويعلمون اليقين!

العلم شك، والجهل يقين، والعقل تدبير. إذن أكثر الناس يقيناً هم الجهال، وأكثرهم شكاً هم العلماء، وأكثرهم تروياً هم العقلاء. وليس العاقل هو العالم ولكن كلاهما يشك، وكلاهما لا يستيقن في تعامله مع الآلهة والطبيعة والناس والمذاهب والعقائد.

«العالم يشك، والجاهل يستيقن، والعاقل يتروى».

كلمات كأنما صاغتها أكبر مجامع الآلهة المتحضرة بعد آلاف الاجتماعات والمؤتمرات العلمية والثقافية.

وليس العالم وحده هو الذي يشك، بل المتوقر والمهذب والعادل والناضج والصادق والمحب للناس، كل هؤلاء يشكون أيضاً لأن الشك يساعد على الصدق والحب والعدل والنضج والوقار والتهذيب. وليس الجاهل وحده هو الذي يستيقن، بل يستيقن أيضاً السفيه والبذيء والفج والحاقد والكاره والطاغية والخاضع لهواه، لأن اليقين يبارك السفاهة والبذاءة والبغض والحقد والطغيان والاستجابة للهوى. فالشك واليقين ليسا مستوى عقلياً أو علمياً فقط، بل هما كذلك مستوى نفسي وأخلاقي.

من الصعب أن تجمع بين الأخلاق الطيبة وبين أن تكون يقينياً في إيمانك بأربابك ومذاهبك وأحكامك على الأشياء ونظراتك إليها.

إن اليقين ينافي الأخلاقية لأن الموقن يكون متعصباً وفظاً، يتدين لإلهه أو لمذهبه أو لزعيمه أو لمعلمه بالحقد والبغضاء والعدوان.

وينافي العلم لأن العلم محاولة وتطلع وتجربة وخطو إلى الأرض وإلى الآفاق المجهولة، إنه سير دائم في طريق ليس تام الإضاءة، وأحياناً ليست فيه أية إضاءة، بل في طريق أجمل وأثمن وأصل ما فيه الشكوك المتوحشة.

وينافي التطور لأن المستيقن يحاول ألا يتغير، بل يعادي التغير والدعوة إليه.

ويخالف معنى الحياة لأن الحياة احتمال، إنها لا تكون إلا احتمالاً ولا تكون جميلة إلا بالاحتمال، ما أسوأها لو أنها كانت يقيناً بلا احتمالات ولا شكوك.

ويخالف كذلك طبيعة الوجود، لأن الوجود إمكان.

وينافي المساواة بين البشر، لأن المستيقنين يقولون لمخالفيهم استيقنوا مثلنا، وإلا فليست لكم مثل حقوقنا، إنهم لا يدركون المعاني المشتركة التي تجعل لهم وللآخرين والمخالفين حقوقاً متساوية في الحياة والحرية والتفكير والاختلاف المتبادل تحت الظروف والإمكانات المختلفة.

ويبطل أو يضعف ـ أي اليقين ـ حوافز العمل والمغامرة، لأن الذي لا يشك متوقع منه أن يكون ضعيف الحذر والمغامرة، وألا يهب كل ذكائه وقوته للعمل الذي يحاوله، أو تفرض عليه مواجهته، إذ ما حاجته إلى أن يصنع مصاير قد تقررت في يقينه؟

لقد كان الإنسان القديم، بل الإنسان في كل العصور يهاب الشك، ويرى فيه عدواً رهيباً يخشاه على بحثه عن الراحة والهدوء، لأن الشك امتداد واقتحام على المجهول وبحث عنه، وهو جبان ضعيف يرهب الامتداد والبحث والاقتحام، أو يتعبه ذلك، فكان من أجل هذا يلوذ باليقين الذي يهبه الراحة والأمان والاكتفاء ولو كذباً.

إن الشك أسلوب من أساليب المغامرة والبحث عن المتاعب، ولكنه مع ذلك قد يكون نوعاً من الشهوة والبهجة النفسية، ومن التحطيم الواهب للسعادة والرضا عن النفس.

قد يكون الشك عدواناً بهيجاً.

قد يكون الشك رغبة من رغبات الاعتداء على الآخرين أو التفوق أو الانتصار عليهم.

قد يكون الشك عدواناً لا يستحق الغضب ولا المؤاخذة.

وليس من المحتوم أن يكون الشك واليقين مستوى علمياً أو عقلياً أو أخلاقياً، بل قد يكونان حالة ذات، قد تكون الذات الشاكة ذاتاً مناضلة متحدية تنزع إلى الاستقلال والتمرد والرفض والمخاصمة مهما كانت مستوياتها العلمية والعقلية والأخلاقية، كما قد تكون الذات الموقنة ذاتاً ضعيفة مستسلمة ترهب المقاومة وتعجز عنها، ولا تريدها مهما كانت أيضاً مستوياتها الأخرى.

إن الشك على كل الفروض وتحت كل الأسباب ليس إلا تمرداً أو مقاومة لسلطان الرواية والآباء والطفولة والتاريخ والآلهة، ولسلطان المعارف المنتهية.

ليس الشك إلا خروجاً أو احتجاجاً على القيود الموضوعة فوق المنابر وفي المعابد، وعلى كل سيادة إملائية سابقة على العقل والحركة والشعور.

إنه معاناة نفسية وفكرية.

إنه مقاومة ورفض لكل ذباب فكري واعتقادي ومذهبي وديني وتاريخي.

إنه انفصال وتحليق بالمعاني الإنسانية فوق الأوامر والقهر والتسليم.

إنه بحث عن الإنسان لكي يعيش أفكاره واحتجاجاته وذاته وغضبه النبيل المشروع بأسلوب أقوى وأوسع وأكثر حرية واستقلالاً من الأسلوب الذي تعيش به الشجرة في البستان، وإنها مع ذلك لتعيش كما تشاء وتستطيع، لا كما يشاء البستاني لها، ولا كما تعيش الشجرات الأخرى المجاورة.

إن الشك يعني أن يصبح الإنسان وحدة إنسانية في وحدات إنسانية، قيمتها في سرعة الحركة والتجدد والتفوق والرفض والمقاومة والمفارقة في المستوى، لا وحدة جمادية بين وحدات من الجماد قيمتها في جمودها وثباتها وبقائها كما وضعت وأريدت، ولا وحدة من الرقع المنسوجة بلا نظام في ثوب فضفاض خلق مطرز بكل ما كان في كل العصور والمجتمعات من أدران.

فالشك في كل ظروفه هو بحث عن مستوى أفضل، والذين يرفضون أن يشكوا هم قوم يرفضون أي مستوى آخر مهما كان أفضل.

وإن لم يكن الشك بحثاً عن الأفضل فإنه حتماً مقاومة لشيء ليس هو الأفضل.

لقد كانت الشكوك في كل العصور ـ بمعناها الفكري والسلوكي ـ هي الأعاصير التي قذفت بسفائن التاريخ إلى غاياته البعيدة، وهوت بأقوى وأقدم البلادات والتأخر والفساد والآلهة والطغاة والمذاهب العقيمة إلى قاع أليم. وكل الوثبات الحضارية التي ظلت تقفز بحياة الإنسان وبكل مستوياته كأنها الدورات غير المنتظمة، إنما تؤرخ دورات أخرى غير منتظمة من الشكوك، تتفجر بها نفوس محاربة مزدحمة بالاحتجاجات والغضب، كما تتفجر الأرض المحزونة الغضبى بالزلازل والبراكين، أو بالينابيع والثمار التي لا تعني في أخلاقية الأرض أفضل مما تعني الزلازل والبراكين.

كان يقال في القديم:

«فلان يفكر، إذن هو خطر».

وكلمة يفكر لا تعني ألا يشك، فالتفكير أي الشك كان يراه الناس قديماً شيئاً خطيراً، بل إن الناس في كل العصور، وفي هذا العصر أيضاً، يرون في التفكير أي في الشك نفس الرأي، ولم يوجد عصر من العصور، ولا مجتمع من المجتمعات لا يقاوم الشك والتفكير، أو أنواعاً من الشك والتفكير على نحو ما، يقاومهما ويخافهما قوم ما، ويرون فيهما أكبر الخطر والتهديد لهم.

وكم هم كثيرون أولئك الذين لا يخشون شيئاً مثلما يخشون الشك في المجتمعات، ولا

يريدون لها شيئاً مثلما يريدون لها اليقين، فاليقين هو الملاك الأمين الحارس للطغيان والخرافة والجهل والفساد والغباء. ولو كانت الأوامر تصوغ عقول الناس أو تؤثر فيها لكان أمرنا الدائم لهم:

أن شكوا دائماً وعلى جميع المستويات وفي كل شيء، شكوا حينما تفكرون، وحينما تؤمنون، وحينما تنظرون، وحينما تصلون، وحينما تريدون أو ترفضون ـ شكوا في كل الأشياء:

في الآلهة والمذاهب والنظم والزعماء والمعلمين، وفي حبكم لأنفسكم ولأوطانكم، وفي تفضيلكم لها على الآخرين وعلى أوطان الآخرين.

ـ شكوا في جميع المرايا التي ترون بها أنفسكم وترون بها الآخرين!

كم هي تفاهة وبذاءة في أي إنسان أن يستقين بأن دينه، أو إلهه، أو وطنه، أو مذهبه، هو أفضل الأديان والآلهة والأوطان والمذاهب، أو أن يرى وجهه في المرآة أجمل الوجوه، إن هذه دمامة إنسانية لا تتفوق عليها أية دمامة أخرى.

ولست أرى فضيلة في أي إنسان أروع من أن يشك في أن دينه، أو مذهبه، أو وطنه، أو رأيه، أو موقفه، أفضل أو أصدق من دين عدوه، أو من مذهبه، أو من رأيه، أو من موقفه.

وكم أتمنى على الهيئات الدولية أن تقوم بعمليات تشكيك شاملة على مستوى عالمي، تعلم الناس كل الناس بكل الوسائل أن يشكوا في يقينهم، في يقين كل فريق بأن ما عنده من مذاهب أو عقائد أو نظم أو آلهة هو الأفضل والأصدق.

كم أتمنى كذلك أن توجد في كل المجتمعات عمليات تشكيك من هذا النوع.

إن هذا التشكيك على المستوى الدولي أو المستوى المحلي أسلوب من أساليب الدعوة للسلام والحب العالمي، وخلق ظروفهما، ومحاربة البغضاء والتعصب والحروب.

*

هل يمكن أن نفكر دون أن نشك، هل يمكن أن نشك ثم لا نفكر، هل يمكن أن نحيا من غير أن نفكر؟ إذن لا بد أن نشك لكي نحيا.

إن الذي يشكون في إيمانهم أقوى إيماناً من الذين يؤمنون ولا يشكون، فالشك ليس نقيضاً للإيمان أو تهديداً له، بل تزكية وإنماء وتنظيف، لأن الإيمان ليس خموداً أو صمتاً عن الحركة والمحاورة، بل هو رؤية وشوق وحماس ومقاساة بالفكر والأخلاق والشعور.

إن الإيمان ليس وضع شيء في شيء، ليس الإيمان وضع آلهة وعقائد محفوظة، في كيس، أو صندوق، أو في عقل، أو عقيدة، أو ذاكرة، وإنما هو حوار عقلي وأخلاقي ونفسي مع الأشياء وضدها، مع الآلهة والكون والناس والمذاهب، وضدها.

إن الذين يؤمنون ولا يشكون، هم قوم قد وضعت وتوضع فيهم أشياء لا تتحرك ولا يحركونها، إنهم مواعين، صناديق، أكياس، حفر بشرية، تلقى فيها الأشياء إلقاء، تلقى فيها أسماء وصفات الآلهة والأنبياء والقديسين والآيات والسور القرآنية والإنجيلية والوصايا والأوامر والنواهي والوعد والوعيد، ويلقى فيها أيضاً أو يكتب عليها أعداد حرس الجنة وأبوابها وخزنة الجحيم، وتكتب أو تنقش أسماؤهم أو ترسم صورهم على جدرانها وسطوحها، فتتقبل كل ذلك بلا رفض أو مقاومة، وبلا حماس أو إيمان.

إن هؤلاء المؤمنين الذين لا يغيرون إيمانهم، ولا يستعملون عقولهم ضد أربابهم وعقائدهم ومذاهبهم، ولا ينظفونها ويوقظونها ويطرقونها بالشكوك والضربات الفكرية يشبهون الغرفة التي يوضع فيها أثاث وملابس وطعام، ثم يترك أطول مدة أو دائماً لا يغير ـ أي الأثاث والطعام والملابس ـ ولا يحرك، أو ينظف، أو تزال عنه الأتربة والحشرات والخمول، بل ولا يستعمل.

إن الآلهة والعقائد والمذاهب تصاب بالخمول والفساد والتعفن وبتراكم التراب والحشرات إذا تقادمت دون تغيير أو تحريك أو تنظيف أو تصادم مثل الأشياء سواء!

وإذا كان من المستحيل أن يعمل الفكر أو يتحرك دون أن يشك ويرفض ويناقش، وإذا كان الشك والرفض والمناقشة جريمة أو زندقة كان المعنى في هذا وهذا أن كل عمل أو حركة في العقل لا بد أن تكون زندقة أو جريمة، أي في اعتقاد من يمنعون الشك ويحرمونه، إذ لا يمكن منع هذه الجريمة والزندقة إلا بتحريم الحركة والعمل على العقل.

إن العبقرية والحضارة والفكر والقوة والإبداع والحقيقة والحياة ـ إن كل ذلك أسلوب من أساليب الشك، لأن كل ذلك تغيير، ولا تغيير بلا شك، أي بلا شك بالمنطق أو بالسلوك.

إن الذين يقاومون الشك فينا هم وإن كانوا لا يدرون أحياناً يقاومون فينا أعمال الحياة و كل فضائلها واحتمالاتها في مستوياتها الإنسانية.

*

إن تفكيرنا واعتقادنا ـ شكاً ويقيناً ـ منعكسان عن أمور متحركة غير ثابتة، عن وجود لا استقرار له ولا يقين فيه، إنهما منعكسان عما حولنا، وعن علاقتنا بهذا الذي حولنا، وعن شعورنا إزاءه وتأثرنا به وتأثره كذلك بنا، ومنعكسان أيضاً عن تغيراتنا الذاتية والعضوية والزمنية المحتومة.

وهل يمكن أن يكون السبب أو الظرف أو الخالق متغيراً، ثم يكون المخلوق أو النتيجة أو العائش في الظرف ثابتاً؟

وهل يمكن أن تتغير الذات ثم لا تتغير استجاباتها وانعكاساتها ورؤيتها للأشياء ولنفسها؟ إن

معنى هذا انفصال المسببات عن أسبابها، والأشياء عن ظروفها، بل عن ذواتها، والمخلوق عن خالقه. وهذا يعني انفصال الحي عن الحياة، ومنطق الكون عن الكون، والإنسان عن الكون، والنبات عن التربة والطقس، والصورة عن الذات.

إنه لو كانت عقائدنا مستقرة لكان استقرارها دليلاً على أنها بلا أسباب، لأن أسبابها كما ذكر هو الوجود وصلاتنا به ـ صلاتنا النفسية والفكرية والمادية، والوجود وصلتنا به متغيران فمسبباتهما يجب أن تكون متغيرة ـ أي أن عقائدنا يجب أن تكون متغيرة، وإلا لكانت بلا أسباب.

إنه لا بد من أحد احتمالين:

إما أن عقائدنا غير مستقرة وهذا ينافي اليقين، أو أنها ـ أي عقائدنا ـ بلا أسباب وهذا يجعلها لا شيء.

عقائدنا وأفكارنا إما أن تكون مأخوذة عن الكون وعن ذواتنا وحالاتها المتبدلة، وإما أن يكون الأمر غير ذلك.

إن كان الأمر هو الأول فلا يمكن أن تكون عقائدنا وأفكارنا ثابتة لأنها نتيجة ما ليس ثابتاً، وإن كان الأمر غير ذلك أي إن لم تكن عقائدنا وأفكارنا مأخوذة عن الكون وعن ذواتنا وظروفها المتغيرة فلا قيمة لهذه العقائد والأفكار، لأنها حينئذٍ لا مصدر لها، فلا يجوز الالتفات إليها.

فالطريق إلى إعطاء عقائدنا ومذاهبنا القيمة والحياة والدليل هو الشك فيها.

إن العقائد ناشئة عن الانفعالات، والانفعالات ناشئة عن الظروف وعن ذوات المعتقدين، والظروف والذوات متغيرة، فالانفعالات كذلك متغيرة، وإذن فالعقائد لا بد أن تكون متغيرة، وهذا معناه الشك فيها.

والعقائد أيضاً ناشئة فيما يقال عن الأفكار، والأفكار ناشئة عن الانفعالات، وعن الأشياء، عن رؤيتها وتجربتها والاصطدام بها، وهذه كلها متغيرة، فالعقائد متغيرة.

جميع ما في الحياة متغير، فعقائدنا وأفكارنا وإحساسنا بها متغيرة إن كانت من الحياة وتحمل معاني الحياة، وإن لم تكن من الحياة ولا تحمل ظروف الحياة فهي إذن شيء طريد، ليس في الحياة ولا في الإنسان، إنها لا تعني حينئذٍ أية قيمة.

الشك هو أحد تساؤلات الحياة ونظراتها الفاحصة، الشك هو الشعور بمرور الأشياء والناس من خلال الرؤية والأعصاب.

الشك هو تفجر الأشياء والناس بوحشية داخل العين والأذن والأحاسيس.

ورفض تساؤلات الحياة ونظراتها ورؤيتها والإحساس بها لا يكون فضيلة إلا بقدر ما يكون الموت والعمى والصمم والعجز عن القراءة فضيلة.

إن كل الطرق تؤدي إلى الشك. إنه لا يمكن أن تكون المادة التي صنع منها الإيمان متغيرة، ثم يكون الإيمان نفسه غير متغير، كما لا يمكن أن تكون الحياة كلها شكاً ثم يكون الاعتقاد الذي هو عطاؤها يقيناً.

كيف يمكن أن يكون الموت والحياة معنى واحداً، أو كيف يمكن أن تكون الزهرة والذبابة منظراً واحداً؟

وإذا لم يكن هذا وهذا معنى واحداً ولا منظراً واحداً، فكيف يمكن أن يكون إحساسي بهما واحداً؟

وإذا لم يكن إحساسي بهما واحداً فكيف يمكن أن يكون تفسيري لهما واحداً؟

وإذا لم يكن تفسيري لهما واحداً فكيف يمكن أن يكون اقتناعي أو إعجابي بخالقهما واحداً؟

وإذا لم يكن ممكناً أن يكون منظر الإله في حالتيه ـ أي في حالة رؤيته في الذباب والموت والمرض، وفي حالة رؤيته في الحياة والزهرة والصحة ـ منظراً واحداً فكيف إذن يمكن أن يكون إيماني به واحداً مع أن مناظره وصيغه مختلفة؟

وإذا لم يكن حكمي على من يقتل هو حكمي على من يعالج المرضى ويهبهم الصحة والحياة، فكيف يكون حكمي على من يخلق الحياة هو حكمي على من يفني الحياة، أو يكون حكمي على من يخلق الطفل هو حكمي على من يصيبه بالمرض العضال؟

*

ولكن من أين يجيء الشك، أمن الشاك نفسه أم من الأشياء حوله؟

لماذا يشك قوم ولا يشك الآخرون؟

هل الناس يشكون لأن الموقف يفرض أن يشكوا، وهل يرفضون الشك لأن الموقف يفرض أن يرفضوا الشك؟

لو كان الشك واليقين بأسباب موضوعية أو خارجية، أو لو كانا بالمنطق، لشك كل الناس، أو لآمن كل الناس.

إن مصدر الشك ومصدر اليقين شيء واحد لا يختلف، أي إن مصدر اليقين هو مصدر الشك، ليس لهذا مصدر ولهذا مصدر، ومصدرهما هو الكون والإنسان، وما فيهما وعندهما

من آلهة وعقائد ونظم وأنبياء وقوانين وذكاء وبلادة وقسوة ورحمة، إن المصدر شيء واحد دائم لا يتغير مع ديمومة تغيره، أي لا يتغير كونه متغيراً.

ولكن الناس مع كون مصدر إلهامهم وتفكيرهم، ورضاهم وغضبهم واحداً، منهم من يشكون ومنهم من يستيقنون، والإنسان الواحد أحياناً يشك وأحياناً يستيقن مع أن الموقف والمنظر والدليل واحد لم يختلف.

إن الناس جميعاً يرون ويمارسون شيئاً واحداً، ومع هذا تختلف رؤيتهم وأحاسيسهم وتختلف الصورة جمالاً ودمامة.

إذن الشك واليقين ذاتيان لا موضوعيان أو لا خارجيان ـ هما منطق ذاتي، أو حالة ذاتية تتحول إلى حالة أو إلى صيغة منطقية.

ولكن هل هناك منطق ذاتي وآخر موضوعي؟ أليس المنطق الذاتي هو الإنسان منعكسة عليه الأشياء أو منعكساً هو على الأشياء، أي منعكساً على الكون منعكساً عليه الكون؟ وهل المنطق الموضوعي أو الخارجي شيء غير هذا ـ هل يوجد شيء غير هذا مهما أردنا وحاولنا وأخلصنا في إرادتنا ومحاولتنا؟

ولأن المنطق دائماً ذاتي مهما كانت مجالاته ومصادره موضوعية أو خارجية أصبح الشيء الواحد والمنظر الواحد يجعل بعض الناس يشكون وبعضهم يؤمنون. ولهذا السبب أيضاً فإن الشيء ونقيضه قد يمنحاننا حالة عقلية واحدة أي يجعلاننا نؤمن كما يجعلاننا نرفض الإيمان.

فمثلاً الموت والحياة، أو الزلزال ونزول المطر في المكان الملائم في الزمن الملائم ـ كلاهما قد يصبح في منطقنا برهاناً على حكمة هذا الكون وبراعته، أو على حكمة الخالق وبراعته، أو على أنه لا توجد أية حكمة ولا أية براعة، لا في هذا ولا في نقيضه.

إن الأشياء والأحداث الضاجة صامتة ليس لها لغة ولا أخلاق، ولا منطق من أي نوع وعلى أي تفسير حتى نضع نحن لها لغتها وأخلاقها ومنطقها. وعلى أي مقياس نضع نحن هذه اللغة والأخلاق والمنطق؟ هذه هي المشكلة.

وإذن هل يمكن أن نخلق الشك فيمن يستيقنون، أو اليقين فيمن يشكون بالكلام والإقناع والدعوة إلى هذا أو إلى هذا إذا ملكنا منطقاً قوياً؟

يرى قوم أن الكون وكل شيء يدعو إلى الشك ويفرضه بما فيه من تناقضات وآلية وآلام وعبث وظلم أقوى مما يمكن أن يفعل أي منطق نفترضه، فإذا كان هذا كله لم يستطع أن يصنع الشك عند المؤمنين فكيف إذن يمكن أن يصنعه لهم المنطق مهما كان صادقاً أو خادعاً لقوته ودهائه.

كما يرى أقوام آخرون أن الكون وكل الأشياء تدعو إلى الإيمان بما فيها من نظام وجمال وضخامة وقانونية وحكمة وحب وصداقة، وبما فيها من أنهار وحقول واهبة، وشمس ونجوم فيها وفاء وكبرياء وصدق واحتشام ونظافة، أقوى مما يمكن أن يصنع أي منطق نصوغه أو نتخيله.

فإذا كان كل ذلك عاجزاً أن يصنع اليقين عند الشاكين أو المحكوم عليهم بالشك فكيف يمكن أن نصنع لهم هذا الإيمان، أو هذا اليقين المفقود بالمنطق وبالكلام المكتوب؟

إذن لماذا أكتب عن الشك؟

أكتب كلما أحيا وأتغذى وأنام وأحب وأبغض وأنظر إلى الباكين والمضروبين والمشنوقين، أو إلى النجوم، وكما أبكي وأحزن، وأشاهد فلماً بوليسياً، وأقرأ قصة مثيرة، وأغني لنفسي، وأخاطب الموتى والآلهة والديار الخالية.

أكتب كما يعوي الذئب، ويغني الطير أو ينوح، أو كما يئن الجريح؟

أكتب بالهدف والحافز والأسلوب الاضطراري الذي تكون به الطبيعة برقاً أو رعداً أو مطراً أو فيضاناً أو زلزالاً أو حياة أو موتاً أو سروراً أو دموعاً.

إني أفعل نفسي فقط ولا أفعل الكون ولا من أجل الكون حينما أكتب عن الشك ومزاياه وعن اليقين ورذائله.

إني لا أعني بما أفعل أكثر أو أفضل مما تعنيه الطبيعة بأفعالها التي قد تضرنا والتي قد تنفعنا.

إن كل شيء يريد أن يفعل نفسه فقط ولا يريد أن يفعل غيره ولا من أجل غيره مهما بدا أنه يفعل من أجل غيره، ومهما فعل غيره.

وإذا كان الزلزال لا ينتظر أن تستفيد منه المدينة المنكوبة، ولا الحيوان المفترس ينتظر أن يستفيد منه الحيوان المأكول، فإن الكاتب عن الشك أو عن أي شيء لا ينتظر أن يستفيد الناس منه، ولا هو يكتب بحثاً عن فائدتهم، إنه يكتب كمفترس يقتات بالناس لا كواهب نفسه للناس، ولهذا فإنه يكتب لهم حينما تكون كتابته ضارة بهم مثلما يكتب حينما تكون كتابته نافعة لهم، وهو لا يفرق بين هذا ولا هذا، ولا يحاول أن يفعل هذا دون هذا، ولا يرضى عن هذا أكثر مما يرضى عن هذا، إنه فقط يفعل ما يريد ويستطيع ويتلاءم معه.

إن المستوى الأخلاقي لا يتفاوت بين السحابة الممطرة والزلزال المدمر، ولا بين الذئب والحمل، وكذلك لا يتفاوت المستوى الأخلاقي بين الكاتب النبيل جداً والفيضان المخرب جداً.

نعم يوجد فرق، هو أن الإنسان يفعل بالفكر والعاطفة والشعور، ولكن هذه خاضعة لذاتية آلية كخضوع الطبيعة لذاتها أي كخضوع الزلزال والفيضان للزلزال والفيضان، ولا فرق.

*

إن الشك المفتقد عند كل الناس أو أكثرهم، والذي يطلب المزيد منه والدعوة إليه ليس هو الشك الأخلاقي أو النفسي، بل هو الشك الفكري والمذهبي.

إن كل الناس أو أغلبهم يملكون المزيد من الشكوك النفسية والأخلاقية ويتعاملون عليها بوحشية، ولعل أكثرهم وأقساهم شكاً نفسياً وأخلاقياً هم أقلهم شكوكاً عقلية ومذهبية.

والشكوك المذهبية والفكرية هي التي يطلب المزيد منها والتبشير بها.

إنها شكوك ضد الأشياء من أجل الإنسان، وليست ضد الإنسان من أجل أي شيء آخر.

والمزيد من الشك يجب أن يعني المزيد من التسامح والحب والاعتذار عن الناس، وهذا هو الذي يعنيه ويصنعه الشك الفكري والمذهبي، أو هذا هو الذي يفترضه ويدعو إليه الشك الفكري والمذهبي، أو الشك ضد النفس دفاعاً عن الآخرين، أو ضد المذاهب والعقائد والآلهة دفاعاً عن النفس وعن الآخرين.

إن الشك بحث عن أسباب التسامح والحب والاعتذار عن الآخرين.

إنه بحث عن أسباب العدل.

إنه بحث عن الأسباب المسقطة أو المضعفة للتعصب والبغضاء.

إنه بحث عن مرآة متدينة يرى بها الناس وجوههم وآلهتهم، ومذاهبهم، وتاريخهم، ومزايا آبائهم بالحنان والحب اللذين يرون بهما وجوه مخالفيهم، وآلهتهم، ومذاهبهم، وتاريخهم، ومزايا آبائهم ـ أو يرون بها دمامات وجوههم بالقسوة التي يرون بها دمامات وجوه الآخرين!

*

الأتقياء أكثر احتلاماً بجسد الشيطان

«إن الناس يحبون الشيطان حباً عضوياً ذاتياً، أما الإله فيحبونه حباً تعليمياً وعظياً، لهذا لم تكن المعركة على الإنسان متكافئة بين الإله والشيطان، كما أن المعركة بين الحبين لن تكون متكافئة.

إن الذي يرفع صوته بغضب بالغ مجهد، يجادلنا أو يعظنا مثل نبي قادم من جبل المناجاة، وفي فمه وأعصابه كل توتر النبوة وغضبها، إنما هو إنسان بائس هارب من عذابه، من حرائقه الذاتية، يبحث في الهرب إلينا عن النجاة لنفسه، لا عن الجنة لنا.

إن القديس هو الذي يطيع إلهه بجسمه، ويطيع الشيطان بقلبه، وإن صاحب المذهب أو النظام المثالي هو الذي يطيع مذهبه أو مثله أو نظامه بصيغته وموكبه، ويعصيه بقصده وحوافزه وأمانيه وطموحه.

إنه لو تحولت كل عداوة وحقد وخبث في النفس الإنسانية إلى سلاح لأصبحت نفوس كثيرة من أكبر المصانع المنتجة للأسلحة، ولاستطاعت نفس ثائر واحد أو زعيم واحد أن تنتج من الأسلحة ما يكفي لقتل جميع البشر».

*

حينما تثور بنا الرغبات المحرمة ـ ولا حياة بلا رغبات محرمة ـ فإما أن نعصيها أو نرويها، إن أرويناها توزعت على عمليات الإرواء وأساليبه، وخف الضغط الداخلي المهاجم لاستقامتنا الأخلاقية ولكل مستوياتنا السلوكية، أي إننا بذلك نطلق سدود الخزان المشحون إلى المجال الأوسع، أي نلقي بالشيطان خارج أنفسنا، وحينئذٍ نشعر بالراحة ونفقد التلظي الداخلي المحرق، ونريح قوانا الدفاعية الذائدة عن أخلاقنا ورغباتنا من تكاليف الدفاع وآلامه ـ نريح ملائكتنا الذين يمثلون قوات الأمن الذاتية التي تدافع عن أمننا السلوكي، من الحرب.

ومعنى هذا أن العملية قد انتقلت من قاع النفس إلى رحاب الفضاء، وخرجنا بهذا من حالة الفسوق النفسي الدائم إلى حالة تشبه الاستقامة والتطهر.

لقد خرجت المعصية من النفس وخرج التمني الآثم منها، وأصبحت النفس أكثر صفاء وطهارة وتوازناً وصداقة للفضيلة.

أما حين نعصي الرغبة، ونتركها دون ارتواء ونضبطها بالاستقامة العنيفة ونغلق دونها كل محاولات التسرب والتعبير، فإننا حينئذٍ نظل من داخلنا نمارس الشيطان، نمارس كل أعضائه ومفاتنه، إننا حينئذٍ نظل في حالة فسوق نفسي، نباشر الفسوق في عمق بشهواتنا وآمالنا، وأغانينا، وأبصارنا، وعقولنا، ولهفاتنا، بل وبأحلامنا. إننا بهذه الحالة نعتقل المعصية في أنفسنا، ونضع عليها الحراس يمنعونها من الاسترخاء والذوبان والانفلات إلى الفضاء.

فالأعفّاء أكثر وأعمق فسوقاً بقلوبهم، من الفساق بأعضائهم - هذي هي المشكلة.

ولا توجد حاجة إلى المفاضلة بين من ألقى بالشيطان خارج حدوده، وبين من استبقاه داخل نفسه وضميره وأمانيه، يقتات باهتماماته وحماسه وكل فضائله، ويستهلك طاقاته بلا ثمن، ويشغله عن كل ما سواه، إن في هذا نوعاً من ممارسة الفسق بالشيطان نفسه.

ما أروع هؤلاء الصالحين.

ما أعظم فضيلة من يذهبون يضاجعون الشيطان بأعماقهم بينما يظلون يمطرون اللعنات الأنيقة على العيون والآذان التي لم تغلق بكل أحكام دون كل آفاق الكون وشهواته المحرمة خيفة أن ترى جمال الشيطان، أو تسمع بعض نداءاته المثيرة، أي خيفة أن ترى أو تسمع من يعيش داخلها ويتغذى بكل إيمانها وصلواتها وأربابها.

من الإسراف في التمني افتراض مثل هذا الذي استفحل مارد الرغبة المزجورة مستقراً في مجاري شرايينه، يستهلكه ويشغله، أهلاً لأن تتولد في نفسه معاني القوة والإبداع والتسامح والحب، أو معاني الفضيلة والاحترام لها، أو يتولد في نفسه الإيمان بالله.

إن مثل هذا الإنسان لا بد أن يظل يعاني، يعاني دائماً ليكون أنيناً وسخطاً وبغضاً، لا ليكون عبقرية أو محبة أو فضيلة أو تسامحاً.

وإذا كان من المزاعم الدائمة أن للخالق نفوساً يختارها لتكون سكناً له فليس من المحتمل على كل الحالات أنه تعالى سيختار نفساً من هذه النفوس المشحونة بالرغبات المزجورة المتلظية التي تعج بحشرات الأماني والأحلام الفاسقة، لتكون بيته المختار.

لقد كانوا دائماً يعلموننا أن الله يصطفي من الناس أصفاهم نفوساً ونيات وأماني، وأكثرهم إخلاصاً له في سرائرهم وضمائرهم، وتذكراً لجماله وفضائله، وشوقاً إليه.

كانوا يقولون لنا دائماً إن الله يبحث عن القلوب. فهل ترونه سيرضى عن مثل هذه القلوب التي تسيل جراحاتها على نصال الشهوات، والتي مزقتها الآهات التي لم تستطع أن تتحول إلى لغة من لغات الأعضاء الإنسانية، والتي تتراقص فيها آلاف الصور، صور المعاصي السعيدة، وصور الطرق المؤدية إليها والأماكن المحتوية لها، وصور أوضاعها وأساليبها، وصورها في المخابىء والمضاجع وفي الأفواه والأعصاب، وفي بيوت الآخرين المحظوظين المحسودين.

ما أفظع القلوب العاصية، الساكنة في الأعضاء المتعففة.

إن مثل هذه القلوب هي خير مكان بل أفضل عرش للأبالسة وللصراصير النفسية والأخلاقية، تلوث من فوقه التفكير والضمير، وتطارد الهدوء والآلهة والتعاليم.

إن مثل هذه القلوب لا بد أن تكون أكبر غابة تعيش فيها جميع الهوام السامة التي تتغذى بنفسها.

أفضل أحزاني ورثائي لذلك التقي الفاسق، الجائع المحروم، لذلك القديس الذي يمشي في موكب من التقى تخشع له النجوم، يمشي وقد كسر طرفه في غمد التقوى والتقية دون أن يستطيع النظر إلى جمال الزهرة أو طلعة القمر خوفاً من أن يعده الله ـ بذلك ـ مشغولاً عن النظر إليه بالنظر إلى ما سواه، أو أن يكون بذلك قد خرق العفاف والنظافة، أو فعل ما ينكره المذهب أو النظام الذي يؤمن به.

كم في قلب ذلك القديس من ألوان الرغبات التي يحرمها مذهبه ونظامه ودعواه، ومن صور النساء المختلفات ألواناً وأبداناً وأعضاء وأزياء ومذاقات، وكم يتصور فيهن من طعوم ومعان واحتمالات وأسرار أخرى يتنزى شوقاً ولذة وألماً وفجوراً كلما تصور تجربتها تجربة كاملة، بعيداً عن كل التعاليم والآلهة والمذاهب والعيون والخوف والوقار والتقى.

كم في قلب ذلك القديس من حديث عن الأموال والشهوات، وعن كل المتع والأشياء الأخرى الصغيرة والكبيرة.

كم يحاول ويتمنى أن يبصر بأذنيه ويسمع بعينيه، بل وأن يبصر ويسمع ويلمس ويقبض بخياله إذا لم يستطع أن يبصر ويسمع ويلمس ويقبض بعينيه وأذنيه وكلتا يديه.

وكم يتمنى أن يرى ويسمع ويفترس بكل جسمه وأعضائه المختلفة.

بل كم يتمنى أن يكون سمعه وبصره وجميع حواسه حادة ومخترقة ومقتحمة لا يحول بينها وبين الأشياء الأخرى المشتهاة المحروسة أبعاد، ولا مذاهب، ولا تقاليد، ولا أثواب، ولا حراسة، ولا قيمة من القيم، وقوة من القوى، ليفترس ويرى، ويسمع، ويلامس بلا قيد من أي نوع.

بل كم يتمنى إن كان صالحاً أن يفقد الله سمعه ورؤيته وعلمه وجميع حواسه وذكائه وغضبه وغيرته وأخلاقيته، بل وأن يفقد كل الناس ذلك أيضاً لكي يستطيع أن يطلق المارد الساكن في أعضائه ونفسه من وراء أزيائه وقيوده، لكي يقتل ويعتدي بلا قانون أو إله أو عين تحدق فيه بغضب!

كم يتمنى أن يصبح جسراً معلقاً تمر من فوقه كل امرأة، وكل شهوة، ذهاباً وإياباً، صعوداً ونزولاً، قعوداً وانطراحاً، وأن يكون روحاً فيها كل شهوات كل الأجساد لتخترق كل الحوائل والحدود والأخطار.

بل إنه ليريد أن يكون شيئاً آخر أقل من الجسر قدراً، ولكنه أكثر منه إثارة ومتعة وحظاً، إنه ليريد أن يكون أرضاً وكرسياً وحذاءً وسريراً وحماماً لتمشي، وتنام، وتجلس، وتتعرى فيه كل امرأة، وشيطان، وكل شهوة محرمة تلعنها كل التعاليم، وتشتهيها كل النفوس.

أنبل أحزاني ورثائي لهذا المسكين الذي تحولت نفسه إلى أكبر مقبرة لجثث الشهوات والأماني، كم ذا بقي في عقله أو أخلاقه أو خياله من مكان للسماء أو للقداسة أو للصلوات أو للإحساس بالمعاني الإنسانية أو بالقيم الفكرية؟

هل تقبل السماء أن تصلي لها أعضاء يصلي قلبها للشيطان والأوحال؟

هل يمكن أن تنطلق أعمالنا القوية المنتصرة إلا عن نفوس فيها صفاء، واتزان، وطاقة، وحب، وتوافق، وسلام مع الخارج ومع ذاتها؟

وهذه النفوس المسكونة بأقوى الحشرات الجائعة المفترسة المعذبة المحرومة من كل مباهج الطبيعة، ومن بسماتها وأضوائها، هل يمكن أن تكون حديقة تنمو فيها الأزهار والنباتات الجيدة، ويعيش فيها نور الشمس وعبقرية الحياة؟

هل يمكن أن نوجه أعمالنا الكبيرة إلى الأهداف الخارجية ما لم نكن في صلح وسلام مع أنفسنا، لا نخوض معارك داخلية بيننا وبين ذواتنا، أي بين ذواتنا وذواتنا أو بين رغباتنا وسلوكنا، أو بين قدرتنا وأهدافنا؟

إن الفراغ من النضال ضد النفس شرط كبير للانتصار في النضال ضد الظروف.

فالمعاناة الذاتية هدم للقوى المبدعة.

وإذا كان جيش أو شعب من الشعوب لن يستطيع أن يصنع حرباً كبيرة خارجية منتصرة بينما يعاني من أهوال حرب ذاتية، فكيف يكون محتملاً أن ننتصر في حربنا مع الحياة أو في الحياة أو ضدها بينما نعاني من ويلات أشنع حرب ذاتية، أي بينما نعاني أشنع انقسام بين سلوكنا وأهوائنا، أو بينما تتسعر أقسى أو أسخف حرب داخل وجودنا، بين الآلهة التي نؤمن

بها دون أن نعرفها أو نشتهيها، وبين الأبالسة الذين نكفر بهم ونلعنهم، ولكننا نشتهيهم ونعرفهم، ولا نستطيع أن نخرجهم من ضمائرنا وقلوبنا؟

إننا نحب الأبالسة حباً ذاتياً وطبيعياً، أما الآلهة فنحبهم حباً تعليمياً، وأي الحبين أقوى وأصدق وأدوم، أو أيهما الحب المطاع؟

إن الذين يناضلون ضد أنفسهم لن يرتفعوا في نضالهم ضد ظروفهم، هذه قضية.

والقضية الثانية أن الذين يعشقون الشيطان ثم لا يستطيعون الزواج منه أو مخادنته بكل أساليب الوصال فلا بد أن يصبحوا في رغباتهم وأمانيهم أكثر فسوقاً وشوقاً إليه، أي إلى الشيطان.

والذين يعشقون الشيطان هم العالم كله، إن الشيطان معشوق عالمي، وإن أي إنسان لن يعشق أي شيء إلا من خلال عشقه للشيطان.

ألم يكن من المحتوم أن يعجز هؤلاء الذين يعانون أنفسهم، ويئنون من جراحها وآلامها، ويحترقون مع انفعالاتهم الباكية المحترقة، ويتحركون في سراديب همومهم الجائعة، ويذوبون في جحيم رغباتهم الفاسقة المفسوق بها ـ أليس من المحتوم أن يعجز هؤلاء عن أن يجدوا الصداقة أو السلام مع أنفسهم أو مع المجتمع أو مع مزايا الإنسان أو مزايا الأديان؟ إن هؤلاء يظلون يتعذبون، ويستهلكون ذواتهم، وطاقاتهم استهلاكاً ذاتياً عقيماً، إنهم يظلون يئنون ويصبحون كالأنهار التي تحتبس فيضانها في منابعها، أو كالسحاب الذي يصب مطره في السحاب، أو كالوحش الجائع الذي يصارع نفسه بدل أن يصارع فريسته، أو كالوحش الذي تقاتل أظفاره أنيابه، أو تفترس رجلاه يديه!

إن الناس يذهبون بحماس وغضب يضربون أنفسهم، ويضربون الأرض، ويبكون، ويصرخون، تعبيراً عن الرغبات المهزومة المكبوحة التي لم يستطيعوا أن يعبروا عنها تعبيراً خارجياً مصوباً إلى الأهداف الصعبة والبعيدة أو إلى الأعداء الذين يصنعون لهم الغضب والمشاعر المضادة.

وقد نصعد أحياناً فوق المعركة الذاتية فنراها معركة فظيعة، وحينئذٍ نحتال للفرار منها، وذلك بأن نفتح كثيراً من الطرق والمسارب الخفية لنهرب منها بعض هذه التناقضات الذاتية المتصارعة، ونحن بذلك نبحث عن الراحة لا عن القيمة.

إننا نلجأ إلى ما يسمى عملية التحويل، أو التعويض، أو التصعيد، أو عملية الهرب من الذات المحترقة، فنصبح مصلحين، أو مفكرين أو ثواراً، أو مبدعين لشيء ما، محولين لتلك الآلام ولتلك الحرب الأهلية في داخلنا إلى نوع من العبقرية الكاذبة، أو العبقرية المعذبة المتعصبة، أو

من الإيمان الفظ القاتم الكالح التعابير، أو من العمل المرهق الذي لا هدف ولا حافز له سوى الفرار من العذاب النفساني الكئيب.

أو إلى نوع من العداء البليد غير المهذب للآخرين.

محاولة فرار، أو محاولة تغطية إخفاق، هذا هو الطريق إلى الصعود الإنساني الباهظ الحزين.

إن أكبر زعماء الإصلاح، وأكبر الثوار المقلقين بدعاويهم وتفاخرهم على العالمين، وإن أكبر الدعاة إلى الجنة أو إلى العدالة الإنسانية ـ إن هؤلاء جميعاً ليسوا إلا قوماً هاربين من حروب وبيلة مستعرة داخل ذواتهم، داخل ثيابهم وبيوتهم ومشاعرهم.

إن أنبياء المذاهب والدعوات والعقائد القوية الثورية المتعصبة التي تفجرت في المجتمعات فأرهقتها بالآلام والهموم والغضب الباطش إنما كانوا قوماً من الهاربين، إنما كانوا هاربين من أنفسهم المحبوسة على رغباتها المكظومة.

لقد كان هؤلاء الثوار والدعاة والمصلحون في هربهم من أنفسهم إلى العمل في الناس، أو ضدهم، أو معهم، أو من أجلهم، فيما يقولون، يشبهون الهاربين من البيوت المحترقة، يحملون في ثيابهم وأعضائهم الحرائق والنيران إلى البيوت المجاورة.

إنهم يحملون الحرائق بحجة حمل المذاهب والدعوات والعقائد والثورات إلى الناس الجائعين إلى النيران، والهاربين من النيران.

إن الذي يرفع صوته بغضب بالغ مجهد، حينما يجادلنا أو يعظنا مثل نبي قادم من جبل المناجاة، في فمه كل جنون الإله، إنما هو إنسان بائس هارب من عذابه، من حرائقه الذاتية، يبحث في الهرب إلينا عن النجاة لنفسه، لا عن الجنة لنا.

وإنها لنوع من العبقرية يصنعها العجز عن الملاءمة بين الرغبة والقدرة أو بين الرغبة والسلوك، ولهذا فما أكثر ما تكون عبقرية منتقمة كالحة، فيها عذاب ووحشية، وإنها في الأكثر لعبقرية كاذبة.

وأغلب عبقريات العالم هي عبقريات كاذبة.

ولكن ما أقل هؤلاء الذين يستطيعون أن يحولوا عجزهم عن إرواء الرغبة إلى نشاط إنساني، وما أصعب وأقل الظروف التي تنتهي بأمثال هؤلاء إلى هذه النهاية.

إن الأكثرين سيظلون يحترقون داخل أنفسهم، ويحولون كل طاقاتهم إلى أنين ورماد، وأكثر من هذا وأسوأ أن يحولوا رغباتهم المقهورة إلى أمراض نفسية وعصبية وعقلية، أو إلى أمراض جسمية.

إن المحتمل دائماً أن الذين يتحولون إلى نشاط إنساني كبير هم المتوافقون في رغباتهم وأمانيهم مع أنفسهم، لكي يكون نضالهم كله موجهاً إلى ظروفهم المضادة ليقهرها.

وعملية التصعيد عملية شاقة، وقليلون من يستطيعونها على مستويات شامخة، إن الأكثرين يندسون بهوان وتواضع في غبار المعركة الذاتية الأليمة، ينزفون أنفسهم ووجودهم، ويلعقون جراحهم، ويمضغون آهاتهم بلا شجاعة أو ذكاء. فالتصعيد يشبه في صعوبته محاولة الخروج من هوة بعيدة القرار، ليس لها علامات أو معارج أو طرق مفتوحة، وليس لها كذلك قمة معروفة، ومن يصعدون أو يحاولون الصعود إليها قليلون، ومحاولو الصعود إليها لا يجدون المحرضين ولا الوسائل أو المراقي.

فكم من يستطيع حينئذٍ، بل كم من يحاول؟

ونجدنا هنا نلتقي بجماعات الصالحين الأتقياء الذين تغضي الرذيلة حياء من النظر إلى كبريائهم الدينية، بل الذين تفقأ الرذيلة عينيها ولا تجرؤ على التفكير في النظر إليهم، رهبة من سمت التقى الذي يغشى وجوههم، نعم نجدنا نلتقي بهؤلاء الصالحين الأتقياء الذين ينظرون إلى الأرض شزراً وتحقيراً كأنما تواضعوا أنبل، بل وأعنف التواضع، حينما قبلوا التصدق عليها بالهبوط إليها، وينظرون إلى السماء كبراً كأنها تطاول عليهم، أو كأنما شرفوها حينما قبلوا أن تكون سكناً لهم، أو كأنما يتدللون عليها في فراقهم لها وهي تغازلهم بافتضاح بكل نجومها وشموسها وأسرارها.

نعم هنا نلتقي بهؤلاء الصالحين الأتقياء لنقول لهم:

مهلاً أيها الصالحون الأتقياء، مهلاً بعض الغرور، فلستم أقرب ـ كما تظنون ـ إلى السماء من الفاسقين الذين تحتقرون، من ملكوتكم، من جنتكم، من ملكوت السماء.

كلكم، أنتم وهم، تتفاهمون مع الشيطان، وتغازلونه بمودة وممارسة، ولكن الاختلاف في التعبير أي في أسلوب المغازلة والممارسة والمودة.

إن أولئك الذين تلعنون وتحقرون يفسقون بالفضاء، ويلقون بفسقهم خارج أنفسهم، أما أنتم فتفسقون بذواتكم، ثم تختزنون فسوقكم داخل ذواتكم.

إن المعاصي المحتجبة المتجمعة في أنفسكم وأمانيكم لهي أعظم عدداً، وأكثر وحشية من المعاصي السافرة المفرقة على أعضائهم، وإن الإثم المختزن في رغباتكم والذي لم تستطيعوا أن تفجروه في أبعاد الأفق لهو أعظم من جميع الآثام التي فجروها ويفجرونها خارج رغباتهم، وإن مذاق المعصية في قلوبكم الذي لم تذقه أعضاؤكم لهو أكثر تركيزاً، وأقوى طعماً من مذاقها في قلوب وحياة أولئك العصاة المطرودين الذين تلعنهم آياتكم وأحاديثكم ومذاهبكم وكتبكم.

مهلاً بعض الكبرياء أيها المغمدون لشهواتهم في ذواتهم، ولذواتهم في ذواتهم، ولشهواتهم في شهواتهم.

أيها المفجرون لفسوقهم في أعصابهم وأجسادهم، أيها الشاربون لعرقهم، الراضعون لأصابعهم، أيها الباصقون لشهواتهم على أنفسهم، أيها الباصقون لهمومهم وآهاتهم على أربابهم ومذاهبهم!

*

ولكن هل معنى هذا الدعوة إلى إفراغ الرغبات والشهوات المعبأة إفراغاً فاسقاً، وهل هذا محتمل؟

لن يكون الأمر كذلك، وقد يكون المعنى أن الذين يفرغون شحناتهم النفسية إفراغاً خارجياً ليسوا أكثر سوءاً من المتعففين الذين يجدون الإثم في أعصابهم دون أن يطلقوه إلى الفضاء الخارجي الذي هو أعظم اتساعاً من ذواتهم، وأكثر تحملاً واستيعاباً لما يلقى فيه.

وما مثل الفريقين إلا كمثل رجلين أصيبا بخراجين محملين بأعباء أليمة باهظة، أحد الرجلين نضج خراجه فشقه ونظفه وقذف بما فيه من ألم وأذى إلى الخارج، أما الآخر فقد ظل خراجه ينزف ألماً، ويصب في ذاته دون أن ينضج أو يستطيع تفجيره.

فأي الرجلين أنظف، أو أفضل، أو أكثر تديناً وأخلاقية؟

والفريقان آثمان وغير صالحين في التقدير الديني والتقدير الأخلاقي، فالذي يعمل الإثم غير صالح وغير نظيف، والذي يتشهى الإثم كذلك غير صالح ولا نظيف.

إنه غير ممكن ألا نتشهى، ألا نتشهى ما تنكره وتلعن عقائدنا ومذاهبنا ونظمنا، وغير ممكن أن نعد مستقيمين أو أتقياء ما دمنا نتشهى الممنوعات التي تحرمها أدياننا ومذاهبنا والأنظمة التي نؤمن بها، وندعو إليها ونعرف بها.

إن التشهي يخرج بنا عن حدود الاستقامة والنظافة والصفاء، سواء أمارسنا ما نتشهى، أم خفنا من ممارسته، أو عجزنا عنه، إذا كان الذي نتشهاه رديئاً ومرفوضاً. إنه من غير الممكن أن تستقيم رغباتنا وأن تكون نظيفة دائماً، وإذا لم تستقم أو تتطهر هذه الرغبات فلن نكون صالحين لو استجبنا لها، ولن نستطيع أيضاً الاستجابة لها، إننا لا نستطيع أن نتطهر.

إذن ما الحل؟

إن الحياة ليس فيها حلول شاملة، وهي لا تعاش بالحلول الشاملة، وإنما هي بحث عن الحلول، أو حديث دائم عن الحلول، وهي دائماً انتقال من مشكلة إلى مشكلة، من مشكلة

قديمة إلى مشكلة حديثة، أو من مشكلة قديمة إلى مشكلة قديمة، أو مقارنة بين مشكلة ومشكلة.

والبشر بل وجميع الكائنات والأحياء يستطيعون أن يعيشوا وسط أضخم وأكثر المشاكل، فالحياة والكينونة لا يشترط فيهما أن تحل مشاكلهما. إن أي حل لأية مشكلة قد يتحول إلى مشكلة قد تكون أعصى، والحل لتلك المشكلة ليس محتوماً أن يقلل من المشاكل الأخرى، بل قد يضخمها.

إنه لا وجود بلا مشكلة، ولا مشكلة بلا وجود.

والأشياء كل الأشياء، حتى حياة الإنسان وسعادته، وحتى كينونة الصخرة، إنما تكون ممكنة بشيء من التوافق الذاتي والخارجي، والبحث عن التوافق محتوم، أو محكوم به على جميع الأشياء حتى على أشقاها ظروفاً. والقدرة على التوافق تجيء على مستويات مختلفة، وهي في مستوياتها المختلفة ليست أقل من الظروف اختلافاً في مستوياتها.

إذن عبث أن نبحث عن حل للرغبات الفاسقة.

كل الناس تحت كل الظروف يحملون رغبات فاسقة أي رغبات محرمة ومنكرة في المقاييس الأخلاقية والدينية والاجتماعية والمذهبية.

إن التلوث الداخلي، إن تلوث الرغبات والأماني محكوم به على كل البشر في كل مستوياتهم، لا يوجد من يستطيع أن يصوغ نفسه أو ينظفها من الاهتمامات والشهوات الرديئة كما تصاغ الأشياء أو تنظف الملابس من الأدران.

وكل الناس لا يستطيعون أن يستجيبوا لرغباتهم وأمانيهم المحرمة، ومن الخير لهم بل ومن الواجب عليهم ألا يستجيبوا لها أو لبعضها.

إذن كل الناس آثمون سواء فعلوا رغباتهم وأظهروها، أم أخفوها تحت العديد الكثير من أجهزة ووسائل الإخفاء التي ابتدعتها الأديان، والتعاليم، والأخلاق، والمجتمعات، وألزمت بها إلزاماً.

وإذن كل البشر آثمون حتى أطهرهم سلوكاً، إنهم آثمون بقلوبهم وأعصابهم وأحزانهم ورضاهم وغضبهم وحبهم وبغضهم وتناقضهم بين ما يريدون وما يفعلون.

إن صانع أكبر مذهب أو نظام في التاريخ ليشتمل من داخله على اهتمامات ونيات وحوافز تجعله أكبر زنديق، وأسوأ متلوث كذاب مرتد في منطق ذلك المذهب أو النظام الذي ابتدعه أو فرضه، وإنه من داخله ليتناقض مع مذهبه ونظامه كما يتناقض معهما كل الخارجين عليهما المخالفين لهما، أو أشد.

إن الغدة الجنسية وحدها لمنتصرة على جميع مذاهب البشر وعقائدهم وأربابهم، وعلى جميع ما تدعو إليه من طهارة ونيات نظيفة، ومنتصرة على كل احتمالات الاستقامة في كل إنسان وفي أي إنسان، إنها منتصرة على جميع احتمالات الاستقامة في الرغبة وفي السلوك معاً.

إنه توجد أشياء كثيرة تقهر السلوك وتضبطه، وقد تصوغه صياغة تبدو جيدة ونظيفة جداً، أما الرغبة فلا يوجد ما يقهرها، أو يصوغها، أو ينظفها من أوحالها.

ولو أن الشهوات والأماني والحوافز النفسية تصورت، أو تجسدت، أو تحولت إلى تعبير، أي إلى سلوك مثلاً، لما كان هناك أي فرق بين أعظم القديسين والدعاة والزعماء والمعلمين الكبار، وبين أفسق الفساق وأعظمهم تفاهة، بل لأصبح القديسون والمعلمون والزعماء والدعاة العظام أكثر أوحالاً وتلوثاً، لأن أمانيهم ورغباتهم وحوافزهم أكثر توحشاً وقوة، وأكثر عدداً وضلالاً.

إذن في كل ذات إنسانية حرب أهلية بين الرغبات والسلوك، أو بين القدرة والإرادة، ولا يوجد من تتوافق رغباته وسلوكه، أو قدرته وإرادته.

وبقدر ما يكون الإنسان كبيراً أو عظيماً تكون هذه الحرب الأهلية في ذاته عنيفة، لأنه يكون حينئذٍ أحوج إلى التناقض بين ما يريد وما يفعل، أو بين أهوائه وتصرفاته، أو بين صيغته الاجتماعية وطبيعته الذاتية. فالكبار والفضلاء جداً هم دائماً أكثر وحشية في أمانيهم ورغباتهم، لهذا فهم أكثر ظلاماً وعبوساً وخطيئة من داخلهم.

ولو تحولت آراء الناس بعضهم في بعض، وحقد بعضهم على بعض، وبغض بعضهم لبعض، ونيات بعضهم نحو بعض، إلى سلوك، وكذلك لو تحولت رغباتهم، وأمانيهم، وكل حقائقهم الداخلية المخفاة تحت عديد الأقنعة والشعارات، لكان شيئاً عجيباً أو شيئاً مخجلاً ومهيناً أن يعايش أو يلقى بعضهم بعضاً، ولكان من المحتوم أن يتفوق الإنسان حينئذٍ في افتراسه على كل الوحوش والحشرات الكئيبة.

ولو أن كل عداوة أو بغض أو خبث في النفس تحولت إلى سلاح لأصبحت نفوس كثيرة من أكبر مصانع الأسلحة، ولاستطاعت نفس واحدة ـ قد تكون نفس أكبر زعيم، أو أكبر معلم، أو داعية إصلاح ـ أن تنتج من الأسلحة الشريرة ما يكفي لقتل كل البشر.

إن حقد رجل واحد، أو بغضه، أو غيرته، أو غضبه لو تحول إلى سلاح لفاق كل ما أنتجت مصانع الأسلحة في كل العالم، في كل التاريخ.

كثيراً ما يلتقي بعض الزعماء الذين نعرفهم بزعماء آخرين مثلهم نعرفهم أيضاً نفس المعرفة وقسوتها ليتحدثوا طويلاً وبأصوات عالية عن حب بعضهم لبعض، وإخلاص كل منهم للآخر

إلى حد الموت، موت الصديق فداء لصديقه. فكان كلما حدث لقاء بينهم تهجم على خيالي هذه الصورة أو هذه الرغبة:

ماذا لو أن ما في نفسي هذين الزعيمين المتعانقين، من بغض، وحقد، وغيرة، وكذب، وخداع، وتآمر، وسفاهات، وبذاءات، ونيات، وخصومة، وتاريخ، ومستقبل سيحدث، تحول بأسلوب ما إلى صورة، أو إلى كلمات مكتوبة، أو منطوقة، معلقة فوق رأس كل منهما، تتحرك وتسير معه كلما تحرك وسار، لا يستطيع أن يتخلص منها أو ينكرها، ويرى كل منهما مكانته ونفسه في نفس الآخر، وتصبح الرؤية بينهما متبادلة، ويرى ذلك الآخرون أيضاً؟ لعلهما لو حدث ذلك يستطيعان أيضاً أن يتلاقيا ويتصافحا ويتبسم أحدهما للآخر، ويتحدثا بافتضاح عن الحب القاتل الذي يؤرق كلاً منهما لحبيبه ـ ثم أيضاً يمكن أن يصدرا ذلك البيان المشترك المعروف الذي كأنما كتبته السموات بكل ما فيها من سمو ونظافة وشموس؟

لا أريد أن أخفي أني أشعر بنشوة حينما أتصور هذه الرغبة وأتخيل هذه الصورة، وأتمنى بعنف لو يحدث ذلك!

إنه لا حدود لوقاحة البشر ـ ولا سيما الزعماء والقادة والمعلمين ـ ولا حدود كذلك لكذبهم، لكذب بعضهم على بعض، كما لا حدود لاستعدادهم لكي يتقبلوا ويتجرعوا بشهية كل هذه الوقاحات والأكاذيب التي يتعاملون عليها، ويغازل بعضهم بعضاً بها!

*

أليس من الممكن أو الصواب حينئذٍ القول بأن الحرب الأهلية داخل ذات الإنسان هي المحرك أو الحافز الأكبر على الإبداع؟

إن هذه الحرب تجعلنا نقلق، ونهرب من أرض ذواتنا، من مواقع وجودنا، وكل هرب من الأرض إنما يعني اكتشافاً ونشاطاً وتحدياً.

أما المصالحون لأنفسهم، المتوافقون معها، الراضون عن أرضهم ومواقعهم فلماذا يخرجون منها، أو يفكرون في الخروج بأي أسلوب من أساليب الخروج؟

إن الخروج تعبير عن التنافر والرفض، وعن الاحتجاج على أضعف الاحتمالات.

إن الأعمال والأفكار الكبيرة والعبقرية بكل لغاتها وتعبيراتها قد تكون هي التعبير الأعنف عن مخاصمة الذات، والرفض لها، والخروج عليها، والمعاقبة لها، ومحاولة الهجرة من أرضها.

وقد يكون عجز من يعجزون عن الإبداع إنما يعني أنه لا توجد من داخلهم حرب أهلية، أو أنهم عاجزون عن الشعور بهذه الحرب، أو الرد عليها، أو عن الاستجابة لها.

كما قد تكون العبقرية بكل نشاطاتها وأساليبها ليست إلا احتجاجاً على الذات جاء في صورة احتجاج على الطبيعة، وإنها ليست في حوافزها أو أهدافها احتجاجاً على الطبيعة.

وهل يمكن أن يحتج على الطبيعة من لا يحتجون على أنفسهم، أو هل يمكن أن يحارب الظروف الخارجية المضادة من لا يحاربون ذواتهم؟

إن المسالم لذاته لا يمكن أن يحارب شيئاً أو أحداً.

إن الحرب ضد الذات تعني الحرب ضد الطبيعة، أو إن الحرب ضد الطبيعة إنما تعني الحرب ضد الذات.

إنه من المحتمل جداً أن العقل الأول أو المحرك الأول لكل عمل إنساني ليس سوى التناقضات الذاتية داخل الذات، وأن الذات المتصالحة المتناسقة ـ لو أمكن أن توجد ـ هي أعجز الذوات عن الانجازات والتحديات الكبرى.

ولعل الذوات المتقاتلة داخلياً إلى حدود التمزق هي التي تصنع الأفكار والتغيرات والأحداث الكبيرة المثيرة ـ أي إذا كانت تحمل تفوقاً طبيعياً من أي نوع.

ولو ارتوت رغبات أي إنسان ارتواء كاملاً لكان عجيباً أن يعمل شيئاً، أو يفكر في أي شيء.

إن الحرمان من الجنس، أو السرور، لخليق بأن يصنع أحداثاً ما، أحداثاً لامعة أحياناً.

ليس هناك من يستطيع أن يعيش في وفاق أو صلح تام مع نفسه، لهذا لم يكن محتملاً أن يكون هناك من يستطيع أن يعيش في سلام أو وفاق تام مع ظروفه.

لقد قاوم البشر جميعاً ظروفهما على مستويات متفاوتة لأنهم كانوا جميعاً يقاومون أنفسهم على نفس هذه المستويات المتفاوتة!

*

إننا كثيراً ما نذم الشيء، ونحرمه، ونحول اجتنابه إلى موضوع أخلاقي لأننا لا نستطيع الظفر به، أو لا نستطيع فعله أو الاستفادة منه بكرامة وسهولة، أو مطلقاً، ولا نذمه أو نحرمه لأننا نكرهه، أو نستقبحه أو نرفضه حقيقة، أو نراه ذنباً إنسانياً أو كونياً.

ولكن العجز عن الشيء قد يكون عجزاً نفسياً أو فكرياً، أي قد يكون العجز نوعاً من الرهبة أو التهيب أو الإعياء النفسي أو الفكري أو الأخلاقي، لهذا فقد نكون عاجزين عن الشيء وإن بدا أننا نستطيعه، فأسباب العجز متعددة، والتهيب هو واحد قوي من هذه الأسباب المتعددة.

إن أسباب العجز عند الإنسان أكثر من أسباب العجز عند أي كائن آخر، فالطبيعة أو

الكائنات الأخرى غير البشر لا تعجز عجز تهيب أو تفكير، أو عجزاً نفسياً، على المستوى الذي يعجزه الإنسان.

إن الرغبة في الشيء ـ لا الرغبة عن الشيء ـ هي أحياناً كثيرة سبب تحريمه ومعاداته وتحويل الذم له، والخطابة ضده إلى فضيلة دينية أو إنسانية.

ولعل أبلغ وأعظم الخطباء والمعلمين في التاريخ الذين كانوا يرهبون الدنيا بتعاليمهم المحرمة الناهية، ويحولون كل شيء إلى حديث عن الحرام، وخوف من الحرام ومن احتمالاته وشبهه والخطو حوله إنما كانوا عشاقاً مستترين، إنما مصابين بعشق الحرام، وعشق الرذائل التي يلعنون.

لعلهم إنما كانوا يطلقون أسلحتهم على الحبيب أو الحب الذي لم يستطيعوا الظفر به، لقد أصبح القنص الشهي البعيد حراماً لأنه لم يستطع أن يكون قنصاً قريباً.

إن الناس ـ ولا سيما المعلمين والزعماء ـ كثيراً ما يتكلمون باسم الفضيلة، ويحاربون تحت لوائها وهم في حوافزهم وأهدافهم ليسوا إلا حاسدين لأعدائها الذين لم يشاركوهم في تحمل عذابها وحرمانها.

إننا لو لم نشعر بقيمة الشيء في أنفسنا، وبضغطه على رغباتنا، لما وجهنا إليه اهتمامنا المعادي المحرم له.

إن احتقارنا الضاج أو المعبر للشيء ليس سوى إعلان عن إحساسنا العميق به أو بالحاجة والجوع إليه. ولهذا نجد دائماً الدعاة الكبار الذين أرهقوا أو أذلوا تفكير الإنسان وأخلاقه بالتحريم وبالمناهي وبالشرائع التي كادت تحرم قدرة العين على أن ترى، وقدرة الأذن على أن تسمع، وقدرة الأعضاء على أن تشتهي، وقدرة القلب على أن يجوع أو يخفق إنما كانوا ـ أي أولئك الدعاة الكبار ـ من المحرومين أو العاجزين أو المتهيبين.

لقد أغرقوا السفينة التي لم يستطيعوا الركوب فيها، وبصقوا على المائدة التي لم يستطيعوا الأكل منها ـ أي لقد حاولوا أن يفعلوا ذلك.

إن الذين يأمروننا بالمعروف، وما المعروف إلا حرمان في الغالب، ويسدون إلينا النصائح والعظات القوية، وينهوننا عن المنكرات التي تعشقها نفوسنا ونفوسهم، والتي لا يستطيعون أن يستفيدوا منها إنما هم في الأغلب قوم تحركهم الغيرة منا لا الحب لنا، إنهم يريدون أن يحرمونا مثلهم، لا أن يدخلونا الجنة.

ما أكثر المعلمين والأتقياء الذين تنهمر اللعنات الطيبة من أفواههم على المرأة مثلاً لأن تصوراتهم المحبوسة على نفسها تتزاحم فيها أسراب النساء المزدحمات أعضاء وفتوناً وأسراراً أخرى، بعيدة عن مواقع أيديهم وأشواط قدرتهم، وما أكثر ما تنطلق لعناتهم على القوة والنجاح

والمجد واللذة، وسائر المباهج مغموسة بشهقات الشهوة والثناء المتنكر، منبعثة منها روائح الحرائق المنبعثة عن وهج الحرمان وهمومه، بل منبعثة منها روائح الحرائق المتضرمة بأشلاء عفتهم وطهارتهم الباكية الحزينة!

إنه لن يصاب بمرض البغض والعداء والوعظ المتوحش ضد اللذائذ والنجاح والقوة وسائر المباهج القوية إلا المصابون بالحب العاجز عن الممارسة.

والذين يفعلون اللذة المحرمة لا يحبونها كما يحبها الذين لا يفعلونها.

ولكن لماذا لا نستقيم من الداخل والخارج، أو لماذا لا نستطيع ذلك؟

لأن الاستقامة هي ألا نصطدم أو نتناقض مع أنفسنا أو مع الآخرين أو مع الطبيعة.

وهل يمكن أن يكون هناك وجود بدون تصادم وتناقض؟

إذن هل يمكن أن نستقيم بسلوكنا، أو برغباتنا وشهواتنا، ونياتنا؟

الوجود تصادم، والتصادم ذنوب وتلوث، إذن هل يوجد وجود لا يتلوث ولا يذنب؟

حينما يقترض الضعفاء حضارة الأقوياء

«إن الله لم يهزم في أي مكان، أو أمام أي خصم أكثر مما هزم في العالم العربي، أمام زعمائه وحكامه المتألهين.

إن الله ليهاب أن ينظر إلى أي بلد عربي لوقاحة الوثنية المتجبرة فيه، ولكثرة الطغاة الأوثان المتعاقبين عليه باسم الإله.

هل العرب متسامحون مهذبون إلى هذا المدى، إلى المدى الذي يجعلهم لا يستطيعون من تسامحهم وتهذيبهم أن يرفضوا أو يغضبوا أو ينكروا، لا يستطيعون من نبل أخلاقهم، أو شجاعتهم أن ينظفوا ملابسهم من العفونات التي يلقيها عليهم ويريدها لهم الآخرون؟

إن استهلاك الضعفاء لحضارة الأقوياء يعني الهبوط بها، لأن المستهلك لها يكون حينئذٍ أقل منها في جميع مستوياته وتعبيراته، فيشوهها، ويعني كذلك الهبوط بالمستهلك لها، لأنها لتفوقها عليه ترهقه وتفقده التوازن والوقار، إنها تلزمه بما لا يتقن ولا يستطيع، حينئذٍ يصبح شاذاً عدوانياً صارخاً صاحب ادعاءات عريضة».

*

الشعوب العربية شعوب كبيرة عريقة، ذات ثروات طبيعية هائلة، وذات تاريخ ومراكز أرضية شاسعة ممتازة.

لقد ظل التاريخ والطبيعة يخصانها بحفاوتهما، ويختارانها لتكون أحد المعابر الحضارية والإنسانية الدائمة العظمى، وإنها مع ذلك لذات دين، وكبرياء عرقية ودينية وتاريخية وأخلاقية، وذات تعاليم ترتفع بنسبها إلى ضمائر الآلهة وذكائها وشرفها.

لقد اقتنع العرب بأن دينهم وإلههم هما أفضل الأديان والآلهة لكي يقتنعوا أنهم هم أفضل الناس.

لقد كان تفضيلهم لدينهم وأربابهم حيلة إلى تفضيلهم لأنفسهم.

إذن لماذا جاء العرب غير متكافئين مع هذه المزايا التي حاباهم بها التاريخ والطبيعة المسرفة في محاباتها؟ لماذا جاء وجودهم أقل من احتمالات وجودهم؟ لماذا جاءت الطبيعة والظروف فيهم أعظم من الإنسان، لماذا جاؤوا متخلفين في مستوياتهم الحضارية والعلمية والأخلاقية والإنسانية بينما جاءت الطبيعة والظروف التي يعيشون فيها متفوقة؟

لقد تجمعت للعرب كل أسباب التفوق والانتصار والرخاء، وأعطاهم القدر من نفسه وحماسه أكثر مما أعطى كثيراً ممن تفوقوا عليهم في إبداع الحياة والاستمتاع بمزاياها.

لماذا تتأخر الأمم وتظل متأخرة وفقيرة؟

إن كان لقلة مواردها من الطبيعة فموارد العرب من الطبيعة عظيمة، أو على الأقل فمواردهم ليست أقل من موارد من تفوقوا عليهم.

وإن كان لقلة عددها البشري فعدد العرب البشري ضخم، أو هو على الأقل يكفي ليصنع منهم مجتمعاً أفضل وأعظم تقدماً مما فعلوا.

وإن كان لضيق مكانها وحدودها الكونية أو لضآلة حظها من التعاليم والمثل والتطلع إلى السماء فحظوظ العرب من ذلك كبيرة جداً.

وإن كان لكثرة التعاليم والمثل فلماذا كثرت تعاليمهم ومثلهم؟

إن كانت الآلام هي التي تصنع عبقرية الأمم وتحليقاتها الإنسانية فقد تألم العرب أطول الأوقات وأقسى الآلام، ولا يزالون يتألمون، بل لقد أصبح الألم لطول ممارستهم له تمجيداً للإله والإنسان والرجولة في تقديرهم، بل لقد فسروا الإله الفاضل جداً بأنه هو الذي يعذب ويتعذب جداً.

وإن كانت جودة الظروف هي التي تبدع العبقرية والتفوق، فلقد جادت ظروف العرب، جادت ظروفهم الطبيعية والتاريخية حتى لقد أصبحت جودة ظروفهم هجاء لموهبتهم.

وإن كان الزمن هو الذي يصنع العبقرية فلقد كان للعرب زمن يعيشونه ويتعاملون معه، وكان الزمن نبيلاً في منحه نفسه لكل الناس والأحياء والأشياء بعدل ومساواة حتى أنه لا يوجد شيء في هذا الكون جاء صادقاً في عدله ومساواته سوى الزمن، بل إن الزمن كان أقسى نموذج في سخفه وإرخاصه لنفسه حينما فرض وجوده على كل الناس والأحياء والأشياء، دون تمييز، أو تفاوت أو رحمة بمن يفرض نفسه عليهم.

وإن كان النور هو الذي يبدع الناس، ويبدع مزاياهم الحضارية أو الإنسانية فإن الشمس ـ

واهبة كل النور الذي يعيشه الإنسان ـ تطلع على العرب في مواكب نورها أكثر مما تطلع على الآخرين الذين هم قمة التحضر والقوة.

وإن كان الليل أو شدة الظلام هو الذي يصنع ذلك فإن للعرب ليلاً وظلاماً يستطيع أن يصنع منهم مستوى إنسانياً وحضارياً أفضل من جميع مستوياتهم.

وإن كان الصانع للناس هو الوقوع في مجرى التاريخ والأحداث فإن العرب يستطيعون أن يفخروا على كل البشر بأنهم أكثر منهم جميعاً سقوطاً في مجرى التاريخ والأحداث.

لقد خرجت من أرضهم ووجودهم أكثر وأقوى زحوف الآلهة والمعلمين، ومرت من فوقهم، وفي دروب أرضهم بكل رهبتها وثقلها لتنتشر على العالم، وهوت السماء بكل أثقالها وهمومها ووحوشها على ضمائرهم، وأفكارهم وتعاليمهم لتذلها وتقتات بها، وزحفت عليهم أبشع الحروب والغزاة، وأقامت منهم وبينهم الممرات الطويلة العظيمة التي ماتت إعياء ووحشة فيها الآلهة والدعاة والشعوب والأحداث، بل التي عبرتها السماوات باحثة عن الناس والمؤمنين وعن المجد والتاريخ والانتصارات، وعن المراكز الممتازة المختارة.

نتحدث بتعال، مؤكدين أن العرب بطبيعتهم المولودة أحرار، ورافضون لكل هوان، وأباة للضيم، ومعلمون لكل كبرياء فكرية وأخلاقية، وانهم من حريتهم وشمسهم لا يعبدون شيئاً، وقد يعبدون الله وينحنون له أحياناً، ولكن بغضب واشمئزاز، غيرة على كرامتهم وحريتهم.

وإنهم ليعتقدون أن عبادتهم لله أسلوب من أساليب التضحية بالكرامة في سبيل المحافظة على المجاملة والحياء والأخلاقية المطلوبة له تعالى.

وكذلك نتحدث بتعال أيضاً، مؤكدين أن العرب كذلك، عادلون وإنسانيون وأصدقاء لكل الناس والكون، يتعذبون جميعاً إذا تعذب حوت في أعماق محيط.

ويمرضون جميعاً إذا مرضت حشرة يحتفظ بها أحد أطفال جيرانهم.

ويجوعون جميعاً لو جاع برغوث لم يستطع أن يتغذى بأفضل أعضائهم.

وأنهم مرضى من كثرة ما ينفقون من صداقتهم وحبهم على أصدقائهم وأعدائهم.

وأنهم أعداء لكل مستويات الفساد والرذيلة.

وأنهم بالغريزة أصحاب ذكاء ونشاط وخنزوانية وشجاعة تسجد لها كل الجباه، وإن الله قد خلقهم كثناء على نفسه، وخلق كل من سواهم كاحتجاج على نفسه. إنهم يشعرون بعمق أن الله قد خلقهم هم وحدهم من حبه حينما أصبح مبتهجاً، وخلق كل من عداهم من أحزانه وغضبه وسخطه حينما أمسى بعد يوم عمل شاق حزين في التجارب على البشر والكائنات الأخرى.

إنهم يتحدثون، ويتحدثون، ويرون، ويرون في أنفسهم ببلاغة وحماس، ولكن البلاغة قد تكون أكبر من الناس ومن الكون ومن الشمس أيضاً!

قد يكون من الصحيح أنهم لا يعبدون الله إلا أحياناً وبغضب واشمئزاز، بل قد يكون الصحيح أنهم لا يعبدونه مهما تحدثوا عنه وشادوا المعابد باسمه.

لقد هرب الله من العالم العربي مهزوماً مطروداً أمام حشود الطغاة والأصنام الفاسقة المعبودة دونه والرافضة أن يكون لها أية شركاء حتى ولا الله الذي يزعمون أنهم لا يريدون شيئاً سواه حتى ولا الحياة أو المجد لأنفسهم.

إن الله لم يهزم في أي مكان، أو أمام أي خصم أكثر مما هزم في العالم العربي أمام زعمائه وحكامه المتألهين.

إن الله لا يستطيع أن ينظر إلى أي بلد عربي لوقاحة الوثنية المتجبرة فيه، ولكثرة الأوثان المتعاقبة عليه!

إن العرب قوم عادلون جداً، إنهم يضعون الله في المحاريب، ويضعون الأوثان في قلوبهم وأخلاقهم المعروضة في السوق، والموضوعة تحت أقدام أعتى وأجهل الطغاة!

لقد أبدع الآخرون كل أمجاد هذه الحضارة بكل ما فيها من حريات وأفكار، وثقافات، ومعارف، وقيم، وقوة، واكتشاف، ورخاء، وتمجيد للإنسان، مبتدئين من أنفسهم، وأزالوا جميع الظروف المعوقة وغير الملائمة. لقد حفروا مجرى النهر الحضاري العظيم فوق صخور الطبيعة وعصيانها وفوضاها وتعقيداتها، متحدين كسل الآلهة وقداستها واستمرار التاريخ وقوة إملائه، مبتدئين بلا بداية سابقة.

أما الشعوب العربية التي ترى أن أكبر وأفضل أمجاد الإله خلقه لها وتقبلها أن تكون شعار عبقريته فقد وجدت النهر محفوراً، فهل استطاعت التجديف فيه بمهارة؟

إني لأشعر أحياناً بأني محتاج إلى أن أوهب كل ما في الكون من بلادة حسٍّ لكي أستطيع أن أبتلع كل ما في العالم العربي من طغاة ومن طاعة لهم وصبر عليهم، ومن غباء وغرور واعتزاز بهما، ومن عجز وتفاهة وإعلان عنهما، ومن أكاذيب وإهانات ومن استسلام، وهضم لكل عذاب وغباء!

نحاول أحياناً أن نفسر تخلفنا وعجزنا عن التكافؤ مع احتمالاتنا تفسيرات كثيرة. إننا قد نفسر ذلك بالوقت، إذ نقول:

لا بأس ولا شيء غير معقول أو غير جيد، إن هذا التخلف سيزول بمرور الزمن كما تزول الهموم والصداع!

ولكن هل معنى هذا أن الآخرين الذين أبدعوا الحضارة والتطور الإنساني قد سبقوا العرب وكل من تخلفوا مثلهم إلى الوجود في الحياة، أي أن هؤلاء قد وجدوا أحياء أو بشراً قبل أن يوجد أولئك أحياء أو بشراً، لهذا تعاملوا مع الحياة وطوروها وطورتهم أكثر لأنهم قد جاؤوا قبلاً؟

والقبل في الوجود أليس يعني القبل في الصفات؟

وهذا التفسير ليس تفسيراً كريماً ولا مريحاً، لأنه يعني أن بين المتفوقين والمتخلفين تفاوتاً طبيعياً، وأنه لا يمكن بتغيير الظروف، أو بالمحاولات القوية والذكية، المساواة بينهم، لأن بعضهم قد سكن الكون وصار حياً أو إنساناً قبل الآخرين، إن الوجود التاريخي حينئذٍ مختلف.

والذين يسبقون إلى الوجود، أو إلى الحياة، أو إلى الصيغة البشرية أي إلى الكينونة البشرية بمليون عام أليس محتوماً أن يتفوقوا في خصائصهم الحضارية المختلفة على من تخلفوا عنهم بما يساوي هذه المدة؟ إن هذا شيء لا يمكن افتراض غيره إذا كان الإنسان إنما وجد وتحضر بالتطور.

ولو أمكن أن يجيء البشر إلى الوجود، أو إلى الحياة أو إلى الصورة البشرية على فترات دهرية متباعدة، ثم أمكن أن يكونوا متساوين في قدراتهم الحضارية والإنسانية لكان معنى هذا إنكار التطور.

والإيمان بالتطور يعني الإيمان بحتمية التفاوت بين الكائنات، وبين البشر كذلك. ولو كان الإنسان يكون بلا تطور لأمكن أن يكون منذ ملايين الأعوام ما هو كائن الآن. لماذا يظل الإنسان يتقدم حضارياً وإنسانياً إذا كان التقدم الزماني إلى الوجود لا يعني شيئاً؟

إن الزمان كائن محايد فلماذا صنع بعض المجتمعات وبعض الكائنات أفضل أو أكثر مما صنع المجتمعات والكائنات الأخرى؟

إننا أحياناً نحاول أن نفسر هذه الظاهرة بأن نزعم أنها نوع من المصادفة غير الطيبة التي لا يسأل عن سبب أو تفسير لها، والتي لا يمكن أن تكون لها أسباب من ذاتها أو من ظروفها، إنها تشبه دائماً ما نجده في وحدات هذا الكون من تفاوت، من قوة وضخامة وجمال إلى ضعف وضآلة ودمامة.

إن هذه الشجرة، وهذه اللؤلؤة، وهذه النجمة، أصغر وأضأل، أو أكبر وأعظم من مثيلاتها وقريباتها من الأشجار واللآلىء والنجوم، وهذا المرض أو هذا الألم أفتك من الآلام أو الأمراض الأخرى، وهذا إنسان وهذا حيوان وهذا جماد، وهذا ذكي وهذا غبي، وهكذا. إنها ضربات من القدر لا تفسير لها ولا سؤال أو جواب عنها.

إنه كما وجدت الطبيعة والبشر بلا تفسير أو منطق كذلك تتفاوت الطبيعة والبشر دون تفسير أو منطق، إنه محتوم العجز عن الجواب والتفسير.

ومهما سارت الأسئلة والتفسيرات في طرق مفتوحة أو يظن أنها مفتوحة، فإن جميع الأسئلة والتفسيرات تنتهي حتماً ودائماً إلى طريق مغلقة لا يستطاع اختراقها.

إن كل شيء مكتوب عليه بجهامة وقسوة: لا جواب أو لا تفسير، إن كون الشيء له جواب أو تفسير يعني أن الشيء ليس هو الشيء فقط، بل هو الشيء وتفسيره وجوابه، أو هو الشيء ومفسره وواضع جوابه.

لو كان للشيء ـ لأي شيء ـ جواب أو تفسير لكان المعنى أن للأشياء أهدافاً وغايات، وأن لها بدايات ونهايات ما، وأن لها واضعين ومخططين يصوغونها ويخرجونها طبق احتياجاتهم وأهدافهم.

وقد نذهب نعتقد أننا بالتوقف عن التساؤل قد حللنا أو عالجنا مشكلة كبيرة موجودة. وقد يكون هذا التفسير، أو هذا التوقف عن التفسير تفسيراً معقولاً، أو محتملاً لو كان ممكناً أن تكون هذه الظاهرة التي نشاهدها في النباتات وفي جميع الكائنات الأخرى من غير أسباب أو تفسيرات ـ وهل يمكن ذلك؟

هل يمكن أن تكون شجرة، أو نبتة أقل من أخواتها الشجرات والنباتات الأخرى المساوية دون سبب أو تفسير؟ هل يمكن أن تكون زهرتان في الحديقة، إحداهما نامية جميلة، والأخرى شاحبة مشوهة من غير أن يكون لهذا الاختلاف أسباب في الذات أو في الظروف؟

إن التفاوت بين النباتات وغيرها لا بد أن تكون له أسباب من ذاتها أو من ظروفها، وكذلك التفاوت بين البشر. ولهذا فإن العلم يحاول علاج هذا التفاوت أو القضاء على الآفات التي صنعت التفاوت. ولو لم يكن للتفاوت أسباب لما كان ممكناً علاجه.

ومع هذا فلا بد أن يوجد هنا سؤال يقول:

إذا كان لكل ظاهرة سبب أو أسباب فما أسباب هذا السبب، أو هذه الأسباب؟

إنه لا بد من الانتهاء إلى أن الشيء وسببه شيء واحد، ولا بد أن يكون الشيء دائماً هو سبب نفسه.

إنه لا يوجد سوى الأشياء، لا يوجد شيء غير الأشياء، فكيف تكون لها أسباب غيرها، مع أنه لا شيء غيرها؟

لو كان للأشياء أسباب من خارجها لكان غير الشيء شيئاً!

والتفسير المشهور لهذا التخلف، الذي يكرره دائماً الزعماء والمعلمون والمفكرون والخطباء من فوق جميع المنابر، راضين عنه، مقتنعين به كأحد الاكتشافات العظيمة هو الزعم أن العرب لم يستطيعوا أن يجيئوا في ذكائهم، أو نضالهم متكافئين مع احتمالاتهم وظروفهم المواتية الكبيرة، لأن ظروفاً مضادة معوقة تخنق وتعوق مواهبهم وتعتقل محاولاتهم. ولكن ما هي هذه الظروف التي قهرت أقوى الاحتمالات وأفضل الظروف؟ ما هذه الظروف الشريرة العبقرية التي استطاعت أن تهزم ذكاء العرب وقدرتهم وأخلاقهم، وأن تشوه وجودهم كل هذا التشويه، وأن تجعلهم يعيشون وكأنهم لا يحملون أي احتمال لأية موهبة غير موهبة التخلف، غير الموهبة التي تحول أفضل الظروف والإمكانيات إلى هباء؟

أليست القدرة على تحويل الشيء الجيد جداً إلى شيء رديء جداً موهبة أيضاً؟

إن هذه الظروف كما اعتادوا أن يعددوها هي الآفات المعروفة على نحو ما في كل مجتمع قديم وحديث.

هي الفقر، والجهل، وحب الذات والأنانية وفساد الحكم، والاختلافات، والأحقاد المتبادلة، والضلال الروحي، وغير ذلك مما تردده مكرراً المنابر والمواعظ بحماس كحماس الخرافة، وإصرار كإصرار الشهوة، وغباء مثل غباء الثوار.

وهم يذكرون دائماً الاستعمار الغربي كزعيم شرير لهذه القائمة السوداء من الأسباب والتفسيرات.

ولكن أليس هذا كله مظهراً من مظاهر التأخر، وصورة من صوره، وليس سبباً أو تفسيراً من أسبابه أو تفسيراته؟ فالتأخر هو وجود هذه القائمة، أما التقدم فهو الانتصار عليها. فقوم متخلفون لوجود هذه النقائص فيهم، وآخرون متقدمون لأنها ليست فيهم، أي أن قوماً يعيشون هذه الآفات بأعلى المستويات، وأن آخرين لا يعيشونها، بل على الأصح يعيشونها بمستويات أقل، فلماذا حدث هذا الاختلاف وما أسبابه؟

إن هذه الشرور ليست منفصلة عن عملية التقدم والتأخر حتى يمكن أن تكون تفسيراً لها. وكل النشاط الإنساني أي كل النشاط الحضاري ليس شيئاً سوى الاشتباك بهذه النقائص، أو التناقض مع هذه النقائص التي عدت أسباباً، إنها هي الشيء وليست سببه.

وقد تصاغ هذه القضية أو هذه الظاهرة بهذا الأسلوب أو بهذا الحوار:

إن إمكانيات العرب البشرية، الأرضية، والكونية، ضخمة وقادرة أن تصنع منهم حضارة، وتقدماً، ورخاء، وطاقات تستطيع أن ترفع عنهم هذه الآفات التي يعيشونها بترف وديمومة، وقادرة أن تجعل منهم مستويات إنسانية أعلى من مستويات كثير ممن تفوقوا عليهم.

لقد كان المفروض أن يكون العرب أكبر مما كانوا وألا تكون هزيمتهم على هذا المستوى أمام أوضاعهم الأليمة، وما فيها من جهل وهوان، وضعف وخنوع، وضلال عقلي واعتقادي، وطغيان في الزعامات والحكومات والقوانين، ومن هموم أخرى كثيرة.

إن كانوا هم الذين ابتدعوا ودبروا هذه الآفات لأنفسهم، وأرادوها لها فلماذا؟

وإن كانت قد خلقت ودبرت لهم، وفرضت عليهم من خارجهم وخارج ذكائهم وطبيعة أخلاقهم، فلماذا استجابوا لها بكل هذه الطاعة والتلاؤم، ولماذا لم يزيلوها، بل ولماذا لم ينكروها، ويغضبوا منها بتعبير قوي؟ بل ولماذا يتعاملون معها بهذه الشهية العجيبة؟

هل الذنب في القدرة، أم في الرغبة، أم فيهما معاً؟ هل العيب في الذكاء، أم في الأخلاق ـ هل خافوا أم عجزوا أم جهلوا؟ هل هم جبناء أو متسامحون مهذبون، لا يستطيعون من تسامحهم وتهذيبهم أو من خوفهم أن يرفضوا أو يغضبوا أو ينكروا، لا يستطيعون من فضيلتهم الأخلاقية أو من شجاعتهم أن ينظفوا ملابسهم وأجسامهم من القاذورات التي يلقيها عليهم ويريدها لهم الآخرون، التي يريدها لهم الزعماء والمعلمون!

إن كان قد تجمع لهم من الظروف المعادية المعوقة أكثر مما تجمع للآخرين الذين تفوقوا عليهم فما أسباب هذا التجمع، أو التخصيص في التجمع، وإن لم يكن ذلك فكيف استطاع الآخرون المتفوقون الانتصار على أسبابهم المعادية المعوقة، وعجز العرب وكل من هم في مثل مستواهم وظروفهم عن الانتصار على مثلها؟

هل الناس يخلقون فسادهم وآلامهم أم تفرض عليهم؟

إن كان الأول فهل خلق العرب من الفساد والآلام لأنفسهم ما لم يخلق الآخرون المتفوقون مثله لأنفسهم؟

وإن كان الثاني فهل فرض عليهم ما لم يفرض على أولئك الآخرين؟ وعلى الاحتمالين كيف كان هذا، أو لماذا كان هذا، وما أسبابه؟

أن تخلق لنفسك من الألم والفساد ما لم يخلق الآخرون المساوون لك مثله لأنفسهم، وأن يفرض عليك من ذلك فتطيع وتقبل ما لم يفرض مثله على أولئك الآخرين المساوين ـ إن يحدث هذا أو هذا يصبح سؤالاً ويحتاج إلى تفسير.

أن تبحث عن الهوان، وأن تتقبل الهوان، وأن تعجز عن الرفض، كل ذلك يعني أنك شيء يحتاج إلى أن يناقش ويدرس.

إن كان العرب مثل الذين تفوقوا عليهم في طبيعتهم فلماذا لم يكونوا مثلهم في التعبير عن

هذه الطبيعة، وإن لم يكونوا مثلهم فما أسباب هذا التفاوت ـ إن لم يكونوا مثلهم في الموهبة فلماذا؟ وإن لم يكونوا مثلهم في التعبير عن الموهبة والارتفاع بها فلماذا؟

إن فقدان الموهبة مثل العجز عن التعبير عنها، كلاهما فقد للموهبة، أعني إن كان من الممكن أن توجد الموهبة دون أن توجد القدرة على التعبير عنها.

إذا كان الفرض أن العرب مصابون بآفات أدبية أو مادية لم يصب بمثلها أولئك الآخرون المتفوقون، تجعلهم لا ينتفعون بمواهبهم، ولا يستطيعون أن يعبروا عنها تعبيراً سوياً وقوياً كان السؤال:

ولماذا خص العرب بهذه الآفات، أو بهذا المستوى من الآفات! لا بد من تفسير لذلك إن كان من المحتوم أن يكون لكل حدث تفسير، ولكل حزن أو سرور سبب، ولكل نجم يلمع في السماء أو ينطفئ محترقاً، غرض مدبر أو مفهوم أو مقنع، أو أن يكون من وراء كل عبث خالق جائع إلى العبث!

هل الناس يتأخرون ويفسدون من داخلهم أم من خارجهم؟ وهل الفساد والتأخر بأسباب أم من غير أسباب؟

إن كانا بلا أسباب فلماذا يصيبان بعض الناس بلا أسباب، ولا يصيبان كل الناس بلا أسباب، أو لماذا يصاب بهما هؤلاء دون أمثالهم، أو دون غيرهم، أو بلا عدل وتعميم؟

وإن كانا ـ أي التأخر والفساد ـ بأسباب فلماذا يخص قوم دون قوم بمقادير أكبر من هذه الأسباب؟

إن التقدم هو الانتصار على أسباب التأخر كما ذكر، وإن التأخر هو العجز عن الانتصار على هذه الأسباب، إذ لا يوجد مجتمع لم يواجه، أو لا يواجه أسباب التأخر وإغراءاته. إن كل مجتمع متقدم كانت تقف على مداخل كل طرقه حشود متوحشة من الأسباب المضادة للتقدم والمغرية بالنقيض، فقاومها.

إن كل شيء يضاد الإنسان مهما لاءمه، وإنه لمفروض على الإنسان أن يقاوم كل شي ليستطيع أن يحيا ويتقدم.

لقد حارب الإنسان، لكي يحيا ويتقدم، جميع أصدقائه الكونيين، لقد حارب الشمس والأنهار والأرض الطيبة، كما حارب الليل والقحط والصحارى. إن كل شيء قد يصبح أسباباً مضادة للبشر، بل إن كل الأشياء هي أسباب مضادة لهم لولا مقاومتهم لها.

إذن فالفرق بين الناس والمجتمعات يساوي الفرق بين القدرة على هزيمة الأسباب المعوقة

والعجز عن هزيمتها، أي يساوي الفرق بين القدرة على هزيمة الكون والعجز عن هزيمته إن حضارة الإنسان تساوي هزيمته للكون.

إن أقوى الناس وأكثرهم تقدماً كانوا يواجهون أقوى الأسباب المضادة، وإن أضعف الناس ليسوا أقوى الناس أو أكثرهم اختصاصاً بالأسباب المضادة. ليس الاختلاف أو التفاوت بين البشر مساوياً للاختلاف أو التفاوت بينهم فيما واجهوا، بل مساوٍ للاختلاف والتفاوت بينهم فيما فعلوا حينما واجهوا، إن التفاوت بينهم في الفعل إزاء المواجهة لا في نفس المواجهة.

إن المواجهة قدر على الجميع، مواجهة الكون المناقض. أليست الأنهار نفسها مناقضة لنا لولا مقاومتها لتحويلها إلى ملائمة؟

*

لقد بدأنا ـ فيما يقال ـ نحن والآخرون المتفوقون علينا معاً في وقت واحد ـ أي فيما يقال ـ رحلة الحياة من مكان واحد، وفرض علينا بقسوة عادلة، أو بقسوة ليست عادلة ولا ظالمة، الالتزام بالحياة أي بإرادتها، بإرادة شرورها وتفاهاتها وعبثها، ووزعت علينا جميعاً إغراءاتها العقيمة البذيئة بلا تمييز، وطوقتنا جميعاً بالمخاوف والأخطار والهموم، وصيرتنا عاجزين عن أن نرفض، أو نكره، أو نفهم، أو نتوقف عن السير في طريق الألم أو الهوان أو العار أو الضياع، وحكمت علينا بأقسى ضروب الشهوة والأمل.

لقد صاغتنا عشاق بذاءات وفضائح، وعشاق استمرار في معاشرة البذاءات والفضائح والهموم.

لقد وضعنا نحن الآخرون في سفينة ضالة واحدة، وحولنا إلى وقود لمعركة لا نعرف من مدبروها ولا من قادتها، وخلقت لنا خصائص وصفات قيل إنها متشابهة، وقيل لنا: أنتم وحدكم إزاء أنفسكم، وإزاء مصيركم، وإزاء كونكم وظروفكم، تغلبكم وتغلبونها، تقاومونها وتقاومكم فكونوا كيف شئتم واستطعتم، فأنتم أحرار في أن تنتصروا أو تنهزموا، فلا قوة ثالثة تتدخل لتنصر فريقاً على فريق، لا قوة أخرى تستطيع أن تجعلكم تقتنعون بالاعتماد عليها.

إذن كيف جاءت هذه النتيجة، كيف جئنا متخلفين، وجاء آخرون ليسوا أفضل منا ظروفاً أو ادعاء، أفضل منا حياة وحضارة، دون أن تهبط إليهم النجوم، أو تخرج عليهم الآلهة من مخابئها لتصوغهم أقوى أو أفضل؟

نحن الآن نعيش في عصر أريد تسميته بعصر الرشوة العالمية، أو عصر إقراض الحضارة، أو منح الحضارة، أو إعارة الحضارة، أو عصر المحاباة للمتخلفين والعاجزين والفاسدين.

نحن في عصر يهون فيه الأقوياء والأغنياء أمام تدلل الضعفاء والعاجزين عن إطعام أنفسهم أو حمايتها أو الارتفاع بها.

إنه يوجد اليوم سباق لم يكن له مثيل في كل أطوار التاريخ، سباق لم يكن له مثيل في وضاعته ونفاقه وهوانه ـ إنه سباق بين أكبر الدول وأعظمها غنى وتقدماً وقوة، إنها تتنافس بلا وقار أو كرامة في إقراضها للحضارة، في إعطائها لزعماء ولأقوام ليست لهم أية مزية أكثر من كونهم موجودين في هذا العصر المصاب بالغواية المتحضرة الكبيرة.

وقد صنع هذا التنافس الدولي على إعطاء الحضارة، وعلى رشوة غير المتحضرين أسلوباً كريهاً وبذيئاً من الدلال بين هؤلاء الذين يقع عليهم التنافس ممن لا مزية لهم غير كونهم موجودين في عصر يملك عظمة، ويملك أعظم منها حقارة.

إن هؤلاء الآخذين، هؤلاء الزعماء المتسلطين على شعوبهم يبالغون جداً في إظهار دلالهم المذل على الواهبين الأقوياء المتحضرين الذين أفقدتهم مغازلتهم وعشقهم كل ذكاء واحترام لأنفسهم.

إن هؤلاء الواهبين الأقوياء ليركعون تحت الأقدام وعلى الأبواب، راجين أن يقبلوا كعشاق قد قتلهم الحب والرفض والتمنع، وأن يقبل منهم أن يكون ثمن عشقهم المدفوع إعطاء الحضارة والعلم والقروض والخبرة مع الشكر الساجد، بل مع القبلات المبللة بدموع الضراعة المهينة.

لقد أصبح محتملاً أن يفسد هؤلاء العاشقون معشوقيهم بتدليلهم لهم، أي أن يزيدوهم فساداً وعجزاً واتكالية وبذاءة نفسية وأخلاقية.

لقد أصبح هؤلاء الزعماء المتسلطون المعشوقين يشبهون ـ في قوة التنافس عليهم ـ امرأة واحدة في كوكب من الكواكب، سكانه أو غزاته جميعاً، هم من الرجال المرضى بشدة الاغتلام.

ما أقواك، ما أعظمك أيتها المرأة حينما تكونين واحدة في عالم كله من الرجال.

كم يشعر هؤلاء الأقوياء الواهبون العاشقون بالهزيمة والذل حينما ترفض عروضهم الواهبة الموهوبة، وكم يحسدون أو يحقدون على منافسيهم الذين يتفضل ويتواضع أولئك الموهوبون المعشوقون، فيقبلون بتدلل وكبرياء وأنفة، بل وباحتجاج، هباتهم المعروضة، وأيديهم الممدودة بكل خنوع وتواضع!

إننا في عصر يعد فيه أعظم الناس سعادة وحظاً هو القوي المتحضر الذي يقبل الضعفاء المتخلفون حبه وعطاءه!

إني هنا أريد أن أجرب فضيلة التسامح في تناول موضوع ما، وأرجو أن يجرب القارىء العربي قبول هذا التسامح، وأن يستمع إليه، ويقرأه بتسامح أيضاً.

أريد أن أقول إني أشعر بعاطفة ما نحو إسرائيل حين أجدها تناضل نضالاً ذليلاً عنيفاً عنيداً لكي تتواضع وتتعطف الدول الإفريقية والآسيوية، أو على الأصح يتواضع ويتعطف زعماء وطغاة هذه الدول، فيرقوا لدموعها وضراعاتها بأن يقبلوها مانحة مقرضة عاشقة معلمة أقصى ما وصلت إليه الحضارة الإنسانية في كل مجالات الحياة من خبرة وفن وعلم مع تقبيل اليد بل تقبيل الرجل، فتبدي هذه الدول المعشوقة، أو على الأصح يبدي زعماؤها وطغاتها الجهلاء المحظوظين من الدلال والصد، بل والرد أحياناً ما لا يمكن أن تبديه أية غانية لعوب غير مهذبة تعيش وحدها في عالم كله من الرجال.

وهذه الدولة التي هي إسرائيل بسبب ظروفها غير المواتية في المنطقة، بل بسبب وجودها الوليد الذي تخشى عليه، تبتلع كل ما تواجه من صدود وكفران وإهمال قاتل ومهين. وإنها لعلى استعداد أن تبتلع الإبر والخناجر دون شكوى.

وإذا تفضل هؤلاء الإفريقيون والاسيويون المدللون، فقبلوا أن يأخذوا من هذه الدولة ما يأمرون به من خبرة وعلوم وخدمات إنسانية مختلفة بأنفة، تراقصت جميع الأجهزة الدعائية الإسرائيلية وأنشدت أنشودة:

«المجد لك يا إسرائيل»، وحولت هذا القبول المتفضل المتكبر إلى شعر وصلوات وموسيقى دينية، تذيعها وتكررها كانتصار كبير، وكدعاية قوية ذكية تزهى بها على المنافسين والأعداء.

وإني لأشعر برثاء مر لهذه الدولة التي يفترض عليها خوفاً على وجودها كل الهوان. وأي خير في هذا الوجود المهين؟ وقد كانت الكرامة تقضي على اليهود أن يقولوا:

لتذهب إسرائيل إلى الجحيم، لتذهب معها كل هذه الضراعات والإهانات التي نتلقاها لأننا قد أصبحنا دولة.

إن الدولة تعني الهوان إذن، وإن الحياة بلا دولة وبلا هوان لأفضل من أية دولة مع أية هوان.

إن أمام الدول الإفريقية اليوم فرصاً لا مثيل لها في قوتها، إنها تملك أفضل فرص المساومات وأغناها بالاحتمالات الجيدة، إنها تستطيع أن تقيم حرباً من الغيرة المتنافسة عليها، وعلى التماس رضاها بين إسرائيل والدول العربية، إذ تذهب تفهم العرب أنها تريد أن تقبل عشقهم لها رحمة بدموعهم، وأن تأخذ منهم بدل الأخذ من اليهود، ثم تذهب تتحدث مع اليهود بنفس الأسلوب والغرض، ثم تظل تلعب وتتحرك بينهما هكذا لتمتصهما وتمتص عشقهما وغوايتهما معاً شيئاً فشيئاً، متدللة متكبرة عليهما كما تشاء وتستطيع.

إن الفريقين ـ أي العرب واليهود ـ خاضعان لظروف غواية وخضوع لا حدود لهما، وهما مستعدان تحت سلطان هذا الأسلوب المستغل للتنافس والكراهة بينهما أن يخلعا بلا أي وقار أو احتشام على زعماء إفريقيا ملابسهما الداخلية، أي ملابس العرب واليهود.

ولعله من الصحيح ولو أحياناً أن الأقوياء الأعزاء أكثر حاجة إلى ممارسة الهوان، وتجرعه، وإلى الإغضاء على الأذى خوفاً أو تأدباً، وأن الذي لا يهون هو الذي لا يكون موجوداً، وليس الذي لا يكون ضعيفاً أو نذلاً.

إن القوة أحياناً هوان وافتضاح، لقد يحتاج القوي الكبير، أكثر من الضعيف الصغير، إلى أن يفتضح ويذل ويصغر!

في الزمن القديم كان الأقوياء، وأحياناً الضعفاء، يقرضون الناس آلهتهم وأنبياءهم وأديانهم وتقاليدهم، أو يفرضونها عليهم، أما في هذا الزمن فإن الأقوياء المتحضرين يقرضون الضعفاء حضاراتهم، وفنونهم، وخبراتهم، ومصانعهم، ومذاهبهم، بأساليب كلها مغازلة وتخضع وسقوط من الأعلى تحت أقدام الأدنى. فأي الزمنين أفضل؟

إذن نحن اليوم نستطيع دون أية موهبة من أي نوع أن نبدو كمتحضرين، وأن نملأ بلادنا بمبدعات الحضارة الجاهزة، بل وأن نتحدث ونخطب أكثر من متحضرين.

إن أعظم الدول وأقواها لتضرع إلينا اليوم راجية بتواضع ولهفة أن نتقبل منها مشكورين جميع ما لديها من حضارة وخبرات ومصانع جاهزة، مقدمة لنا إلى أقصى حدود السخاء الخبراء والفنيين، ليركبوا لنا هذه المصانع، ويعلمونا كيف نجرؤ على ضغط الأزرار، ووضع أيدينا فوق الأجهزة المعقدة، وكيف نتحرك بخفة، أو ببطء حول هذه الأجهزة والمصانع، ونضع أيدينا عليها بشجاعة وزهو جليل! ثم يخطب زعماؤنا مفاخرين كل الدنيا بما أبدعوا وأعطوا.

ولكن هل هذا يعني شيئاً كبيراً ما لم نتحضر عقلياً وأخلاقياً ونفسياً أي ذاتياً؟

هل يجعلنا متحضرين أن يوجد بيننا من يقودون السيارات والطائرات ويدسون أيديهم بين الأجهزة والأزرار المتحضرة، ويديرون أو يملكون المصانع المستوردة، ويطلقون الأسلحة الحديثة على المطالبين بالحرية أو الهاتفين ضد الطغيان والفساد والكذب، أو يختزنون مثل هذه الأسلحة، أو يستعرضون الجيوش بالأزياء والأساليب المستعارة التي علمهم إياها أقوام آخرون بارعون جاؤوا إلينا مستوردين مثل السلع، المستوردة، أو ذهبنا إليهم لنتفضل عليهم بأن نقبل أن يعلمونا حضارتهم، وفنونهم، وبراعاتهم، وكأننا نتصدق عليهم بما يفعلون لنا أو بنا؟

أو بأن يوجد بيننا زعماء يخطبون بلغة وغرور من يملكون كل الحضارة والقوة والعلم والوقاحة؟

إننا لو أدخلنا إلى بلادنا جميع مصانع العالم، واستوردنا كل ما في المادة من طاقة وأسرار، وأصبحنا كلنا جنوداً يحملون أفتك وأحدث الأسلحة المصنوعة لنا أو المستوردة، وأطلقنا أقوى الصواريخ من أرضنا إلى أرضنا، أو من أرضنا إلى سمائنا أي أطلقها لنا قوم آخرون مستوردون، لما ازددنا إلا فقراً وضعفاً وانهزاماً وجهلاً ما لم نتحضر نفسياً وفكرياً وأخلاقياً، أي ما لم تصبح الحضارة فينا قدرة وإلزاماً ومستوى إنسانياً لا نستطيع الانفصال عنه، أو التحرر منه، نعيها ونتكافأ معها ونعانيها ونستطيعها ونعيشها بذكائنا وظروفنا وموهبتنا.

إن استيراد الحضارة أو استهلاكها ليس حضارة، بل الحضارة طاقة إنسانية تتفاعل مع الظروف والاحتياجات لتصبح خلقاً من أخلاق مبدعيها.

إن الحضارة ولادة وليست تبنياً، إنها ولادة عقلية ونفسية وأخلاقية.

نحن في أفضل أحوالنا مستوردون للحضارة مستهلكون لها.

إننا نذهب نملأ الدنيا إنشاداً ودعاية وفخراً بعبقريتنا وحضارتنا كلما استطعنا، أو جرؤنا على أن نقبل سلاحاً أو مصانع تعرض علينا باستشفاع واسترحام من العارضين المبدعين.

وقد نأمر حينئذٍ خطباء المساجد ووعاظ الكنائس بأن يتحدثوا طويلاً، طويلاً، من فوق منابرهم وأمام آلهتهم الجائعة إلى كل حديث ومديح ليكون لها وحدها، بأن يتحدثوا عن عبقرية الزعيم الثائر الذي قرر أن يتواضع فيقبل أن يبعث إليه الآخرون بما أبدعوا من أسلحة ومصانع ليرضوا طفولته ويخدعوا غروره ويشتروه من داخله.

إذن فلتسجد النجوم لعبقرية الزعيم الثائر، وليصبها الهزال والموت والأفول غيرة من المجتمع الذي يملك زعيماً ثائراً مثل هذا الزعيم الثائر الذي استطاع أن يشتري سلاحاً بقوت مجتمعه، ليخيف به مجتمعه ويسلبه حريته وشجاعته، وليحوله ـ أي يحول السلاح ـ إلى ألعاب عرض لطفولته!

إن الحضارة حالة من الأخلاقية والضرورة في حياة المتحضرين وسلوكهم، إنهم متحضرون لأنهم لا يستطيعون ألا يتحضروا، لا لأنهم يريدون أن يتحضروا، ولا لأنهم استوردوا الحضارة، أو اقترضوها، أو فرضت عليهم.

إن المتحضر يكون متحضراً بالالزام الذي يكون به غير المتحضر غير متحضر.

ولكن هل يكون الالزام من الخارج؟ لن يكون ما لم يوجد مستوى ذاتي يستطيع أن يتكافأ مع ما يفرض عليه من الخارج ـ أن يتكافأ مع تعقيدات الحضارة ومتاعبها وهمومها وشروطها الصعبة.

إن الطريق إلى التقدم والرخاء هو أن نكون متحضرين في مستوياتنا النفسية والأخلاقية والفكرية والفنية، لا أن نكون مستوردين ما يصنعه المتحضرون.

ولأن نتعلم كيف تحضر الآخرون الذين نستورد حضارتهم، وكيف لم نستطع نحن أن نتحضر، وما هي الأسباب الصانعة للحضارة والأسباب المانعة منها، ولأن نناقش هذه القضية ونؤلف لها المجامع ونقيم المؤتمرات، ونشيد الجامعات ونضع آلاف الكتب والدراسات لمحاولة فهمها، لأفضل جداً من أن ننفق جميع مواردنا في شراء الحضارة المصنوعة في الخارج، في شراء السلاح الذي لن نقاتل به عدواً، أو نهزم به عدوان الطبيعة على أماني الإنسان!

ليست الحضارة هي أن تقام الحضارة في بلادنا، وإنما هي أن نقيم نحن هذه الحضارة، هي أن تنطلق من أنفسنا الموهبة المبدعة، لا أن نتلقى الإبداع كسلعة جاهزة.

إنه لعجز مذهل أن نحاول تحضير أرضنا بإدخال الحضارة إليها، ثم لا نحاول تحضير أنفسنا أو تصنيع مواهبنا.

إنه لعجز مذهل أن نوجد في أرضنا آلات ضخمة دون أن نوجد في أنفسنا موهبة تصنع تلك الآلات، أو تتكافأ معها. نحن لا نعي هذه الحقيقة أو نكرهها أو نخافها أو نشمئز منها أو نتساءل عنها. وهذا أفظع من نفس الحقيقة الأليمة.

كيف أدركنا أن الآخرين الذين نقترض، أو نستعير، أو نشتري، أو نستوهب منهم، يملكون أشياء مادية لا نملكها نحن، ويجب أن نملكها. ولم ندرك أنهم يملكون مواهب ومزايا إنسانية مبتكرة لا نملكها هي سبب تفوقهم ويجب أن نملكها، وكيف حاولنا امتلاك تلك الأشياء المادية ولم نحاول امتلاك تلك المواهب والمزايا الإنسانية، كيف اقتنعنا بأن امتلاك هذه أولى من امتلاك تلك؟

لماذا لا نناضل لنتساوى حضارياً مع هؤلاء الذين نعيش على حضارتهم؟

كيف لا نصاب بالذهول من هول الفرق؟

لماذا لا نقاتل أو نضج ونصيح لنتحضر كما نقاتل ونضج ونصيح لننال استقلالنا السياسي؟

لماذا لا نحاول أن نسرق أو نغتصب موهبة الابتكار؟

كيف نصر على الظفر بالمساواة سياسياً مع أرقى المتحضرين، ولا نصر على المساواة بهم في القدرة على ابتكار الحضارة وتصديرها إلى الآخرين.

كيف نطالب العالم بأن نتساوى سياسياً، ولا نطالبه بأن نتساوى قدرة حضارية؟

وهل التساوي في طرح الأصوات وفي قيمتها الدولية أشرف من التساوي في الموهبة الحضارية؟

ما هو طور الابتكار، ما أسبابه، ما خصائصه، كيف يوجد، كيف لا يوجد، كيف أصبح هؤلاء مبتكرين، وعجز أولئك عن الابتكار؟ ليس شيء من هذا موضوعاً من موضوعات تفكيرنا أو محاوراتنا.

هل وجد بيننا زعماء، أو حكام، أو مفكرون، أو مخططون، أذهلتهم هذه الظاهرة، فحاولوا فهمها أو البحث عن علاج لها؟

كيف لا يوجد فينا خالقون حتى ولا في الفلسفة أو الأدب أو الفن أو في ابتكار المذاهب؟

لماذا لا نخلق حتى ولا غضباً أو احتجاجاً فكرياً أو نفسياً؟

حتى أسلوب الغضب والاحتجاج ومستواهما ظاهرة حضارية.

▪

والعجز عن إبداع الحضارة مع استيرادها أو الاضطرار إلى استهلاكها يعني حتماً الهبوط بها.

فالمستهلك للحضارة الذي لا يستطيع إبداعها يكون في جميع مستوياته الإنسانية أقل منها، يكون أقل منها في تفكيره وأخلاقه وقدرته وحماسه ولغته وسلوكه وفي كل تعبيراته. إنه يتعامل مع شيء هو أكبر وأذكى منه جداً، وهذا يعني الهبوط بأحد المتعاملين أو بهما معاً.

إنه يعني الهبوط بالحضارة التي يتعامل معها لأن المتعامل بها غير متكافىء معها.

ويعني الهبوط بالإنسان المتعامل بها لأنها لتفوقها عليه ترهقه وتفقده التوازن وتحكم عليه بأن يلتزم ما لا يتقن أو يستطيع، وحينئذٍ يصبح شاذاً وعدوانياً.

إن خطراً عظيماً يهدد الحضارة اليوم وفي المستقبل، ذلك أنها بلا أية اشتراطات لنفسها تفرض نفسها على الذين لا يبدعونها، أو يفهمونها، أي تفرض نفسها دون أي أسلوب أخلاقي أو إنساني على الذين لا يتكافؤون معها.

إنهم يستوردونها، وإنها لتصل إليهم في اتفاقات قروض ومنح وإذاعات ومؤتمرات دولية، فكيف يحيونها أو يفهمونها أو يعبرون عنها؟

إنها مستوى إنساني، وهم مستوى إنساني آخر، فكيف يتعاملان؟

هؤلاء الذين فرضت عليهم الحضارة فرضاً، والذين يتنافس أقوى المتحضرين وأغناهم عليهم لكي يأذنوا بأن يقدموا إليهم الحضارة المفترسة لأخلاق وعقول الضعفاء في صناديق وسفن، هؤلاء في هذا العصر هم الخطر الذي يهدد الحضارة في أعلى مستوياتها، ويهددها بكل معاني التشويه وأساليبه.

إن فرض حضارة الأقوياء على الضعفاء يشبه أن يوضع جسم ضخم على رجلين ضعيفتين، أو أن تركب في حيوان ضعيف أعضاء حيوان مفترس.

إن الحضارة كائن مفترس للإنسان مهما جاءت في خدمته.

أما الإنسان الضعيف فالحضارة لا تفترسه فقط بل تحوله إلى افتضاح وتشويهات أليمة، تحوله إلى تشوهات في نفسه وحياته وفي الحضارة نفسها.

إنها تفرض على الأغبياء أن يفسروا ويستوعبوا عقول العباقرة، وأن يعيشوا ويتحركوا بتوازن داخلها.

إنها تفرض على أضعف وأغبى إنسان أن يمارس أخلاق ومستويات أذكى وأعظم إنسان، بالقدرة والذكاء اللذين يمارس بهما ذلك الإنسان الأذكى الأعظم نفسه وأخلاقه، ومستوياته.

إن فرض حضارة الأقوى الأذكى على الأضعف الأغبى قد يكون مثل فرض حضارة الأضعف الأغبى على الأقوى الأذكى!

إن من الاحتمالات أن يتكاثر هؤلاء المستوردون للحضارة في عددهم البشري، وأن يتغلبوا بتكاثرهم وتوترهم وحماقاتهم المتحفزة على المبدعين للحضارة بموهبتهم، وحينئذٍ قد تتحول الحضارة إلى قوة متوحشة غير متحضرة، وإلى تعبير عن مستويات وأخلاق غير المتحضرين بوسائل فيها قوة المتحضرين.

ومعنى هذا أن تجمع الحضارة بين عضلات العمالقة وأخلاق وذكاء الأقزام.

قد يهزم مبدعو الحضارة أمام مستوردي الحضارة بالتكاثر والتطرف والرغبة في البدء بالعدوان، وبخديعة آلام التاريخ وأخطائه، واستغلال توتر السوق ومشاكل الجماهير المفروضة عليها الغواية والتبعية الدائمة.

إن التاريخ ضد المتفوقين الذين أبدعوا هذه الحضارة، أو سبقوا في إبداعها، إنه يلقي عليهم ذنوباً لم يقترفوها، ويجعلهم مسؤولين، أو متهمين بنقائص المتخلفين ومتاعبهم، لأن تفوقهم جعلهم مؤاخذين بتخلف المتخلفين في تفكير هؤلاء المتخلفين، بل جعلهم متهمين بأنهم خالقون لتخلف المتخلفين.

لأن تفوقهم هو الذي جعل المتخلفين يدركون أنهم متخلفون، ويحاولون الخروج من تخلفهم والاحتجاج عليه.

ولو أن الإنسان استطاع أن يطور إحدى فصائل الحشرات ويرتفع بمستوى وجودها ثم يجعلها تشعر بضآلتها، وتحتج على نفسها وعلى مستوياتها الحضارية لكان أول ما تفكر فيه، وتصنعه أن تتهم الإنسان بأنه هو الذي صنعها حشرة، وجعلها متأخرة وضئيلة وبذيئة.

وأن ترفع الشعارات الحماسية ملقية بالمسؤولية كلها على البشر، مثلما يفعل المتخلفون اليوم في جعلهم المتفوقين مسؤولين عن جميع نقائصهم وضعفهم، مع أن كل ذنوب المتفوقين إزاء المتخلفين هي أنهم ارتفعوا بهم إلى مستوى أفضل، إلى مستوى جعلهم يرون عيوبهم، ويحسونها، ويحتجون عليها، ويبحثون عن كينونة أعظم.

إن المتفوقين جعلوا المتخلفين يدركون أنهم متخلفون، ويحاولون الخروج من تخلفهم، ويجدون القدرة على هذا الخروج بعون هؤلاء المتفوقين ـ هذا هو كل ذنب المتفوقين لدى المتخلفين!

إن جميع المتخلفين الذين فرضت عليهم حضارة الأقوياء قد أصبحوا يتكلمون اليوم بلغتها وشعاراتها، ويعبرون بموهبتهم العاجزة غير المتحضرة عنها لكي يشوهوها.

لقد شوه هؤلاء كل معطيات الحضارة، شوهوا الديمقراطية، والاشتراكية، والمذهبية، والقومية، وشوهوا قداسة النضال بتوترهم وبذاءاتهم، وعدوانهم، وصراخهم غير الذكي، وشوهوا كل القيم المعروفة في الحضارة.

لقد حولوا كل شيء إلى لغة، وشعارات، وسباب، وعداوة، وأكاذيب.

التشكيلات النيابية، حرية الفكر والتعبير، الحكم، الكلمة، العدالة، الوطنية، الاستقلال ـ كل ذلك هبطوا به عن مستواه، وأصبح يُعني نقيض معناه عند المتحضرين.

التلفزيون، الإذاعة، الصحافة ـ هذه الأجهزة الحضارية العظيمة ماذا تعني لدى صانعي الحضارة، وماذا تعني لدى مقترضي الحضارة؟

الجيوش الحديثة، ماذا تعني عند المتحضرين، وماذا تعني عند مستوردي الحضارة؟ العلاقة مع الآخرين، العزة، الكرامة، الوطنية.

ماذا تعني عند المتحضرين، وماذا تعني عند من فرض عليهم أن يعيشوا حضارة المتحضرين؟

إنه لخوف كبير على الحضارة من مستوردي الحضارة، من مستوردي المذاهب والشعارات، والتنظيمات، والسلاح، والقوة، وجميع مزايا العصر الحديث الذي فرض عليهم أن يعيشوه، ويتعاملوا معه، دون أن يفهموه، أو يرتفعوا به إلى مستوى أخلاقه وذكاء أربابه.

إن الحضارة ليست شيئاً فقط، بل وإنسان، وليست كذلك أي إنسان، بل هي إنسان على مستوى معين.

ليست الحضارة مذاهب، أو شعارات، أو سلاحاً، أو جهازاً إعلانياً دعائياً، بل هي فوق ذلك مستوى إنساني يتعامل مع المذاهب، والشعارات، والأسلحة، والأجهزة الدعائية الإعلانية، ويعيشها، ويقف وراءها، ويصنعها، ويتلاءم بأخلاقه وذكائه ومستوياته معها.

فإذا أصبحت الحضارة هي هذه الأشياء بلا إنسان، أو بأي إنسان فهنا الكارثة.

إن الهمجية بلا وسائل حضارية قد تكون محتملة، أما الهمجية بوسائل حضارية فهذا هو الهول!

إن الانتقال من طور اقتراض الحضارة إلى طور إبداعها هو أعظم وأشق انتقال مفروض علينا مواجهته.

ولكن هل بالإرادة أو التحريض أو بالدعوة الفكرية نكون ما لم نستطع أن نكونه؟

*

يحاول كثيرون منا بإصرار ومبالغة، بل وبشهوة، أن يفسروا عجزنا وعجز آخرين كثيرين مثلنا عن بلوغ الطور المبدع للحضارة بوقوعنا في قبضة الاستعمار الخارجي. وقد سبقت الإشارة إلى هذا التفسير الذي نجد فيه أحياناً عزاء وراحة، واعتذاراً إلى عيوبنا، ونقائصنا، ورفضاً لاتهامنا لأنفسنا.

إن الاستعمار لا يمكن أن يفسر به التخلف أو العيوب، وإنما يفسر هو بالعيوب والتخلف، إنه نتيجة لتخلف وعيوب سابقة لا خالق لها.

لماذا جاء هؤلاء مستعمرين، وأولئك مستعمرين، لماذا لم يحدث العكس؟

إن الاستعمار شيء في المستعمر والمستعمر، وليس شيئاً خارجاً عنهما، ولا هو حالة لواحد منهما دون الآخر، بل هو هما معاً.

لا يساوي الاستعمار المستعمِر فقط، بل يساوي المستعمِر والمستعمَر كليهما، ففي أحدهما حالة مناقضة لحالة الآخر. وهنا قد يحدث الزواج بالإكراه، أو بالرضا بين حاملي الحالتين المتناقضتين ـ ليس الاستعمار إلا حالة من الاستجابة.

إن الشيطان في الإنسان نتيجة وليس سبباً، والشيطان لا يساوي نفسه فقط، بل والإنسان بقدر ما المستعمِر لا يساوي نفسه بل والمستعمَر.

إن الشيطان لا يغوي الإنسان ولا يعمل ضده بقدر ما فيه من قوة وشيطنة، بل بقدر ما في الإنسان من غواية وضعف.

إن الاستعمار لا يضعف المتخلفين، ولا يركب فيهم العيوب، وإنما يجدهم كذلك ليحولهم إلى ساخطين على عيوبهم مبصرين لها، إنه يجيء بسبب عيوبهم ليكون علاجاً لهذه العيوب، أو غضباً واحتجاجاً عليها دون أن يريد ذلك أو يعمل من أجله، فهو كالشيطان الذكي المتفوق الذي يهاجم فريسته ليستمتع بها ويعيش على حسابها، فتكون النتيجة أن تتحول الفريسة إلى

ذكاء ومقاومة وحماس ضده، متعلمة من الشيطان ذكاءه وتفوقه وكثيراً من أساليبه القوية، أو متحدية لتفوقه وانتصاراته عليها بنفس وسائله.

إن الأقوياء المتحضرين الذين يعيشون النظافة لا يمكن أن يقعوا في قبضة الاستعمار.

جميع الذين سطا عليهم الاستعمار كانوا ضعافاً، وكانوا في أوضاع فاسدة منهارة، كان الاستعمار لهم عقاباً عادلاً طيباً، أو كان تطهيراً لهم من ضعفهم وتاريخهم العقيم المتبلد.

ولكن ليس كل ضعيف أو فاسد أو متبلد لا بد أن يعاقب بهذا العقاب الطيب، أو يصاب بهذا المطهر الذي لا يحمل قداسة أخلاقية أو نفسية.

لقد بقي بعض الضعفاء والفاسدين والمتبلدين مستمتعين بضعفهم وفسادهم وبلادتهم، دون أن يتسلل إليهم هذا العاشق المغتصب، أو هذا العقاب العادل الطيب. ومع هذا فقد ظلوا أكثر ضعفاً، وفساداً، وبلادة، وأبعد عن التحضر وأكثر استعصاء عليه من الذين وقعوا طعاماً لشهوات هذا العاشق الغاوي المتحول إلى تحريض ضد نفسه، وإلى قوة في فريسته!

تشاهد اليوم شعوب كثيرة تتخلص من الاستعمار وتتطور حياتها، أي يشاهد اقتران بين التخلص من الاستعمار والتقدم إلى الأحسن في هذه الشعوب، وهذا قد يعطي فكرة بأن الاستعمار هو الذي أضعف وأخر هذه الشعوب وجعلها غير متحضرة، وأنه هو سبب تخلفها لا نتيجته. ولكن هذا وهم أوحت به ظروف طيبة.

إن هذه الشعوب تتقدم لأنها تعيش في عالم يعيش كله في ظروف لم يسبق لها مثيل في جودتها وفي فرضها نفسها على كل الناس، يعيش العالم اليوم في ظروف ترفض أن يكون التقدم فضيلة أو رذيلة، عبقرية أو فقداً للعبقرية، بل في ظروف تجعل التقدم أو التغير على نحو ما شيئاً محتوماً لا فرار منه.

إن أي مجتمع لا يستطيع اليوم أن يفر من التغير حتى ولو أنفق كل نضاله كيلا يتغير.

ولهذا فإن هذه الشعوب لو أنها نالت استقلالها في ظروف أخرى لا تحمل مزايا هذه الظروف لما أعطاها استقلالها أي تغير ولا أية مزية، كما كانت في الماضي مستقلة دون أن يهبها الاستقلال شيئاً طيباً.

إذن فتقدم، أو تغير هذه الشعوب، ليس نتيجة لاستقلالها، بل للظروف الدولية السعيدة الهائلة.

ولهذا نجد الشعوب التي لم تزل مستقلة، وكانت متأخرة جامدة الحركة، قد اضطرت إلى أن تبدأ تتحرك وتتغير لأنها خاضعة لهذه الظروف الدولية الجديدة. لقد فرض التغير نفسه في هذا العصر على كل العالم.

وأي بطل من أبطال الجمود لن يستطيع أن ينتصر لو حاول أن يقاوم التغير، لقد أصبح التغير قدراً لا مطلباً.

وحتماً لا يصح أن يسمح ببقاء الاستعمار تحت أي ظرف من الظروف أو سبب من الأسباب.

إن الاستعمار إهانة للإنسانية لا بد من غسلها والتكفير عنها، وأفضل أساليب التكفير عن هذه الإهانة هو تحضر الجميع وتقدم كل المجتمعات حتى تموت الظروف التي تصنع الاستعمار أو تسوغه.

ومع أنه لا يوجد اليوم، ولا يصح أن يوجد أي بديل عن الاستقلال لا من الناحية النفسية أو الأخلاقية أو الوطنية، ولا من الناحية التاريخية أو الظروف الدولية الملزمة فإنه من الممكن أن يقال:

إن استقلال كثير من الشعوب الذي حققته لها الظروف الجديدة الملائمة قد أصبح افتضاحاً وهجاءً لها، أي إن الاستقلال الذي نالته أخيراً كثير من الشعوب قد تحول إلى أقوى هجاء وافتضاح لهذه الشعوب، لأنه قد ألقى بها تحت التجربة التي كشفت فيها عن خزائن ومخابىء هائلة من الضعف والغباء والطغيان.

وقد أصبح أسوأ عرض أو أسوأ عارض لعيوب هذه الشعوب هم الزعماء والحكام الذين قد جاؤوا أقوى تعبير عن أبشع ما يمكن اختزانه في أي شعب من الشعوب من الرذائل ومن المقاومة والرفض لجميع فضائل الحضارة.

ولكن سابقة الاستعمار قد جاءت كاعتذار أو غطاء لذنوب هذه الشعوب.

إن هذه الشعوب مهما أذنبت، أو عجزت، أو أنفقت أعظم الظروف الملائمة إنفاقاً سخيفاً غبياً، فليست هي أو زعماؤها المسؤولة، أو المخطئة، أو العاجزة، بل المسؤول والمخطىء والعاجز هو صاحب تلك السابقة التاريخية الجميلة، هو الاستعمار.

وقد يظل الاستعمار بسابقته النبيلة هو المذنب الغافر كل الذنوب لكل المذنبين في هذه الشعوب زمناً طويلاً جداً.

ولعل الله لن يجد يوم الحساب أية ذنوب للمؤمنين يحاسبهم، أو يعاقبهم عليها، إذ سيجد المذنب واحداً هو الاستعمار.

إذن طوبى لمن مرت بهم أو بآبائهم تجربة هذا العدو الصديق ولو يوماً واحداً، نعم طوبى لنا فنحن من أهل ذلك.

وزعماء هذه الشعوب يستفيدون من الاستعمار فائدتين متقابلتين، فالمسؤول عن ذنوبهم هو

هذا الاستعمار، والمزايا التي جاء بها الاستعمار، أو التي جاءت بها الحضارة التي جاءت بها الشعوب التي صارت مستعمرة، موضوعة في حساباتهم أي في حسابات هؤلاء الزعماء.

إذن لقد جاء الاستعمار قوة ومزية لهم، لقد وهبهم القوة والمزايا، كما جاء فادياً لهم وحامياً ومكفراً لخطاياهم، إذ يتحملها وحده بنبل وصبر وشهامة، ويسأل عنها دونهم أمام الله، وأمام التاريخ، وأمام رعاياهم.

ومعنى الفداء هنا هو أروع وأعمق من جميع معاني الفداء في التاريخ.

والاستعمار في حساب هؤلاء الذين يحملونه خطاياهم هو أعظم فادٍ عرفته البشرية، إنه أعظم ساتر لذنوبهم ونقائصهم، إنه الكفارة العظمى، إنه الحمام العجيب الذي تلقى فيه كل الأدران وأقبح الأدران، إنه الفاعل لذنوب جميع المذنبين!

*

وقد يكون من الإسراف في الحذر والحيطة أن نقول:

إنهم ليسوا هم العرب وحدهم الذين يقفون أمام هذه المحاكمة الفكرية، أو المحاكمة الكونية متهمين بالعجز عن الانتفاع بما وهبتهم الطبيعة من مزايا، وبالعجز عن إبداع الحضارة التي أبدعها من هم أقل منهم ظروفاً ملائمة، ومتهمين بأنهم قد جعلوا الطبيعة متهمة بالغباء والكذب لأنها قد أعطتهم أكثر مما يستطيعون أن يفعلوا أو يفهموا أو يستغلوا.

إن العاجزين عن الإبداع والتكافؤ مع الظروف كثيرون وليسوا العرب وحدهم، بل هم أكثر الناس، بل هم كل الناس، ولكن على مستويات مختلفة.

قد يكون الصواب أو العدل محاكمة الذين أبدعوا الحضارة لا الذين عجزوا عن إبداعها.

فالمبدعون للحضارة هم الأقلون المتعبون، إنهم خارجون على البشر، على أكثرهم، معذبون لهم بإبداعاتهم القوية المرهقة، فهم شاذون مقلقون متحدون.

إنهم إن كانوا قد تفردوا بإبداع الحضارة لأنهم أفضل وأقوى، فهم مهينون للناس أي لأكثر الناس، محقرون لهم بتفوقهم عليهم.

وإن كانوا قد تفردوا بذلك لأنهم أضعف وأسوأ، فسوؤهم وضعفهم واقعان على البشر، مسحوبان من حساباتهم. فهم إذن في الحالتين يستحقون غضب الإنسان ومحاكمته لهم.

لقد كان البشر راضين بتخلفهم القديم، مؤلهين لآلامهم وتفاهاتهم، وهمومهم، وعجزهم، وكانوا لا يتصورون أنه يوجد أو يحتمل أن يوجد أفضل مما كانوا يعانون.

وكانت أقبح الآلهة والمذاهب والمعلمين والزعماء، والمعتقدات، هي أجمل ما يمكن أن يروا أو يتصوروا.

كانت الحشرات والمجاعات، والأمراض، هي أذكى التفاسير لحكمة الكون، ولمحبة الأرباب وصداقتهم للحياة.

لقد كانوا كالذين ولدوا عمياناً لا يرون شيئاً، أو كالذين ولدوا صماً لا يسمعون شيئاً، إنهم حينئذٍ لن يستنكروا أية دمامة مرئية أو مسموعة حولهم، أو فقدان أي جمال مرئي أو مسموع من عالمهم.

حتى أحلامهم النومية لم تكن تستطيع التمرد أو التفوق على يقظتهم، إن الإله المرئي في النوم لم يكن أفضل من مستويات حياتهم.

كان الناس مغلقين على أنفسهم وعلى ظروفهم المتخلفة جداً، فلم يكونوا يكرهونها كراهة واعية أو مبصرة.

ولم يكونوا كذلك يشعرون بأنهم مطالبون بأن يتخطوها ويبدعوا خيراً منها، لقد كانت الاحتمالات الأخرى مسدودة أمام تصوراتهم.

ولم يكن يوجد بينهم أو حولهم من يجرح كبرياءهم، أو يحرك حسدهم بتفوقه.

حتى جاء هؤلاء الأبالسة المتفوقون، فهدموا الهيكل، وعروا الأشياء، وجعلوا العميان يبصرون دمامة أنفسهم، ودمامة حياتهم، وجعلوهم يرون الأشياء الجميلة الصعبة.

جعلوا العاجزين، وهم أكثر البشر، بل وهم كل البشر إلا قليلاً، ملزمين بأن يكرهوا وجودهم، ويتمردوا عليه، ويصنعوا أفضل منه.

جعلوهم ملزمين بأن يعيشوا الحضارة المتفوقة عليهم وجعلوهم يتعذبون، ويقاسون من الغيرة، والعجز، والهوان، والأهوال، وجعلوهم عاجزين عن أن يكونوا ما يستطيعون، استحدثوا لهم هموماً وضرورات واحتياجات لا مهرب لهم منها ومن مواجهتها، ولم يستحدثوا لهم عبقرية أو قدرة ملائمة.

جعلوهم يرون ويريدون، ولم يجعلوهم يستطيعون أو يعرفون.

لقد ألقوا عليهم بأعباء الحضارة الكبيرة، وكلفوهم الصعود فوق قدرتهم وذكائهم.

صنعوا لهم شهية، ولم يصنعوا لهم أسناناً، أو أمعاء، أو صحة تتكافأ مع شهيتهم، أو صنعوا لهم أسناناً وأمعاء وصحة جيدة، ولم يصنعوا لهم موهبة تعطي الطعام المتلائم مع جودة هذه الأسنان والأمعاء والصحة.

البشر جميعاً يكرهون أن يكونوا أقل من الآخرين، ولعل من أسوأ ما فيهم أنهم يريدون أن يكونوا أكبر من كل الآخرين، دون أن تحتج عليهم أخلاقهم أو مذاهبهم أو أديانهم أو تقاليدهم، ودون أن يدركوا أية بذاءة كبيرة في ذلك.

إنهم جميعاً يبغضون أن يتفوق عليهم أي متفوق، وهم يبحثون عن المساواة إذا كانوا أقل، ويريدون التفوق إذا كان لهم أو كانوا هم المتفوقين، أو كانوا يستطيعون ذلك.

والمبدعون للحضارة الذين هم الأقلون يصنعون هذا التفوق على الناس، على أكثر الناس، يصنعون لأنفسهم تفوقاً ذاتياً، والتفوق الذاتي هو أقسى أنواع التفوق، التفوق الإنساني أو تفوق العبقرية هو أكثر إهانة من تفوق الطبقة، أو تفوق المولد، وأكثر إذلالاً.

وقد يصنع هذا التفوق الذاتي كل الألوان الأخرى للتفوق، أو يقهرها، ويذلها.

إن الذين يتفوقون على الناس بالعبقرية والإبداع هم أقسى في إذلالهم لهم من الذين يتفوقون عليهم في المال، أو المنصب، أو النسب، أو في أية مزية اجتماعية أخرى.

وإذا كان الناس ـ كل الناس ـ يرفضون إن استطاعوا أن يكون لفريق أو لفرد أو لمجتمع امتياز عليهم، ويرون في ذلك إهانة وظلماً لإنسانيتهم، وسرقة، أو قهراً لكرامتهم، فكيف يمكن أن يقبلوا هذا الامتياز الذاتي؟ إنه أظلم امتياز وأكثره إيلاماً للذكاء والكبرياء ـ أعني أن هذه هي مشاعرنا نحن المتخلفين، أو المفروض أن تكون مشاعرنا.

ومهما هتفنا للمتفوقين علينا فإننا على نحو ما وبأسلوب ما، نكرههم، ونخافهم، ونتمنى لهم الهزيمة.

*

كان الإنسان مستقراً إلى مكانه في هذه الأرض، لا يطمح إلى مكان آخر سواه، ولا يستطيع أن يطمح، إلا ما كان يسمعه أحياناً في أحلام أنبيائه، وفي أناشيد صلواتهم، كأسلوب من أساليب البكاء أو الغناء.

كان الإنسان يقتات بجاذبية الأرض، لم يكن يستمتع بجاذبية مثل استمتاعه بالجاذبية الأرضية، كان يجد في هذه الجاذبية سحراً ومتعة لا يجد مثلهما في كل أنواع الجاذبيات، حتى ولا في جاذبية الجنس.

كانت جاذبية الأرض هي أفضل أخلاق الأرض، وأفضل عطايا الكون للإنسان. كانت حياته ومسراته وتلاؤمه مع الأشياء منحة من منح هذه الجاذبية، كان لا يعرف ذلك، ولكنه كان يعرف، أو يشعر بالحب والحنان نحو الأرض.

كان اختراعه للعبادة ذات السجود والركوع تعبيراً عن شوقه إلى تقبيل الأرض، كان يسجد على الأرض كعابد لإلهه، وكان في حوافزه الخفية يقبل الأرض حباً وشكراً.

كانت الآلهة في تصوره تسكن في السماء، ولكنه كان ـ حينما يريد أن يعبدها ـ يتوجه إلى الأرض، ويضع وجهه عليها.

لقد كان المفروض أن يسجد الإنسان إلى السماء والنجوم لو كان يسجد للإله، وإنما كان يسجد إلى الأرض لأنه لم يكن يعبد إلا الأرض، يعبد جاذبيتها القوية الغامضة.

لقد كان يشعر أن آلهته موجودة في أعماق الأرض وداخل أعضائها، لهذا كان يتوجه إليها حينما يصلي، وكان دليله على ذلك سحر الجاذبية الأرضية.

نعم، كان الإنسان مستقراً على الأرض، وكان راضياً عن أربابه، عابداً لها لأنها في السماء، ولأنه هو في الأرض.

وكان لا يفكر في أن يفارق مكانه هذا، لقد جعلته الجاذبية شيئاً لا يستطاع فراقه أو كراهته.

ولكن هؤلاء المبدعين المردة يوشكون أن يفسدوا عليه استقراره، وصداقته الدائمة للأرض، إنهم يحاولون أن يلقوا به إلى عوالم أخرى بعيدة مجهولة الصفات والمصير والاحتمالات. وقد يكون في هذه العوالم الأخرى شقاؤه أو هلاكه أو جنونه، قد يكون ذلك أسلوباً مشابهاً في عواقبه وضرباته للأسلوب الذي خرجنا به قديماً من جنة أبينا آدم.

إن هؤلاء المردة المتفوقين يتحكمون في الإنسان، ويصنعون مصيره، ومستقبله، ومكانه كما يستطيعون ويريدون هم، ولا يتركون له حريته، أو راحته، أو بلادته السعيدة، ورضاه عن آلامه، وعن أربابه ومذاهبه المتوحشة الكريهة.

بل لا يتركون له أرضه التي طاب له فيها المقام، وغفر لها ذنوب براكينها، وزلازلها، وقحطها، وسوء توزيعها، وتكوينها، وحشراتها التي تشوهها كما تشوه البثور البشعة الوجه الجميل.

لقد أصبحوا بتفوقهم تحقيراً وتعذيباً وخطراً وتكليفاً له بما لا يفهم ولا يستطيع، وحكماً عليه بالسفر في رحلة مجهولة دائمة، ليست لها نهاية أو غاية، حيث لا عودة ولا راحة.

إذن فالعدل والصواب أن يوقف أمام هذه المحاكمة الفكرية الكونية الخالقون للحضارة دو المستهلكين لها، العاجزين عنها.

الصواب والعدل أن يوقف أمام هذه المحاكمة هؤلاء الطغاة بموهبتهم، الخالقون للحضارة، الذين لا يخلقونها بقدر ما يستطيع، أو يفهم، أو يريد المستهلكون لها، ولا يفرضونها أو يعرضونها عليهم بقدر ما يستطيعون أن يفهموا أو يريدوا.

لقد تحولت الحضارة إذن إلى عدوان دولي، أصبحت عدواناً دولياً يمارسه الأقوياء ضد الضعفاء.

وتحقيراً دولياً يوجهه المتفوقون إلى المتخلفين.

التعليم في الغالب محاولة من محاولات التجميد، أو الاعتقال للتاريخ والعقول والأوضاع والنظم والظروف في طور معين، إنه أسلوب من أساليب التناسخ الروحي والاجتماعي الجماعي ـ هو محاولة لوضع البشر أو المجتمع في قوانين أو في قوالب جامدة سابقة، تنقل إلى اليوم وإلى الغد كل ذكاء الأمس وغبائه وقوته وضعفه ورؤيته للطبيعة ولنفسه وكل مستوياته المختلفة العقلية والمادية والاجتماعية ـ تنقل معطيات الظروف الماضية المخالفة إلى احتياجات الظروف الحاضرة والمستقبلة.

إن التعليم ـ في الغالب ـ محاولة لفرض الماضي بكل ظروفه على المستقبل والحاضر بكل اختلافاته واحتياجاته، إنه محاولة لجعل الأمس يعيش في اليوم وفي الغد، وأن يكون اليوم والغد على مقاس الأمس، وأن يعيشا فيه.

لقد ظلت كل الأجيال في كل التاريخ تعلم من غير أن تعلم في الغالب صدق ما تتعلم، أو نفعه لها واحتياجها إليه ـ كانت تعلم وكأنما كانت تعذب وتملأ فقط بهموم الماضي وعجزه ونقائصه، أو كأنما تعلم كيف تستطيع أن تخمد وتصبر وتموت وتهون، وتظل جاهلة راضية عن جهلها.

ما أكثر المعلمين وأكثر أزياءهم المختلفة، إنهم لاهوتيون، وفلاسفة، ومصلحون، ووعاظ، وزعماء، ومذهبيون، وثوار، ومدرسون وعلماء، وحواة.

إن في التعليم كل معاني التمويت، لأنه يفرض تعاليم وحقائق قد مات زمانها وظروفها وضروراتها، ولأنه يوجهنا إلى أن نعيش ونمارس زمن الموتى واحتياجاتهم، واهتماماتهم، ونحيا بهم، وكما كانوا يحيون.

إن التعليم رحلة إلى التاريخ فوق التاريخ في طريق طويل من المقابر التاريخية، أو هو رجوع إلى المقابر فوق المقابر.

إن الإنسان والزمان والظروف طاقات متحركة، ولكن التعليم يحاول أن يحولها إلى حقائق جامدة، وإلى وقوف وسط مقابر هائلة من الكلمات والحروف.

لقد لبث البشر أو الكثير من البشر أكثر من ألفي عام جاثين بعقولهم وبآلهتهم تحت قدمي المعلم الأكبر أرسطو، ولبثوا أو لبث الكثيرون منهم جاثين بكل كبريائهم ودموعهم وشقائهم تحت قدمي المعلم لفضائل العذاب والاستسلام بوذا. وقبل هذين المعلمين وبعدهما وبينهما أفواج باهظة العدد من المعلمين الصغار والكبار الصارخين والهامسين، الباكين والمغنين، لبث البشر عصوراً طويلة راكعين تحت أقدامهم، يبحثون عن الشمس والقمر والنجوم، وعن كل النور والجمال بين جباههم وقبورهم، وفي كلماتهم وملابسهم التي تسكن فيها أكثر الحشرات وحشية.

وكان أقوى هؤلاء المعلمين وأكثرهم افتراساً هم أولئك المعلمين الذين قدموا من مجاهل السماء وغابات الغيب. ولا تزال طوابير المعلمين تسد كل الطرق على كل البشر، ولعل هذه الطوابير ستزداد في المستقبل اتساعاً وطولاً وقوة سحر وقدرة على فنون الإغواء، ولعل الراكعين تحتها سيزدادون احتشاداً وعدداً وفدائية وخنوعاً.

إن المعلمين في هذا العصر يدعون إلى تعاليم أقوى، ويعيشون في ظروف أقوى، ويملكون وسائل أقوى وأقدر على القتل والإغواء والشمول، لهذا لا بد أن يكونوا أقوى وأخطر.

ومع أن المفروض أن المعلمين يجيئون لإعطاء الحرية وتعميقها، ولإزالة الطغاة والأصنام فإنهم ـ أي المعلمين ـ يتحولون في حياة الناس، وفي التاريخ إلى طغاة وأصنام وعبودية وإهانة. إن المعلمين قد يعطون البشر أشياء ولكنهم يعودون ليأخذوا منهم كل ما أعطوهم، ويأخذوا منهم أيضاً أضعاف ما أعطوهم.

إن أغلب محاربي الأصنام قد تحولوا إلى أصنام أكبر جداً من التي حاربوا.

ومثل المعلمين الذين يجيئون لمحاربة الأوثان، أو باسم محاربتها ليصبحوا أوثاناً بل أقوى الأوثان ـ مثلهم الثوار والزعماء والقادة الذين يجيئون لمحاربة الطغيان والاستعباد والاستغلال والكذب والخداع، أو بحجة المحاربة لذلك ثم يتحولون إذا أصبحوا أقوياء إلى أعتى الطغاة والمستعبدين والمستغلين، وإلى أكذب وأخدع من يكذبون ويخدعون.

إن هؤلاء الثوار والقادة والزعماء يجيئون في زعمهم ليزيلوا آلام الناس وأزماتهم وهمومهم لكي يصبحوا أقوى ما يعاني ويشكو الناس من آلام وأزمات وهموم، بل ليصبحوا آلاماً وأزمات وهموماً مستعصية.

يجيء الزعماء والقادة والثوار ـ فيما يزعمون ـ استجابة لنداء الضعفاء والمظلومين ولبكائهم، للأخذ والانتقام لهم من الظلمة الأقوياء لكي يصبحوا هم أقوى الظلمة الذين يصبح الانتقام منهم والتداوي من وجودهم عزاء إنسانياً عظيماً، إنهم يجيئون كمحررين لكي تصبح عملية التحرر منهم أنبل أعمال التحرير.

كل من يجيئون لإنقاذ الإنسان من أحد آلامه، أو لتجفيف أحد منابع دموعه يتحولون إذا انتصروا إلى نقيض الفكرة التي يزعم أنهم جاؤوا لها.

رجل الدين الذي يجيء ليحسم الخلاف الضاري القديم بين الطوائف أو المذاهب الدينية المختلفة، وليصنع ويلقي بينها المحبة السماوية، يتحول إلى خلاف وبغض دينيين جديدين.

والزعيم الذي يجيء ليصنع وحدة سياسية وحباً وطنياً يصبح شقاقاً سياسياً جديداً.

والنبي الذي يجيء متخلقاً من ضمير السماء ليوحد الأديان ويصنع من المؤمنين وجهاً

واحداً، وقلباً واحداً يسجدان لله في معبد واحد، ويدعوانه بلغة واحدة، يصبح ديناً جديداً بوجوه وقلوب ومعابد ولغات دينية مختلفة متعددة، ليقف بفظاظة وبغضاء وكبرياء في صفوف الأديان الكثيرة المقاتلة للبشر.

والثائر الذي يجيء ليعطي مجتمعه حقوقاً واحتياجات ثورية جديدة يسلب مجتمعه حقوقه واحتياجاته القديمة التي كانت له دون أن يعطيه بديلاً كافياً.

والتعليم المدرسي والجامعي قد يكون أحد أساليب التوقيف لخطوات التاريخ وذكائه، فالمدارس والجامعات وكل المعاهد قد تكون محاولات منظمة لصنع قيود تربط الأجيال الحاضرة والقادمة بطور تاريخي قد مضى، كما قد تكون محاولات لسلب هذه الأجيال كل احتمالات قدرتها على الانطلاق، ولإفقادها الحماس والشوق إلى أن تجرب وتحاول وتستنكر، لأنها تصب حينئذٍ جميع طاقاتها وأشواقها وتحفزاتها في تحصيل المرحلة التاريخية السابقة المجعولة أملاً كبيراً.

ليس التعليم علماً بل قراءة، هو في أحسن حالاته ومستوياته قراءة علم، وهو في أكثرها قراءة جهل أو قراءة ضد العلم، فالمتعلم لا يخلق ما يتعلمه، وأحياناً لا يعيه أو يحياه أو يتكافأ معه أو يعرف لماذا هو أو لماذا يتعلمه، بل أحياناً يعوقه عن أن يحاول أو يتغير أو يعرف أو يشعر أنه محتاج إلى أن يعرف.

إنه كالذي يأكل طعاماً لا يهضمه، ولا يحياه، ولا يتحول إلى قدرة وكينونة وبناء في حياته، أعني إذا كان ما يتعلمه علماً ولم يكن جهلاً.

إن عمل الحياة أن تتلقى وتحول، كما يفعل النبات والحيوان، يتلقيان ويحولان ما يتلقيان إلى مركبات جديدة، وإلى حقائق أخرى ذات صفات أخرى مغايرة.

والحياة ليست أخذاً فقط، والأخذ بدون تحويل موت. ولو أننا أخذنا ولم نحول لكان موتنا محتوماً، لو أننا مثلاً أكلنا ولم نحول ما أكلنا إلى كينونة جديدة في وجودنا لكان معنى ذلك أن نموت، أو على الأقل لكان معنى ذلك ألا نستفيد مما نأكل.

فكذلك التعليم إذا لم يكن تحويلاً أصبح موتاً، موتاً للعقل والسلوك والحماس والإبداع، أو أصبح شيئاً لا نفع فيه.

إن التعليم يجب أن يكون تحويلاً للذات المتعلمة، يحول تفكيرها وأحاسيسها وقدرتها وأخلاقها ورؤيتها للأشياء والناس والآلهة والمذاهب والكون وأحكامها، يحولها إلى وجود إنساني جديد بمقاييسه ونشاطه وكل مستوياته، أي إلى تغيير.

التعليم في افتراضه الأفضل عملية هضم وتغيير، والمتعلمون في هذا الافتراض يتلقون أشواط التاريخ أو المرحلة التاريخية السابقة ليحولوها إلى عمل وتغيير وقدرة على القفز منها فوقها.

ليس التعليم مقررات وصلاة وإيماناً، ولكنه إلحاد واحتجاج وتجاوز.

نحن نتعلم لنتحرك ونناقش ونرفض ونتغير، لا لنعرف ونرضى ونطمئن، أعني أن هذا هو الافتراض النموذجي في التعليم.

إن التعليم يجب أن يكون حركة لا معرفة، شكاً لا يقيناً، سؤالاً لا اقتناعاً. والخطر على المتعلمين ومن المتعلمين أنهم يتحددون ويصبحون حقيقة لا احتمالاً، ويتحولون إلى قراءة لا إلى تجربة أو تفكير، ويجدون فيما يتعلمون أجوبة مسكتة لكل تساؤلات الحياة فيهم، فيملؤون كل فراغ فيهم ملأً كاذباً، ويسكتون احتجاجات التناقض بينهم وبين الطبيعة والناس والأشياء والمذاهب والمعتقدات، ويميتون أشواقهم.

لقد كانوا بشراً يرون ويقاسون فينكرون ويرفضون ويحتجون، أو يتعجبون ويتألمون، فأصبحوا بالتعليم سطوراً في كتاب قديم غير جيد. إن المتعلم في الغالب إنسان قد قتلت أشواقه واحتجاجاته وتساؤلاته، وتحول من كائن كان يتطلع ويرى ويصرخ من هول وفظاعة ما يرى إلى كائن قد أغلقت عيناه ولهفته وتطلعه دون كل ألم وتفاهة وعبث!

إن العلم خلق، فإذا لم يصبح التعليم أو المتعلم خالقاً فما الذي أعطاه التعليم وما الذي ربحه المتعلمون؟

إن المتعلمين لا يدركون أنهم لا بد أن يكونوا خالقين، بل إن موهبة الخلق أو احتمالات الخلق فيهم قد يقتلها التعليم أو قد يراد له أن يقتلها.

ما هي مكاسب البشر لو أصبحوا قارئين ودارسين، بل وحافظين لكل ما علمه وآمن به ودرسه كل من كانوا قبلهم، ما لم يحاولوا ذلك إلى حياة ومستويات فيها تجديد وابتكار ليكونوا هم شيئاً جديداً.

إن التعليم بلا خلق ضرب من التلقيح الميت، ومن الملء للفراغ الذي كان من الممكن أن يمتلىء بمعنى من معاني الحياة فامتلأ بمعنى من معاني الموت.

والكتب مهما كانت عظيمة لا تخلق بقراءتها من يقرؤونها، والقارئون لها لا يغيرون مجتمعاتهم أو يفيدونها ما لم يتحولوا من قارئين إلى مبتكرين، ومن أجوبة إلى تساؤلات، ومن وقوف إلى تجاوز، بل إن الذين يتعلمون دون أن يتحولوا إلى مبتكرين ومتسائلين ومحتجين يتحولون إلى هجاء ودمامة وضعف وغباء في الحياة، وإلى حروف كبيرة لا تقرأ، أو قراءات لا تفهم لأنها لا تحوي أي معنى أو تفسير، وإلى حقول واسعة مغلقة لا تنبت شيئاً.

والمتعلمون غير العلماء يصنعون أضراراً وآلاماً ضخمة، ويصبحون زيفاً هائلاً، ويتحولون إلى أنبياء بدون أخلاق النبوة ووحيها ـ إن المطلوب منهم أحياناً أن يؤدوا أعمال العلماء وأن يعاملوا

كعلماء ـ لأنهم متعلمون ـ وإن لم يكونوا علماء، بل وإن كانوا جهلاء قد أغلقوا على أسوأ مستويات الجهل. وهذه أخطر رسالة يؤديها أسوأ رسول.

المطلوب أن يكون التعليم في المتعلمين فيضاً من الوعي والطاقة والمقاومة والسفر البعيد ـ أن يكون وسيلة مواصلات حديثة وسريعة للسفر الحضاري الدائم إلى الآفاق الحضارية المجهولة النائية، بل وسيلة مقاومة عنيفة للتعليم نفسه.

إن طبيعة التلقي طبيعة اتكالية، والمتعلمون ـ في الغالب ـ متوكلون أي متلقون، إنهم مقابر توضع فيها جثث قديمة، وإذا أصبح التعليم توكلاً أصبح نوعاً من الاعتقادات الكبرى التي تجمد مواهب الحياة واحتمالاتها، وتدافع عن الأرباب والمذاهب والآلام التاريخية التي قاسى منها الإنسان كل العذاب والجهل والهوان.

وهل اتكالية الاعتقاد واتكالية التعليم شيء واحد؟

إن الذين كانوا يتلقون عقائدهم بالتسليم والعجز من غير تجديد أو مقاومة أو نقد في عصر الاعتقاد، قد أصبحوا في عصر العلم يتلقون التعليم بالعجز والتسليم أيضاً دون ابتكار أو موهبة أو اجتياز.

إن أغلب الناس أو كل الناس قد أصبحوا يشعرون أن عليهم أن يتعلموا، ولكن كما يشعرون أن عليهم أن يصلوا ويعتقدوا ويؤمنوا بالآلهة والقبور.

ليس التعلم أو العلم في اعتقادهم وسلوكهم خطراً، أو نقداً، أو تطويراً وتخطياً، ولكنه نوع من التلقين الديني والتعصب الديني واليقين الديني ـ إن أبعد الغايات والأماني لديهم التي يعدون الارتفاع إليها أوجاً حضارياً وإنسانياً بعيداً، أن يجدوا هم ثم يجد أبناؤهم من بعدهم الطريق إلى المدرسة لكي يضعوا عقولهم وحماسهم في قيود ثقيلة من المذاهب والنظريات والحكم والعقائد والعظات والكلمات التي قد ماتت طويلاً في أضرحة التاريخ.

إن المدارس والمعاهد، وتعليم المذاهب والأرباب وحكمة الكون ورحمة الحياة ليست دائماً هي الطريق إلى الحياة أو إلى الحضارة والتقدم والذكاء، بل قد تكون مقاومة لذلك ورفضاً وأسلوباً يدبره الأقوياء والمعلمون والمسيطرون ليعوقوا احتمالات القوة والتغير في المجتمعات التي يقفون فوقها، ليضبطوها ضد المعرفة والفهم والانطلاق والرؤية.

قد يكون التعليم في حساب الأقوياء والمسيطرين على المجتمع أسلوباً من أساليب إغلاق النوافذ، منعاً للرؤية الخطرة، أو المحتجة، أو الرافضة، أو المتخطية.

نعم، ما أخطر الطبيب إذا أصبح طبيباً ولم يصبح مداوياً.

وما أخطر النبي إذا أصبح نبياً أو تعلم النبوة ولم يكن معه إله ولا سماء.

وما أخطر الزعيم إذا أصبح زعيماً حاكماً وقائداً ولم يصبح كائناً فوق البشر.

كذلك ما أخطر كل من يتعلمون دون أن يصبحوا علماء إذا كان مطلوباً منهم أو مفروضاً فيهم أن يتصرفوا كعلماء، وأن يواجهوا المشاكل والناس كما يواجهها ويواجههم العلماء.

إن العلم طاقة أخرى غير التعليم، كل الشعوب والناس قد يستطيعون أن يتعلموا، ولكن هل كلهم يستطيعون أن يكونوا علماء أو مبدعين للحضارة والحياة.

أو أن يكون قائداً أو نبياً أو حكيماً أو شاعراً كل من يتعلم صفات القائد، أو صفات النبي أو من يقرأ الشعر والحكمة؟ لم يصبح محتوماً أن يعلم كل الذين يتعلمون وأن تحيا بالعلم جميع المجتمعات التي تجد مدارس لأكثر جماهيرها.

إن بضعة علماء مغيرين للحياة، وواهبين لها شيئاً جديداً لأفضل من جميع المعاهد والجامعات التي تعد لتعطي أفواجاً هائلة متلاحقة لتجعلهم من القارئين والمفسرين والمعتقدين الذين يتكلمون ويجادلون ويرفعون أصواتهم كثيراً دون أن يعرفوا أن الكلام لا يساوي دائماً الفهم والذكاء ـ أن الكلام الكثير لا يساوي دائماً الفهم أو الذكاء الكثير، وأن الكلام بلغة العلماء لا يساوي العلم دائماً.

ولكن هل يمكن أن يصنع العالم، أو النبي، أو القائد بالتعليم؟

وكما أن التعليم ليس حتماً علماً فإن العلم أيضاً ليس هو القوة المبدعة في الإنسان.

إن القوة المبدعة هي القدرة والرغبة في إخراج الحياة إخراجاً جديداً.

هي التجاوز الدائم للموجود إلى ما يراد أن يكون موجوداً.

هي الرفض الدائم لليوم والأمس بحثاً عن الغد.

هي رفض الشمس البازغة تطلعاً إلى الشمس الغائبة التي سوف تبزغ.

وتحويل العلم إلى إخراج جديد دائم للحياة، أي إلى تغيير وابتكار ورفض للوجود الذي قد كان، رؤية للوجود الذي سوف يكون، هو الغاية التي يجب ألا يقبل أقل منها ثمناً للعلم والتعليم.

والذين يعلمون ثم لا يخلقون، أو يرفضون، أو يتغيرون، ليسوا أفضل من الذين يتعلمون ثم لا يعلمون.

وما أسوأ الحمل الذي لا ينتهي بولادة، وأسوأ الولادة التي لا تنتهي بحياة فيها صحة وجمال وذكاء وظروف اجتماعية وإنسانية جيدة، وما أسوأ التعليم الذي لا يكون فيه علم، وأسوأ العلم الذي لا يكون فيه خلق وتغيير ورفض وتجاوز.

والمجتمعات العظيمة هي التي تستطيع أن تحول التعليم إلى معرفة، وتحول المعرفة إلى قوة وإبداعات حضارية. وتحويل المعرفة إلى قوة وإبداع أشق وأفضل من المعرفة نفسها.

والمعرفة التي لا تتحول إلى كينونة أفضل، هي نوع من الجوع الأليم، ومن النظر بلا رؤية، ومن الرؤية بلا مشهد.

إن قوماً يصنعون العلم والقوة، وقوماً يعلمون فقط، وقوماً يتعلمون دون أن يعلموا أو يملكوا قوة، وإن آخرين لا يكونون من ذلك شيئاً.

قد نتعلم لنكون أكثر جهلاً، وقد نعلم لنكون أكثر عجزاً.

وطور الإخراج أي الابتكار والتغيير والرفض هو طور الإنسان المبدع.

ما هي مواهب الذين يستطيعون الإخراج، أي الذين يصنعون المعرفة ويصنعون منها قوة وحياة جديدة؟

قد نعلم ما يلزم للصعود إلى المريخ، ونعلم ما يلزم لإزالة الجبل من الطريق، أو تحويل مجرى النهر، أو لتغيير جميع الأوضاع الرديئة، وقد نعلم كل النظريات والفروض العلمية، ونعلم جميع وسائل وأسباب النجاح والتهذيب وإرضاء الآخرين وإسعادهم، ونعلم طريق الاستقامة والتفوق على الضعف والهوان وعلى الآخرين، ولكننا لا نستطيع أو لا نريد تحويل علمنا هذا إلى كينونة، لا نستطيع تصنيع معرفتنا وإخراجها إلى مستويات في حياتنا.

وأشق خطوات الإنسان هي تصنيعه للمعرفة وإخراجه لها.

والقدرة على الكينونة موهبة شاقة ولكنها أعلى المواهب.

إن الناس أو كثيراً منهم يعلمون أشياء كثيرة، ولكنهم يظلون غير ما يعلمون وأقل مما يعلمون، إنهم لا يستطيعون أو لا يريدون، أو لا يريدون ولا يستطيعون أن يكونوا ما يعلمون.

قد يكون الإنسان هو وحده الكائن الذي يعلم ولا يكون، أي قد يكون هو الكائن الذي لا يجعل كينونته على مستوى معرفته. إن الإنسان يعلم أكثر مما يستطيع أو يريد أن يكون. فالكينونة ذات تكاليف أو تعقيدات أو أخطار كبيرة ومحتومة، أما العلم أو المعرفة بلا كينونة أي بلا تطبيق أو التزام، فقد تكون شيئاً سهلاً، أو أسهل، أو شيئاً غير خطير، أو أقل خطراً.

وإذا كان الإنسان يعلم دائماً أكثر مما يكون، أو مما يلتزم، فإنه أحياناً يكون أكثر أو أسهل مما يعلم، أي إن معرفته أحياناً تنهاه أو تحرم عليه أو تعجزه عن التكافؤ مع الظروف، أو يكون عاجزاً عن أن يعرف أو لا يحتاج إلى أن يعرف، ولكنه مع ذلك يكون، أي يكون أكثر أو أفضل مما يعرف ويعلم، بل وأحياناً أكثر وأفضل مما يريد.

وجميع البشر يكونون حتماً غير ما قد كانوا، سواء أرادوا وعلموا أم لم يريدوا ولم يعلموا، كما تكون جميع الأشياء. فالمعرفة والإرادة ليستا شرطاً من شروط الكينونة.

لقد فرضت الطبيعة على البشر قيوداً هائلة، فرضتها على معرفتهم، ثم فرضتها على قدرتهم، لقد جعلت المعرفة صعبة، ثم جعلت الكينونة أصعب، وأحياناً جعلت المعرفة أصعب.

لقد كان من ذكاء الطبيعة أو من عشوائيتها أنها لا تشترط المعرفة للكينونة كما لا تشترط الكينونة على المعرفة ـ إن المعرفة تكون بلا تنفيذ أو تطبيق، وإن الكينونة تحدث بلا معرفة، بل وضد المعرفة، ولهذا تكون الطبيعة بكل قبحها وجمالها، بكل فنونها وأزيائها وصورها وأساليبها الشعرية، بلا معرفة، وكذلك يكون الإنسان.

إن أغلب كينونات الإنسان حدثت بلا معرفة، كما حدثت جميع كينونات الطبيعة كذلك.

كان الإنسان كينونة فقط دون أن يريد أو يعرف، حتى معرفته لقد حدثت بدون معرفته.

لقد كان لا يعرف ولا يعرف كيف يعرف أو كيف يريد أن يعرف، بل وكان لا يريد أن يعرف، أو كان يريد ألا يعرف. ولكنه مع هذا أصبح يعرف.

لقد أصبح يعرف بدون أن يريد أو يعرف كيف يجعل نفسه يعرف، أصبح يعرف بالكينونة فقط أو يكون فقط، كما أصبح يمشي ويتكلم ويشعر ويتألم ويحقد ويغار ويحب الجنس، بل ويفكر، لقد بلغ طور التفكير بالكينونة لا بالتفكير إذ كان بلا تفكير ثم أصيب بالتفكير أو ثم صار مفكراً. لقد حدث له أو فيه كل ذلك بدون معرفته، بل وبدون إرادته، كما جاءت صورته وتكوينه وتطوره بدون معرفته أو إرادته أو تدبيره، وكما جاءت وتجيء الطبيعة بزخارفها غير الذكية، ودماماتها غير الرحيمة، وبحشراتها التي تتحول إلى أضخم هجاء لنفسها ولذكائها ونظافتها ولثنائها على مبدعها الأعظم الذي يصنعها على غير ما تريد هي وعلى غير ما يرضيه هو.

بل الذي يخلقها ثم يعاقبها على الأسلوب الذي خلقها به!

لو كان الإنسان يكون كما يعرف، أو لو كان لا يكون إلا كما يعرف فهل سيكون حينئذٍ أفضل أو أجمل أو أسعد أو أقوى، أو هل ستسعد أو تفرح به الآلهة أو ترضى عنه أكثر؟

إن الإنسان، وكذا كل شيء يكون ما يستطيع فقط، وإذا عرف أو أراد فلأنه يستطيع، أي يستطيع أن يعرف ويريد، وإذا رفض أن يعرف أو عجز عن المعرفة أو عن الكينونة فلأنه لا يستطيع.

إن الإنسان استطاعة فيها معرفة وليس معرفة فيها استطاعة، أما كل الأشياء فهي استطاعة بلا معرفة، إن المعرفة استطاعة، والاستطاعة ليست معرفة.

*

إن العلم بلا تحويل أو إخراج هو بقاء في الذات، أما التحويل أو الإخراج فهو تجاوز لها أو خروج منها.

وكم هو صعب أن نفارق ذواتنا، والحضارة بكل مستوياتها هي فن الخروج من الذات، أو هي فن الإخراج للذات، هي الخروج من الهيكل إلى الطريق العام لمقاومة الطبيعة وتغييرها.

إن أكثر الناس يظلون دائماً من النظارة المشاهدين أمام عمليات وأدوار الإبداع الدائمة في هذه الحياة، ويظل المؤلفون والمخرجون والمؤدون للأدوار هم دائماً الأقلين، وتظل كل موهبة أولئك الأكثرين المشاهدين وكل أملهم أن ينفعلوا، ويهتفوا أحياناً، ويعجبوا بالمنظر وبالحوار الدائر أمامهم الذي لا يفهمون منه شيئاً، وبالقراءة لتاريخ الأبطال، ثم أن يتحركوا أخيراً اضطراراً مع السفينة التي يعيشون داخلها دون أن يصنعوها أو يقودوها أو يشاركوا في صنعها أو قيادتها.

إن القراءة المصدقة نوع من العبودية، فالذي يقرأ ليؤمن ويطيع هو عابد مستسلم، وعابدو الأصنام والآلهة هم قوم قارئون، لقد اكتسبوا آلهتهم وأصنامهم، وفهموا مزاياها وصفاتها بالقراءة والاستماع، وبالتعليم الذي هو قراءة.

لقد أعطت القراءة المؤمنة للبشر جميع وثنياتهم، فليس الوثني إلا إنساناً قارئاً، أي متعلماً، والرافض للقراءة والتعليم لا يمكن أن يكون وثنياً لو كان يمكن أن يوجد من لا يقرأ أو يتعلم شيئاً.

والقراءة ليست نشاطاً عقلياً، بل هزيمة عقلية، والعبادة نقل واستجابة وقراءة.

ومن عبد صنماً أو شيئاً، فما هو إلا إنسان يحاول باستسلام أن يقرأ رغبة معبوده المنزلة أو الملهمة، ويفرضها على سلوكه ومشاعره وذكائه.

والتحرر من القراءة ـ أي التحرر من الغباء والتصديق ومشاعر العبادة أمام ما نقرأ ـ تحرر من الوثنية.

إن الوثني يجهل الشمس فيخافها ويركع لها، إنه يقرؤها فقط دون أن يعلمها. إن الذي يشاهد الشمس بانبهار ديني هو كالذي يقرأ كتاباً يمثل هذا الانبهار، أما المتحرر فإنه لا يقرأ الشمس وإنما يفسرها ويسخرها.

إن الأغبياء يعبدون الزلازل والأوثان والكتب لأنهم يقرؤون فقط، أي يتعلمون فقط، أما

المبصرون فإنهم يقرؤون ويفهمون ويفسرون ثم ينكرون ويغيرون ويتجاوزون ويسيرون فوق التعاليم والعقائد والأموات والكتب إلى ذواتهم.

أليس الذي يعبد كتاباً كالذي يعبد قبراً، كلاهما يمجد الموت بالهرب من الحياة؟

إن التعصب للقراءة يعني التعصب للتاريخ، يعني التعصب ضد الحياة والذكاء والحرية.

مشكلة الإنسان أن طريق حياته هو طريق عبوديته، وأن حوافز هذه وأهدافها هي حوافز هذه وأهدافها، وأنه لا يوجد إنسان واحد هو حر دائماً أو عبد دائماً، ولكن البشر جميعاً هم احتمالات عبيد بقدر ما هم احتمالات أحرار، أو احتمالات من نسميهم أحراراً، واحتمالات من نسميهم عبيداً.

*

وإذا كان من المقدر دائماً أن التعليم هو وحده الذي يستطيع أن يتحول إلى تفكير وابتكار، أو إلى صديق ونصير لهما، فإن المتعلمين في الأغلب هم الذين يحملون اللواء لمحاربة التفكير والابتكار والتعصب ضدهما، لأن التعليم يتحول ـ وهذا قد سبق التذكير به ـ إلى إسكات للتساؤلات وللتناقضات الحادة والمحتومة بين الإنسان والأشياء، وبين الإنسان ونفسه، بينما التفكير والابتكار استجابة لهذه التناقضات والتساؤلات وتعامل حر معها، بل وإثارة وتجسيم لها وتركيز للإحساس والرؤية عليها.

التعليم إقناع بما كان وتوافق مع كل ما هو موجود من أرباب وطغاة ومذاهب وآلام وأوهام ليست هي أفضل الأوهام، أما التفكير والابتكار أو التفكير والنقد فهما تطلع وبحث وشوق إلى ما سوف يكون وتجاوز ومقاومة لما قد كان.

إن أكثر المجتمعات لم تتحول إلى خالقة أو مبدعة في حالتيها، لا حينما كانت تعيش مع الآلهة القديمة غير المتحضرة، ولا حينما أصبح مفروضاً عليها أن تواجه وتتعامل مع حضارة أكبر منها. ففي الحالة الأولى كانت تتلقى صلواتها وتعاليمها وأخلاقها اللاهوتية بالتلقين والحفظ والرهبة جاهزة كأنها أشياء تلقى إلقاء في أي وعاء، فلم يكن فيها أية معاناة لا عقلية ولا أخلاقية، كما لم يكن لديها رفض لها أو مقاومة. وفي الحالة الثانية أصبحت تتلقى حياتها ومذاهبها ونظمها وشعاراتها وزعماءها وثوارها المغرورين الأغبياء قروضاً ومنحاً وخبرات جاهزة مصنوعة بعيداً، بعيداً عن ذكائها وقدرتها وتاريخها، بل بعيداً، بعيداً عن ذكاء أربابها وتاريخهم وخيالهم.

إن هذه المجتمعات ليست متكافئة في مستوياتها الذهنية والأخلاقية مع ما فرض عليها ممارسته من تعليم وأساليب حضارية، إن ذلك لم يصبح فيها شوقاً ولا قدرة ولا مزاجاً، وما

صلتها بكل ما تتعلم وتمارس وتواجه من ظروف حضارية إلا كصلة الحقيبة بالملابس والأشياء الموضوعة فيها وضعاً، وما شعورها الإنساني به إلا كشعور صندوق جهاز الراديو بالأفكار والأصوات المنطلقة منه، مع الفروق الكثيرة لمصلحة الصندوق، إن الصندوق لا يفسد ما ينطلق منه كما يفسد هؤلاء ما يتعلمون ويمارسون من شعارات ونظم ومذاهب حضارية. ولهذا فإن ما يتعلمون لا يغيرهم أو يرتفع بهم إنسانياً لأنهم لا يعيشونه وإنما يمر من خلالهم كما تمر الأشياء السائلة من خلال الأنابيب.

إن الحضارة تهاجم جهازهم العصبي وتبهر أبصارهم وترفع أصواتهم فقط.

ولعل الإنسان لا يريد أن يكون مفكراً، ولعله يهاب التفكير حتى أعظم الناس تفكيراً، وإذا فكر فلعله يفكر بالكره منه كما يبكي ويحزن ويخاف ويمرض ويغضب.

لقد كان البشر دائماً يقيمون حول أنفسهم الحرس والجيوش والحصون المنيعة لتحميهم من لعنة التفكير.

وقد كانت الأرباب والطغاة والمذاهب والتعاليم والتعليم وكل ألوان العقائد هي بعض هذا الحرس والجيش، لقد كانوا يريدون من هذه أن تحميهم من أخطار التفكير وآلامه ومعاناته، كما يريد أي حاكم خائف أن يحميه حرسه وجيشه وأجهزته من الأخطار والخوف.

إنه لولا الخوف من التفكير لما وجدت الآلهة والعقائد، أو لما وجد الكثير من الآلهة والمذاهب، ولولا الخوف كذلك من الأعداء والخصوم والمتآمرين المتمردين والخارجين على القانون والنظام لما وجدت الجيوش وقوات الأمن.

وقد وجد الإنسان المتوكل والباحث عن التوكل في عهوده القديمة ـ وهو يجد حتى اليوم كذلك ـ راحة وكبرياء وشيئاً من المجد والعزاء في أن يدع الآلهة تكفيه هموم التفكير والعمل لنفسه ومتاعبهما.

وإن زعماء كباراً، وشعوباً كثيرة يجدون اليوم هذه الراحة والكبرياء والعزاء والمجد حين يستغنون عن كل تفكير وإبداع، متوكلين على أفكار الآخرين وانجازاتهم الباهرة. لقد التزم هؤلاء الأخلاقية المهذبة مع آلهتهم القديمة التي كانت تثير الرثاء مكان الإعجاب، فلم يحاولوا أن يعتدوا عليها أو يهينوا كبرياءها بمشاركتها في التفكير أو في الخلق، وهم اليوم يلتزمون هذه الأخلاقية بكل تهذيبها مع آلهة هذا العصر الجديدة القوية التي تصنع الحسد والخوف مكان الرثاء، والتي تهبهم القروض والهبات والخبرات والمذاهب والشعارات وأساليب التعليم دون أن يشاركوا أو يعصوا، ودون أن يفهموا كذلك.

لقد انتقلوا من إيمان وعجز قديمين إلى إيمان وعجز حديثين، وإن الأسباب والحوافز

واندلالات في البحث عن الآلهة والعقائد والمذاهب واحدة مهما اختلفت نفس هذه الآلهة والعقائد والمذاهب. إنهم يتقبلون اليوم ما يعطيه ويصنعه هؤلاء الآخرون الذين صلبوا آلهتهم القديمة بالحافز والرغبة والضعف الذي كانوا يتقبلون به ما كانت تعدهم به تلك الآلهة القديمة المصلوبة، يتقبلون تقبل المضطر دون أن يفهموا أو يختاروا أو يتطوروا أو يتكافؤوا أو يتكيفوا، إنه قبول الخوف والغريزة الخاضعة لإلزام الحياة وطغيانها وإرهابها، لا قبول المدرك القادر الموازن المحترم لقوانين المنطق.

وتعليم الإيمان والاقتناع بالإله والعقائد هو أعنف وأقسى تعليم اخترعه الإنسان ليجمد به حياته، ويسكت تساؤلاته واحتجاجاته على وجود لو كان بلا ألم ولا كذب لكان عبثاً، وهو عبث وجريمة لأنه بألم وكذب ـ على وجود:

إن كان بلا مدبر فكيف اختار نفسه وقسا عليها؟ وإن كان بمدبر فهذا المدبر إن كان يريد ما يحدث فمريض وكائن لا يمكن الاعتذار عنه، وإن كان لا يريد فغير عاقل.

إنهم ليسوا المتعلمين هم الذين يبدعون الأشياء الجديدة، أو يرون الأشياء الجديدة، أو يفهمون الحياة، أو يسمعون النجوم، ولكن أولئك هم قوم آخرون.

إن المتعلمين ليسوا إلا متحدثين عن أشياء موجودة، أو عن أشياء لن توجد، أو ضد الأشياء الموجودة، أو الأشياء التي سوف توجد، إنهم ليسوا إلا مشوهين للأشياء الموجودة، مشوهين للمذاهب والأفكار والحضارة وللحديث عنها وفيها ولممارستها.

إنهم ليسوا إلا منشدين ومصلين وراء الخالقين بلا ذكاء أو إتقان أو روعة.

إن التعليم بلا موهبة عملية تشويه للمتعلم، وتشويه للأشياء التي يمارسها المتعلم الذي لا يملك الموهبة ولا الجرأة أو القدرة على الرفض والنقد.

إن التعليم بلا تفكير وتجاوز وراء لأنه نقل صور ماضية، أما التفكير والتجاوز فهما أمام لأنهما رؤية وخلق لصور آتية، والأحياء يعيشون فيما يأتي لا فيما مضى.

ولعمق الفروق بين التعليم والتفكير نجد الحكام الطغاة والمعلمين وأمثالهم من صائدي البشر يتسامحون، بل قد يجدون في تشييد المدارس والجامعات ومختلف دور التعليم، مثلما يجدون في بناء المعابد واختراع الأرباب، كأنهم إنما يقصدون معاقبة الناس بإنشاء المدارس والمعاهد التعليمية لهم، كأنما يصنعون لهم القيود.

إن التعليم في تدبير وتقدير هؤلاء السادة أسلوب من أساليب الكبح والضبط والإخضاع مثل الصلاة والإيمان.

ولكن هؤلاء الطغاة والمعلمين الباحثين عن ضبط الناس، وإخضاعهم بتعليمهم في المدارس،

وبتعليمهم الإيمان والاعتقاد ومزايا الآلهة، يكافحون بقسوة كل تفكير أو رفض أو تجاوز، ويرون في المفكر الرافض المتجاوز عدواً يجب أن يختفي أو يتعذب.

إنهم إذن يفهمون الفرق بين هذا وهذا، ويفهمون أيهما الصديق، وأيهما العدو، ويعاملونهما كما يعرفونهما.

المتعلمون هم في الغالب سدنة هياكل وسدنة طغاة وأرباب ومذاهب وعقائد مذلة. إن أكثر المتعلمين لا يفيدون من تعليمهم سوى اكتساب الجرأة والقدرة على الدفاع عن الغباوات المقروءة في المحاريب المخطوب بها فوق المنابر، وسوى الدفاع عن الفساد المنتصر أو الفساد الرابح أو الفساد المعروف، وسوى القدرة والجرأة على كراهة ومقاومة كل قادم جديد، ونجم جديد، وكتاب جديد، ورأي جديد، بل وكل حب جديد.

أليس المتعلمون هم الذين يحاولون دائماً أن يستردوا لطفولتنا وأوثاننا القديمة كل أمجادها وجبروتها وملكوتها الذي قد شاخ؟ ويحاولون كذلك أن يعقموا أذهان مجتمعاتهم وعقائدهم وأخلاقها ضد الإصابة بأخلاق الحضارة أو بذكائها، أو بما فيها من ثقافات ومذاهب ورفض للبلادة القديمة، ومن قراءة للكون والأشياء بلغة جديدة وتفاسير جديدة؟

هل تجد حرس الطغيان والفساد وأعوانهما الناطقين باسمهما والمدافعين عن أردأ وأكذب التقاليد وأفدح المظالم؟

أو هل تجد صانعي العداوات والشتائم والعبادات والعقائد البليدة الباصقة كل فحشها ودمامتها على كل ذكاء وجمال وصداقة؟

هل تجد كل هؤلاء إلا من المتعلمين؟

أليس أفضل الأعوان لكل طاغية شرير هم المتعلمين؟

إن الجاهل لا يعرف، كما لا يجرؤ على مقاومة التقدم، أو التفكير، أو الاصلاح والتغير، أما المتعلم فقد يفاخر بهذه المقاومة، بل قد يحولها إلى دين.

إن الجاهل يطيع الحياة بحوافز الحياة بلا علم، أما المتعلم فقد يحاول أن يعصيها بغرور المتعلم الذي لا يعلم، أو بغرور المنتسب إلى العلم بلا علم.

الجاهل لا يكون رجعياً أو عابداً للأصنام والظلام إلا تحت قيادة المتعلم.

إن الجاهل لم يخترع قيوده، ولم يضع في الثناء عليها الأناشيد الدينية، ولكن المتعلم هو الذي صنعها له، أو دعاه إليها، وضربها على قدميه وعقله، وألزمه بأن يحولها إلى صلاة، وأن يضع لها نسباً ممدوداً إلى السماء.

إن المتعلمين هم القيود في كل مجتمع على الحياة حتى في أرقى المجتمعات وأكثرها تقدماً.

المتعلم يتحدد أمام الحياة، وأمام نفسه، وأمام الآخرين في كتب، ونظريات، ومذاهب، وتعاليم، وتفاسير، وآلهة متجمدة الصفات، وفي شعارات، وإطارات، ومقاييس نفسية واجتماعية صارمة متحددة، لذلك هو دائماً غل من أغلال الحياة والتفكير، ما لم يكن موهوباً ومتمرداً ورافضاً متحدياً.

إن للمتعلم دائماً عمرين: عمراً يقضيه في تعلم أخلاق الموتى وضعفهم، وتعلم صفات الأرباب غير المعقولين، وحماقاتهم، وهمومهم الأليمة، وعمراً آخر يقضيه في تعليم الآخرين هذا الذي تعلم.

ولولا المتمردون الذين يتخطون التعليم والتعاليم، وكل المذاهب والآلهة المحروسة بكل التاريخ والتقاليد والمعابد والنظم ـ ثم لولا أن الحياة تتغير، وتتخطو فوق كل قيد تعليمي، عاصية جميع الأرباب والأنبياء والقديسين، ومواعظهم الرهيبة بما فيها من بلاغة وسحر وقوة اجتماعية وتاريخية.

نعم لولا هذا وهذا لظل الإنسان يعيش في تاريخه وكهوفه القديمة، بعيداً عن حضارته مشدوداً بأعنف اللذات الروحية إلى أقوى القيود التي أبدعتها أقوى التعاليم، بل لكان محتوماً أن يموت ويفنى نوعه تحت وطأة التعاليم الغبية المتعاقبة عليه التي يجيء بها أفواج الآلهة والمعلمين ليسحقوا فيه كل احتمالات الذكاء والرؤية والشجاعة، عاجزاً عن مقاومة الطبيعة أو الخروج عليها، لأن تعاليمه تنهاه، وتضعفه وتعلمه الصبر، والاستسلام، والهزيمة.

هل تراك مذنباً لو أنك فضلت جاهلاً يعمل الحياة كما تعلمه الحياة، أو تفرض عليه الحياة، أو كما تلقاها عن أسلافه، لا يستطيع أن يقرأ أو يكتب، أو يخطب أو ينشد القصائد المنافقة أمام أحد الطغاة، أو يؤلف الكتب في تمجيد الطغيان والحروب والرجعية وتهديم الرجولة والذكاء؟

نعم هل تراك مذنباً أي ذنب لو أنك فضلت مثل هذا الإنسان الجاهل النافع على جميع المتعلمين الذين يجدون كل الشجاعة ليتجندوا في كل مواكب الطغيان، والرجعية، والفساد، والجهل، تحت كل علم، في ركاب كل طاغية ونقيضه أو خصمه، بأي ثمن أو بلا أي ثمن، موهوبين كل الاستعداد والجرأة على الانتقال دون أية مقاساة إلى المواكب المضادة متى جاءت ليقولوا نفس القول، بنفس الحماس، والافتضاح والجرأة؟

وكل المجتمعات تقاسي هؤلاء المتعلمين حتى أعظمها رقياً.

وهم ليسوا فقط أجهزة للطغيان، بل وأجهزة للغباء والتأخر والجهل.

وهم ليسوا أجهزة فقط لذلك، بل هم أنبياؤه وشعراؤه وقادته.

وهم يتعلمون الكذب والنفاق والضعف مع تعلمهم الكلمة، ولهذا فإنه لن يوجد نوع من الكذب، أو النفاق، أو الضعف يرتفعون بكبريائهم أو بذكائهم عنه.

إنهم لا يكذبون بقدر ما يحتاجون، أو يضطرون إلى الكذب، بل يكذبون ويسقطون بقدر ما يستطيعون، ويظنون أنهم يخدعون ويستفيدون.

بل إن الكذب والنفاق يتحولان لديهم إلى فنون، وشهوات، ومباريات بينهم في سباقهم على الطغاة، وفساد السوق وجهلها.

إن المتعلمين يتحولون إلى مبتكرين لألوان جديدة من الكذب والنفاق والضلال غير معروفة ولا منتظرة ليفتحوا بها شهية وخيال الطغاة والسوق الجاهلة الضحية، إنهم لا يقدمون للطغاة والجماهير ما اعتادوا وعرفوا فقط من ألوان الكذب والنفاق والجهالات، بل إنهم ليخترعون لهم ويبتكرون، إنهم ليعلمون الطغاة ألواناً مبتكرة من الطغيان، ويعلمون السوق الجاهلة ألواناً مبتكرة من الجهالات.

إذا أصبحت المعرفة تناسخاً عقلياً مملاً، وصلاة تحفظ وتؤدى بالتلقين والتقليد والإيمان، إذا صارت عبودية للتاريخ والتقاليد والسوق والآلهة والطغاة المتعاقبين والمتناقضين المتخاصمين، فما أسخف أن يتعلم الإنسان، ولكن ما أسخف أيضاً ألا يتعلم.

أن يتعلم البشر البلادة والعبودية والجهل شيء فظيع، وألا يتعلموا شيئاً هل يمكن أن يكون شيئاً غير فظيع؟

*

كان الإنسان في تاريخه الطويل الكئيب يقاسي من أمية العجز عن القراءة والتعليم، وقد عاشت معه هذه الأمية زمناً باهظ الطول، وإنه لا يزال يعاني منها في كثير من بلدانه ومجتمعاته، وقد تراجعت هذه الأمية كثيراً، وقد تتراجع أكثر، وقد تصيبها يوماً ما الهزيمة النهائية. وحينئذٍ تبقى الأمية الأخرى وهي أمية القدرة على القراءة والتعليم، مع العجز عن الذكاء والتفكير والرفض، أو هي الأمية التي تصنعها القراءة والتعليم.

وهذه الأمية عصية الحل وخطيرة المعنى لأنها لا تعالج بالتعليم، ولا بالأوامر والقوانين والتشريعات، ولأن الذين يسيطرون على قوى المجتمع في العصر الحاضر وفي كل العصور يباركون هذه الأمية ويعملون على نشرها وتقويتها والإيمان بها، ويعاقبون على الخروج منها، ولأن ظروف هذا العصر وما يملك من وسائل إعلام ودعاية وضجيج، وما يتجه إليه قاصداً أو غير قاصد من صب المجتمع كله في عقل واحد، ومذهب واحد، وإرادة واحدة، وجهاز واحد،

وفي ضربة واحدة، وفي مستوى فكري واحد، أو في مستوى واحد من رفض الفكر ومقاومته والعجز عنه، أو في مستوى واحد متفق عليه من الغباء والمهانة العقلية.

لأن ذلك كله يؤدي إلى هذه الأمية ويجعلها شيئاً محتوماً، بل يجعلها موقفاً وطنياً وحضارياً وأخلاقياً لا يجوز الخروج عليه، وقد يصبح الخروج عليه خيانة أو زندقة يعاقب عليها.

إن مستقبل هذه الأمية في هذا العصر مستقبل تبتسم له كل الاحتمالات والظروف ـ إن مستقبل الأمية التي يصنعها التعليم مستقبل يصعب الشك في قوة ظروفه.

التفكير يجعل من المفكر ومن الوجود كله بوحداته المختلفة وحدة واحدة يحكمها ويضبطها قانون واحد، وحينئذٍ يرى المفكر الوجود من خلال قوانينه رؤية شاملة، ويربط فكره بين الأشياء كما يربط بينها قانونها، فينتهي به هذا إلى اكتساب صفة التفكير الشاملة، لأن التفكير الشامل هو نتاج رؤية شاملة، أو الرؤية الشاملة هي نتاج التفكير الشامل.

ومن الممكن أن تجمع حقائق ووحدات لا عداد لها في ذهنك تحت قانون موحد، وأن تضبط وترصد اتجاهاتها واحتمالاتها وانشطاراتها وتحركاتها المستقبلة المحتومة الانطلاق عن تفاعلاتها الخاضعة لقوانينها. وحينئذٍ تصبح من الحاكمين على الغيب، الرائين له من بعيد جداً رؤية عقلية.

ولكن من المستحيل عليك أن تستطيع ذلك إذا كنت ترى الأشياء والناس وتتعامل معها ومعهم وتفهمها وتفهمهم بالتعليم لا بالتفكير.

إنك لو ابتلعت كل الكون، وكل الأشياء أو ابتلعتك.

إنك لو حولت كل شيء إلى قرص صغير مركزة فيه جميع اللذات والقوانين، ثم ظللت تمضغه كل حياتك بكل شهوتك وحماسك لما استطعت أن تحكم عليه حكماً عاماً ما لم تكن مفكراً.

ومهما علمت الحيوانات كل شيء فإنها لن تستطيع أن تعرف العلاقات الكونية والإنسانية والقانونية بين الأشياء لأنها غير مفكرة.

والتعليم بلا تفكير لا يمكن أن يهبنا الذكاء، ولا القدرة على الحكم، ولا على معرفة العلاقات المنطقية بين الأشياء.

إن رؤيتنا الدائمة للإنسان، ولمسنا له بأيدينا، لا يجعلنا قادرين على معرفة حوافزه وأهدافه في تصرفاته، كذلك تعلمنا بلا تفكير لن يمنحنا القدرة على أن نكون أذكياء، أو رافضين لقسوة الكون والحياة وعبثهما وغبائهما، أو لفساد المذاهب والنظم والمعتقدات، أو مدركين لتفسير الأشياء، واعين للتعامل معها.

كل تعليم، بل كل إله وطاغية وعقيدة ومجتمع ينافي التفكير، ويبحث عن مبررات لمقاومته، بل ويخلق هذه المبررات ويبرزها ويركز عليها كل الأساليب الدعائية.

إن المجتمع إذا كان متديناً فسيقاوم التفكير ويشتمه دفاعاً عن الدين أو باسم الدين، وإذا لم يكن متديناً فسيقاومه ويهجوه تحت أسباب أخرى، وسوف يجد هذه الأسباب الأخرى حتماً.

سيقاوم التفكير ويشتمه إذا كان غير متدين دفاعاً عن النظام أو المذهب أو الأخلاق، أو حماية للدولة والشعب من العابثين والماكرين أو الأعداء والعملاء.

والتعليم هو السلاح العالمي الدائم لمقاومة هذا العدو العالمي الدائم الذي هو التفكير.

إن التعليم في مقاومته للتفكير يعني في السلوك العالمي ما يعنيه الجيش وقوات الشرطة في الحماية من الأخطار والمخاوف.

إنه لا سبب لتحريم التفكير والخوف منه في بعض المجتمعات ـ فيما يذكر المحرمون الخائفون ـ غير الاحترام والخوف على الإله الجالس بغضب وعصبية مكظومة بعيداً، بعيداً، ملتحفاً بالسماء، والنجوم، والضباب، والظلام، والصمت، والأبعاد الهائلة، حيث لا يراه أو يسمعه أحد. إذن لولا الاحترام لهذا الإله الهارب عن العين والأذن، والخوف عليه، لما كان التفكير حراماً ولا مخيفاً.

ولكن كيف؟

أليست توجد مجتمعات أخرى ترفض هذا الإله وترفض أن تقيم معه أية علاقات من أي نوع، ولكنها مع هذا الرفض تحرم التفكير بالبطش والاقتناع اللذين تحرمه بهما المجتمعات المؤمنة به؟

أي إن الذين يؤمنون بالإله، والذين ينكرونه يخافون التفكير ويعاقبون عليه، إذن فالتفكير عدو يخشاه الفريقان النقيضان المتناقضان في اعتقاداتهما.

والذين يرفضون عقائد هذين الفريقين المتناقضين هم أيضاً يحرمون التفكير، أو يخافونه على نحو ما وبأسلوب ما، ويحولون تحريمه أو الخوف منه إلى تعاليم مختلفة، وإلى تعليم ليحمي من هذا العدو، أو ليضعف من سلطانه. وإذن لو فقدت جميع الأسباب التي تحرم المجتمعات التفكير باسمها لظل التفكير محرماً بلا أسباب، بل باسم أنه شرير وعدو خطير، كما تحارب الوحوش والأمراض والخوف بلا أسباب دينية أو أخلاقية أو وطنية أو مذهبية.

إن التفكير يحرم ويخاف منه بلا سبب من هذه الأسباب مهما حرم وخيف باسمها.

والتعليم هو أقوى وأذكى أسلوب للاحتماء من التفكير ولهزيمته، أو لإضعافه، ولهذا وجد التعليم والتعاليم في جميع العصور والمجتمعات على مستويات وأساليب مختلفة. وكما ذكر

سابقاً فإن تعليم الإيمان بالأرباب والأوثان وتفسير صفاتها وعلاقتها بالكون والناس والأشياء أسلوب من أساليب المقاومة للتفكير.

إن الذي يقول لك:

إن الله حكيم، رحيم، وصديق في خلقه للآلام والأمراض والحشرات والعبث الكوني، وفي إصابة الطفولة والشيخوخة بالأدواء الخبيثة ـ نعم إن الذي يقول لك ذلك ليس إلا إنساناً يقول لك:

لا تفكر، إنه يعلمك ليصرفك عن التفكير ويخمد فيك الطاقة والاحتجاجات والرؤى العقلية.

وإذ كان الجمع بين الإيمان بحكمة الأرباب في خلقهم الكون، وبين التفكير شيئاً محالاً فإنه يمكن الجمع بينهما في فقدهما، بل هذا هو الأغلب، فأكثر الناس ليسوا متدينين ولا مفكرين.

لقد وجدت أديان ومذاهب دينية كثيرة ومختلفة، ولكنها لم تختلف على أنه لا يمكن الجمع بين الإيمان بكون العالم محكوماً بمنطق الأرباب وبين الإيمان بالتفكير.

وهل يمكن أن تجمع بين إيمانك بأن الله قد خلق الذباب لمصلحتك، أو لمصلحة الذباب، أو لمصلحة الشمس والقمر، أو لمصلحة من يقع الذباب على طعامهم وعيونهم، وبين كونك إنساناً مفكراً، تتعامل مع عقلك بكل طاقته ورؤيته وغضبه؟

إن المؤمنين والمذهبيين لا يمكن أن يختلفوا على عداوة الفكر والمفكرين والخوف منه ومنهم ما داموا مؤمنين بأديانهم ومذاهبهم، خائفين عليها، متحمسين لها، وإذا صادقوا الفكر والمفكرين، أو تراخوا في عداوتهم لهم أو خوفهم منهم كان المعنى أنهم بدأوا يتراخون في إيمانهم، أو أنهم قد فقدوا هذا الإيمان.

والمؤمنون إذا اختلفوا يختلفون داخل الشيء وفيه لا خارجه ولا عليه.

وقد خابت جميع المحاولات للإصلاح بين الدين والحياة، أو بين الحياة والتفكير بدون الإضعاف لأحدهما، كما خابت كذلك جميع محاولات الإصلاح للمجتمع وتطويره والارتفاع به من طريق الإصلاح للدين وتطوير تفاسيره والارتفاع بها.

لقد ظلت جميع الطوائف المؤمنة المتدينة حتى أنبلها قصداً وأكثرها ذكاء عاجزة عن الصعود بالحياة من طريق الصعود بالدين، كما ظلت عاجزة عن مصادقة التفكير أو تعليته تحت الشعور الديني.

إنه من غير الممكن أن تفكر بكل عقلك، ثم تؤمن وتصلي بكل قوتك، أو أن تؤمن وتتعبد بكل إيمانك، ثم تفكر بكل عقلك.

وكم هو عبث أن نحاول أو نرجو التغير إلى الأفضل، أو مطاولة الآخرين المتفوقين بتأويل الدين تأويلاً جديداً متحضراً، أو بأن نصبح مجتهدين أو نصوصيين في الدين، رافضين للتقليد والخرافة.

بل إن ههنا خطراً.

ذلك أن التجديد في الدين وفي تفاسيره وتهاويله يهب حماساً وتعصباً، وهذا الحماس والتعصب يهبان حماساً وتعصباً آخرين يتوجهان إلى مخاصمة الفكر والحياة والإنسان.

فالإصلاح الديني يؤدي إلى الحماس ضد الحياة والقيم الإنسانية، وهذا معروف في جميع الحركات الدينية القوية التي كانت تعد حركات إصلاحية، لقد كانت هذه الحركات الدينية الإصلاحية تتحول إلى طوفان من الحماس والتوتر الفاقد للذكاء والعبقرية والفضيلة الإنسانية، أو المقاوم لذلك.

وهذا لا يعني أن النصوص والتعاليم الدينية تتجه هذا الاتجاه في معاداة العقل، فالتعاليم والنصوص سواء عادت أم سالمت وصادقت ليس لها حساب حاسم أو كبير في صياغة الحالة أو القدرة النفسية أو في نشاط الفكر وخموله، أو في طاعته وتحديه، أو في إيمانه ورفضه.

لماذا نطيع بتفكيرنا الأوامر والنصوص والتعاليم، أو نرفض طاعتها؟ إن استعدادنا لهذا أو لهذا شيء خارج عن النصوص والأوامر والتعاليم، سابق لها زائد عليها.

ونحن لا نطيع أو نعصي بقدر ما نؤمر، أو لأننا نترك بلا أمر، ولا بقدر قيمة وصدق وحرارة هذه الأوامر والنصوص والتعاليم، أو بقدر إخلاصها أو فقدها للإخلاص، بل نطيع ونعصي بقدر استعدادنا نحن لأن نطيع ونعصي، ولهذا فإننا لا نتساوى في الطاعة والعصيان أمام الأوامر والنصوص والتعاليم الواحدة أو المتساوية، بل نختلف في ذلك لاختلاف ظروفنا واستعداداتنا النفسية والعقلية.

ولولا أن الأمر هو دائماً كذلك لأمكن أن نخلق بالنصوص والتعاليم الواحدة طرازاً من البشر واحداً.

ومع هذا فكم نعبث حين ننتظر النبوغ والأعمال الكبيرة من إنسان يؤمن بأن الله هو الذي يصوغه، ويريده، ويصنع كل قواه العقلية والأخلاقية والنفسية.

نعم إننا نعبث حين نرجو ممن يؤمن هكذا أن يكون عظيماً، أو قوياً لو كان البشر يخضعون في سلوكهم لمنطقهم الديني أي خضوع تحت أي ظرف من الظروف.

ونحن كما نخرج بشهواتنا وضروراتنا على منطقنا الديني وعلى كل منطق لدينا، كذلك نخرج عليه، أي على منطقنا الديني بتفكيرنا.

إن الذي لا يفكر وهو مؤمن لن يكون مفكراً أو لن يفكر أيضاً لو كان غير مؤمن، كذلك الذي يفكر وهو غير مؤمن سوف يفكر، أو يكون مفكراً لو كان مؤمناً حتى ولو خرج به تفكيره من الإيمان، كما أن الطويل يظل طويلاً فكر أم لم يفكر، والقصير يظل أيضاً قصيراً آمن أم رفض الإيمان.

ولو كان الناس يخضعون لإيمانهم ضد تفكيرهم لظلوا دائماً مؤمنين غير مفكرين، لأن الإيمان سابق على التفكير.

وكذلك لو كان الإنسان يخضع لمنطقه الديني لكان عابثاً من ينتظر أو يرجو أن يفكر أو أن يأذن لغيره بالتفكير إنسان يعتقد أن التفكير الحر كفر بالله، وأن الله من رحمته وكرمه ونبل نفسه وشهامة أخلاقه يفكر لعباده وعنهمَ ويبعث إليهم بالأنبياء ليفكروا لهم وعنهم، وينزل عليهم الكتب التي فيها كل الذكاء والمعارف النهائية الأبدية، ويعتقد بأن الأديان قد جاءت بكل شيء، وأن الخروج على أخلاق السلف وأفكارهم وتعاليمهم زندقة، وأن فضيلة الإنسان الدينية في أن يكون عاجزاً عن أن يفكر، أو يريد لنفسه.

أجل يكون عابثاً من رجا أو انتظر من مثل هذا المؤمن أن يفعل ذلك بحجة أنه توجد نصوص دينية تدعو إلى التفكير، وتفرضه على المؤمنين، لو كان الإنسان يتناسق في تفكيره وسلوكه أو في نمو جسمه واشتهائه للشيطان مع إيمانه أو مع النصوص التي يؤمن بها.

إن الإنسان ليس قضية واحدة، أو منطقاً واحداً، أو طريقاً واحداً، ولكنه عالم من الفوضى والذوات المتناقضة، إنه تعدد وتمزق وأضداد ذاتية ومنطقية وشعورية وأخلاقية.

منطقه مع منطقه، ومنطقه مع عواطفه، وعواطفه مع عواطفه، ومنطقه وعواطفه مع حاجته وقدرته ومع جسمه وحياته وظروفه ـ كل ذلك فيه متناقض بعضه مع بعض مثل تناقضه مع الآخرين، ومع الطبيعة أو أشد. حتى أعضاؤه ليست متناسقة أو متكافئة أو متفاهمة فيما بينها، بل في كل عضو استقلال على نحو ما.

نعم إن بين أعضائه تعاوناً وعلاقات محتومة مؤثرة متأثرة، ولكن مع هذا في كل عضو استقلال ما عن الأعضاء الأخرى في القوة والصحة والاحتياج والوظيفة، كما أن الأفكار والعواطف والسلوك والرغبات تعيش هذا التمزق والاستقلال.

ولو أن كل ما في الدنيا من بلاغة خطابية ووعظية وقوة إقناعية صبت في مسامع إنسان يؤمن بالله الحكيم الفعال لما يريد ولكل شيء، ويؤمن بأن الأمور إنما تبلغ بالطاعة والتقوى، وتحرم بالعصيان والشهوة والخروج على الأخلاق الدينية لكي يقتنع بأن يفكر أو يعمل شيئاً كبيراً، بل شيئاً ما، أو يناضل ضد شيء ما بحثاً عن النجاح والانتصار، أو غضباً مما ينكر

ويسوء، لكان مستحيلاً أن يفعل، بل لكان كفراً أن يفعل لو كان الإنسان قضية واحدة، أو منطقاً واحداً، أو كتلة واحدة، أي لو كان متوافق الشخصية متلائمها.

ولو كان هذا التلاؤم أو التوافق في ذات الإنسان موجوداً لكان مستحيلاً أن يجمع شعب من الشعوب بين التدين والإيمان وبين التطور العلمي والصناعي، بل لكان مستحيلاً أن يرفع مؤمن متدين يده ليدفع ذباباً عن عينيه أو عن إنائه! إن ذلك حينئذٍ عدوان على الله!

إنه لو كان الإنسان ذاتاً واحدة يرى بعضها بعضاً، ويلزم بعضها بعضاً، ويخجل بعضها من بعض، ويجامل بعضها بعضاً، ويأمر ثم يطيع بعضها بعضاً لكان من غير المستطاع أن نؤمن بإله أو بمذهب أو بنظام أو بزعيم، لأننا لن نستطيع أن نطيع إيماننا، ونعيشه، أو نتوافق معه بأهوائنا وسلوكنا، وحينئذٍ لا بد من رفض الإيمان لكي نكون متناسقين مع أنفسنا ومع قدرتنا.

إن كل إنسان خارج بعضه على بعض، رافض بعضه بعضاً، كافر بعضه ببعض، لهذا يقول ما لا يريد أو يفعل، ويفعل ما لا يقول أو يريد، ويفعل خلاف إيمانه، ويؤمن خلاف فعله، ويعتقد ما يناقض اعتقاده وتفكيره، ويحترم الشيء ولا يفعله، ويفعل الشيء الذي يحتقره، ويحتقر الشيء ويفعله، بل يحترم الشيء ويلعنه، ويلعن الشيء ويحترمه، ويؤمن بالإله والمنطق والمذهب وبما ينفيه.

وقد يموت باسم الدفاع عن كرامته، ثم يصنع بلا توتر كل ما يهدم هذه الكرامة، بل ثم يتصرف وكأنه يعتقد أن من العار ومن الكفر بالإله أن يكون للمرء كرامة.

إن الإنسان ليؤمن وكأنه لا يقترف أي خطأ أو ذنب، وإنه ليقارف كل الذنوب والأخطاء، وكأنه لا يملك أي مستوى من مستويات الإيمان.

إن أي إنسان لو توافق مع نفسه، لو توافقت أفكاره مع أفكاره، وسلوكه مع سلوكه، وأهواؤه مع أهوائه، أو أهواؤه وسلوكه مع أفكاره، أو أفكاره مع أهوائه وسلوكه، إن أي إنسان لو توافق هذا التوافق داخل ذاته لكان محتوماً أن يموت أو أن ينتحر.

ونتخطى كل حدود الشعر والفكر حينما ننتظر من أي إنسان مهما كانت فضيلته وقدرته أن يتوافق مع نفسه، أو أن نطالبه بهذا التوافق، أو ننكر عليه خروجه عنه.

إن ذات أي إنسان تشبه مجتمعاً متزاحماً بالأضداد والأفراد المتناقضين المختلفين، وبالطبقات المتناقضة المصالح والمستويات والتاريخ، ومتزاحماً بالأهواء والمذاهب والآلهة والأفكار والمستويات المختلفة المتعددة التي لا يرجى ولا ينتظر منها كما لا يراد لها أن تتوحد أو تتلاءم أو أن تعيش كلها تحت نظام واحد أو داخل زي واحد.

إن التوحد والتناسق لا وجود لهما فيما نجد أو فيما نعلم، فكيف نطالب بهما أو ننتظرهما؟

*

ولعل جميع أخطاء البشر في جميع عصورهم لا تعدل ذلك الخطأ الضخم الذاهب إلى أن كتاباً ما، قد جاء به أحد المعلمين الخالدين، أو أن كتباً عديدة من هذا النوع، قد جمدت كل الأفكار والحقائق والمذاهب الكونية والإنسانية، وحشدتها في حروفها الميتة، فأصبحت ـ أي الأفكار والحقائق والمذاهب ـ غير قابلة للزيادة أو النقصان أو الخطأ والتغيير.

وإن كل عبقرية الإنسان والكون ونضالهما لا يستطيعان أن يكونا أكثر من تفسير وقراءة لهذا الكتاب الذي جاء به أحد المعلمين، أو لهذه الكتب التي جاء بها المعلمون الآخرون.

إن معنى هذا أن التاريخ كله قد جمع في نقطة منه، وأن العصور كلها قد صيغت في لحظة منها، وأن جميع الأفكار قد حبست في فكرة، وأن الإنسانية بكل أيامها وأجيالها قد وضعت في قالب إنسان واحد، وأن جميع الشموس قد دفنت في شمعة واحدة.

والذين غاصوا في رمال التاريخ فلم يستطيعوا أن يخطوا أو يطفوا فوقه إنما كانوا من هؤلاء الذين ظلوا يبحثون عن أنفسهم وعن الحياة والقوة والمجد في كتب هؤلاء المعلمين.

والذين يتعلمون الفناء في الآخرين لا يستطيعون إبداع الحياة في أنفسهم، بل لا يستطيعون البقاء في أنفسهم.

ولكن حذار، فإن الإنسان ـ كما ذكر أكثر من مرة ـ لا يعيش آلهته أو مقدساته أو أفكاره مهما آمن بها أو تعصب لها، وإنما يعيش وجوده وظروفه وقوته وضعفه.

إن الذي يموت لا يموت بفكره بل بعجزه، وإن النجوم والصراصير لا تنفد أو تتهاوى أو تمرض بالنظرية، ولكن بالعجز عن البقاء والصحة والخلود.

إن القوة هي أن نعيش في الآخرين، أما الضعف فهو أن نفنى فيهم.

وقد كانت هذه التعاليم، تعاليم الفناء في الآخرين، تعلمنا دائماً الطاعة دون أن تعلمنا ـ ولو بعض الأوقات تحت بعض الظروف ـ المعصية، المعصية التي هي التعبير الأعلى عن قوة الحياة.

لقد كانت كل التعاليم الهابطة من السماء والنابعة من التراب تعلمنا كل أساليب الطاعة، طاعة الآمرين والمتآمرين والمتألهين والآلهة والقبور وكل الأوهام والمخاوف. وإذا علمتنا المعصية فمن أجل الطاعة.

إذا طلبت منا أن نعصي شيئاً: إلهاً أو زعيماً أو مذهباً أو ديناً فلأنها قد فرضت علينا أن نطيع شيئاً آخر طاعة أكبر، فلأنها فرضت علينا أن نطيع إلهاً أو زعيماً أو مذهباً أو ديناً أو نظاماً أطغى.

إننا منذ يفرض وجودنا على هذه الحياة إلى أن تفرض علينا مغادرتها نتلقى من أفواه جميع المعلمين والطغاة والموتى دروساً في الطاعة وفي مزاياها الكثيرة، مزاياها الأخلاقية والنفسية والدينية، وفي تعديد الأرباب والمذاهب والقبور التي تجب طاعتها.

وكان من الصعب أن نتلقى أي درس في فضيلة المعصية إلا إذا كانت معصية تعني الطاعة في معناها.

إن جميع أنبيائنا وقادتنا ومعلمينا إنما جاؤوا ليعلمونا فنون الطاعة وأساليبها ومزاياها.

إن جميع الأنبياء والمعلمين إنما جاؤوا ليروضونا على الطاعة.

إنه لم يبعث إلينا رسل ليعلمونا أن المعصية ليست إلا تعبيراً شجاعاً وقوياً عن قدرة الذات السوية واحتمالاتها واستجابتها لضروراتها، وإنها كذلك ليست إلا الرد الملائم على تحديات ظروفها لها، وإنها ـ أي المعصية ـ لهذا كثيراً ما تكون فضيلة وابتكاراً، وإن المطيعين ليسوا إلا معبرين عن الجبن، أو الضعف، أو الغباء، أو الكذب والنفاق، وإنهم ـ أي المطيعين ـ مهما كثروا ليسوا إلا كائناً واحداً، ليسوا في الحقيقة إلا إلهاً أو طاغية، أو زعيماً، أو خرافة، أو مجتمعاً مغلقاً متعصباً.

إن المجتمع المطيع يتحول إلى تعبير ذليل بليد عن إله، أو طاغية، أو زعيم أو معلم، أو مذهب يطيعه أو تفرض عليه طاعته.

إن الاختراع وهو أعظم تعبيرات القوة الإنسانية، ليس إلا معصية في معناه لأنه عصيان لنظريات المجتمع ولعقائده وضعفه وتجاوز له وخروج عليه وعلى واقعه، ولأنه تمرد على الطبيعة.

إن الاختراع عصيان فكري وسلوكي، إنه عصيان للناس وللكون.

ثم إن العجز طاعة في معناه لأنه استسلام للظروف والتزام بها.

إن العاجز هو أفضل المطيعين، فهو مطيع للطبيعة، ومطيع للآخرين العاجزين الذين يعيشون معه، أو الذين كانوا قبله، ومطيع لكل التعاليم الموروثة.

كل الناس ـ إلا قليلين من المرضى والمتعبين والموهوبين شيئاً من الشذوذ والتوتر والغضب أو مما يسمى عبقرية وتفوقاً ـ كل الناس إلا هؤلاء يفقدون القدرة على التفكير المخاصم للناس والطبيعة كما يفقدون الرغبة فيه.

ويعنى بالتفكير المخاصم الاستقلال في رؤية الأشياء وفي رؤية الآلهة والمذاهب ورؤية عيوبها والجرأة في الحكم عليها ونقدها.

إن جميع الناس إلا هؤلاء القليلين لا يستطيعون، أو لا يريدون أن يروا الشمس والذباب والألم والعبث إلا بالإحساس الذي يراه به أكثر الناس عجزاً عن الرؤية، إنهم يرفضون، أو لا

يستطيعون أن يحاكموا آلهة الكون أية محاكمة لا عقلية ولا شعورية ولا أخلاقية ولا لغوية على أي ذنب أو قسوة أو غباء.

كل ما في الوجود مغلول إلى ما حوله محكوم بقوانينه حكماً استبدادياً لا خيار ولا تفكير فيه، فليس فيه حركة فكر، ولا حرية سلوك. واستقلال الوجود هو استقلال كوني لا فردي ـ إنه بآحاده مستقل عن غيره إن كان يوجد غيره، ولكن هذه الآحاد ليست مستقلة بعضها عن بعض أي نوع من أنواع الاستقلال، وليست لها أية قدرة أو خيار في أن تسرع أو تبطىء بقوانينها، أو أن تخالفها وتخرج عليها.

والإنسان محكوم مثل سواه، والشيء المتمرد فيه أو الذي يجب أن يتمرد على هذه القوانين البذيئة البطيئة هو فكره وعبقريته فقط.

وهذا التمرد في الإنسان هو الذي جعل منه كائناً متفوقاً.

وإذا ألقى هذا التفوق الإنساني سلاحه حكمت الإنسان قوانين الطبيعة البذيئة البطيئة، وفقد تفوقه، وأصبح شيئاً من الأشياء.

ورفضه للطاعة وللتعاليم هو العلامة الكبيرة على التفوق.

فالموهبة الإنسانية إن انطلقت وعصت التعاليم والالتزام بما هو كائن أعارتها الآلهة صفاتها، وإن استسلمت وأطاعت أصبحت وحدة كونية بليدة بطيئة تتعبد للقوانين العشوائية بدون أن تعصي أو تغضب أو تحتج أو تفهم لماذا يحدث ما يحدث وبعقل من أو لمصلحة من تلك القوانين المحافظة البليدة التي لا تأذن بتطور أي شيء إلا وهي محكومة بأناة غبية كأنها تخاف أو تبغض السرعة والتغيير.

والموهبة الإنسانية هي وحدها التي تعالج كسل الطبيعة، وغباءها، ونقائصها الكثيرة، وهي وحدها التي تخرج عليها.

فالإنسان هو ابن الطبيعة العاق المتفوق عليها الحاكم لها، الخارج على قوانينها وأخلاقها وآليتها وبطئها ووقارها البليد.

والذين يفقدون هذه الموهبة يفقدون هذا التفوق، وحينئذٍ يفقدون السيادة على الطبيعة، إنها حينئذٍ أقوى منهم كثيراً.

والتفكير هو أحد المحرضات الكبرى على مقاومة الطبيعة وتخطيها، أما التعليم والتعاليم فقد تكون دعوة إلى عصيان هذا المحرض، وإضعافاً له.

لماذا ينطلق هؤلاء الناس جميعاً متدافعين متتابعين إلى أكاذيبهم، أو إلى أهدافهم الصغيرة أو الحمقاء أو البذيئة، كأنهم وحدات من وحدات الطبيعة الآلية التي لا يدبرها فكر ولا إرادة ـ

ولماذا يسمعون كلهم بأذن واحدة أصوات السماء موافقة مصدقة حينما يزعم لهم إنسان يملك كل هذه الجرأة بأنه قد قامت بينه وبين سكان السماء مغازلات روحية فيها كل أساليب الافتضاح والعشق.

ولماذا يفهمون كلهم لغة الله وضميره وهواه بتفسير واحد؟

ولماذا يجمعون على رؤية الله في صورة واحدة من صور الجمال، وفي مستوى واحد من مستويات الفضيلة والذكاء؟

ولماذا يتجمعون على اعتقاد الشيء أو إنكاره، على امتداحه أو ذمه؟ أليست لهم عيون وعقول وعواطف وأحاسيس وآذان مختلفة المستويات، مختلفة في القوة والضعف؟

ولماذا يصلون جميعاً في هذا المعبد، وراء هذا المعلم، داعين لهذا الإله؟

ولماذا يتجمعون ليشاهدوا منظراً فاضحاً، ليشاهدوا رجلاً يقتل رجلاً، أو يشتمه، أو يضربه، ويتراكضون بحماس ليسمعوا خطيباً تافهاً يصرخ بالأكاذيب والتفاهات والترهات المكررة كأن قوة مجنونة تحرضهم وتجمعهم وتحركهم وتوحدهم؟

لماذا يبدون وكأنهم يعيشون وجوداً واحداً ورغبات ورؤى وظروفاً واحدة؟

لماذا لا تختلف آراؤهم ومواقفهم، وتصدم عقولهم وأعينهم ازاء تناقضات الطغاة والآلهة والمذاهب والنظم والعقائد المتعاقبة، وازاء أخطائها وحماقاتها وتناقضاتها؟

إن الناس يفعلون ذلك لأنهم فاقدون للتفكير المحتج المخاصم للناس وللطبيعة، إنهم يخضعون للقانون الواحد غير المفكر الذي تخضع له آحاد الطبيعة غير المفكرة، فهم إذن يشبهون الأحجار حينما تتساقط في الحفرة متبعة نظاماً وقانوناً واحداً، مستجيبة لقوانين السقوط والاندفاع والتمزق دون أية مقاومة فكرية أو أخلاقية.

إن الفكر المخاصم للناس وللطبيعة هو الذي يجعل الإنسان عظيماً، أو على الأصح يجعله ممارساً بمشاعره ورؤيته وعقله كل ما في الكون والناس من دمامات وآلام!

*

إن التحرر من الأمس ومن المقابر مشكلة راسخة في حياة أغلب البشر، والبشر لا يقدرون أو يريدون أن يصنعوا غدهم بكل احتمالاته واحتمالاتهم إلا بمقدار ما يستطيعون أن يتحرروا من سلطان أمسهم وتعاليم موتاهم.

ولو تصورنا الإنسان المتأخر نهراً لتصورنا أكثر مياهه مرتدة لتنصب في أمسه وبين أضرحة أسلافه.

كل المجتمعات تناضل للانتصار على أعدائها وتحرير بلادها وحياتها من كل غاز ومهدد

ومعوق، ولكنها لا تناضل ولا تريد أن تناضل بنفس هذا المستوى والشمول للانتصار على تعاليم الموتى وعلى حكمهم لعقولها ونظمها وخطاها.

وليس تحرير الأفكار والحياة من تعاليم الأموات بأقل قدراً في الفكرة أو النتيجة من تحرير البلاد من الأعداء. وهل ما نخسره بين القبور من حريتنا وذكائنا أقل مما نخسره تحت أقدام الطغاة من قوتنا وكرامتنا؟

إن الحريات في طبيعتها مترابطة متعاونة، يدعو بعضها بعضاً، وينطلق بعضها عن بعض، ويتأثر بعضها ببعض، فالمتحررون بأفكارهم ومشاعرهم من تعاليم الموتى أقدر على التحرر من حكم الطغاة، لأن التحرر من أحد الأعداء أو من إحدى العبوديات يساعد على التحرر من الأعداء الآخرين والعبوديات الأخرى.

إن التحرر من شيء يهب الحافز والقدرة معاً على التحرر الكامل إن كان يوجد تحرر كامل.

أما من ألقوا بحرياتهم وكرامتهم في التراب، بين رفات الموتى بحثاً عن تعاليمهم، متعبدين لها ولهم، فما أهون عليهم أن يفقدوا كل حرياتهم وكرامتهم دون أن ينتحروا أو يبكوا أو يحزنوا أو يشعروا أنهم قد فقدوا شيئاً يجب ألا يفقدوه.

فالعبودية خليط من العادة والعجز والتقليد والضرورة.

والحرية خليط أيضاً من العادة والتقليد والضرورة، ومن القدرة كذلك.

وهل يستطيع الفكر الراكع للتعاليم الميتة أن ينبت المعرفة أو الحرية أو يرفض الهوان النازل بالجسد من سياط الأقوياء؟ أو هل يستطيع المجتمع الذي يحول جماجم الموتى إلى أوعية لغذائه الروحي والعقلي والحضاري أن يزدهر ذكاؤه أو يكبر على جنون الطغاة والزعماء المصابين بكل ما في الآلهة من أمراض وهموم؟

إن الإنسان طاقة واحدة، أو ذات واحدة لها تعبيرات مختلفة، أو هو تعبيرات مختلفة تساوي طاقة أو ذاتاً واحدة، وهو لا يملك شيئاً يواجه به المواقف ويقاوم التحديات غير ذاته ذات التعابير المختلفة أو ذات الذوات المتعددة.

وجميع أفكار الإنسان وحرياته وسائر تعبيراته قوة واحدة أو قوات مختلفة متناقضة ولكنها جميعاً تعمل لحسابه أو لحساباته المتناقضة، فإذا فقد منها جزءاً أسقط ذلك من مجموع حساباته، أي ان عبوديته الفكرية تضعف قدرته على تحرير سلوكه وتحرير معاني ذاته الأخرى من القيود الكثيرة المختلفة المتعاونة.

والأموات الذين يسيطرون بتعاليمهم وبقوتهم التاريخية على تفكير الإنسان ومشاعره هم أعوان غير منظورين للطغاة الذين يصولون بسياطهم على حياته وكرامته وذكائه.

إن وقع السياط على مشاعر المضروب لمتأثر ومحسوب بتقديره لنفسه ولكرامته وبما اختزن في داخله وبما مر به في حياته من تعاليم.

إن التعاليم والتاريخ والموتى جنود مخلصون للطغاة في كل مجتمع وعصر ونظام، وهم جنود متنكرون ومندسون في كل نفس وبيت ومعبد ومذهب وحياة. والطغاة يعرفون ذلك أو يتصرفون تصرف من يعرفونه.

إن كل طاغية لا بد أن يجعل بعض الموتى وبعض التاريخ وبعض التعاليم حرساً له وجيشاً.

والقيود هي القيود سواء أصاغتها الملائكة من زغب الآلهة أم صنعتها الأبالسة من جلود سكان الجحيم.

بل إن أفدح القيود هي القيود النظيفة المحترمة.

ولعل القيد المفتول من أهداب وجدائل أجمل النساء عيوناً وشعوراً هو أفتك وأثقل القيود.

والقيود النفسية قد تكون أبهظ القيود، لأن الإنسان لا يتحرك بدون نفسه أو خارجاً عن نفسه.

وهل يمكن أن يكون حراً من نفسه مستعبدة؟

والنفس المتحررة هل يمكن أن تفقد شيئاً من حرياتها، أو هل تأذن أو ترضى بفقدها؟

إن عبودية البشر ذاتية أو نفسية بقدر ما هي موضوعية أو خارجية أو مادية، إنها عبودية بالتفكير والإرادة والشعور والإلف، بقدر ما هي عبودية بالقدرة والإمكان.

هل أنا أتكلم هنا كواعظ أو شاعر أو قديس روحاني أو معلم أو زعيم يخطب في أحد الاحتفالات الدعائية أو في أحد النوادي الدولية؟ وإلا فماذا يعني تحرر النفس، وهل توجد نفس متحررة؟ إن أعلى وأقوى نفس، بل كل نفس، لتواجه الكون والناس والضرورات والمذاهب والآلهة وكل الأشياء، وتتخاصم وتتبارز معها وتنافقها وتتحمل الالتزام بها وتبحث بهوان ومسكنة وخوف عن التوافق معها. فهل في هذا شيء من الحرية؟

أليست حينئذٍ أقوى النفوس هي أفقدها للحرية؟

إن كل كائن يتعامل بنفسه وبوجوده وحركاته مع ما حوله كما يستطيع ويحتاج ويفرض عليه ما حوله، لا كما يريد أو يرى. فهل في هذا حرية نفس أو حرية من أي نوع؟

إن أطغى وأقوى الآلهة المفترسة للبشر هي التاريخ.

لقد كان التاريخ، ولا يزال، إلهاً دولياً عبدته وتعبده كل الأجيال. إنه لا يزال الناس كل الناس حتى في هذا العصر وفي العصور المقبلة الطويلة يعبدون بحماس وجنون هذا الإله الدولي

الفظيع، بل تتزايد هممهم حماساً في تلميع عرشه، وترصيعه بالجواهر والنفائس وتقديم أغلى الضحايا والقرابين إليه.

إن كثيراً من الحروب والعداوات والحماقات الغالية الثمن، والمذاهب والأصنام والتقاليد والتعاليم الغبية العدوانية، والحدود الفاصلة بين بلد وبلد، ومجتمع ومجتمع لتمزق البشر وتهبهم المزيد من الأخطار والجنون والاحتمالات الأليمة.

إن كثيراً من ذلك ليس إلا بعض القرابين والضحايا السخية التي يقدمها الناس في كل عصر ومجتمع للتاريخ، والتي يتعلمونها منه.

إن تعدد الآلهة والأديان، وتوزعها بين الشعوب والمجتمعات والطوائف لتهبهم المزيد من الهموم والآلام والخوف بعضهم من بعض، ليس إلا تعليماً تاريخياً.

أنت تدين بهذا الدين وتنتسب لهذا الوطن، وصديقك له دين ووطن آخران، فتتقاتلان، أو تتعاديان، أو لا تتلاقيان في صداقتكما تلاقياً بريئاً من الحقد أو الخوف أو الثأر.

لماذا يقبل البشر كل البشر هذه الانقسامات الأرضية أو الوطنية أو الدينية والمذهبية والاجتماعية، ويعيشونها باقتناع لا يشوبه أو يفسده أي احتجاج؟ هل لأن هذه الانقسامات معقولة، أو لأنها مفيدة، أو لأنها محتومة؟ بل لأن التاريخ أقامها وعلمها.

لقد كان التاريخ جانياً وعدواً كبيراً للإنسان.

لقد كان ظالماً وجاهلاً ومتعصباً وحقوداً.

لقد كان معلماً شريراً.

إن التاريخ هو أخبث وأضخم وعاء للأحقاد والعداوات والأوثان وللتعاليم الجاهلة.

والإيمان بالتاريخ وبتعاليمه هو الذي جعل بعض المجتمعات ترى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سلوكاً مثالياً فيه كل الحب والاحترام للآلهة والسلف الصالح، وكل الاستقامة النفسية والأخلاقية. مع أن المعروف هو المألوف القديم من الأفكار والأساليب والأوضاع والأخلاق والتقاليد المنتقلة بالوراثة التي قد تكون متخلفة وظالمة وبليدة جداً، أما المنكر فهو ما ليس كذلك، أي هو الجديد من السلوك والتفكير والمذاهب والإبداع.

إن العبقرية إذن منكر لأنها ليست معروفاً، إنها تجيء شيئاً جديداً لا يعرفه من قبل أحد، وإن بلادة الآباء وتعصبهم وتخلفهم وكل جمودهم معروف لأنه كان شيئاً يعرفه الناس وتعرفه المحاريب والتعاليم والمنابر القديمة كلها.

وتسلط التاريخ على حياة الناس وعقولهم هو الذي جعل الإيمان بالغباء الذي قد كان، والكفر بالذكاء الذي سيكون مقياساً للخير والشر.

هو الذي جعل الدجال أو المعلم البسيط الجاهل المتقدم زمناً نبياً عبقرياً، وجعل العبقري المتأخر زمناً دجالاً أو ضالاً غبياً.

إن العباقرة والمفكرين العظام الذين رفضوا، أو حوربوا في زمانهم ومجتمعاتهم إنما أصابهم ذلك لأنهم لم يكونوا معروفين أي معروفاً ما جاؤوا به، أي لأنهم لم يكونوا معروفاً بين من يأمرون «بالمعروف» وأن الدجالين والجهلاء التاريخيين الذين عبدتهم ـ ولا تزال تعبدهم ـ الجماهير والمنابر وتصلي المحاريب تحت أقدامهم إنما كان لهم ذلك لأنهم كانوا معروفين أي معروفة تعاليمهم، أي لأنهم كانوا معروفاً بين من «يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر».

لقد ظلت ترفض أفضل الحقائق لأنها لم تكن معروفاً، وتقبل أسخف الأوهام لأنها كانت معروفاً.

وقد يدافع عن التاريخ بحجة أنه هو الذي أعطانا جميع المزايا والتقدم الذي نعيشه والمعارف التي نعرفها. ولكن هذه المزايا والتقدم والمعارف لم تكن، أو لم نكسبها ونظفر بها إلا بالخروج على التاريخ، فالتاريخ لم يصنع الحضارة والنظم والأساليب الجيدة التي لدينا، وإنما صنعت بعصيانه وتجاوزه.

ولو أطاع الإنسان التاريخ طاعة لا معصية فيها لكان مستحيلاً أن يتقدم. قد يكون في هذا القول شيء من التحيز، ولكن لا مانع من هذا ولا بأس، إذ ليس حياً أو إنساناً من لا يتحيز.

إن أقوى وأفضل الأخلاق هو التحيز.

*

كيف ذلك؟

إن الذين أبدعوا الحضارة، وقفزوا فوق أعلى الحواجز كانت لهم تعاليم وعقائد وتاريخ ثم انتصروا على ذلك أو على كثير منه أو فعلوا نقيض ما تقول تعاليمهم وعقائدهم وتاريخهم ـ مثلما كان للآخرين الذين عجزوا أو ضعفوا أو هابوا، عقائد وتعاليم وتاريخ. فكيف حدث ذلك ولماذا؟

هل هنالك قوم أقدر في عبقريتهم ومزاياهم الفكرية، أو أن تعاليمهم وتاريخهم وعقائدهم أضعف بطبعها وظروفها، أو أن لهم ظروفاً مواتية أكثر، أو أن لهم قدرة على التوفيق والجمع بين التناقضات والمتناقضات أعظم، لهذا استطاعوا أن يجمعوا بين التعاليم والعقائد مع العبقرية الفكرية، بين التاريخ المتعصب البليد مع الحضارة الخلاقة المقتحمة؟ أم ماذا؟

ولكن كيف؟

هل هنالك قوم متفوقون في عبقريتهم وتفكيرهم ـ أو تعاليمهم وعقائدهم أضعف في

طغيانها عليهم ـ أو ظروفهم أكثر مواتاة ومحاباة لهم ـ أو هم يحسنون التوفيق والجمع بين الشيء ونقيضه؟ إذا كان هذا كله أو بعضه صحيحاً فلماذا، وما هي الأسباب؟

إنه لا بد من الافتراض بأن تعاليم وعقائد قوم هي أكثر إمساكاً بهم وتعويقاً لهم، أو محاولة للتعويق، من عقائد وتعاليم أقوام آخرين.

إن القيود ـ في الافتراض الدائم ـ مختلفة في قوتها وضعفها، كما أن الناس ـ بنفس نسبة الافتراض ـ مختلفون في استسلامهم لهذه القيود وفي الخروج عليها، وكذلك المعتقدات والتعاليم وكل الأشياء مختلفة في قوتها وضعفها.

إن ضربة تقتلنا وضربات لا تفعل ذلك، وإن منطقاً يقهرنا بعنف وإن منطقاً آخر نقهره بسهولة، أو يجعلنا نتعجب كيف يقتنع به إنسان ما، أو يكون دليله على إله أو مذهب يقاتل كل الناس، أو يعاديهم دفاعاً عنه. ولا بد أن هذا هو أحد الأسباب في تخلص بعض الناس من قيودهم وتعاليمهم، واستسلام آخرين لها طويلاً حتى كأنها القدر الدائم أو الثقيل البطيء الحركة.

وضعف قبضة التعاليم والمعتقدات على بعض النفوس مكن لسلطان الفكر من الاشتداد والمقاومة والتخطي، كما أن طغيان تعاليم ومعتقدات قوم عليهم أوهن فيهم حول الفكر، وأصابه بالصمت والبلادة، فأصبحت لبعض الناس مزيتان: وهن التعاليم والعقائد وشموخ الفكر، كما أصبحت لآخرين مزيتان أيضاً، ولكنهما مضادتان، وهما ضعف الأفكار وقوة العقائد والتعاليم إلى حد الوحشية.

وهذا الاختلاف في قوة التعاليم والمعتقدات، وفي ضعفها، صنع اختلافاً مساوياً في مقاومة التفكير واستسلامه، وفي نشاطه وخموله ـ أو هذا هو المفروض.

ولكن لماذا جاءت عقائد وتعاليم قوم أقوى عليهم من عقائد وتعاليم قوم آخرين عليهم؟

قد يكون السبب هو الظروف، أو خصائص المجتمع التي تصوغ العقائد والتعاليم، وتتقبلها، وتخضع لها عقلها، وقد يكون السبب هي الأساليب ووسائل العرض التي تقدم بها هذه العقائد والتعاليم. فظروف العقائد والتعاليم الأولى، وخصائص المجتمع الذي تلقى هذه العقائد والتعاليم، والأحداث التي واجهته وتعاملت معه، قد تكون شائقة ومغرية وقوية في تأثيرها، قد تكون خادعة لأن انتصارات ومزايا أخر قد جمعت، وتزاحمت أمامها، وسارت في موكبها حتى بدت وكأنها تحييها أو تبايعها وتعترف لها بأنها من خلقها ومجدها المتعالي على جميع المقاييس.

وقد كان يحدث دائماً أن تزور الظروف والاقترانات العشوائية، والتراتيل الضاجة المتكررة

الكثير من المزايا والأمجاد للكثير من التعاليم والعقائد والنظم، كما كان يحدث دائماً أن تزور أمثال هذه الأمجاد والمزايا للكثير من الحكام والزعماء تحت أمثال هذه الأسباب الخادعة.

إنه قد يوضع كل ما يحدث في عصر، أو في مجتمع من التغيرات الجيدة التي كان محتوماً حدوثها، لأن الظروف تحتم حدوثها، في حسابات دين أو مذهب أو نظام أو زعيم أو حاكم، لتنسب إليه ويلصق به فضلها، وكأنه لولا ذلك الحاكم، أو الزعيم، أو النظام، أو المذهب، أو الدين لكان حدوث تلك التغييرات مستحيلاً تحت أي ظرف من الظروف، وكأن الأشياء ليس لها إلا سبب واحد خارجي لتحدث.

والبشر في الغالب مصابون بمرض الخطأ في الربط بين الأسباب والنتائج، مصابون بمرض الخطأ في تفسير الأسباب وقراءتها ورؤيتها.

إنه لمألوف الاقتناع بأن الإله أو الساحر أو القديس هو الذي أصاب الشمس أو القمر بالخسوف أو الضمور أو الموت، أو أن الإله أو الساحر أو القديس هو الذي أنزل المطر، أو عاقب الناس بالقحط، أو بالأوبئة، كما هو مألوف أن يقتنعوا بأن هذا الزعيم، أو هذه الثورة، أو هذا الدين، أو المذهب أو النظام هو الذي أعطى الناس مزاياهم وذكاءهم وأخلاقهم وحضارتهم، وأن الشمس والقمر والنهر والحقول الخضراء ليست إلا إحدى عطايا زعمائهم، أو ثوراتهم، أو مذاهبهم، أو أديانهم، أو أربابهم.

وهذا الاقتناع يهب عقولهم ونفوسهم الراحة والنشوة والرضا والتفسيرات المقبولة أكثر مما يفعل البحث عن الأسباب البعيدة المعقدة أو الطويلة المتسلسلة.

لقد كان الاقتناع في كل التاريخ ملجأ عالمياً يستريح به الناس من السير الدائم في مجاهل الأسباب والمسببات!

والقول بأن هذا حدث عن هذا، أو أن هذا خلق هذا بجزم وقطع للتفكير والتساؤلات المتعاقبة، أيسر عليهم من القول بأن هذا قد حدث عن نفسه، أو حدث عن الضرورة، أو القانونية الكونية المتسلسلة أو أن هذا وهذا كلاهما حدثا عن أشياء أخرى لا إرادة ولا تدبير لها في حدوثهما، وأن تلك الأشياء الأخرى هي أيضاً قد حدثت عن أشياء أخرى ليست لها إرادة أو تدبير أو منطق.

والناس دائماً يرغبون في تقصير العملية السببية، ويستوحشون من العمليات الطويلة في الأسباب والمسببات.

إن الناس قد يقتنعون بلا مقاومة إذا قيل لهم:

هذا سبب وهذه نتيجة، كما يقتنعون، أو يسلمون دون صعوبة إذا قيل لهم:

هذا حلال، وهذا حرام، أو هذا يريده الله، وهذا يأباه الله، ولكن يصعب عليهم الاقتناع بل والفهم إذا قيل لهم:

كل سبب هو نتيجة، وكل خالق هو مخلوق، وكل نتيجة ومخلوق هما سبب وخالق، ليس شيء هو خالق فقط، ولا شيء هو سبب فقط، كما لا شيء هو مخلوق فقط أو نتيجة فقط. إنهم لا يقبلون أن يقال لهم:

إذا كان هذا خالقاً فمن خلقه أو فمن خالق هذا الخالق - أو كل خالق لا بد له من خالق بنفس المنطق الذي يقول:

كل مخلوق له خالق. ولا فرق بين القضيتين والمنطقين، بل هما قضية واحدة.

إن قضية: كل مخلوق له خالق هي قضية كل خالق له خالق، ولكن الناس قالوا إحدى القضيتين واقتنعوا بها دون مقاومة بل وبإصرار، ورفضوا الأخرى المساوية بل ولم ينطقوا بها.

وهذا الضعف لدى المجتمعات عن إجادة الرؤية لتعاقب الأحداث قد تحول إلى دفاع عما لا يمكن الدفاع عنه، وإلى اقتناع سهل ومحترم بأضعف الأوهام وأكثرها سذاجة، وإلى تفسيرات للحياة والكون والأشياء مليئة بالهرب والضعف العقلي.

ما هي الآلهة والعقائد والأخطاء السلوكية والفكرية؟

ما هي البطولة أو الزعامة الخالقة التي يدعيها أو يؤمن بها رجل لنفسه، أو يدعيها له المجتمع بأسلوب تترفع عنه الطفولة؟

إن هذه كلها هي الإيمان بأسباب أولى نهائية خالقة غير مخلوقة - إنها هي العجز عن رؤية الأسباب المتسلسلة وعن معرفتها.

ثم ما هي الحضارة والمعرفة والصواب والذكاء؟

إن ذلك هو التجاوز بالفكر والسلوك لمنطق الأسباب الخالقة والنتائج المخلوقة إلى منطق الأسباب المخلوقة والنتائج الخالقة، أو إلى منطق الأسباب المتسلسلة حيث لا خالق ولا مخلوق، أو حيث كل خالق هو مخلوق، وكل مخلوق هو خالق.

إن الشيء لا يكون خالقاً إلا بقدر ما يكون مخلوقاً، وبقدر ما يكون مخلوقاً يكون خالقاً، فالمخلوق جداً خالق جداً، والخالق جداً مخلوق جداً، والمخلوق قليلاً يكون خالقاً قليلاً، والخالق قليلاً هو مخلوق قليلاً.

*

لقد ظلت تعاليم وعقائد البشر أو بعض البشر تنتقل في أصلاب الضرورات والأشواق إلى معرفة المجهول كأنها الأجنة في ظلام الأرحام إلى أن تم تمامها، ثم جاءت كالمخاض في أوانه

قوية مفترسة. لقد طلعت ونمت مثل النبتة المتوحشة الآكلة لما حولها، ترعاها الطبيعة العابثة القاسية المتأنقة في عبثها وقسوتها، لا ينافسها نبات آخر، ولا تضارها قوة من قوى الحياة، ولا يخذلها وهن في جرثومة الطبيعة فيها، فامتدت في جميع الاتجاهات فارعة رائعة متحدية.

إن كل الطبيعة والتاريخ قد تآمرا متناصرين على أن يخرجا صوراً نهائية للتعاليم والمعتقدات، قادرة على أن ترفض كل رؤى العقل ومطالب الحياة.

وقد تآمر التاريخ والطبيعة وتناصرا ليجعلا هذه المعتقدات والتعاليم المسحورة بالخيال والخوف والمبالغات الخارجة على الطبيعة والعقل هي أعظم حظوظ بعض الناس من التاريخ والعبقرية الإنسانية.

لقد أمكن لهؤلاء أن يفخروا بأنهم يملكون سلطان التعاليم والعقائد في أعلى جبروتها، بينما أمكن لآخرين أن يفاخروا بامتلاك سلطان الفكر والعبقرية بكل مضاعفاتهما والتزاماتهما.

لقد اقتسم الناس التعاليم والعقائد والأفكار والعبقريات بلا مقياس عادل، أو قانون محترم ذكي كما اقتسموا سائر الحظوظ الأخرى. إن بعضهم يقفون فوق قمة العقيدة والتعاليم المنتصرة على العقل وعلى رؤية أو رفض أو استنكار ما في الكون والحياة من غباء وعبث وفوضى وظلم وقسوة، ولكن آخرين يقفون فوق القمة الأخرى، قمة الفكر والتحدي المنتصر على كل عقيدة وتعليم، المكتشف لجميع العاهات والضعف والنقائص المختبئة في أجسام آلهة الكون والحياة، وفي أخلاق هذه الآلهة وعقولها وتعاليمها وفي تاريخها.

إن الفريق الواقف على قمة العقائد والتعاليم ليبتلع بشهية لا يمكن الاعتراض عليها كل ما في النجوم والزلازل والفيضانات والأمراض والموت والقحط من هموم وآلام وحماقات، وكل ما في الطغاة والدعاة والزعماء والمذاهب والتعاليم والعقائد من غباء وكذب وتناقض وسفاهات، ثم يحمد الله على ذلك كله، ويحوله إلى أسباب للثناء والإيمان والحب.

أما من يفكر فإنه يلقي عن نفسه بكل فنون السحر ورقاه، إنه لن يرى شيئاً يصنعه الكون أو يعطيه يستحق أن يكون له ثمن من الإيمان أو العبادة أو الشكر أو من أي شيء.

لقد جاء الكون أو من فوق الكون ووراءه وصاغنا نحن البشر، وأوجدنا برغبته وفكرته وقدرته وضروراته هو، أو من يحركه من خارجه، أو من داخله، دون أن يسألنا رأينا فيما فعله بنا، بل دون أن يبحث عما هو الأفضل والأكثر ملاءمة لنا.

لقد كان يتعالج بنا ويحقق ذاته وأهواءه، ويتداوى من همومه وقلقه ووحدته بخلقه لنا بالأسلوب الذي يريده أو يستطيعه أو يلائمه، لا بالأسلوب الذي نريده، أو يلائمنا، ولا بالأسلوب المثالي الذي نتصوره أو يتصوره هو بالتفكير.

ولو أنه وهبنا كل ما نريد، وجنبنا جميع ما نكره ونرفض لما استحق ثناءنا أو إيماننا أو عبادتنا لأنه أولاً:

يفعل من أجل نفسه لا من أجلنا.

ولأنه ثانياً لم يستشرنا حينما أوجدنا، ولم يفدنا شيئاً، بل لقد ورطنا وجعلنا محتاجين، فكل ما نأخذه أو يهبنا إياه ليس إلا علاجاً لورطة وجودنا. فهو إذن لا يعطينا مهما أعطانا، وإنما يعالجنا أو نتعالج نحن على أحسن الاحتمالات من احتياجات وآلام الوجود الذي أوقعه بنا.

أما إذا أوقع بنا ألماً أي ألم، أو نقصاً من أي نوع أو بأي أسلوب أو على أي مستوى، فإننا حينئذٍ لن نجد رأياً فظيعاً يتكافأ مع ذنبه وفظاعته لكي نراه فيه.

إن من خلق شيئاً ليعذبه، أو فعذبه فلا حد لوحشيته، وإن من خلق شيئاً ليسعده، أي ليجعله محتاجاً إلى السعادة لكي يعطيه السعادة، فلا حد لغباوته.

كيف نتصورك أو كيف تتصور نفسك لو أنك خلقت حيواناً لم يضرع إليك أن تخلقه، ولم يكن محتاجاً إلى أن تخلقه، ثم جعلته محتاجاً إلى الطعام والجنس والرؤية، ثم أعطيته الطعام والرؤية والجنس الذي حكمت عليه بالاحتياج إليه، ثم ذهبت بغرور تطالبه بأن يشكرك ويعبدك لأنك أعطيته ما عاقبته وعذبته بما جعلته محتاجاً إليه؟

وكيف نتصورك، أو تتصور نفسك لو أنك خلقته كذلك أي بهذه الاحتياجات والضرورات ولم تعطه إياها، ثم ذهبت أيضاً بكل اعتداد بنفسك تطالبه بامتداحك وعبادتك والشكر لك والإيمان بك، بل وتفرض عليه ذلك وتهدده بأقسى العقوبات وأكثرها وحشية إذا هو لم يفعل؟ مع أن هذا الحيوان المسكين لم يركع تحت قدميك طويلاً مصلياً لك، طالباً منك بمهانة وانكسار أن تخلقه، بل أن تخلقه متألماً محتاجاً محتجاً، ومع أنك لم تخلقه لمصلحته هو، أي لم تخلقه لأنه كان محتاجاً إلى أن يكون موجوداً، ولم تخلقه طبق هواه واحتياجاته.

إن ذلك الحيوان الذي أنعمت عليه بالوجود، لم يكن قد جرب الوجود، وأنت المسؤول عن إدخاله في هذه التجربة.

وأنت أيها المنعم العظيم إنما خلقته لتعبث به، ولتسعد بعبثك به بينما يصرخ هو متألماً باكياً، أو سعيداً مبتهجاً بعبثك به، دون أن يعرف أنك تعبث به أو يعرف المأساة التي يسير في دروبها، منشداً أناشيد الإيمان والعبادة.

إنه مريض وشاذ من يفرض عليك الوجود والحياة إذا أعطاك جميع ما جعلك محتاجاً إليه، وإنه لأكثر جداً من مريض شاذ إذا لم يعطك ذلك، فكيف إذا استرد منك جميع ما أعطاك؟

إنه لا تفسير لمن يخلق الأشياء مهما كان سخياً ونبيلاً في خلقه ومعاملته لها، فكيف إذا هبط في معاملته وخلقه إياها تحت جميع المستويات الفنية والأخلاقية؟

هل يمكن أن يكون شيئاً معقولاً أو مقبولاً أن تخلقك الطبيعة محتاجاً إلى أن تكون لك حاسة السمع لتتعامل بها معها، ثم تمن عليك وتبالغ في امتداحها لنفسها ولرحمتها وفضلها عليك لأنها أعطتك هذه الحاسة، وأعطتك إياها غير كاملة بل ناقصة جداً، وتسلبك إياها حتماً في يوم من الأيام بأسلوب من الأساليب؟

إن التعاليم والعقائد المكررة هي التي تجعلنا نقبل ما لا يمكن قبوله، إنها هي التي جعلتنا نقبل الكون بما فيه ونداقع عنه، بل ونحول جميع دماماته وآلامه وأخطائه وعبثه إلى صفات إله.

أما التفكير فهو وحده الذي لا بد من أن يتحول إلى رفض للوجود، بل إلى رفض لكل وجود، وإلى احتجاج عليه.

ومهما كان الوجود ملائماً فالتفكير لن يستطيع أن يعقله أو يسوغه أو أن يرى فيه أي مغزى معقول.

ولكن الرفض الفكري لن يتحول إلى قتل أو إلغاء للوجود، أو إلى هزيمة له، أو إلى إضعاف للرغبة فيه والاستمساك به، وحينئذٍ قد يتحول هذا الرفض إلى عمليات تغيير وإلى ارتحال دائم عما كان إلى ما سوف يكون.

إذن الرفض الفكري للعالم لن يقتله أو يحمله على أن ينتحر فراراً من العار والندم والشعور بالذنب، ولكنه ـ أي الرفض الفكري ـ قد يغيره، أو على الأقل يحتج عليه احتجاجاً يعني المطالبة بتغييره.

إننا جميعاً نقبل الحياة والأشياء، ونناضل نضالاً نتنازل فيه عن كل الأخلاق والذكاء والاحتشام لكي نحافظ على الحياة وننال الأشياء، ولكننا نفعل ذلك بالضرورة كما تفعل ذلك الكائنات غير المفكرة. فإذا قبلنا الحياة والأشياء، أو قبلنا أنفسنا بالتفكير فنحن غير مفكرين، وإنما نستعمل التفكير ضد التفكير.

إننا نقبل أنفسنا لأننا موجودون لا لأن تفكيرنا يحترم وجودنا أو يرى فيه معنى إنسانياً أو نبلاً فاض علينا من الطبيعة النبيلة، أو من المبدع البعيد المختبىء وراء الطبيعة، خوفاً على ذكائه وجماله من عيون الحاسدين، أو خوفاً على المشاهدين أن يقتلهم أو يصيبهم بالجنون ذكاؤه وجماله أو حزنه الدائم رثاء للبشر المتألمين فداءً له لأنه لا يحقق ذاته إلا إذا آلم الآخرين!

*

الإنسان مهما كان مستواه الحضاري لا بد أن يكون له عقل، أو منطق معلل أو مفسر

للأشياء والأحداث على نحو من الأنحاء، إذ هو لا يستطيع، لأن له منطقاً ما، أن يقف أمام الأشياء والأحداث ويتعامل معها أو تتعامل هي ضده أو معه دون أن يجعل منها سبباً ومسبباً، خالقاً ومخلوقاً.

وهذا المنطق الإنساني أو التفسير الإنساني لا بد له من حواجز تفسيرية من أي نوع وعلى أي مستوى من القوة والذكاء ينتهي عندها في تفسيره للوجود الذي يراه، أو يعلمه، أو يحياه. ولو لم يجد هذه الحواجز التفسيرية لظل منطلقاً في تفسيراته، أي لظل منطلقاً في عمليات عقلية لا حدود ولا نهايات لها.

ولكن العقل مثل الجسد يبحث عن الحدود والمأوى والراحة والاستقرار في مكان ما، بل وعن النوم العميق المليء بالأحلام السعيدة، بل وبالاحتلام!

ولهذا فإن الإنسانية في كل التاريخ كان محتوماً عليها أن تضع عقلها تحت حماية مذهب أو عقيدة أو نظام أو إله، أو حتى تحت حماية حزب، أو طاغية يحمي فكرها من التفكير ولو بالخوف والقهر، فراراً من رهبة الأشواط العقلية التي ليس لها مدى.

والخوف من التفكير قد يكون مريحاً، كالاقتناع بالتفكير.

وقد قيل إن المعتقدات الدينية والتعاليم المتوارثة والمتكررة هي أقوى وأكثر هذه الحواجز عطاء للحماية المنشودة. والامتناع عن التفكير خوفاً من الطاغية لا يختلف في منحه للراحة والاستغناء، عن الامتناع من التفكير خوفاً من الإله، أو خوفاً على الإله، أو احتراماً له وتعبداً.

والتعاليم والمعتقدات الدينية هي من حيث نشأتها فكرية أي من أعمال الفكر، لأنها قائمة على التعليل وعلى تقسيم الأشياء إلى علة ومعلول، أو إلى خالق ومخلوق، فهي ـ أي التعاليم والعقائد ـ لهذا من النشاطات الفكرية. وهي ليست تعاملاً مع الذات والكون والأشياء والآخرين كالحياة والعواطف، ولكنها تساؤلات عن الكون والأشياء والحياة والذات، إنها تساؤلات عقلية زائدة على الذات والحياة، ولهذا فإننا لا نستطيع أن نحياها أو نتعامل عليها مهما كان اقتناعنا بها عظيماً ومتعصباً. غير أنها مع ذلك هي أعمال فكرية قد ماتت وتحجرت، وتجاوزت نفسها، لأنها قد هبطت عن معنى الفكر الذي كان بدايتها، وأصبح الاستدلال العقلي بها أو عليها تقليداً تاريخياً يشبه دعاء الآلهة التي لن تستجيب لمن يدعونها مهما دعوها وأخلصوا في دعائهم لها، ويشبه كذلك الصلاة للآلهة بلغات لا تفهمها الآلهة، ولا يفهمها المصلون أنفسهم.

في ذات يوم كانت التعاليم والتفسيرات الدينية للكون محاولة من محاولات الفكر ولغة من لغاته العالمية، وعبادة كونية يمارسها كل الناس على كل المستويات.

إن الكون يفرض على الإنسان حواراً عقلياً ومجادلة تبحث عن التفسير والاقتناع مهما كان مستواه الحضاري والثقافي.

إن الكون يتحدى صمت الإنسان ازاءه، ويرفضه، ويعاقب عليه.

لا بد أن يتحول الكون وأحداثه المختلفة إلى منطق ولغة إنسانية. فالإنسان لا يستطيع أن يعيش مع الكون أو في الكون فقط، بل محتوم أن يجادله ويفسره، أو يقتنع أنه قد جادله وفسره ولو تفسيراً دينياً، إذا لم يستطع تفسيره تفسيراً كونياً أي عقلياً.

وقد سمى الناس التفسيرات الدينية للطبيعة عقائد وتعاليم، ويراد بهذه التفاسير الدينية إسقاط جميع ذنوب الكون وتفاهاته على الآلهة بحجة الاحترام للآلهة، إن هذه التفاسير ترفض أن يقال:

الكون مذنب وعابث وتافه، وتصر على أن يقال:

لقد خلق الإله عبث هذا الكون وذنوبه وتفاهاته لأنه إله طيب وحكيم، وهو لا يكون حكيماً ولا طيباً إلا بأن يخلق ذلك، إنها تبرىء الكون لتتهم الإله.

وجميع العقائد والتفاسير الدينية في جميع مستوياتها وظروفها هي اتهام للآلهة وتبرئة للطبيعة والناس والأشياء، لأنها تجعل كل الذنوب هي ذنوباً لهذه الآلهة.

والتعاليم والعقائد الدينية تعتقل وراءها المؤمنين والمصدقين ـ ولعل جميع العقائد والتعاليم كذلك حتى غير الدينية ـ يتغنون بقوتهم ونخوتهم ومعرفتهم، ويتحدون بها من كانوا، ومن سوف يكونون، ومن لن يكونوا ـ يتغنون بذلك وهم في قرارات الهوان والجهل والضعف، ويدافعون بسكر روحي عن آلامهم ونقائصهم، وعن أربابهم وطغاتهم وسارقي عقولهم وكرامتهم بكل كبرياء، وكل افتضاح عقلي وأخلاقي.

والمعتقد، وكذا المنتمي لأي مذهب أو كتلة من أي نوع، إنما هو إنسان يبحث عن منطق يشرع له أن يظل غبياً، ومهيناً، وسخيفاً دون أن يحتج، أو يتمرد على نفسه أو يتهمها بأي جبن أو حقارة أو غباء.

إنه لا يوجد مكان فاصل بين العقيدة والتفكير تستطيع النفس الإنسانية أن تستقر فيه، لا معتقدة ولا مفكرة.

إنه من غير المستطاع أن نفقد الاعتقاد والتفكير معاً، وإنه كذلك من غير المستطاع أن نجمع بينهما جمعاً عادلاً لا جور ولا تحيز فيه، أي بأن نكون مفكرين بلا قيد، ومعتقدين بلا شك، بل إن قوة أحدهما وانتصاره هزيمة وضعف في الآخر، ولو بأسلوب ما أو على نحو ما.

ولما كان من الصعب أو المستحيل أن يتحول كل الناس إلى مفكرين فقد كان محتوماً أن

يتحولوا كلهم إلى معتقدين، ولو بدون آلهة وأديان وصلوات، فالرافضون لكل إله ودين هم حتماً مؤمنون بنوع من المعتقدات والتعاليم.

والناس لا يعتقدون أو يتجمعون في حزب أو هيئة أو مذهب حباً للآلهة والنظريات والمذاهب، ولا احتراماً للجماعات والكتل التي يتجمعون فيها، بل هم يفعلون ذلك لأنهم محتاجون إلى نفس الاعتقاد، لا إلى الإله أو المذهب أو الدين الذي يؤمنون به.

محتاجون كذلك إلى نفس التجمع لا لأنهم يحبون من يتجمعون معهم، أو يحترمونهم، أو يرون فيهم الخلاص. وكما أنهم حينما يأكلون أو يجلسون لا يريدون بذلك احترام الطعام أو الأرض أو الأرائك التي يجلسون عليها، كذلك هم حينما يؤمنون بمذهب، أو عقيدة، أو إله، أو يرتبطون بهيئة أو حزب أو دولة أو كتلة، لا يقصدون بذلك الاحترام لما يؤمنون به أو ينتمون إليه.

*

إن التاريخ قوي لأنه هو المقبرة الضخمة الرهيبة المهيبة التي تتجمع فيها كل جثث الأرباب والآباء والمذاهب والنظريات والبطولات والنذالات والهموم والآلام ـ تتجمع فيها جميع أشواق أسلافنا، وآهاتهم، ودموعهم الغزيرة، وضحكاتهم، ومسراتهم التافهة، وتعاليمهم الضاجة بالألم وبالغباوات السعيدة الراقصة في المعابد، وفي أقسى مآتم الأرباب كآبة.

ومهما أنكرنا من آلهة التاريخ وقيوده وتعاليمه فسيبقى لنا وفينا من هذه الآلهة والقيود والتعاليم ما يكفي لجعلنا رعية من رعايا التاريخ المسحوقة بالجنون والعبودية.

إن التاريخ هو أسوأ معلم لأنه أكبر معلم. وإذا طال سجن مجتمع من المجتمعات في تعاليمه ومعتقداته التاريخية فلا بد أن يضعف ذلك من قدرته على الإبداع والتفكير والحركة، ومن رغبته في ذلك.

إن التاريخ هو تلك القوة الهائلة البليدة المنبعثة من القبور والتعاليم والنظم والقيود التي تريد أن تحكم مواهبنا وأفكارنا وجميع نشاطاتنا وخطانا وأساليب سلوكنا وحياتنا، بل وحتى مشاعرنا، لتصوغها على مقاساتها، وتجعلها دائمة تابعة لها.

إنها تريد أن تنصرف بها عن آلام الحاضر والمستقبل وهمومهما، وعن مشاكلهما، إلى آلام الماضي ومشاكله وهمومه، وعن الإحساس بالحياة إلى الإحساس بالموت، وعن الاستجابة لقوانين الحركة والتغير إلى إغراء الاستقرار والاستمرار.

إن التاريخ هو القوة التي تريد أن تجعلنا دائماً نواجه موقفاً غير موجود، وأن نعبد إلهاً قد

مات، ونستجيب لظروف ليست ظروفنا، وأن نرى بغير أبصارنا، ونتعذب بغير آلامنا، ونشتهي بغير أجسادنا، ونبكي بغير دموعنا.

إن جميع المجتمعات في جميع العصور تتحرك في منطقة ليست محددة الحدود أو متميزة الجنسية ـ تقع ـ أي تلك المنطقة ـ بين الماضي والحاضر والمستقبل، إن بعضها في التاريخ وبعضها في الحياة، وبعضها لا يعرف أين يقع، وإن كان ذلك على مستويات مختلفة، حتى ليبدو أحياناً أن بعض هذه المجتمعات إنما يوجد في التاريخ فقط، وليس منه شيء في الحياة.

كما يبدو أن مجتمعات أخرى كأنما توجد في الحياة فقط دون أن يكون منها شيء في التاريخ.

إن التاريخ والحياة ليتجاذبان الناس والأشياء، ويتقاتلان، ويتنافسان عليهم وعليها دون أن ينتصر أحدهما انتصاراً مطلقاً ليكون هو وحده المالك للناس أو للأشياء كلها.

كل الناس على نسب متفاوتة يحاولون بإرادتهم أو دون إرادتهم أن يعيشوا ويتناسلوا خارج همومهم وأفكارهم وظروفهم وضروراتهم، أي يحاولون أن يعيشوا ويتناسلوا في أجساد الأولين وشهواتهم وأرواحهم وضروراتهم وظروفهم، بل وفي أحقادهم وتفاهاتهم وخصوماتهم الصغيرة، بل داخل القبور، يتلقون منها المعلمين والدعاة والآلهة والعداوات والتحريض على الحروب والبغض والوقاحات وكل أساليب السباب والبذاءات العريقة المجد والنسب.

إن كثيراً من الناس، بل إن مجتمعات بأسرها تحاول أن تصل إلى السماء، وتتخاطب معها، وتتملكها، من طريق القبور، وبلغتها وتعاليمها، إنها تريد أن تدخل إلى العالم الواسع من أضيق الأبواب، من أضيق وأقدم الأبواب الحارسة لأقدم القبور.

لقد فقدنا الكثير من إحساسنا بالحياة والأحياء، ومن قدرتنا على رؤيتهم ورؤيتها، لكثرة إحساسنا بالموت والموتى، ولطول تحديقنا في التاريخ.

إن التاريخ هو دائماً في خصام مع الحياة، وإن دعاة التاريخ والقبور ليسوا إلا جنوداً ودعاة في قوة معادية لحرية الحياة واحتمالات خطاها. ولقد أضعف هؤلاء الدعاة إلى التاريخ والقبور قدرتنا على السمع والرؤية والذكاء والإنصاف والإحساس بالأشياء كما هي، وأفسدوا حسنا الغنائي والإنساني، وجعلونا ننكر أجمل موسيقى تؤلفها وتغنيها الحياة، بل نهرب ونتعذب من سماعها، ونصلي لله برفضها ولعنها.

كما جعلونا نخرج من وقارنا طرباً حينما نسمع أقبح الألحان الجنائزية المنطلقة من أبشع القبور، كأنما نسمع أجمل أغاني النجوم، هاتفة بأمجاد الآلهة الساكنة في أقاصي السموات،

تمضغ حيرتها وأحزانها، وتتعذب بفراغها وبعجزها عن أن تجد في حياتها أو عملها أهدافاً تصنع لها الحماس والرضا عن النفس!

وما مثل من يتدينون أو يحيون بكل تعاليم التاريخ ومقابره الروحية، والفكرية، والمذهبية، والأخلاقية، والدينية، إلا كمثل من يحملون في أبدانهم كل العاهات، والآلام، والنقائص التي تعذب بها وعاشها كل من كانوا في التاريخ.

إننا جميعاً نحمل على نحو ما، في أجسادنا جميع عيوب التاريخ وعاهاته.

كما نحمل على نحو ما، في عقائدنا وصلواتنا جميع آلهته وصلبانه.

وإذا كنا لا نجد ذنباً أو كفراً في أن نستشفي من كل عاهات التاريخ وعيوبه الجسمية فلماذا نجد كل الذنب والكفر في الاستشفاء من عيوب وعاهات التاريخ المذهبية، والعقلية، والدينية، والأخلاقية؟

نحن نعمل في أعماق عقولنا وعواطفنا وسلوكنا حشوداً هائلة من المقابر الضخمة، من مقابر الآلهة والمعلمين والطغاة والدعاة والقادة القتلة والزعماء الكذبة. إن أصوات هؤلاء وتعاليمهم لتهيب بنا دائماً من وراء القبور المنادية لنا:

أن كونوا عبيداً وأغبياء، ومتعادين متشائمين، ومغلقين متعصبين، ورافضين للتقدم والحياة والأشياء الجديدة.

ما الإنسان، هذا الكائن القوي الذي يبدو ضعيفاً، أو الضعيف الذي يبدو قوياً؟

ما الإنسان ـ هذا الشقي الذي يظن نفسه سعيداً، أو السعيد الذي يظن نفسه شقياً؟

إنه وجود مضغوط من الأفكار والعواطف والآمال والشهوات والسلوك والاحتمالات الكثيرة المركزة والمضغوطة.

وهذا الوجود المركز المضغوط الذي هو الإنسان محتوم أن ينقسم على نفسه ليكون من تاريخ ويكون منه حياة، أو يكون بعضه في التاريخ وبعضه في الحياة. وهذا الانقسام أو التبعيض هو دائماً غير محدد، ولا عادل، ولا خاضع لقانون من القوانين المعروفة.

إن كل إنسان، بل كل مجتمع مقسوم قسمة غير عادلة أو متساوية بين نقيضين، أو بين الأمس واليوم.

إن كل إنسان أو مجتمع له امتدادان: امتداد إلى المقابر، وامتداد إلى الحياة، إلى ما كان وإلى ما هو كائن ويكون.

لقد كان المنطق التقدمي يفرض دائماً على الإنسان أن يحاول الاتجاه بكل وجوده إلى حياته ومستقبله ليرتفع بهما دائماً إلى أعلى، وليزحف بهما دائماً إلى أمام، حيث توجد جميع

احتمالاته وجميع حقول مواهبه، وحيث يكون طريقه. ولكن المنطق التقدمي ليس هو المنطق الوحيد أو المنطق المطاع أو الأقوى أو الأفضل في سلوك البشر، أو في قوانين الكون والحياة وحركتهما.

إنه لا يوجد في هذا العالم كتلة مادية فيها من قوة التفجير واحتمالاته المتناقضة مثل ذات الإنسان.

إن ذات الإنسان هي أقوى كتلة كونية متفجرة، متناقضة، ذات احتمالات لا مثيل لها في قوتها وتناقضها.

إن الإنسان هو وحده الكائن المتفرد الذي يتحدث عن الماضي، ويحن إليه، ويشعر به، ويضع فيه أحياناً أفضل وأجمل آماله وأحلامه وأشواقه ورؤاه، ولكنه مع ذلك هو أقوى وأسرع الكائنات رفضاً وتجاوزاً للماضي وخروجاً، بل وتفوقاً عليه. وقد يكون تفوق الإنسان هو سبب تعثره أو سبب بحثه عن التعثر.

إن الإنسان مفكر، وشاعر، ومبصر بأمانيه وأحلامه، وله خيال ومذاهب ونظريات وأديان وآلهة ومعلمون، إنه مثقل بالآلهة والمعلمين والعقائد.

وإنه مع ذلك مبدع، ومحتج، ومتألم، وعاشق، وناظر بعقله وخياله. وهذا كله يجعله حتماً خارجاً على ذاته وواقعه، وممتداً إلى الماضي والمستقبل بقدر ما هو محكوم بالحاضر، إنه لا بد أن يكون منتشراً في جميع الجهات.

ويستحيل أن يكون الشاعر، المفكر، المحتج، العاشق، المتألم، المبصر، الحالم بعقله ـ نعم يستحيل أن يكون مثل هذا الكائن إلا امتداداً، ويستحيل أن يكون امتداده إلى المستقبل فقط أو إلى الماضي فقط، بل لا بد أن يكون إليهما معاً.

إنه عاشق بفكره وقلبه، وإنه محكوم بالذكرى والخيال والإلف، وإنه يحلم، ويتمنى، ويرى ما ليس موجوداً، وما قد مات، وإنه يصدق التعاليم ويقاتل دونها، وتخلب لبه.

إذن لا بد أن يكون للماضي عليه سلطان قوي محتوم، ولا يمكن أن يتحرر منه تحرراً كاملاً.

إن تفوق الإنسان هو إذن سبب تعثره كما هو سبب استعباد الماضي له، وإن قدرته على التغير بكل موهبته واحتمالاته قدرة ضخمة ساحقة، إذن هو لا يمكن أن ينتقل بكل موهبته إلى المستقبل، إن ذلك يصعقه ويملؤه بالرهبة وبالرجات العنيفة.

وماضيه مهما كان رديئاً لا بد أن يكون مثيراً على نحو ما، وأن يكون فيه ما يخدع أو يغري أو يقيد أو يصعب الفراق له، أو إرادة الانفكاك منه.

والإنسان بقدر ما هو شاعر يغني للمستقبل، وينشد الأناشيد الحماسية في مغازلة حورياته

المتحجبات الفاتنات، فإنه بنفس هذه الموهبة الشاعرية يغني للماضي، ويغازل أمواته وذكرياته وأطلاله وأربابه التي بالغت المحاريب والتعاليم، وبالغ الرسامون المتعبون المبهورون، في إخراج لوحاتها وفي تلوينها، وجعل ألوانها فاضحة غير محترمة ولا معقولة، بل شاتمة للعقل والذكاء والوقار ولكنها مع ذلك مثيرة لمخاوف الإنسان، ولموهبة الافتتان والضلال والتوتر فيه.

هل يستطيع أي إنسان أو محتج أن يحشد كل ما فيه من طاقة، وتفكير، وخيال، وحرارة، وأشواق، ويجعل منه حركة، أو خطوة، أو قبضة، أو ضربة واحدة ليطلقها إلى المستقبل لكي يستطيع الخروج من جاذبية التاريخ والتعاليم ومن سلطان القبور، نحو الآفاق البعيدة غير المحدودة؟

أليس في هذا من الخوف والإرهاق والخطر ما يقتل أو ما يصيب بالجنون؟

هل الناس يتحررون من التاريخ، ويخرجون عليه، ويتخطونه لأنهم يعتقدون أنهم يجب أن يفعلوا ذلك، ولأنهم يدعون إلى هذا التحرر والخروج، أم هم يتحررون منه ويخرجون عليه لأنهم قادرون على أن يفعلوا، لأنهم يعيشون ظروف وموهبة هذا الخروج والتحرر؟

إن كان الصواب هو الافتراض الثاني فلا جدوى أو معنى في محاربة التاريخ والدعوة إلى الخروج عليه.

وإن كان الصواب هو الافتراض الأول، فما أسهل الأمر وما أرخص الدعاة والدعوات.

وهل الناس يعجزون عن التغير، أو يقاومونه لأنهم مؤمنون بالتاريخ محكومون به، أم أنهم يؤمنون بالتاريخ ويقدسونه ويخضعون لتعاليمه وأربابه وحماقاته لأنهم عاجزون عن التغير، وإنهم لو كانوا بلا تاريخ لظلوا أيضاً عاجزين عن التغير الكبير السريع الذي عجزوا عنه مع التاريخ؟

إنه على أحد الاحتمالين يمكن الجمع بين الإيمان بالتاريخ مهما كان غبياً وعدواً للحياة، وبين أسرع القفزات نحو أسرع أساليب التغير.

في كل العصور كان الناس يؤمنون بالشيء المضاد لحياتهم وتقدمهم، ثم لا يؤثر إيمانهم ذلك أي تأثير في سرعة تغير حياتهم، أو في تقدمهم، على ما يبدو.

وفي كل العصور أيضاً كان الناس أو بعضهم يرفضون الإيمان، أو يرفضون الإيمان بشيء ما، ثم لا ينفعهم هذا الرفض شيئاً أي ثم لا يفعلون شيئاً مما يلزمهم به الرفض للإيمان.

إن العبقري جداً قد يكون مؤمناً جداً بما ينافي كل عبقرية، وإن التافه العاجز جداً قد يكون رافضاً كل التاريخ والتعاليم والآلهة والأنبياء، ومع هذا يظل تافهاً عاجزاً.

ومع ذلك ليتنا نستطيع أن نبيع أو نهب كل تاريخنا وتعاليمنا بوثبة واحدة إلى الأفضل والأذكى، بل ليتنا نستطيع أن نبيع أو نهب كل تاريخنا وتعاليمنا بغير هذه الوثبة وبغير أي ثمن.

ليتنا نجد من يسرق منا هذا التاريخ وهذه التعاليم بلا عوض أو بدليل لكي نبقى بلا تاريخ أو تعاليم أو وراء، لكيلا تبقى لنا أحقادنا وآلامنا وعداواتنا وهمومنا وأربابنا المنقولة إلينا بالتاريخ والتعاليم، ولكيلا نجد إلا الحاضر والأمام والتفكير فيهما، لنهبهما كل أشواقنا وحماسنا وطاقتنا، حتى ولو لم نستفد من ذلك قدرة على الوثب إلى الأفضل والأذكى.

ليتنا نستطيع أن نحرق جميع سفننا الراسية وراءنا، أو ليت أعداءنا يحرقونها لنفقد كل وراء فلا يبقى إلا احتمال وطريق واحد لكي نزحف إليه بكل وجودنا وأنفسنا، أو على الأقل لكي نركز عليه بأحاسيسنا وتفكيرنا وآمالنا وتحديقنا، بل وحتى لو لم نستطع أن نزحف أي زحف أو نركز أي تركيز.

ليتنا نستطيع أن نحرق جميع صحائفنا القديمة الناقلة إلينا أحقاد آبائنا وبغضاءهم وصغائرهم.

إن علينا أن نتخطى الخرائب والمقابر الكئيبة حتى ولو لم يكن لنا من هدف سوى هذا التخطي للخرائب والمقابر الشاحبة المسورة بكل ألوان الدمامات.

إن تخطي الدمامة والخطأ والغباء بالرؤية والتفكير والاعتقاد هدف ذاتي.

إن التخطي للتاريخ الأليم، مجرد هذا التخطي لذات التخطي، عمل نبيل، إنه نوع من الشعر والغناء والتطلع إلى النجوم وإلى جمال الطبيعة كما أن النظر إلى اللوحة الفنية وسماع الموسيقى عمل نبيل.

إن الاستماع إلى الموسيقى، والوقوف أمام اللوحات التي صاغها الفن العظيم أسلوب من أساليب الإنسانية، وعمل من أعمال الشعر الذي هو غاية الشيء، وليس وسيلته.

إننا بالأسلوب الذي به نزيل الأحياء غير الكريمة والأكواخ القديمة الصادمة للرؤية يجب أن نزيل أكواخنا الروحية وأحياءنا التاريخية المظلمة، لنشيد مكانها أفكاراً وتطوراً وفناً وحياة جديدة ومستقبلاً أذكى وأفضل، أو لنشيد مكانها منظراً لا تشوهه الدمامات والأخطاء المتراكمة في مخازن التاريخ.

إن تنظيف عقائدنا وأفكارنا ومشاعرنا من التاريخ وتعاليمه المتخلفة لأفضل جداً من تنظيف مدننا من الخرائب والأنقاض والقذارات المتراحمة. نحن نغير الأثاث والمنازل التي نرثها عن آبائنا بلا شعور بالذنب أو بالتحقير لأولئك الآباء، بل بالشعور الضاج بالتفاخر والكبرياء، فلماذا لا نغير الأفكار والتعاليم والآلهة التي ورثناها عنهم بنفس الأسلوب والشعور؟

أليس الاستمساك بأمتعة الأسلاف الروحية والمذهبية والدينية يشبه الاستمساك بجثثهم، وهل أشياؤنا الروحية والفكرية أهون علينا من أشيائنا المادية، أو هل هي أكثر حاجة إلى الاستمرار والبلادة؟

إنه لا أحد أسوأ من الذي يرفض تغيير المتجر أو المسكن أو الملابس أو الحياة التي انتقلت إليه بالوراثة إلا الذي يرفض تغيير الفكر أو المذهب الذي انتقل إليه أيضاً بالوراثة.

ما الفرق بين الزي الموروث والإله الموروث؟ لماذا نقاتل دفاعاً عن الإله الموروث أكثر من قتالنا دفاعاً عن الزي الموروث؟

إذا لم يكن الآباء معصومين في تشكيل منازلهم وأزيائهم وفي اختيارها، فكيف يكونون معصومين في اختيار وتشكيل أربابهم ومذاهبهم الروحية والأدبية والغيبية، وفي تصورها، أو في اختيار وتشكيل أنبيائهم وقديسيهم وأبطالهم؟

إن للإنسان ثلاثة أعداء قديمة لم تزل تسحقه، أو على الأقل تسحق ذكاءه وكبرياءه وخياله ـ أو هي تحاول ذلك ـ وهذه الثلاثة الأعداء هي التاريخ، والآلهة، وسلطة الحكم بكل ما لها وفيها من أجهزة وأدوات كثيرة بليدة قاتلة سارقة ممتصة لكل ما في شرايين حياته من دماء ونبض.

وهل يستطيع البشر أن يتحرروا من هؤلاء الأعداء الثلاثة في يوم آت؟ إنهم إن فعلوا ذلك فقد يكون هذا من أعظم انتصاراتهم على أنفسهم وعلى أعدائهم الخالدين.

ولكن ما هي الانتصارات، وماذا تعني، وماذا تعطي، وهل توجد حدود تفصل بين الانتصارات والهزائم؟ أليس كل منتصر منهزماً، وكل منهزم منتصراً؟

أليس كل انهزام يعني الانتصار، وكل انتصار يعني الانهزام؟

هنالك من يشعرون دائماً أنهم أقل من التاريخ، لهذا يريدون دائماً أن يكونوا عبيده.

يصلون في محاريبه.

يطيعون تعاليمه.

يتحولون إلى ذوبان في مجراه.

يجعلون منه إلهاً جباراً تتجمع فيه كل رذائل الآلهة وطغيانها وغرورها وتعصبها وتحريشها بين البشر.

لكي يتحولوا هم إلى معابد وأناشيد دينية وكتب مقدسة.

ليتحول كل ذلك إلى أغنية واحدة مكررة مبتذلة في الصلاة له والبكاء تحت قدميه.

وإلى أرض ذليلة يطؤها بخشونة وجنون بحذائه.

في مسيره فوقهم إليهم ليذل كل ما فيهم من معان ومستويات إنسانية.

وليس التاريخ في التعبير البلاغي إلا الشوط الذي قد مات من أشواطنا الطويلة في رحلتنا التافهة الغامضة في طلب شيء لا نعرفه ولا نتصوره، أي في رحلتنا التي هي الوسيلة وهي الهدف.

وما أعظم حكمة من يريدون أن يحكمهم الجزء الذي قد مات من وجودهم!

*

يجد الناس غالباً لذة وعزاء في أن يدافعوا عن التاريخ، ويفاخروا بما كان فيه من أرباب وآباء عظام، ومن بطولات وأمجاد وتقى وأحلام بالغت الأساطير في تهويلها وتلوينها.

وكأنهم بذلك إنما يحاولون أن يكفروا عن أكاذيب الحياة وقسوتها وسخفها وفسوق وضعف من فيها.

أو كأنهم يحاولون أن يعوضوا عن آمالهم المسحوقة وعن حرمانهم المرير.

أو كأنما يحنون إلى مستويات الطفولة بكل ما فيها من جهالات وذكريات صغيرة.

إن الامتداح للماضي والتعاليم والآلهة أسلوب من أساليب الهجاء للحياة والناس والذات، ومن أساليب اليأس فيما هو كائن ـ إن ذلك نوع من التعويض.

قد يكون مدح الماضي دفاعاً عن ذنوب الحاضر وعجزه.

إن الناس في الغالب ينكرون، وقد يطاردون، أو يقتلون من يرفضون الإعجاب بآلهة التاريخ وتعاليمه، وهم في الغالب يطربون لمن ينشدون الأناشيد في امتداح التفاهات والذنوب والأرباب القديمة، وكأنهم إنما يعتذرون بذلك عن ذنوبهم ونقائصهم هم وعما يقاسون من آلام وهموم.

إنهم لا يريدون من يحاول نقد هذه التفاهات والذنوب، أو نقد بلادة تلك الأرباب والتعاليم التاريخية، كأن من ينقد ذلك إنما ينقدهم هم، بل كأنه يلعنهم ويتحداهم، كأنه يكلفهم بأن يخلقوا أرباباً ومزايا وتعاليم أفضل من تلك التي ينقد.

إنه يوجد دائماً من يكرهون تغيير المحاريب التي اعتادت جباههم الركوع فيها، واعتادت قاماتهم أن تصلب على أبوابها.

إن الجباه تألف التراب، وإن القامات تألف الانحناء!

قد يكون معقولاً أن يرضى الناس عمن يكذبون لهم، ولكن هل يكون من المعقول أن يرضوا عمن يكذبون عليهم؟

وهل يوجد أي فرق بين من يكذبون لنا ومن يكذبون علينا؟ أليس الذي يكذب علينا يكذب لنا، والذي يكذب لنا يكذب علينا؟

أليس الذي يكذب عليك ليسلبك عقلك أو كرامتك أو مالك هو الذي يكذب لك ليريحك من عقلك وكرامتك ومالك، أو يكذب لك ليسلب لك عقول الآخرين، وكراماتهم وأموالهم ـ بل أليس هذا هو هذا؟

وهل في الناس من يكذبون لنا أو يكذبون علينا؟ أو ليسوا جميعاً يكذبون على أنفسهم أو لأنفسهم، وإنهم ليسوا طيبين أو فدائيين إلى المدى الذي يجعلهم يضحون ويتعبون من أجلنا فيكذبون علينا؟

إن الذي يكذب عليك دون أن يستفيد أية فائدة ولو نفسية هو نبيل، حتى ليصبح تمني وجوده نوعاً من الترف المحرم؟

إننا لسنا أعزاء على الآخرين إلى المدى الذي يجعلهم يكذبون علينا ولنا دون فائدة لهم!

إن النبي أو الزعيم أو الكاتب الذي يكذب لنا ليريحنا ويهبنا، أو يكذب علينا ليخدعنا ويسرقنا ويضعفنا، إنما هو نبي، أو زعيم، أو كاتب يكذب على نفسه أو لنفسه فقط، أما نحن الآخرين، نحن البشر جميعاً فإننا أهون عليه، وأقل في حسابه من أن يكذب علينا أو يكذب لنا، إنه لن يعني نفسه من أجل الكذب علينا أو الكذب لنا.

إننا نحن الناس أجمعين لسنا في حساب أي نبي أو زعيم أو كاتب يتخاطب معنا بكل دموعه وهمومه إلا كالعيون المبهورة في حساب الغانية المتهتكة المسرفة في زينتها، وفي عرضها لنفسها، وإلقائها بكل فتونها على السوق والعيون.

إنه ليس في حسابها أن تسعد أو أن تعذب الناظرين، بل كل حسابها أن تسعد غرورها وإعجابها بجمالها وبقوتها العدوانية. وقد تسعد بموت من يموت تحت طغيان جمالها أكثر من سعادتها حينما ترى من يهتف سروراً لقدرتها على الافتراس والتعذيب.

لسنا في حساب الأنبياء والزعماء والكتاب والعارضات لجمالهن إلا كالحقول في حساب الأنهار حينما تهبها الحياة والنماء.

ليس في حساب الأنهار أن تروي أو تغرق الحقول، بل أن تؤدي وجودها دون حساب لأي شيء.

كذلك حساب الأنبياء والزعماء والكتّاب، حينما يكونون شيئاً طيباً أو شيئاً رديئاً.

وهل الناس يكذبون لأنفسهم وضد أنفسهم، أم يكذبون فقط؟ هل هم يكونون من أجل أنفسهم أو ضدها، أم يكونون فقط؟

إنهم يكونون لأنهم موجودون، أو يكونون لأنهم يكونون.

وكذلك يكذبون لأنهم موجودون، أو يكذبون لأنهم يكذبون. وهم لا يكذبون أو يكونون لأنهم يريدون أن يكذبوا على الآخرين أو لهم، أو لأنهم يريدون أن يكونوا، ولا لأنهم يريدون أن يكذبوا على أنفسهم أو يكذبوا لأنفسهم أو يريدون أن يكونوا.

وجميع الكائنات الحية تؤدي وجودها دون تفسيرات عقلية أو أدبية أو خارجية، ودون بحث عن أية نتيجة أو هدف، وكذلك جميع الأشياء.

إن كل شيء يؤدي وجوده كضرورة وإلزام، لا كرسالة.

إنه لو كان عمل من أعمال الإنسان رسالة لكان الإنسان رسالة، ولو كان الإنسان رسالة لكانت الحياة رسالة، ولو كانت الحياة رسالة لكان الكون رسالة، ولو كان الكون رسالة لكان رسالة إلى من؟ رسالة إلى نفسه، أم إلى الفراغ؟

*

التناقض قوّة وأخلاقية

«كيف يمكن ألا يتناقض من يمارس كل هذا الكون، والناس، والمذاهب، والآلام، والدعاة، أو من تمارسه كل هذه المذاهب، والآلام، والكون، والناس، والدعاة، أو تمارس ضده؟

هل يمكن ألا تختلف المرائي على العين، أو الأصوات على الأذن، أو تفاسير الآلهة على العقول؟

إنك لكيلا تتناقض محتاج إلى أن تفقأ عينيك، وعقلك، وحواسك وكل استجاباتك الأخلاقية والإنسانية.

الإنسان هو أفضل وأقوى جهاز رصد وضبط في هذا الكون، وكل جهاز لا بد أن يكون الشيء ونقيضه، وإلا فهو جثة جهاز.

الجهاز الثابت جهاز ميت، كذلك الإنسان الذي لا يتناقض إنما هو مجموعة من الأعضاء الميتة مثل قطع الحجارة والخشب».

*

التناقض في الأفكار والرؤية ومع النفس دليل على سرعة الحركة وقوة الرؤية، وعلى الذكاء، والحرية، والرغبة في الاستجابة للعوامل الكثيرة المتناقضة التي لا يستطيع الكائن المفكر، أو الكائن الحي، أو الكائن مطلقاً أن يعيش أو يوجد خارجها. بل هذا التناقض دليل على النزاهة العقلية والأخلاقية.

إن الطبيعة التي نحياها، أو تحيانا، أو تحيا حولنا، متناقضة، وتناقضها هو الذي يؤلفها، ويحركها، ويعطيها ألوانها وإبداعاتها ونشاطاتها التي لا حدود لها.

إذا توقفت أجهزة قياس الضغط، أو الحرارة عند درجة ثابتة، مع استمرار تغير الضغط

والحرارة، كان معنى هذا أن الأجهزة أجهزة غير حية، إنها حينئذٍ أجهزة قد أصابها الموت، فهي ليست أجهزة، وإنما هي قطع من الأشياء، مثل قطع الحديد والحجارة والخشب.

ومشاعر الإنسان، وأفكاره ورؤاه، هي نوع من الأجهزة الراصدة الحاسبة المتغيرة دائماً، وإلا فهي أجهزة ميتة، لا ترى الحياة، والناس، والأشياء، ولا تحسبها ولا تحسب حركاتها، إنها حينئذٍ قطع من الحجارة أو الخشب.

إنه لا يمكن أن يوجد جهاز ثابت ـ ولا ينبغي أن يوجد ـ وسط مؤثرات متغيرة.

وإذا لم يكن من الخطأ، أو الذنب العقلي، أو الأخلاقي أن يتغير إحساسنا بالطقس المتغير، أو رؤيتنا المتغيرة للأشياء المتغيرة، فكيف يكون خطأ أو ذنباً أن يتغير تفكيرنا وسط المؤثرات الكثيرة المتناقضة المتغيرة؟

بل إذا كان من الموت والهوان لحياتنا ألا تحس بتغير الطقس، فإن من الموت والهوان كذلك لذكائنا ألا نستجيب بتفكيرنا لتأثير الرؤى المختلفة.

تراكم الحركة يخلق حالة جديدة، والتفكير حركة، فتراكم التفكير يخلق حالة جديدة، والحالة الجديدة لا بد أن تكون تفكيراً جديداً، أو أن تخلق تفكيراً جديداً مناقضاً لما كان قبله.

من المحتوم أن الأذكياء والمفكرين يتناقضون بقدر ما هم أذكياء، ومفكرون، وبقدر ما ينظرون إلى الأشياء والناس والآلهة، ويرصدون أخلاقها، وبقدر ما هم مخلصون، وصادقون، ومحبون للحقائق، ومحترمون لأنفسهم.

ومن المحتوم كذلك أن الذين لا يتناقضون هم قوم لا يفكرون، أو لا يستجيبون، أو ليسوا صادقين.

إن الذين لا يتناقضون هم قوم يرفضون الاستجابة لأنفسهم، لأنهم يخافون، أو ينافقون، أو يتحرجون، أو لا يعرفون كيف يفعلون، أو لا يريدون أن يكونوا شرفاء، أو أن يسيئوا إلى مصالحهم أو مغانمهم، أو إلى جاههم الأناني الذي اكتسبوه، بتحولهم إلى صيغة واحدة جامدة في المجتمع لخداعه.

إن كثيراً من الناس يريدون أن يعرضوا في السوق بصورة واحدة لا تتغير!

والتناقض ليس نقصاً أو خطأ أو ضعفاً، إنه حركة حياة وكينونة، ورؤية عقلية متجددة مستجيبة ببسالة، إنه كالانتقال من الأمس إلى اليوم، ومن اليوم إلى الغد، ومن مرحلة في العمر إلى مرحلة أخرى، ومن مكان إلى مكان، وكانتقال القارىء من صفحة إلى صفحة في الكتاب الذي يقرأ، ومن شعور إلى شعور، ومن رؤية إلى رؤية، ومن عمل إلى آخر، ومن حالة إلى أخرى.

إنه لا حياة بلا انتقال، بل لا وجود بلا انتقال، أي بلا انتقال إلى شيء مناقض أو مخالف في الحركة والفكر والمذهب والشعور في كل شيء.

إنه مفروض علينا أن نجرؤ على وضع تناقضاتنا بعضها إلى بعض في كتاب واحد، أو مقال واحد، أو صفحة واحدة، مفاخرين بذلك ـ إن كان الذكاء أو الوقار أو الاحترام للنفس يجيز التفاخر ـ لأن ذلك ـ أي ذلك التناقض المجموع بعضه إلى بعض ـ يدل على أننا قادرون أن نتغير، وأن نجدد رؤيتنا للأشياء فيما بين كتابة أول الصفحة وكتابة آخرها، لأن الظروف التي نعيش تحتها متناقضة بهذه السرعة والقسوة ـ كما نجرؤ على جمع كل أطوار حياتنا بعضها إلى بعض.

وكما نجرؤ على رؤية الشيء ونقيضه بهذه السرعة أيضاً.

وبقدر ما هو مفروض تناقض مشاعرنا، كذلك مفروض تناقض أفكارنا، ومفروض تناقض مشاعرنا بقدر ما هو مفروض تناقض الأشياء المؤثرة فيها.

ولو تناقضت مشاعرنا ثم لم تتناقض أفكارنا لكانت بلادة عقلية.

ولو تناقضت الظروف المؤثرة في مشاعرنا دون ان تتناقض مشاعرنا لكانت بلادة إحساس وحياة.

إن الناس يعيبون الذين يتناقضون، ويمتدحون الثابتين على أفكارهم، ومذاهبهم، ونظرياتهم، ومواقفهم، وقد كان العدل والصواب أن يروا العكس.

أليس الإنسان أكثر تناقضاً من جميع الكائنات، لأنه أذكى وأرقى وأكثر حياة واستجابة؟

إنه لن يكون الوقوف عند الرأي، أو وقوف الرأي فضيلة، إلا إذا كان وقوف القلب فضيلة.

وإذا كان الرأي أو الموقف الأول طيباً فلماذا لا يكون الموقف أو الرأي الثاني الذي ننتقل إليه طيباً بنفس الدرجة؟

تناقض الرأي لا بد منه، إنه ليس شيئاً مقدوراً فقط، بل إنه شيء واجب لأننا محتاجون دائماً إلى تبديل مواقفنا في الحياة كاحتياجنا إلى تبديل اتجاهاتنا، وطرقنا، وأماكننا، وأوضاع جلوسنا، وتبديل الموقف محتاج إلى تبديل مماثل في الرأي.

الحياة لا تكون بدون تغيير للموقف، وهل يمكن أن يتغير الموقف بدون أن يتغير الرأي؟ قد يكون ذلك ممكناً، بل قد يحدث ذلك كثيراً، ولكنه قد يحدث كأردأ مستويات الضعف والبلادة.

والذين لا تتبدل آراؤهم هل يمكن أن يصنعوا مواقف قوية في الحياة؟

والذي تتناقض مواقفهم، ولا تتناقض أفكارهم، هل هم بهذا يعبرون عن قوة ذكاء، أو عن

استقامة أخلاقية؟ هل هم متعمدون للوقوف عند الرأي مع تخطي الموقف، أم هم غافلون عما يفعلون.

هل هم كاذبون منافقون، أم فاسدون، أم أغبياء؟

هل مواقفهم الفكرية لا ترى مواقفهم السلوكية؟

هل مواقفهم السلوكية لا تحترم مواقفهم الفكرية؟

ولماذا يعد الثبات على الرأي أو المذهب أو الموقف فضيلة؟ هل لأنه دائماً هو الأفضل من الآخر البديل؟ أم أن البقاء على الأول حتى ولو كان أسوأ هو الافضل دائماً؟

إن الاقوياء يتمردون على أنفسهم بقدر ما يتمردون على الآخرين وعلى ظروفهم، بل يتمردون على أنفسهم أكثر.

إن التمرد على الذات والظروف والآخرين مستوى إنساني، والتناقض هو أعلى مستويات التمرد، أي أعلى مستويات التجاوز، لما كان بالأمس من أفكار وأخلاق وضعف وتخلف ورؤية مخطئة.

إن التناقض ليس إذن إلا أسلوباً من أساليب التمرد على الذات.

إني أتناقض أي إني أخرج على مكاني الذي كان بالأمس، وأتجاوز ظروفي التي كانت تحكم ذاتي بالأمس، وأرى نجوماً لامعة لم أكن أراها منذ عام مثلاً، وأنظر إلى وجهي في مرآة جديدة.

والاعتقاد بأن التناقض ذنب قد يعوق التطور والاكتمال، ويسوغ العجز والوقوف ـ قد يكون تسويغاً سخيفاً للخمول والكسل والخوف من الاقتحام والتجدد.

إن التناقض ذنب وخطيئة، إذن فالثبات فضيلة، إذن فالتغير رذيلة ـ قد يكون هذا هو منطق الكسالى والمتهيبين للاقتحام والتجديد، الذين يريدون أن يظلوا دائماً جامدين لا يتغيرون أو يتحركون.

ومع هذا فالمفروض كما تكرر كثيراً أن الناس يتجددون، ويكتملون بقدر ما يستطيعون، لا بقدر ما يعتقدون، أو يتمنون، ولا بقدر ما يرون أن من الواجب عليهم أن يتجددوا ويكتملوا.

إن الاختلاف مع النفس، أو على النفس كالاختلاف مع الآخرين عملية محتومة من عمليات الحياة لا حيلة فيها كما لا فضيلة في رفضها.

وإذا كان من المستحيل أن نكون نحن غيرنا، فإنه مستحيل بنفس الدرجة أن نكون نحن أنفسنا في كل الأوقات وتحت كل الظروف، بل مستحيل أن نكون نحن أنفسنا في لحظتين من الزمان كما يستحيل أن تبقى الشمس أو الأرض في مكان واحد في حركتين من حركاتها.

إنه مستحيل أن أكون أنا أنا اليوم وغداً وبعد غد، أو أن أكون أنا اليوم أنا بعد عشر سنوات.

وإذا كان محتوماً أو شيئاً غير منكر أن أتناقض مع إنسان آخر فإنه محتوم وشيء غير منكر أن أتناقض مع نفسي التي كانت البارحة، أو التي كانت منذ عام، أو منذ عشرين عاماً.

لماذا يكون التناقض مع الآخرين معقولاً ومقبولاً، ولا يكون التناقض مع النفس كذلك؟

إن الأسباب التي يكون بها التناقض مع الآخرين هي نفس الأسباب التي يكون بها التناقض مع النفس.

وجميع الناس يتناقضون مهما أنكروا ذلك، وهم لا يبعدون عن التناقض إلا بقدر ما يبعدون عن الحياة والتشابك مع أحداثها.

والذين يفاخرون بأنهم لا يتناقضون لا يكونون صادقين إلا بقدر ما يكونون خارج الأحداث، بل وبقدر ما يكونون عاجزين عن الرؤية.

وهؤلاء الذين يزعمون أنهم لا يتناقضون هم قوم يكذبون ويتناقضون، إنهم يصبحون منشطرين بين ما يريدون وما يستطيعون.

والذين هم أقرب إلى التكامل والتكافؤ الذاتي وأقدر عليه يتناقضون بتفكيرهم وسلوكهم، أما الآخرون العاجزون فيتناقضون بسلوكهم، بينما تظل أفكارهم جامدة مغلقة، أكثر الناس لا توجد علاقات كاملة، أو قوية، أو أية علاقات بين أفكارهم وحياتهم، أو بين عيونهم والآلهة التي تؤدي ألعابها بكل الأساليب.

نحن نتناقض مع أنفسنا في آرائنا وسلوكنا كلما تعاملنا مع الحياة، وأحسسنا بقوة إملائها علينا وخروجها على آمالنا ومنطقنا، ونحن لا نستطيع أن نوجد أو نحيا إلا بذلك. ولكننا نصر على لعن التناقض والمتناقضين.

لقد كان رفض التناقض، أو احتقاره مع حتميته، أسلوباً من أساليب التناقض.

إن إنكارنا للتناقض ضرب من التناقض، لأننا نتناقض وننكر التناقض.

والذي يتناقض وينكر التناقض هو إنسان متناقض مرتين، وكل إنسان يتناقض، إذن كل من ينكر التناقض متناقض مرتين.

إذن كل إنسان متناقض، أو متناقض مرتين بتناقضه المحتوم وبإنكاره للتناقض.

وفكرة تقبيح التناقض فكرة ابتدعتها حاجة المجتمع أو غريزته، فالمجتمع محتاج إلى التعامل على أخلاق وأفكار متحددة، مثل التجار الذين لا يتعاملون إلا على حسابات مكتوبة، أو على الأقل حسابات معلومة، وتظل دائماً معلومة لا تتناقض أو تتبدل.

وكم هو فظيع ومخيف في تصور المجتمع أن يتعامل أفراده أو جماعاته على أخلاق أو أفكار أو مذاهب غير ثابتة وغير معلومة، بل متناقضة متبدلة.

لقد تصور البشر ـ فراراً من ذلك ـ هذا الكون محكوماً بأرباب ثابتة الأخلاق، والمنطق، لا يصيبها التغير، أو التناقض، أو التراجع في منطقها وأخلاقها.

لقد تصوروا الكون كذلك، وتصوروا الأرباب كذلك أيضاً، بحثاً عن الضمان في التعامل معها.

ولكن البشر مع ذلك، مع هذا الاعتقاد الذي قيدوا به آلهتهم بقيود أخلاقية ومنطقية دائمة، ظلوا على نحو آخر يحسون إحساساً قوياً، وإن كان خفياً، بأن الأمر ليس كذلك، وبأن أربابهم متناقضة مثلهم بل أكثر، وقد كان تعاملهم معها دائماً قائماً على هذا الإحساس القوي الخفي.

إن الآلهة في عقائد المؤمنين وتعاليمهم ثابتة، أما في أحاسيسهم وتعاملهم فهي أكثر الأشياء تناقضاً وتغيراً، لأنها أكثرها هموماً وقلقاً.

والبشر لا يتعاملون على أخلاق أو أفكار مأمونة مهما تعاملوا على أخلاق وأفكار مكتوبة أو معلومة، لهذا فكم يتعذبون بالشكوك والمخاوف من الأكاذيب والحيل واحتمالات الخداع أو المؤامرات، وبالتباغض المتبادل.

إن الناس ليثقون ويشعرون بالأمن والصدق حينما يتعاملون مع الطبيعة والأشياء التي ليست لها أخلاق، أو منطق، أو تعاليم مكتوبة، ومخطوب بها، ثم يرتجفون شكاً وذعراً حينما يتعاملون مع الناس الذين ابتكروا، وكتبوا، وعلموا أقوى، وأكثر، وأفضل التعاليم.

إنك لتؤمن وتثق بهذا الكرسي الذي تجلس عليه أكثر مما تؤمن أو تثق بأعظم معلم أو قديس تدخل معه في معاملة يقسم عليها بكل الآلهة والأديان والأنبياء والكتب المنزلة، بل يقسم عليها بكل ما فيه من خوف وشهوات ومطامع وأنانية وصداقة أبدية لأوحال الأرض، وأنك كذلك لتأمن الخزانة الحديدية على ما تخشى عليه من مال وأشياء أخرى أكثر مما تأمن على ذلك ضمير أي ملاك يسير على الأرض بأنفة خوفاً على أخلاقه ودينه وثيابه من غبارها، لئلا يلوث منه شيئاً.

فالناس يأتمنون الحديد والخشب والحجارة أكثر مما يأتمنون أخلاق قديسيهم ومعلميهم العظام جداً، بل أكثر مما يأتمنون أخلاق أربابهم!

إذن ما أسوأ حظوظ الإنسان، وأشد عذابه حيث يظن أنه أسعد الكائنات حظاً، إنه هو وحده في هذا العالم الذي يتعامل وفي حسابه الكذب والخداع والكيد والحسد والبغض والتآمر، واقعاً منه وواقعاً عليه، خائفاً من الآخرين، وخائفاً منه الآخرون.

إن خوف الإنسان والخوف منه قد صاغا أخلاقه وأفكاره وعواطفه وحياته صياغة مشوهة عدوانية.

*

ولكن كيف يكون التناقض طيباً؟

أليس التناقض ـ ولو أحياناً ـ عجزاً عقلياً أو أخلاقياً؟

إن الإنسان قد يتناقض لأن مستواه العقلي متخلف لم يتكون أو يتحول إلى مناعة ضد الإغواء، فهو لا يستطيع أن يفهم الشيء أو الموقف فهماً قوياً أو سوياً ليلتزم ما فهم، إنه لهذا يتنقل بسرعة بين عديد الأكاذيب والأوهام والدعايات المتناقضة المعروضة عرضاً مستمراً بشتى الحيل والأساليب المخادعة، دون أن يفهم أو يقاوم، لأنه لا يستطيع ذلك لضعف مستواه الفكري والثقافي.

إنه لا يستطيع أن يعرف كيف يحمي نفسه من كل الأكاذيب التي تدق كل الأبواب.

أليس الجاهل والغبي أعظم استعداداً لتصديق المهاجمين لعقله الباحثين عن إغوائه واصطياده من الذكي المثقف؟

إن المثقفين الأذكياء أقدر على اكتشاف أعمال التخريب والتسلل العقلية والمذهبية والدينية من الأغبياء والجهال.

وأيضاً قد يتناقض الإنسان لأنه ضعيف الأخلاق، فهو يتنقل في مواقفه خاضعاً لأهوائه أو مخاوفه، لا مستجيباً للحقائق والظروف والرؤى الجديدة المختلفة بصدق، أو مستمعاً إلى عقله، لا إلى هواه أو خوفه الصانع له مواقفه المتناقضة.

ولو كان التناقض تفوقاً أو أخلاقية لكان أفضل الناس وأكثرهما تفوقاً وأخلاقية هم الحكام والزعماء والطغاة الفاسدين جداً، والثوار، لأنه لا يوجد أكثر من هؤلاء تناقضاً في تحركاتهم، وشعاراتهم، وافتضاحاتهم السلوكية والمذهبية، إنهم يتنقلون بين المذاهب والمواقف في مواكب من الضجيج والدعاية وكأنهم يعلنون بذلك عن أمجادهم.

وكأنهم يعلمون الناس الافتضاح بأساليب إعلانية.

أو كأنهم يعتقدون أن كل العيون والأسماع والعقول قد فقئت في كل الناس والكون.

إن هؤلاء الزعماء، والثوار، والحكام، يمارسون التناقضات المذهبية والعقلية والسلوكية وكأنما هم حشرات بذيئة، كأنهم حشود من الذباب تتنقل بين كل الأوحال والعفونات بلا أية قيود فكرية أو نفسية أو أخلاقية.

إن هؤلاء يتنقلون بين الآراء، والمذاهب، والمواقف، والشعارات، مثل صراصير تتنقل في

مباذلها دون حاجة إلى الاحتشام أو الاخفاء، ودون حساب للنظافة أو الكرامة. نعم مثل صراصير تنتقل من مكان إلى مكان، غير مشترطة أية شروط لنفسها أو للأماكن التي تتنقل بينها وفيها.

وحتى لو كان التناقض معنى طيباً من معاني الإنسان لكان سلوك وتناقض هؤلاء الثوار والزعماء والطغاة المستبدين المصابين بكل أنواع البذاءات الأخلاقية، والنفسية، والعقلية، قد حول هذا المعنى الإنساني الطيب إلى فحش وحقارة وافتضاح.

إني حزين ومتعب من طول تفكيري في هؤلاء الزعماء والقادة الممارسين لكل هذا التناقض بكل هذه الوقاحة.

إن اشمئزازي منهم ليكاد يتحول إلى عذاب مزمن، إنهم يتكررون أمامي، وإنهم ليعرضون عيوبهم عرضاً مستمراً، متحدين كل العيون والآذان والعقول.

وإني لأعترف بأني أعاني الغيرة مع مشاعر الغضب للذين لا تستطيع كل بذاءات هؤلاء الزعماء والقادة الكذابين المتلونين بكل الألوان الفاضحة المتناقضة أن تثير فيهم كل الاشمئزاز والخوف والغضب.

نعم، كل هذا صحيح على وجه من الوجوه.

فليس يعني هنا التناقض الأخلاقي الذي حوافزه الضعف والهوى، والذي هو كذب ونفاق.

ولا يعني كذلك التناقض الذي أسبابه التردد والعجز عن الفهم والنضج العقلي والأدبي.

وإنما يعني هنا التناقض في أعلى وأقوى المستويات العقلية والأخلاقية أي إنما يعني التناقض الذي هو في مستوى وضرورة وقانونية التناقض بين الليل والنهار، والربيع والصيف، والشمس والصقيع، والقوة والضعف، والشباب والشيخوخة، والحضارة والبداوة، مع ما في كل ذلك من صدق ونزاهة وضرروة وحتمية.

ولكن ما الفرق بين التناقضين:

بين التناقض المنزه أو المشروع، والتناقض البذيء المرفوض؟

أليس الذي يتناقض لأنه ضعيف الأخلاق أو ضعيف العقل، إنما يتناقض تناقضاً مشروعاً ومنزهاً، لأنه إنما يستجيب لضرورة وحتمية وقانونية كالذي يتناقض لأنه ذكي ومنزه الأخلاق، أو لأنه يستجيب لتجاربه ورؤاه المختلفة؟ ومهما كان الجواب على هذا التساؤل فإننا لا بد أن نفترض نوعين من التناقض: تناقضاً طيباً، وتناقضاً رديئاً.

إن الحيوان المفترس، والحشرة الضارة إنما يفعلان بالضرورة والقانونية، ومع هذا فإننا

نقاومهما ونلعنهما، أما الحيوانات الطيبة فإننا نمتدحها ونحبها مع أنها إنما تفعل أيضاً بالضرورة والحتمية.

وكذلك يجب أن يكون حكمنا على أنواع التناقضات مهما كانت أسبابها.

ولعله لا يوجد تناقض مشروع أو طيب، وتناقض غير مشروع أو رديء، وإنما يوجد تناقض نقبله، وتناقض نرفضه.

كما لا يوجد وجه أو شيء جميل، ووجه أو شيء دميم، ولكن يوجد وجه أو شيء نراه جميلاً، ووجه أو شيء نراه دميماً.

ونحن نرى هذا أو هذا بالحاجة والجوع والتوافق لا بالمنطق أو الأخلاقية.

*

إنه لولا التناقض في الأفكار، والمواقف، والكينونة، والإرادة، والهوى، لما وجدت الحضارات المتصاعدة، ولا الأديان والمذاهب الإنسانية الجديدة، ولا الآلهة المتحضرة التقدمية، ولما وجد الذكاء والرخاء اللذان جاءا نقيضين للغباء والفقر اللذان كانا هما بداية الإنسان.

جميع التقدم الإنساني إنما كان تعبيراً من تعبيرات التناقض بين ما كان بالأمس وما هو كائن اليوم.

إن الجمود العقلي والاستمساك بما كان أسلوب من أساليب الرفض للتناقض.

ليس التناقض هو أن نقول إننا متناقضون، أو أن نتعمد التناقض، أو أن نعتقد بأننا نتناقض، ولكن هو أن نتحرك ونتغير بسرعة، متخطين لأنفسنا التي كانت بالأمس، إلى ما هو أقوى وأفضل من الأفكار والمذاهب والآلهة والمواقف، أو إلى ما هو نقيض كيفما كان هذا النقيض.

ومع هذا، فقد يكون التناقض نوعاً من السير في الطريق ثم الرجوع، ومن البناء أو البدء بالبناء ثم الهدم، وهكذا، وهذا أسلوب باهظ من أساليب الضياع وتبذير الذات. وهو صحيح، ولكن التقدم وإبداع الحياة وإعطاؤها الألوان المختلفة لايكون إلا بهذا، ولا شيء غيره وهو أفضل من التوقف عن السير والبناء، ومن السير الدائم في طريق واحد، ومن البناء الدائم بأسلوب واحد.

والمراد هنا الكشف عن شيء لا الدعوة إلى شيء.

فالتناقض لا يمارس بالدعوة إليه وتشريعه، كما أن الذكاء لا يكون بالدعوة إليه أو بامتداحه.

الكون والإنسان بلا نموذج

«إن أي شيء يحدث بأسلوب ما وفي وقت ما لا بد أن يحدث بذلك الأسلوب وفي ذلك الوقت، وإن كل ما في الكون من آلهة وشموس وقوانين لا يستطيع أن يمنح حشرة قد وجدت من أن توجد بكل ضعفها وأوصافها، أو أن يجعل وجودها احتمالاً لا حتماً.

إن الشيء لا يحدث لأنه يجوز أن يحدث ويجوز ألا يحدث، بل يحدث لأنه لا بد أن يحدث. ولو وجد ما يمكن أن يحدث لما حدث أبداً، لأن ما يحدث هو ما كان محتوماً أن يحدث».

*

إذا رفضت، أو نقدت شيئاً، أو طالبت بأن يكون شيء غير ما هو كائن فقد يكون معنى هذا أنك تؤمن بالنموذج، فهل للشيء نموذج، وما هو النموذج؟

أليست كل الأشياء، كل المذاهب، والآلهة، والنظم، والأخلاق، والناس، والشموس، والأنهار، والظروف، سواء، لو لم تكن لها نماذج متقررة؟

إننا لا نقبل الشيء أو كل شيء بكل كينوناته ومستوياته وأساليبه، بل نقبله، أو نريده على نحو ما معين، فلماذا؟

لماذا ننقد الأشياء ونطالب بأن تجيء على نحو آخر غير النحو الذي جاءت عليه، إذا لم يكن ذلك يعني أن لها نماذج خارجية متميزة ومعروفة يجب أن تقاس عليها وتضبط بها؟ وهل لأي شيء نموذج؟

هل للشمس، أو القمر، أو الأرض، أو البحر، أو النهر، أو الإنسان أو للإله، أو لأي مذهب، أو نظام، نموذج من خارجه ومن خارجنا يجب أن يجيء على مقاسه؟

وحينئذٍ ما هو هذا النموذج، ومن صممه، أو قدره، أو فسره، أو عرف به، وأين مكانه، ولماذا كان هو الذي كان دون جميع النماذج الأخرى؟

وإذا كان لكل شيء نموذج فهذا النموذج ما نموذجه، أي ما نموذج النموذج؟

إذا كان للكون أو للإله نموذج جاء على قياسه فعلى أي قياس جاء ذلك النموذج الذي جاء الإله والكون على قياسه؟

لو وجد مهندس أو خالق في فراغ مطلق، في فراغ حتى من ضروراته واحتياجاته وهمومه الذاتية فكيف يمكن أن يخرج نماذجه ومخلوقاته؟ كيف يمكن حينئذٍ أن يخرج المهندس السيارة، أو البيت، أو الجسر، أو الطريق أو المصنع، أو كيف يخرج الإله أكوانه المختلفة؟

إن من وجد في فراغ حتى من ذاته كان مستحيلاً عليه أن يعمل شيئاً.

هل جاء الإنسان مثلاً على نموذج لا يمكن أن يتعداه، أو على نموذج يكون خطأ أو كفراً أن يتعداه؟ أو هل جاءت الشمس مثلاً على مثل هذا النموذج الذي لا يمكن تخطيه، والذي يكون خطأً أو كفراً تخطيه؟

أليس مجيء الإنسان أو الشمس على أي نموذج أو مقاس آخر مساوياً لمجيئها بالنموذج الذي جاءا به؟

وإذا لم يكن للأشياء - كل الأشياء - أية نماذج يفرض عليها أن تجيء على مقاساتها، أو يكون من الأفضل أن تجيء كذلك فكيف إذن جاءت وتجيء كما هي؟

ثم لماذا ننقد الأشياء لأنها قد جاءت على نحو ما، ولماذا نطالب بأن تجيء على النحو الآخر، ولماذا كان النحو الآخر هو الأفضل، أو كان هو الصورة الفكرية المطلوبة؟

إن الأشياء جاءت وتجيء بلا أي نموذج، إنها جاءت وتجيء كما هي لأنها لا تستطيع أن تجيء شيئاً آخر، فنموذج الشيء - أي شيء هو حدود عجزه وقدرته.

ولكن كيف تجيء أو تتحدد حدود عجزه وقدرته؟

إن قدرة الشيء وعجزه يتحددان بذاته العائشة في ظروفها دون أية نماذج عقلية أو مادية خارجية.

ونحن لا ننقد الأشياء أو نطالب بأن تكون بهذا الأسلوب أو بهذه الصورة دون كل الأساليب والصور الأخرى لأن لها نماذج، أو لأننا مقتنعون بوجود نماذج مثالية هي الأفضل أو الأكثر ذكاء، بل لأننا محتاجون إلى أن تجيء متوافقة معنا، فنموذجها هو أسلوب أو مقدار حاجتنا إليها.

ولكن حاجتنا نفسها كيف جاءت، وهل يمكن أن تكون قد جاءت على نموذج؟ ولماذا جاءت على هذا النموذج دون سواه، أليس كان ممكناً أن نحتاج على نحو آخر؟

إذن نحن النموذج للأشياء، لكل الأشياء ـ نحن النموذج للآلهة والمذاهب، والناس، والحياة، والكون، ولكل شيء.

ولكن على أي نموذج قد جئنا نحن، أو جاءت احتياجاتنا وضروراتنا وهمومنا، بل جاءت ذواتنا وصورنا؟

لقد جئنا على غير نموذج، لقد جئنا كما جاء الذباب وجاءت الفئران، والذباب والفئران ترى كما نرى نحن أنها هي النموذج لكل الأشياء، هي النموذج للآلهة والناس والمذاهب والحياة والمعتقدات، أي ترى أن هذه الأشياء يجب أن تجيء على نموذجها أي وفق احتياجاتها وهمومها وهممها، ووفق قدرتها وعجزها، أو تحاول أن تجعلها كذلك، أو هي تحتاج إلى ذلك.

إن نموذج كل شيء في النهاية هو نموذج فراغي، ولو كان لكل وحدة من وحدات الكون نموذج لكان الكون بمجموعه بلا نموذج.

أما النقد فهو ليس بحثاً عن النموذج، بل عن الذات، أو عما تريد ويتوافق معها، إنه أي النقد مثل القتل والافتراس والحب والبغض والخصومة، ليس في شيء من هذا بحث عن النموذج، بل بحث عن الاستجابة للذات، وجعل الأشياء متلائمة معها، ثم الاعتداء على هذه الأشياء لأنها لم تجيء متلائمة كما نريدها.

إن الزعيم الذي يريدنا على نموذج ما، إنما يريد أن نتلاءم مع احتياجاته وكذلك الإله الذي يفرض علينا سلوكاً ما.

إننا حينما نغير مجرى النهر، أو نشق الطريق، أو نقيم المصانع أو البيوت، لا نبحث عن النموذج بل عن الملاءمة، وهكذا حينما ننقد مذهباً، أو نظاماً، أو رجلاً، أو شيئاً، أو إلهاً أو حتى طاغياً من الطغاة.

ولكن الإله حينما يعاقبنا أو يهددنا، على أي نموذج يريدنا، ولماذا يريدنا هذا دون هذا؟ على أي قياس يريد؟

ولو أنه وجد عقل كوني محايد لما استطاع أن يحكم للإنسان، ولا للبرغوث لو زعم كل منهما أنه هو النموذج للآخر، أو أنه هو الذي يجب أن يكون النموذج للآخر، أو أنه هو الذي يجب أن يكون التلاؤم معه مطلوباً ـ أو لتردد ذلك العقل الكوني المحايد في حكمه، وكذلك لو زعم كل منهما أنه قد جاء طبق نموذج، دون الآخر، أو أنه هو وحده النموذج للكون، أو للأشياء، أو للمذاهب، والأديان والآلهة!

إن النموذج صورة عن الكون أو الإنسان، ولكن الكون أو الإنسان ليس صورة عن أي نموذج.

إنه مستحيل أن يحدث الكون عن نموذج، وإذن كيف يمكن أن يحدث دون نموذج؟

ولكن هذا سؤال إنساني، وهو يعبر عن حالة إنسانية، والكون ليس جواباً عن سؤال، ولا ترضية لحالة يعاني منها كائن يعيش فيه حتى ولو كان هذا الكائن هو الإنسان.

والناس لا يسألون لأن الموقف يحتاج إلى السؤال، أو يفرضه، أو لأن هناك جواباً، أو لأنهم ينتظرون جواباً، أو لأن الأمر قد جاء على غير ما ينبغي أن يجيء عليه. ولكن السؤال مستوى إنساني أو حالة إنسانية.

ولو وجدت كل الأجوبة على كل الأشياء لظل الإنسان يسأل ويلحف في الأسئلة أيضاً. ولعله يرفض أن يعرف كل الأجوبة لو كان ممكناً أن يعرف إذا كان ذلك يعني أن يتوقف عن الاستمرار في السؤال دون جواب، ودون انتظار جواب! ولهذا فإن الذين يعرفون يظلون أكثر سؤالاً من الذين لا يعرفون، لأن الذين يعرفون يكونون أقوى مزاجاً تساؤلياً من الذين لا يعرفون؛ وليس لأن المعرفة تحوجنا إلى المعرفة أكثر أو تشعرنا بجهلنا أكثر.

إن السؤال نوع من العذاب والسأم، أو أسلوب من أساليب الفرار من العذاب أو السأم، إنه بكاء لا بحث عن المعرفة، ولا رفض للجهل، أو احتجاج عليه.

إن السؤال لا يعني معناه إلا بقدر ما تعني مخاطبة النجوم أسماعها أو التفاهم معها أو تعليمها لغة الإنسان أو أديانه أو أخلاقه!

والافتراض بأن الشيء لا بد أن يكون له نموذج، أو بأن ما وجد أو ما سيوجد يمكن أن يوجد على نحو آخر، أو بصيغة أخرى هو افتراض يعبر عن ملاحظة، أو تجربة إنسانية ناقصة، لا عن قانون كوني شامل، أو عن مبدأ من مبادىء الطبيعة الخالدة.

لقد جرب الإنسان أو لاحظ أن الأشياء قد تجيء على نماذج سابقة ومكررة، وعلى صيغ مختلفة، إذن فالأشياء خاضعة لقانون النموذج وهي كذلك محتملة الكينونة في صيغها، وليست محتومة الصيغة.

وفكرة حتمية النموذج وفكرة الاحتمال في صيغة الكينونة فكرتان قائمتان على افتراض أن الأشياء مخلوقة ومدبرة من خارجها، فالمدبر الخالق الخارجي لا بد أن يدبر ويخلق على نموذج ما، وهو كذلك يستطيع أن يصنع ويخرج مخلوقاته ومصنوعاته على نماذج عديدة ومختلفة، إذ إنه كما يصنع بهذا النموذج يستطيع أن يصنع بأي نموذج آخر أو بنموذج ما آخر.

إن الشمس إذا كانت مخلوقة بتدبير من خارجها فهي حتماً قد خلقت لتجيء على نموذج،

كما لا بد أن يجيء البيت والطريق والمصنع والسراج، وهي أي الشمس يمكن حينئذٍ أن تجيء على نحو آخر كما جاءت على النحو الذي جاءت عليه، وكما يمكن أن يجيء أي شيء نصنعه نحن على نحو آخر.

لقد افترض الإنسان في الأشياء النموذج، وافترض التعدد في احتمال الصيغة التي يكون عليها أي موجود تحت إملاء ملاحظاته وتجاربه الناقصة القائمة على افتراض الأشياء تدبر وتخلق وتصاغ من خارجها استجابة لاحتياج وظروف مدبرها وخالقها.

ولكن إذا كانت الشمس أو أية وحدة من وحدات الكون إنما تكون بلا تدبير أو خلق خارجي، بل بالضرورة الذاتية فكيف يمكن أن يفترض لها أي نموذج، أو كيف يحتمل أن تجيء على أية صيغة أخرى؟

إن هذا الافتراض يساوي افتراض أن الموجود يمكن أن يكون غير موجود، وأن غير الموجود يمكن أن يكون موجوداً، إنه افتراض لم ينتزع من الوجود، والافتراض خارج الوجود، وكذا التفكير خارج الوجود، أو خارج الموجود، لا يمكن أن يكون حكماً على الوجود.

إن جميع أفكار الإنسان وافتراضاته لا يمكن أن تكون إلا محاولة لفهم الوجود أو لرؤيته أو للتأثير فيه.

إنه بدون وجود، بدون أي وجود لا يمكن أن نفترض شيئاً أو نفكر فيه أو نفهمه. إذن فكل منطق أو افتراض لم يؤخذ من الوجود على نحو ما، لا يمكن أن يكون صحيحاً، بل لا يمكن أن يكون موجوداً.

فالافتراض بأن ما وجد بصيغة ما كان يمكن أن يوجد بأية صيغة أخرى ـ إذ لا شيء يفرض عليه الصيغة المعينة التي جاء بها غير الصدفة أو القدر ـ افتراض لا يلزم شيئاً من الواقع، ولا يحتمل أن يكون أكثر من افتراض يقع خارج الوجود، إنه رؤية للشيء بدون الشيء، أو خارج الشيء، أو رؤية لما ليس شيئاً.

إنه لا ضابط للافتراضات، لا ضابط لها من المنطق أو من الوجود وقد تكون كالتمني، تعني الاحتجاج على الواقع أو الرفض له أو الهرب منه.

إن المفترض لا ينظر إلى الشيء فيحكم، بل يهرب منه ثم يحكم.

إن أي شيء يحدث بأسلوب ما وفي وقت ما لا بد أن يحدث بذلك الأسلوب الذي حدث به، وفي ذلك الوقت الذي حدث فيه. ولو كان يمكن أن يحدث بأي أسلوب آخر، أو ألا يحدث في الوقت الذي حدث فيه، لما كان ممكناً أن يحدث، إن الشيء لا يحدث لأنه يجوز أن يحدث ويجوز ألا يحدث، وإنما يحدث لأنه لا بد أن يحدث.

إن كل ما هو كائن لا بد أن يكون بكل صفاته، وإن ما لم يكن لا يمكن أن يكون، فالكينونة ليست بالجواز أو الخيار بل بالحتم مهما ظن منطق الإنسان أو خياله أو أمانيه غير ذلك.

إن كل ما في الكون من شموس وقوانين وآلهة لا يستطيع أن يمنع وجود حشرة قد وجدت، أو يجعل وجودها احتمالاً لا حتماً بكل أوصافها.

إن أي إنسان لا يمكن أن يكون إنساناً آخر، كما لا يمكن أن يجيء بصيغة أو بصفات إنسان آخر مهما افترضنا أو ظننا أن ذلك شيء يمكن أن يكون ـ وهكذا كل الوجود.

إن الوجود كله بكل أوصافه حتم لا جواز، إنه حتم في كونه موجوداً، وفي كون غير الموجود غير موجود، وليس فيه ما هو جائز الوجود، والجواز ليس إلا في علمنا فقط لا في ذات الوجود. إننا نقول جائز أن يحدث هذا وبهذا الأسلوب، أو بهذه الصورة، وجائز ألا يحدث، أو يحدث بأسلوب آخر، أو بصورة أخرى، كما نقول هذا الشيء موجود أو غير موجود حينما يكون موجوداً. إن ما يحدث ليس جائزاً ألا يحدث، وما لم يحدث ليس جائزاً أن يحدث.

ليس في الطبيعة ما يمكن، بل كل ما فيها إما واجب أو غير ممكن، وكلمة «ممكن» هي لغة إنسانية لا تعترف بها الطبيعة، وجميع ما نقول عليه إنه ممكن هو إما مستحيل أو واجب.

إن التعبير بالإمكان حيثما جاء استعماله ليس إلا لغواً مكرراً قديماً عالمياً.

لقد ظل العالم كله ولا يزال يخطيء بتحدثه عن الممكن والإمكان، ولعله لم يعرف أنه لا يوجد ممكن، أو لعله يتحدث فقط بما يوهم أنه لا يعرف.

لم ينتحر الكون لأنّه لا يحتجّ

«لو كانت الشمس تعي ذاتها وما يعني وجودها فهل كان ممكناً أن تظل في وقفتها الطويلة الخرساء، أو في دورتها الغبية المتسكعة تعرض جسمها المزخرف بلا ذكاء، مثلما تفعل أجمل غانية رخيصة مبتذلة، وتنظر إلى الناس والحشرات والآلهة والفراغ العقيم ببلاهة وهوان يجعلان أشد الكائنات بلهاً وهواناً يفاخر بعبقريته وكبريائه ــ دون أن تبحث عن بحر كوني يتسع لبدانتها الجوفاء لكي تموت فيه غرقاً؟»

*

لماذا لم يرفض الكون نفسه، لماذا لم يمت انتحاراً، أو حزناً، أو اشمئزازاً مما يمارس، ويواجه، ويكون ويرى؟

هل فكر في هذا الرفض؟

وإذا كان قد فكر فلماذا لم ينفذ؟

هل هو معجب بنفسه، وبكينونته، وسلوكه، واحتمالاته، ومصيره الذي يسير إليه، أم هو عاجز عن الرفض بل وعن التفكير فيه؟

إن الإنسان، إن الكون، إن الشمس، إن كل شيء قد قبل أن يظل موجوداً، بل أن يظل راضياً عن وجوده، وعن الأشياء الأخرى، وعن وجودها، مغنياً لها ـ لنفسه وللأشياء الأخرى ـ بأصوات عالية فيها تدلل وسماجة ـ.

إن الإنسان، إن الكون، إن الشمس والقمر وكل شيء قد قبل أن يكون موجوداً راضياً عن وجوده، مصلياً لتفاهاته لأنه لا يستطيع أن يحتج على وجوده، أو على منطق وجوده، أو تفاهة وجوده، أو على معنى وجوده، أو معنى بقائه، أو معنى مصيره، أو على قيمة حوافزه وأهدافه وتعبيراته عن وجوده وعن مواجهته، ومعايشته للأشياء الأخرى وتعامله معها.

إن الشمس ـ هذا الكائن الأبله الذي هو أكبر وأضخم وأجمل كائن دميم نراه ـ لو أنها كانت تستطيع الاحتجاج على نفسها، وعلى كينونتها، وعلى سلوكها المثير في بلادته لكان من المحتوم أن تبحث عن بحر كوني يتسع لبدانتها الجوفاء لكي تموت فيه منتحرة غرقاً.

لقد ظلت الشمس ـ مجد هذا الكون الذي نراه ـ في وقفتها الطويلة الخرساء، وفي دوراتها الغبية المتسكعة، تعرض جسدها المزخرف بيد غير فنان، مثلما تفعل أجهل غانية رخيصة مستهترة، وتبدد طاقاتها التي لا تعرف كيف ولا لماذا ملكتها بلا حساب أو ذكاء أو تدبير، وتواجه الكون والناس والآلهة والحشرات والفراغ الرهيب العقيم، دون أن ترفض، أو تغضب، أو تبكي، أو تحزن، أو تمرض، أو تقاوم، أو تسأل:

لماذا أنا، إلى أين أساق، من فعل بي ذلك، لمصلحة من، ما الهدف، ما البداية، ما النهاية، متى الاستراحة، من أين، إلى أين.

لقد ظلت الشمس كذلك دون أن تقول شيئاً، أو تفعل شيئاً مضاداً لأنها لم تكن تستطيع، أو تعرف، الاحتجاج والرفض.

ماذا يحدث لو أن الشمس كانت تعرف الرفض والاحتجاج وتستطيعهما كما يعرفهما ـ وقد يستطيعهما على نحو ما ـ الأقلون من الناس؟ إننا حينئذٍ لن نكون هنا لكي نتحدث عن بلاهة الشمس وعقم وجودها وعقم الإسراف في إعطائها كل موكبها البليد.

ثم ماذا لو أن أي إنسان، لو أن أفضل أو أعظم إنسان استطاع أن يقرأ، ويعي، ويرى بعمق ـ بأسلوب المحتج الرافض ـ معنى وجوده ومعنى بقائه، ومعنى احتياجاته وضروراته وتصرفاته، وتفسير بدايته ونهايته وحوافزه وغاياته، وماذا يريد، وماذا يعني، وما معنى علاقته بالأشياء الأخرى، وعلاقات الأشياء الأخرى به، ولماذا يتعامل مع الكون والناس، ويتعامل معه الكون والناس؟

لقد عاش الإنسان وجوده بكل تفاهاته وعاره، وبكل تفسيراته وتعبيراته الرخيصة العابثة، وبكل آلامه وفضائحه وهمومه ـ كما عاش كل ما حوله وكل ما يتخيل ويتمنى ـ مسروراً، بل مغروراً مغرداً راقصاً مقهقهاً، منشداً في نفسه ولنفسه الأشعار والصلوات، منزلاً في تمجيد ذاته الكتب المقدسة، المتحولة إلى نبوات وتعاليم، قادماً بها من وراء الشموس والنجوم والأكوان العليا.

لقد فعل الإنسان ذلك لأنه لم يكن يستطيع أن يحتج على شيء لا على نفسه، ولا على الأشياء التي حوله أو التي يمارس أو يعتقد أو يتصور أو يتمنى ويتشهى.

أما أولئك الأقلون الذين قد يعانون الاحتجاج فإنهم لم يكونوا يستطيعون أن يحولوا احتجاجهم إلى رفض، أي لم يكونوا يستطيعون أن يرفضوا ما يحتجون عليه.

كانوا يحتجون على الشيء ويعيشونه بأقوى شهية، كانوا يحتجون أو يرفضون بالتفكير والنظرية ثم يعشقون ويكونون بالحياة والإرادة، كانوا أقل من الحشرات، كانت الحشرات تعيش ولا ترفض، أما هم فكانوا يعيشون ما يرفضون! كانت الحياة والطبيعة فيهم تهتف لما يراه العقل أبشع عار، وأعظم حقارة.

ولو أنه وجد من يحتجون، ويحولون احتجاجهم إلى رفض، لو وجد من يحتجون احتجاجاً سلوكياً لماتوا اشمئزازاً، أو غضباً، أو احتقاراً لأنفسهم وللأشياء التي يمارسون أو يتمنون أو يعتقدون أو يشتهون.

أو لماتوا حياء من أنفسهم ومن الآخرين، أو هرباً بكرامتهم وكبريائهم وشرفهم، أو ستراً لعاهاتهم وعيوبهم وضعفهم وعارهم، أو استصغاراً لضآلة أهدافهم وبدايتهم، ولوحشية نهايتهم.

الاحتجاج عذاب وغثيان عقلي وأخلاقي، أما الرفض أو الاحتجاج المنفذ، أو الفعال، أو المتلائم مع نفسه، فهو موت وفناء.

إن الكون لم يمت في تاريخه الطويل لأنه لم يكن محتجاً. الإنسان قد يحتج ثم لا يموت، أما الكون فإنه لو كان محتجاً لكانت احتمالات موته أقوى، أو لكان موته محتوماً.

ولكن لماذا يصاب إنسان ما بالرفض والاحتجاج؟ هل لأنه يفكر، أو يرى وينظر بعمق؟

ولماذا يفكر وينظر بعمق؟

هل لأنه أخلاقي أو ذكي؟ هل لأنه معذب، حزين، مريض؟

إن أكثر المعذبين المرضى المحزونين يتحولون إلى أنبياء ومعلمين ضد أنفسهم، يتحولون إلى مدافعين عن آلامهم وأحزانهم وأمراضهم، وعن أسبابها، وعن الآلهة، أو الطبيعة، أو عن الزعماء والقادة الذين يصيبونهم بها، بدل أن يحتجوا عليها أو عليهم، أو أن يحتقروا كل ما في الكون من شموس ومجرات، وكل ما للآلهة من تاريخ، احتجاجاً على آلامهم وأحزانهم.

إذن لماذا تظلم الطبيعة، أو تحابي قوماً، فتجعلهم مصابين بالاحتجاج والرفض، وتحابي، أو تظلم آخرين، فتجعلهم مصابين بالرضا والشكر - يصلون للحشرات والآلام والتفاهات.

ويرون الإله في أجمل أزيائه وأخلاقه وصوره حينما يتقمص بدن ذبابة، أو تشوهات، أو أنات، أو آهات مريض أو حزين، ليعرض نفسه من خلال تلك الذبابة أو من خلال المرضى والمحزونين والمشوهين والباكين ألماً وضياعاً.

ويرون الطاغية في أروع عبقرياته وفنونه الإنسانية والثورية حينما يحول حريات الناس وسلامهم، وذكاءهم، ووقارهم، ورخاءهم، إلى حروب وعبوديات وجنون وفقر شامل؟

ويحول الناس إلى ديدان في عظمتهم العضلية والنضالية؟

هل الاحتجاج والرفض مزية أم فقد للمزية؟

وما هي المزية وما الفقد للمزية؟

وهل صاحب المزايا عاشق لمزاياه، أم محكوم عليه بها.

وهل الإله إله بالتدبير، أم بالقدر؟

هل المزية نضال، أم نضال ضد النضال؟

*

كلما قلت لأحزاني:

لماذا لا تغردين، إني أريدك أن تغردي، غردي كما تغرد أحزان الآخرين، كان جوابها الدائم:

لا أستطيع التغريد.

إني أحترم كل الأحزان التي تعيش في كل مكان حولي وفي صميم كل كائن.

إني أحترم الأحزان والدموع والآلام التي كانت موجودة، والتي هي موجودة، والتي أتوقع أن تكون موجودة.

إني أحترم الدموع والآلام والأحزان التي أتخيل أو أعلم أنها كانت موجودة، والتي أراها موجودة، والتي أتوقع أن تكون موجودة، فأنا أمارس العذاب بالخيال والمواجهة والتوقع.

إني أحترم وأمارس أحزان المسرور جداً، أحترم وأمارس أحزانه التي سوف يمارسها هو في يوم مقبل أو التي أظن أنه قد يمارسها.

إني أحترم الأجنة التي لم تولد بعد من الأحزان والآلام والمهانات.

إني أحترم آلام، ودموع، وأحزان جميع الشيوخ والأطفال، وجميع المعذبين الذين كانوا هنا في يوم من الأيام، والذين هم هنا اليوم، والذين سوف يكونون هنا غداً أو بعد غد.

إني أحترم أحزانهم، ودموعهم، وضعفهم، وسقوطهم، وتفاهاتهم التي لا يستطيعون الارتفاع عنها، وعارهم الذي لا يستطيعون الافتخار به أو الاستغناء عنه، بل وعارهم الذي قد يفاخرون به، كما أحترم جميع مخاوفهم ومجاعاتهم المختلفة.

أحترم كل ذلك بالرثاء والاعتذار وبالحزن، وبرفض التغريد والاستحياء منه.

إني أحترم عار الضعفاء، كما أحترم أحزانهم؟

كيف أستطيع التغريد والعالم من حولي مملوء بالأطفال الذين يبحثون عن الابتسام والغناء والحب والصحة، وعن الحياة المرحة المرحبة المعطية فلا يجدون.

ومملوء بالمرضى والشيوخ الذين يريدون أن يمارسوا المسرات والنوم فلا يستطيعون، ثم لا يستطيعون أن يكونوا شجعاناً لكي يمارسوا الموت ممارسة حاسمة، لكي يردوا رداً حاسماً على آلامهم المذلة وعلى عجزهم عن ممارسة اليقظة وعن ممارسة النوم.

ومملوء بالنساء والرجال الذين يتمنون أن يكونوا صادقين، وشرفاء، وأقوياء، وسعداء، ومتطهرين، فلا يملكون أن يكونوا ما يتمنون؟

كيف أستطيع أن أغرد وفي أبعد مكان من الكون نجم يخشى السقوط والانطفاء، أو حشرة تخشى الجوع والافتراس، أو إنسان يخشى الموت والإذلال والضياع؟

إن دموع وهموم أي نجم قصي المكان لتتحدى كل ما في الكون من رغبة في التغريد وقدرة عليه.

كيف أستطيع التغريد وأنا ملقاة في سفينة فضائية يعاني ركابها جميع ألوان العذاب والتشوهات والخوف، وأنا مربوطة إلى سفينة فيها جميع المواجهات الأليمة، فيها من يواجهون الموت الناجز، ومن ينتظرون الموت، ومن يتحطمون شيئاً فشيئاً، أو مرة واحدة، وفيها من يحولهم الطغاة المتألهون إلى عاهات، وإلى جراح بليغة تتحدى أمجاد الكون، وفيها كذلك من يئنون من الأمراض واليأس والهوان وتجرع الحقارات؟

ولكن أحزاني كاذبة أو مخطئة، فهي لا ترفض التغريد لأن شيئاً ما يتعذب، بل لأنها هي تتعذب، أو لأنها عاجزة عن التغريد أو عن الرغبة فيه.

إن أحزاني في كذبها أو خطئها مثل الدعاة والوعاظ والكتّاب والزعماء الذين يبكون لأنه هم يتعذبون، أو لأنهم يتلذذون بالبكاء، أو لأنهم يعرضون أنفسهم عرضاً بكائياً ـ والعرض البكائي دون مشاعر البكاء أو حالة البكاء ـ سلوك مشهور يتعاطاه جميع الدعاة والزعماء والوعاظ والكتّاب ـ أو لأنهم يقلدون من كانوا يبكون في بكائهم ـ والتاريخ قد حول البكاء بلا بكاء إلى تقليد عالمي ـ أو لأنهم يريدون أن يبكوا كذباً أمام آلام من يبكون صدقاً ـ ثم يزعمون أنهم إنما يبكون حزناً لآلام الناس وسقوطهم وخطاياهم، أو احتراماً للآلهة والمذاهب والأخلاق المعتدى عليها أو غيرة عليها!

*

ولادة فوق الصخور

«إن دموع الإنسان المعذب المسحوق لهي أعنف رفض وزجر يوجهه الإنسان بقسوة متواضعة مهذبة إلى الآلهة والطبيعة وإلى نفسه.

إن الأحزان هي أعمق وأصدق صلاة يؤديها البشر، لأنها أعمق وأصدق أساليب الرفض والاحتجاج، والرفض والاحتجاج هما أنبل تحية يؤديها الإنسان لمولده».

*

لو كانت توجد هيئات على مستويات متباعدة جداً في ثقافتها وأخلاقها، عملها أن تضع وتقدر الاشتراطات، والظروف التي يؤذن فيها بأن يولد البشر، والتي ترفض فيها ولادتهم، لما كان ممكناً أن تأذن أكثر تلك الهيئات تسامحاً في اشتراطاتها، وفي تقديرها للظروف المطلوبة، بأن يولد.

ولو كان لدى الطبيعة حد أدنى من الأخلاق، أو من القيود الفنية، أو من شروط العمل، يجعلها ترفض، أو تخجل، أو لا تستطيع أن تخلق، أو تمارس عملها تحته ـ أي تحت ذلك الحد الأدنى ـ لما كان ممكناً أن تخلقه، أو أن تسمح بولادته.

ولو كان الإنسان يستطيع أن يرى مكانه قبل أن يجيء، وكان يستطيع أن يجيء وأن يرفض المجيء، ثم أراد أن يشترط لنفسه أقل الشروط التي لا بد أن تشترطها أية حشرة لمجيئها، لو كانت الحشرات تجيء بشروط، لما كان محتملاً أن يقبل المجيء، مهما ألحت عليه الآلهة، أو بكت تحت قدميه، لكي يجيء.

ولكن الطبيعة والإنسان لا يشترطان أية شروط لوجودهما، ولا يشترطان كذلك على وجودهما.

إنه لا شروط للمجيء هنا حتى ولا للآلهة، فالآلهة والطبيعة والحشرات والناس ـ كل هؤلاء

يجيئون بلا شروط، كما يبقون أيضاً بلا شروط، ويتخلقون بلا شروط، ويموتون أو يذهبون كذلك بلا شروط.

ما أتفه الأشياء، إنها جميعاً بلا شروط.

إنه لم يأت أحد أو شيء إلى هنا بأية شروط، ولن يذهب من هنا أحد أو شيء بأية شروط.

إذن فما أعظم مجد الإنسان والأشياء.

*

هل أرادت الطبيعة أو الآلهة بولادته أن ترضي نفسها، وأن تجمل أو تكمل موهبتها؟

إذن ما أكثر تواضعها الفني، وما أقساها وأعظم أنانيتها ووحشيتها، إذ تذهب بكل كبريائها وموكبها التاريخي المهيب تخلق كائناً لم يطلب إليها ذلك، لتعذبه، لكي ترضى عن نفسها، وتشعر أنها جميلة وفنانة.

ثم ما أعظمه حينئذٍ من كائن عظيم ذلك المولود الذي تحتاج الآلهة والطبيعة إلى أن تقتحم كل دروب الوحشية والتعذيب، لكي تزين به نفسها وعبقريتها.

وأية عبقرية هذه العبقرية التي لا تتكامل إلا بأن تخلق وتعذب بمثل هذا الأسلوب، أو تخلق وتعجز عن حماية من تخلق من العذاب، من عذابها هي؟

هل أرادت الطبيعة والآلهة أن تحابي به والديه؟

ولكن لقد قست الطبيعة والآلهة على والديه، مثلما قست عليه أو أكثر، لقد كانت بعيدة جداً عن التفكير في محاباتهما، لقد حكمت عليهما بأن يتفرقا، وأن يتخليا عنه، ويتركاه لوحشيتهما، أي لوحشية الطبيعة والآلهة، لقد تعلما من الطبيعة والآلهة قسوتهما، أو فرضتا عليهما أن يكونا كذلك.

لقد تركاه لوحشية الطبيعة والآلهة في أقسى أخلاقهما، وأكثر أطوارهما الهمجية تخلفاً وبداوة.

إذن فمن هو ذلك الكائن المتوحش الفاجر الضمير، والفكر، والسلوك، الذي قذف به هنا بلا أية شروط، أو ظروف، أو استقبال، أو ترحيب، لكي يواجه الطبيعة في أعنف أساليب فجورها وتوحشها، حيث لا يتدخل الإنسان لترويضها، ولكي يواجه مجتمعاً هو في أعتى ظروف تخلفه، حيث لا يتدخل أي مستوى من مستويات الحضارة لتهذيب وتذليل بداوته، ولكي يواجه كذلك كينونته وذاته وغربته في أضعف وأقسى احتمالاتها؟

ما أفدح الرؤية والمرئي.

كائن ضعيف بكل معاني الضعف، لا يملك أية قوة، أو معرفة، أو رعاية، أو حماية. لا

يوجد أي قلب يرحب به أو وجه يبتسم له، لا يجد من يسمعه كلمة فيها خفقة من خفقات الشعور الصديق أو الحاني، لا يسمع أي لحن من ألحان الموسيقى المرحبة أو الهادئة. لا يجد يداً واحدة ممدودة لتصافحه، بل كانت جميع الأيدي تدفعه أو تهدده، حتى الإله لم يكن يبدو له وفي يده زهرة أو لابساً ملابس عرس، وإنما كان يبدو له دائماً وفي يده سوط، أو لابساً ملابس جلاد، أو محارب.

كائن ضعيف كل هذا الضعف يلقى به إلى كون جميع ما فيه أدوات افتراس، لا حاكم ولا كابح لطغيانها.

ويلقى به كذلك إلى مجتمع ليس أكثر أو أفضل تهذيباً أو تحضراً من الطبيعة التي لم تروضها أية حضارة، إلى مجتمع كل حضارته وموهبته وتراثه المجيد أن يفاخر بالقبور الوثنية الأمية، وأن يقاتل ويعادي على التقاليد المنحوتة من ظمأ الصحراء، وأن يعلم العقائد والعبادات المفترسة، وأن يتحدث عن الآلهة الرهيبة التي كل مزاياها وعبقريتها أن تصنع العقاب، والعذاب، والآلام، والغضب، والجحيم، والخوف، والتوتر، والأحزان، والتهديد بكل ذلك!

يا له من منظر قد حول النجوم المتطلعة بلا ضمير، إلى كائنات لا مثيل لها في بلادة أحاسيسها وأخلاقها ورؤيتها، لا مثيل لبلادة عيونها ولتطلعها الدائم الميت!

ما أوقح عيون النجوم الميتة المتطلعة!

كيف لم ترفض الرؤية والتطلع هرباً من قسوة المنظر وفظاعته!

*

كان موجوداً قبل أن يعلم أنه موجود، ليس يدري متى علم أنه موجود، ولا متى بدأ يسأل لماذا هو موجود، ولا من أين جاء، ولا لماذا جاء، أو ماذا يعني وجوده، أو من يستفيد منه.

لقد كان في جميع احتمالاته ومستوياته بعيداً، بعيداً، عن أن يتصور فرقاً بين الأشياء التي كانت تكون، والأشياء التي كان ينبغي أن تكون، أو أن يتصور فرقاً بين الطبيعة والناس، أو بين نفسه وأية حشرة أو حجر من حشرات هذا الكون وأحجاره.

لماذا يجد فرقاً بين نفسه وبين الحشرات والأشياء؟ إنه لم يجد شيئاً في هذا العالم يحبيه، أو يحترمه، أو يعامله، أو يدافع عنه، أو يعلمه، أكثر أو أفضل مما يصنع ذلك للحشرات والأحجار وسائر الأشياء الجمادية.

لقد كان في مستوى حشرة، ولكن كان مجتمعه يرهقه ويسحقه أكثر مما يفعل بالحشرات، لقد كانت الحشرات في ذلك المجتمع تملك ظروفاً ومزايا جيدة جداً، ليته كان في مستوى حشرة.

إنه لم يكن يتصور أن الناس يجب أن يكونوا أذكى أو أفضل مما كانوا، أو أذكى وأفضل من الطبيعة، بل لم يكن يتصور أن الآلهة يجب أو يمكن أن تكون أذكى أو أفضل مما تعامله، أو أذكى وأفضل من الطبيعة، أو من الناس الذين كان يتعامل معهم. ولم يكن ذلك يتصور أن ذاته يجب أن تكون أعز، أو أعظم سعادة، أو كرامة، أو مستوى حياة من الأحجار والحشرات، أو أنه يمكن أن يكون له من القوة أو الشأن أو الحب أو الأصدقاء مثلما للآخرين، أو أن عليه أن يكون له ذلك، أو أن له أن يسأل:

لماذا لم يكن له، أو أنه يمكن أن يكون للآخرين أكثر مما كان لهم.

لقد كان يتعذب ويهون، كانت الطبيعة، والعقائد، والناس الخاضعون لأعنف أساليب البداوة، أو لأضعف أخلاق التاريخ، يسحقون ذاته ونفسه، ويفرضون عليه كل ألوان العذاب والهوان والفروض الباهظة، فيتلقى جميع ذلك بطاعة وصبر وإيمان كطاعة الحجر وصبره وإيمانه.

لم يكن يفترض أن شيئاً يجب أن يكون، أو يجب ألا يكون، أو أن يكون غير ما كان، أو أن شيئاً يمكن فهمه، أو رفضه، أو الاحتجاج عليه، والغضب منه.

كان الله والطبيعة والمجتمع المتخلف جداً الذي كان يعيش فيه، أو يمارس هوانه وعذابه فيه شيئاً ضخماً ورهيباً جداً في تصوره وإيمانه، كان يفترس فيه كل احتمالات الفهم والاحتجاج وصيغهما اللغوية والعقلية.

لقد كان يشعر بالألم الذي كان يقاسي جداً، ولكنه لم يكن يشعر بالإنكار له، أو بالاحتياج إلى فهمه، أو البحث عن أسبابه الأخلاقية أو القانونية أو الطبيعية، أو إلى أنه لا بد أن تكون له أسباب من أي نوع.

لقد كان يشعر بالآلام الهائلة المتعاقبة عليه، كما تشعر بها النملة حينما تسحقها الأقدام، أو تعاديها الطبيعة الحمقاء. كان يفسر ألمه وهوانه كما تفسر النملة ألمها وهوانها.

كان يعتذر عن الله حينما يهوي عليه بكل قبضته، مثلما تعتذر عنه البعوضة حينما تلقى منه مثلما يلقى!

لقد كانت جميع عقائده أساليب مختلفة للاعتذار عن ذنوب الآلهة والطبيعة والمجتمع الذي كان يسحقه!

كان الكون يعذبه فلا ينكر أو يتعجب، وكانت أدوات وتقاليد وقسوة ذلك المجتمع الضارب في الجهالة والشقاء تعذبه فلا ينكر أو يتعجب أيضاً.

كان الإنكار والتعجب والاحتجاج عبقرية لم يصل إليها، أو كفراً يرفض الوصول إليه، أو ترفاً لا يعرفه، إنه لم يقرأ عنه أو يسمع به.

كانت كل الأشياء تصدمه وتذله، دون أن يفهمها، أو يفهم لماذا، أو يسأل أو يقاوم، أو حتى يغضب.

لم يكن يفهم أن له حقوقاً أو حدوداً ينبغي الدفاع عنها، أو احترامها أو الغضب لها، كما لم يكن يفهم الفرق بين الشيء ونقيضه، فكل ما يحدث أو يصيبه لا يحدث لديه ردود فعل نفسية أو ذهنية متناقضة، مثل تناقض الأشياء التي تحدث أو التي تصيبه.

إنه لا شيء معقول أو عدل، ولا شيء غير معقول أو غير عدل في تقديره، كل الأشياء معقولة وعدل، وكلها غير معقولة وغير عدل، وكلها ليست غير معقولة وغير عدل.

ولكن ما هو العقل أو العدل في تصوره؟ هل كان يتصورهما لكي يتصور لهما تفسيراً، أو يبحث لهما عن حدود؟ إن كلمات عقل، وعدل، وظلم، وجنون، مثل كلمات صلاة، وإله، وجنة، ونار، وموت، وحياة، وولادة، ليست لغة أرضية بل سماوية، إنها تتلى فقط كما تؤدى الصلاة بلا معنى أو تفسير.

إنه لا شيء يراه أو يتعاطاه يمكن أن يكون له تفسير، أو يمكن أن يكون له صيغة أخرى من صيغ الكينونة، إن الذباب لن يكون غير ما يراه، كذلك الآلهة والطبيعة لن تكون غير ما يراها.

لقد وجد مجتمعاً كل قيمه أن يخوف بآلهة مفترسة لا تستمتع بالطعام أو النوم أو الجنس، لكي تهدأ توتراتها، ولكنها تستمتع أعظم الاستمتاع بتعذيب الناس وتشويههم وإذلالهم، وكل أمجاده أن يتحدث عما في قبوره من أمجاد، وكل حضارته أن تصبح لديه أغبى التقاليد المريضة بالنخوة التي قد تصبح بديلاً عن الحضارة والفهم.

كما وجد كوناً تتعالى فوق هامته طاقة بلهاء، وكتلة هائلة تافهة، وغانية متوحشة مشوهة مسرفة في تزيين نفسها ببلاهة وجلافة، معلقة في الفضاء كالمصلوب المسحوب، تخرج بخنوع وبلاهة من جانب، لتختفي بنفس الأسلوب الأبله الخانع من جانب آخر، في أوقات كأنها معلومة، أو مفروضة، أو محسوبة، كأن جباراً يقودها دون أن تعصي، أو تفهم، أو تسأل.

لماذا تقاد بهذا الأسلوب الذليل المفروض، لكي يجيء مكانها ظلام من جهة ليختفي من جهة أخرى بنفس الأسلوب المهين، في عملية متكررة، مرهقة تذكره بأن عليه أن يبدأ ويكرر شقاءه وتعبه وعبوديته من جديد ودائماً، دون أن يصرخ من الهوان والارهاق والإملال، أو يتعذب ذهنه من الاحتجاج والتساؤل، أو يستثار تعجبه أو فضوله؟

حتى الفضول لم يكن له فضول، إن الفضول مرحلة من الرخاء والتكريم لم يكن له أمل في بلوغها، أو حتى في تصورها والتفكير فيها.

ووجد أيضاً في هذا الكون جنوناً، وتوتراً، وحماقات متزاحمة، لا يدري ماذا تعني، ولا لماذا تكون.

لقد وجد رياحاً، وأمطاراً، وقحطاً، وبرداً، وحراً، وليلاً، ونهاراً، وولادة، وموتاً، ومرضاً، وعذاباً، وصحة، وجوعاً، وشبعاً، وظمأ، ورياً، وحشرات، وأزاهير، وفرائس، ومفترسين، وظالمين، ومظلومين، وازدحاماً هائلاً من التفاهات والتناقضات التي تلطم وجهه، وتطارد حياته، وتمزق أعصابه، دون أن يقرأها أو يفهمها أو يزجرها، بل دون أن يرفضها، أو يقبلها بمشاعره، أو تفكيره مهما عاشها وخضع لها.

لقد كان القبول ـ مجرد القبول للألم، أو التفاهة، أو العذاب، أو الظلم ـ بالتفكير أو المشاعر ـ شيئاً فوق مستواه، إنه يعيش كل ذلك بكل استسلام وطاعة، ولكن بلا رفض أو قبول.

إن الحجر أو الحشرة لتعيش كل أساليب العذاب والهوان، ولكن دون أن ترتفع إلى مستوى القبول لهما.

إن الناس يقبلون ويرفضون، أما الأشياء فإنها تكون دون رفض أو قبول، إن القبول كالرفض مستوى فيه شيء مما يعني الحرية والخيار، أو مما يعني شيئاً يشبه ذلك.

فالذي يقبل قد يعني أنه قد يرفض، إذن القبول مستوى أقوى من مجرد الكينونة أو الممارسة للشيء، وهو شيء وليس إنساناً.

إذن كيف يقبل أو يرفض؟ إنه يكون أو يمارس فقط!

كان يتحرك بين أعداء لا يعرف لغاتهم، وأخلاقهم ولا ما الذي يريدونه منه، ولا ما الذي هو مدين به لهم، ولا لماذا يريدون تعذيبه، كما لا يعرف كيف يسترضيهم.

لقد كان يهبهم كل خوفه وجهده الضئيل الضائع، واستسلامه الضارع، دون أن يدري هل يريدون منه ذلك، أو لماذا يريدونه، هل يفيدهم أو يرضيهم، ولماذا، هل يمنحه صداقتهم أو رأفتهم به!

بل كان يتحرك بين أشياء لا يدري هل هي صديقة أو عدوة له، أو ليست صديقة ولا عدوة.

إنه شيء، إنه قطعة من الأشياء لا تبحث في حركتها أو استسلامها عن صداقة أو حب، بل لا تنتظر شيئاً من ذلك.

ما هي الصداقة وما الحب؟ إنه لم يجرب شيئاً من ذلك، إن المجتمع والكون اللذين يعيش

فيهما لم يعاملاه بشيء من الحب أو الصداقة. وهل يمنح الشيء صداقة أو حباً؟ وهو ليس إلا شيئاً.

والصداقة والحب لا يكونان إلا من الإنسان إلى الإنسان، فإذا كانا من غير إنسان أو من إنسان إلى غير إنسان، فهما شيء آخر مهما ظهرا كحب وكصداقة.

إن جميع الأشياء كانت تفترسه، تفترسه الطبيعة، وتفترسه الآلهة والناس، وتفترسه العقائد، والعبادات، والتقاليد التي كان يمارس، دون أن يعرف، أو يسأل لماذا.

هل هي جائعة إلى لحمه، وماذا يغنيها لحمه، وهل له لحم، هل تركت له لحماً!

كان يتعذب دون أن يئن، وكان يئن دون أن يتكلم، وكان يتكلم دون أن يسمعه أحد، دون أن يسمع نفسه.

حتى الآلهة لم تكن تسمع صوته أو أنينه، لأنه لم يكن يريد أن يسمع أحداً حتى ولا الآلهة، لأنه لم يكن يعتقد أن أحداً يريد أن يسمع منه حتى ولا الآلهة، لأنه لم يجرب أن أحداً قد بالى بهوانه أو تعذب لعذابه، حتى ولا الآلهة.

إن الذين كان يحتمل أن يشكو إليهم ليسوا سوى الذين أساؤوا إليه، وهل يمكن أن يتحول الجلاد إلى طبيب؟

لقد رأى كل الأشياء تصنع شكواه، فكيف يؤمل إذن بأن تزيل شكواه؟ إنه لم ير حجراً يهتز لعذابه، أو يتحرك ليدفع عنه ظلماً أو هواناً، فكيف يطمع إذن بأن تفعل له الآلهة ذلك؟

لقد كان في تقدير نفسه صغيراً جداً، لقد تعلم ذلك من تجاربه.

*

كائن صغير خائف مغلوب، عاجز عن الفهم، والرؤية، والرفض، وعن الاحتجاج أيضاً، تدقه الأحداث دون أن تراه، أو تحس به لضآلته، لا يراه أو يحس به أي كوكب من هذه الكواكب المتسكعة فوقه، المتطلعة ببلاهة وبلادة وكسل، لا يفسده اهتمام أو ضمير.

كائن بهذا الضعف والضياع يلقى به دون أن يعلم أو يستشار أو يبحث له عن أية شروط أو ظروف، ولو على أقل المستويات والحدود من الملاءمة له.

يلقى به دون أن يحتاج إليه أي كائن في هذا الكون حتى ولا أي وحش من وحوشه ليقتات بلحمه لو كان له لحم، أو بإذلاله وتعذيبه، لو كان يسعد بإذلاله وتعذيبه أي كائن في هذا الكون.

كائن لا يملك أية وسيلة من وسائل المقاومة، لا يعرف أحداً وراءه، ولا أحداً أمامه، لا يعرف أية لغة من لغات الطبيعة أو الناس، ولا أية صداقة مع الطبيعة أو الناس، ولا أية وظيفة

يمكن أن يؤديها، لا يعرف أخلاق الماضي الذي كان فيه، ولا أخلاق العالم الذي قدم إليه، ليقيس أخلاق من قدم إليهم بأخلاق من قدم منهم.

لا يعرف أين كان، ولا مع من كان، ولا كيف كان، ولا ماذا كان يعمل فيما كان، ولا لماذا كان.

كائن بهذا المستوى من الضعف والضياع يلقى به إلى كون هائل في وحشيته وعقمه، وإلى مجتمع يقتات بالحجارة، والبداوة، والقبور، وبالعقائد الكالحة، يلقى به إلى ذلك كما يلقى بأية ذبابة.

لقد ألقي به دون أن يلتفت إليه أو يرق له شيء، إنه لم يكن لعذابه أو هوانه أي حساب أو ثمن يمكن أن يؤديه هذا العالم ـ أو أحد ممن فيه أو ممن فوقه ـ أو يحاسب عليه أو يدان به.

لقد ألقي به كما يلقى بأية حشرة لا تحمل أية رسالة من الإنسان إلى الكون، ولا من الكون إلى الإنسان، لا من السماء إلى الأرض، ولا من الأرض إلى السماء.

لقد كان الفرق بينه وبين الحشرة أنه يتعذب أكثر!

ما أقسى الناس، ما أقسى كل الكائنات ـ ما أقسى وأبلد الشمس، والنجوم، والسحاب، والأنهار، والجبال، والحقول، والحشرات، ما أقسى وأبلد كل الكائنات!

كيف لم يمت كل شيء استفظاعاً للظلم والقسوة والحماقات.

كيف لم يمت كل الكون استصغاراً لنفسه أمام بطولة الألم والعذاب والظلم؟ لقد تحدى بتحمله كل عذاب الكون وأخطائه، وكل بلادات وتفاهات مجتمعه العقيم المفاخر ببداوة أربابه، وكل ضعف ذاته وغربتها.

لقد تحمل كل ذنوب الطبيعة، والناس، ونقائص ذاته.

كيف لم يتحول كل شيء إلى صلاة تحت قدميه، احتراماً لآلامه، وصبره على كل الهوان والتفاهات، وعلى معايشة الطبيعة، ومعايشة المجتمع الذي كان فيه، وعلى معايشة ذاته المملوءة بالجراح والضعف؟

كيف لم تفقد الآلهة نخوتها، وحماسها، ورغبتها في تعذيبه لما ترى من صبره على تلقي كل حماقاتها وشهواتها في التعذيب؟ كيف لم يسقط السوط من يدها، كيف لم يتحول السوط إلى غصن، كيف لم يتحطم السوط في يدها، لطول ما سخر ضعفه من قوتها، واستسلامه وتواضعه من كبريائها، وسخرت دموعه من ضحكاتها؟

كيف لم يُعلّم ضعفه قوتها التواضع، ويعلم بكاؤه الصامت قلبها الحنان والرقة، ويعلم صبره أخلاقها الحياء والنبل؟

كيف لم يهزم فيها كل معاني التوحش والفتك؟

كيف لم تصبح آلامه الصابرة أقوى معلم للآلهة والطبيعة، لتتغيرا، أو لتموتا انتحاراً؟

إن الأسلوب الذي يستقبل به المظلوم المسفوه عليه ظلم الظالم وسفاهته، قد يتحول إلى أقوى هزيمة وزجر لمن يصنعون الظلم والسفاهات، وإن دموع الإنسان المعذب المسحوق لهي أقوى عقاب، أو عتاب يوجهه الإنسان بقسوة مؤدبة إلى الطبيعة والآلهة.

إن الأحزان والدموع لتعاقب جهاز الإرسال كما تعاقب جهاز الاستقبال، وإن الباكي لعقاب للضاحك، مثلما الضاحك عقاب للباكي!

إن الآلهة والطبيعة حينما تقسو على كائن مغلوب، لا تعاقبه بقوتها المعتدية أكثر مما يعاقبها بضعفه المعتدى عليه، إن عجزه عن الزئير أمام زئيرها لأقوى زئير يجادل زئيرها!

*

والآن ما أقسى وأطول الخطوات التي خطاها ذلك السائر بليل دون أن يغني له أي نجم أو يهديه، دون أي معلم أو مرحب، أو مستقبل له في طريقه المسدودة بالوحوش، لكي يقفز بلا أي فخر أو شعور بالارتياح، أو الانتصار، إلى مكانه هذا، لكي ينظر منه إلى أحزان تلك الولادة وعقمها بإحساس فيه كل ارتجافات الصلاة وعمقها.

لكي يقرأ قصة الكون والحياة والإنسان بلا كبرياء أو اعتزاز بما كان أو بما سوف يكون، أو بنسبنا الكوني، أو بنسبنا الممدود إلى أجمل وأفضل الآلهة، وبلا أقنعة من الشعارات والتفاسير المتسترة على أبشع الأكاذيب والدمامات، وبلا تقديس أو صلاة روحية تؤديها كرامة الإنسان أو ذكاؤه لأكبر وحش صوره خوفنا وخيالنا!

وهل تلك الولادة الأليمة هي التي صاغت نظرات هذا الكتاب إلى الكون والحياة والأشياء، أو هل لها تأثير في صياغة تلك النظرات؟

من غير المستطاع أن تنفصل أفكار الإنسان عن كينونته التي قد كانت، أو عن كينونته التي لا تزال موجودة، من غير المستطاع أن يرى الإنسان الأشياء معزولاً عن ذاته وعن آلامه الماضية.

إن عيون البشر وعقولهم، ليست في رؤوسهم، بل وفي أحزانهم وولاداتهم وأقدامهم. إذن حتماً ظروف تلك الولادة لها قوة في صياغة نظرات هذا الكتاب.

ولكن تلك الولادة لم تصنع نظرات مزورة أو كاذبة أو مبالغة، بل صنعت نظرات شاملة وحادة وفاحصة، بل ومعاقبة مقاتلة، إنها جعلتها ترى الشيء كما هو بكل أعماقه وصوره وقسوته وذنوبه، إنها لم تجعلها ترى الشيء أكثر أو أقل، وأجمل أو أقبح من الشيء.

إن المريض المعاني لأقسى الآلام، حينما يئن بكل جهره، لن يستطيع أن يئن بأكثر مما يجد ويحس، ولكن قد يجد ويحس بأوهامه ومخاوفه وتصوراته.

إن أوهام الإنسان ومخاوفه وتصوراته ليست إلا تعبيراً صادقاً عن حياته وعن الحياة كلها.

حتى الكاذب هل يكون إلا معبراً عن حياته وعن الحياة كلها؟ أما الصادق فليس إلا مزوراً وساتراً لشيء ما، مهما كان معبراً عن حياته.

إن الكاذب إنما يلعن، أو يرفض شيئاً في الحياة، أو يحاول الفرار منه، وإن من يلعن الحياة لا يلعنها ظالماً، بل معاقباً، أو معاتباً لها على ذنوبها!

إن الأنين والبكاء لن يكونا أقل من الحياة أو أكثر منها، مهما كانا بعضها أو بعض ما يقع فيها، وإن الحياة لن تكون أصغر أو أكبر من البكاء والأنين، مهما كان فيها غيرهما.

وإن الذي يجد الألم الفظيع ويتحدث عنه بفظاعة هو صادق مهما مارس سواه اللذات والمسرات.

إن الإنسان لن يستطيع أن يصيح بأعلى من صوته، أو أن يتكلم بأية لغة غير لغة الحياة، فاللغات مهما اختلفت وتعددت وتفاوتت مستوياتها، وعظم تناقضها، فهي جميعاً لغات للحياة وتعبيرات عنها.

إن أحداً لن يستطيع أن يشكو بدون داء، وإن الحياة هي المسؤولة وحدها عن التركيز على ذنوب الحياة، لن يستطيع أحد أن يتهم الحياة بأكثر مما تفعل به، إن الإحساس المضاد للحياة هو ذنب من ذنوبها، فالشعور بألم غير موجود هو حتماً ألم موجود، والمبالغة في الشعور بالألم أو توهم الألم هو من عمل الحياة.

نحن لن نشعر نحو الحياة إلا بما تصنع بنا أو لنا الحياة، إنه لا أحد يخاف بلا سبب.

*

لو كانت توجد محكمة عدل كونية تقتص لمن يتحاكمون إليها من الطبيعة والآلهة، فماذا يمكن أن تحكم تلك المحكمة لصاحب تلك الولادة، دائنة الآلهة والطبيعة؟

إن جميع ما تملك الآلهة والطبيعة من شموس، وكواكب، وفئران، وبراغيث، وزلازل، وبراكين، لن يكفي حينئذٍ ليكون تعويضاً له عن بعض آلامه!

إن الكون الذي يعطي الشموس والمحيطات، ثم يحطم الشيوخ والأطفال بالعاهات والأحزان والآلام الرهيبة، لكون لا يمكن الغفران له، أو شكره على أية هدية من هداياه!

*

وهل أصحاب الولادات الأخرى أفضل حظاً؟

حتماً هم كثيرون جداً أولئك الذين ظروف ولاداتهم أفضل جداً، بل قد تكون محاولة المقارنة مخجلة، ولكن هل يعني هذا أن محتوى حياتهم أفضل، أو أنهم أفضل حظاً، أو أن لحياتهم أو لوجودهم ثمناً أو تفسيراً أفضل؟

ما أصعب أن يصدق الإنسان أنه لا يساوي أكثر من نفسه أو أكثر مما يساوي، أو أنه لا يساوي أكثر مما يساوي الآخرون أمثاله.

ما أكثر الذين لا يستطيعون أن يصدقوا المرآة حينما يتطلعون إلى وجوههم فيها.

ما أصعب أن تصدق أنك أنت أنت فقط، وأنك لا تساوي إلا مجيئك وذهابك وكل مستوياتك، مثل أي صرصار كبير!

*

ولكن لماذا أجد لذة كلذة الاحتلام بأكثر بنات الشيطان إغواء ووحشية وجنساً، لماذا أجد مثل هذه اللذة في كل الماضي، في كل ذكرياته وأحزانه حتى في ذكريات تلك الولادة، في همومها وحرمانها وحقاراتها، بل وفي الحديث عنها؟ هل لو كانت تلك الولادة أفضل أو أقوى لكان فيها من النشوة أعظم مما كان؟ بل هل كان يمكن أن يكون فيها مثل ذلك، أو هل كان يمكن أن تذكرها على هذا المستوى؟

ما الذي يصنع نشواتنا الروحية، هل هي الآلام أم اللذات، هل هي الظروف الجيدة أم الظروف الرديئة؟

هل الناس يسعدون لأنهم يجدون ظروف السعادة، أم لأنهم لا بد أن يسعدوا بعض السعادة أو يشعروا ببعض مشاعر السعادة مهما كانت ظروفهم، ولأنهم لا يستطيعون أن يشقوا كل الشقاء أو يشعروا بكل مشاعر الشقاء مهما كان واقعهم شقياً؟

كأن في داخل كل إنسان جهازاً يمنعه أن يسعد كل السعادة، أو يشقى كل الشقاء، كأن في داخل كل إنسان جهازاً يمنحه مقداراً من السعادة ومقداراً من الشقاء يحدده هو.

إن اللذة غبية ووضيعة، فهي لا تحترم نفسها، ولا تشترط لنفسها، إنها توجد في كل مكان، وتحت كل الظروف، وفوق كل الأوحال والبذاءات، بكل العنف والإلحاح والافتضاح.

إن اللذة مثل الحشرة التافهة جداً، التي تعيش في كل الشقوق، وتقتات على كل العفونات.

إن اللذات لا تفرق بين طعام وطعام.

وقد نجد من الأحاسيس العميقة النشوى في الوقوف أمام الخرائب المتهدمة، والأطلال

الحزينة، والجثث المشوهة، مثل العمق والإحساس، أو أكثر من العمق والإحساس، اللذين نجدهما في التطلع إلى وجه الشمس ومغازلات القمر لعشيقاته من النجوم.

وقد نجد في القبور التاريخية المدفونة فيها أغزر الدموع وأقوى الأحزان، ما يثير معانينا وجيشان أنفسنا، أكثر مما نجد ذلك في القصور المزخرفة بكل فنون السحر والجمال والترف، والتي تنطلق منها أعلى وأسعد الضحكات!

إن الحزن والموت هما أقوى وأعمق ما في الحياة، هما أصدق صلاة احتجاج ورفض يوجهه الإنسان ضد نفسه وضد الطبيعة والآلهة والناس، كما أنهما أقسى عقاب تعاقب الآلهة والطبيعة به الحياة، وتعاقب به ذكاءها وأخلاقها!

لعلنا لو قُتلنا بسلاح في مكان ثم بُعثنا، لكان وقوفنا أمام ذلك السلاح والمكان، والتفكير فيهما، وفي تاريخهما بعمق، أقوى ما يصنع فينا مشاعر الجمال والخيال ورهبة العبادة.

لعل أحزان طفولتنا أقدر من مسرات طفولتنا، على التحول إلى نوع من الصلاة الروحية.

لعل دموعنا وآلامنا التاريخية لو تحولت إلى متحف، ثم تحولت ابتساماتنا ولذاتنا التاريخية أيضاً إلى متحف مجاور آخر، لكان خشوعنا في متحف الدموع أعظم وأعمق وأكثر إثارة من خشوعنا في متحف المسرات، ولكانت زيارتنا للثاني أقل.

إن الأغاني والقصائد الحزينة أقدر على إثارة خيالنا البهيج الراقص من الأغاني والقصائد السعيدة.

إن القمر، منتحراً، ليحركنا أكثر وأقوى مما يحركنا متألقاً ومغنياً وراقصاً للحب المتعانق حوله.

هل توجد للأحزان والآلام أسباب خاصة، وللملذات والمسرات أسباب خاصة؟ أليس ما يصنع هذه هو الذي يصنع تلك؟

إنه لا يوجد انفعال ما منفصل عن الانفعال المضاد له، بل لا يوجد انفعال متميز عن نقيضه، إن التضاد بين الانفعالات ليس إلا وهماً مشهوراً أو لغة عالمية، ليس إلا لغة فقط.

إن الحياة لتسعد بالألم وتبحث عنه كما تسعد باللذة وتبحث عنها. ولكن هل تجد فرقاً بينهما، أو هل يوجد فرق بينهما؟

لماذا صنع الإنسان الفنون الأليمة الحزينة، وخلد الأحداث الأليمة الحزينة؟ أليس يبحث في ذلك عن اللذة والسعادة؟ لماذا يزور الناس المقابر؟ إنهم لا يفعلون ذلك احتراماً للموتى، أو وفاء لهم، بل بحثاً عن اللذة من خلال الألم، أو من خلال الحدث الأليم، أو من خلال الذكريات الأليمة، أو بفعل منا يذكّر بذلك.

إن الآداب والفنون المتحدثة عن أصالة الألم هي أكثر الآداب والفنون إعطاء للمتعة واستبداداً بأشواق الإنسان.

إن التعبير عن المأساة هو أعمق الفنون الإنسانية، كما أن نفس المأساة هي أعمق فنون الحياة.

ولقد كان البشر في كل التاريخ يحولون الدموع والأحزان إلى صلوات، ولم تكن المعابد إلا بيوتاً لمن يريدون أن يبكوا ويحزنوا، لمن يريدون أن يبحثوا عن السرور ممارسة في الحزن والبكاء.

*

والآن لو كان ممكناً أن أطلب شيئاً ليكون تكفيراً عن آلام تلك الولادة، أو أن أطلب ثمناً من الآلهة أو الطبيعة، أو عقاباً لهما، وكان ممكناً أن يستجاب لطلبي، فماذا يمكن أن أطلب حينئذٍ؟

إني حتماً لن أطلب أي تعويض، أو عقاب مهما أعطيت الخيار. ولكن قد يحتمل على بعض الوجوه، وتحت بعض التفسيرات والانفعالات، أن أطلب منهما شيئاً ليس فيه أي عقاب لهما، أو تعويض منهما، بل فيه توقير لهما، وإعفاء لضمائرهما من التبعات والهموم!

قد يحتمل حينئذٍ ـ وهو احتمال بعيد جداً وقد يكون هازلاً جداً ـ أن أطلب منهما أن يتوقرا، وأن يكفا عن هذا العبث الكبير الأليم الخالد، أن يكفا عن مهزلة الخلق، عن مهزلة خلق الإنسان ليتسليا بضعفه وأوحاله طفلاً، وبفضائحه ومشاكله وورطاته شاباً ورجلاً، وبأمراضه وآهاته شيخاً، ثم بهلاكه مصلوباً، أو مشنوقاً، أو مخنوقاً، أو مصدوماً، أو مريضاً، أو هرماً، أو مقتولاً في حرب أو مغامرة، أو في محاكمة ظالمة من هذه المحاكمات التي يقيمها الطغاة وأصحاب المذاهب والنظم المتعصبة، ليتخلصوا من خصومهم ومنافسيهم، أو ممن لا يرتاحون إليهم، أو ممن لا يهبونهم كل نفاقهم وكذبهم!

فهل يمكن أن أُعطى الفرصة المستحيلة لأطلب ثمناً؟ وهل يحتمل حينئذٍ أن أطلب مثل هذا الطلب الذي قد يكون فيه أكبر التوقير والاحترام للآلهة والطبيعة والانقاذ لضميرهما من الحساب والعذاب والعقاب، وفيه كذلك أكبر السخف والإساءة إلى عقائد الناس وإلى ما فيهم من مزايا الحشرات التي تبالغ جداً في الاستجابة لطموح الآلهة والطبيعة ورغبتهما في أن تستمر في التناسل والتكاثر، لكي تجدا ـ الطبيعة والآلهة في هذا التناسل والتكاثر، عرضاً دائماً لعبقريتهما، وتحية دائمة لمجدهما، وصلاة دائمة لوجهيهما، وعملاً أو ملهاة دائمة يجملان بها فراغهما، ووظيفة دائمة تشعرهما أنهما ليستا بلا عمل؟

فالبقاء بلا عمل هو أسوأ من أي عمل، حتى ولو كان العمل هو خلق الحشرات، أو خلق الناس لينافسوا الحشرات في التناسل والنظافة وسمو الأخلاق!

أيتها الشموس، أيتها الآلهة.

إنه يشكو إليك، أو منك عذاب ولادته، فهل كانت ولادتك أنت أقل هواناً وتعذيباً لك، أو أكثر تكفيراً أو تعويضاً عن آلامك، أو أقوى إقناعاً لمن يبحثون عن تفسير لمجيئك؟

في أية ظروف ولدت أيتها الشموس، أيتها الآلهة؟ وهل كان عذاب ولادته إلا بعض التعبير عن عذاب ولادتك؟ إن كل عذاب وهوان في هذا الكون ليسا إلا شيئاً من عذابك وهوانك ـ أنت النص وكل شيء هو التفسير.

أما أنت أيتها الآلهة فلقد ولدت في وحدة فريدة، في أسلوبها وعذابها، حيث لا أحد يراك أو ترينه، وحيث لا أحد يعرفك أو يستقبلك، أو يرحب بك، أو يعرف مزاياك، أو احتمالات قوتك، وعبقريتك، وحيث لا أحد يتحدث إليك، أو تتحدثين إليه.

لقد ولدت في وحدانية تصعق الخيال وتعاقب الذكاء!

ولدت في وحدة صماء، خرساء، وفي ظلام تعيش فيه الأرباب وتموت الشموس.

ولدت حيث لا ترين شيئاً، وحيث لا يراك شيء.

لقد جئت مثل كائن عجيب، مثل كائن لا يملك أية حاسة من الحواس.

جئت في أبشع فراغ مجدب. كنت تواجهين ذاتك برهبة، وتواجهك ذاتك بمثل ذلك.

كنت تعانين من وجودك كل معاني المعاناة.

إنك لم تجربي أو تبصري شيئاً، لم يكن معك أو حولك سواك.

أليس من التعذيب والتشويه أن يصبح الكائن ـ أو كائن ما ـ هو كل الوجود أو كل الموجود، أن يصبح هو الرائي والمرئي، المتحدث والسامع، العاشق والشخص الآخر؟

نحن لم نجرب الوحدانية المطلقة لنعرف أهوالها، إن خيالنا لا يستطيع أن يعرف، فقولي لنا أنت، يا صاحبة الوحدانية الرهيبة، ماذا فيها من الأهوال والهموم والخوف!

إذن لقد كنت لا تعرفين حتى ولا حدود ذاتك، أو صورة وجهك أو احتمالات قدرتك، كنت لا تعرفين كيف تعملين أو تبدئين عملاً لو أردت! لقد كانت الوحشة والفراغ والبداوة الكونية تقتلك.

لقد تحولت أحزانك، ودموعك، ووحدتك العجيبة إلى حركات فرارية أو ذاتية، ثم تحولت هذه الحركات الفرارية الذاتية إلى وجود كوني، إلى وجود لم يتلاءم معك على أي مستوى من مستويات التلاؤم، فدخلت في صراع كوني لا ينتهي، أو يريح، أو يعني شيئاً.

لقد ذهبت في غير ما راحة أو نهاية أو منطق معروف، تهدمين، وتنقضين، وتغيرين،

وتراجعين، وتتبادلين مع نفسك التجارب الكثيرة المتناقضة، وتعانين كل الغيظ والغضب والحيرة، تعبيراً عن ظروف ولادتك الباهظة.

لقد كانت كل أعمالك، كل إبداعك، احتجاجاً على ولادتك غير الملائمة لك.

ثم جاءت ولادتك الثانية.

لقد ولدت ثانية من تعب الإنسان وظلامه وحيرته، وفي تعبه وظلامه وحيرته.

إذن لقد أصبحت أخلاق البشر وحماقاتهم، وهمومهم، وجميع نقائصهم النفسية والعقلية والسلوكية هي العذاب الذي تعيش فيه ولادتك.

إذن لقد أصبح الكون وحياة الإنسان هما وعاء أو ظروف ولادتك أيتها الآلهة الطيبة الحزينة!

لقد ولدت في الظلام والوحدة والفراغ، ثم عشت في الفرار والفوضى والمحاولات المتناقضة، وفي النضال ضد ذاتك وأعمالك، ثم في الغيظ والغضب والحيرة والأوحال والعصيان الذي تتلقين من عبيدك وأبنائك المختارين، ثم في مواجهة الرفض والتحدي.

إن ذاتك لم تتلاءم معك، لهذا تتعذبين، وتصرخين، وتحزنين، فيتحول عذابك، وصراخك، وحزنك، إلى بحث عن الآخرين، إلى خلق للكون والناس.

إن الكون الذي تخلقين لا يتلاءم معك، لهذا تغيرين فيه، وتهدمين، وتجربين.

إن الإنسان الذي اخترت لنفسك لا يتلاءم معك، لهذا توعدين، وتعاقبين، وترسلين إليه الوسطاء والشفعاء، راجية أن يكون بعض ما تريدين، فلا يزيده ذلك إلا خروجاً عليك. فماذا تؤملين أن تجدي فيما سوف يكون؟

إن شيئاً ما لا يلائمك، وإنك لا تلائمين شيئاً، أنت لا تشبهين شيئاً أو أحداً، كما لا يشبهك شيء أو أحد.

إنك غريبة معزولة عن جميع الأشياء التي أردت أن تكون جمالاً، ومسرة لك، فتحولت إلى أحزان، ودمامة، وعقاب فظيع.

حتى في الصورة والشكل أنت غريبة شاذة معزولة، فلا يوجد ما هو على صورتك وشكلك.

قد يكون التفرد بالصورة والشكل أقسى عذاب، كما قد يكون كذلك التفرد بالمزايا والأخلاق والمنطق.

قد يكون التفرد بالألوهية أفظع وأقسى من كل تفرد.

حتى الطيبات كلها لا تذوقين أو تشتهين منها شيئاً، لقد أردت بهذا الحرمان أن ترتفعي بنفسك وتكرميها، فعاقبتها.

إن النوم والطعام والجنس والصداقات والحب ـ كل ذلك أنت فوقه، لا تمارسينه ولا تحتلمين به، أية سعادة لك إذن في وجودك؟ حتى الاحتلام محرم عليك، ما أفظع هذا.

كائن حي مفكر شاعر لا يمارس الجنس، أو النوم، أو الطعام، أو الحب والصداقة، حتى ولا الاحتلام، أي خير له في وجوده، وأية لذة أخرى يمكن أن يمارس؟

إذن ماذا يهبك السعادة أو النشوة أيتها الآلهة العظيمة، وما الثمن الذي تأخذين أجراً لوجودك أو تتقبلين وجودك من أجله؟ أي شيء قد أصبح ثمناً ترضينه لولادتك؟

وإذا كنت فوق كل نشوة ولذة وانفعال جسدي وروحي فلماذا تخلقين شيئاً أو تغضبين من شيء أو ترضين عن شيء أو تبحثين عن شيء؟

إذا كنت فوق كل الانفعالات فكيف تفعلين شيئاً، وإذا كنت تعيشين الانفعالات فكيف لا تمارسين اللذات؟

أنت لا تمارسين شيئاً ما ممارسة جسدية، ولا تسعدين بأي شيء سعادة عقلية أو روحية لأن كل الأشياء ـ حتى البشر ضد منطقك وأخلاقك وإرادتك، إذن أي شيء تجدين ليكون لك عزاء أو سروراً أو تعويضاً؟

أليس ممارسة الحب، والجنس، والنوم والاشتهاء للطعام أفضل أو أقل وضاعة من ممارسة خلق الأمراض والآلام والموت، بل من ممارسة عملية الخلق نفسها؟

إن جميع أخطاء الكون، والناس، وآلامهم، ورذائلهم، وتفاهاتهم، وأحزانهم هي وحدها المستقبلة لمولدك، المرحبة به، الهاتفة له، أيتها الآلهة، أيتها الشموس، هي وحدها الوعاء والظروف لاستعراضاتك لنفسك.

فهل ولادتك إذن أفضل حظاً، أو أقل أحزاناً وهواناً من ولادة ذلك الشاكي إليك، أو الشاكي منك؟

ولكن هل يمكن أن تصبح آلام ولادتك تكفيراً أو تعويضاً عن آلام ولادته؟

لهفي على كائن لا يمارس أية لذة جسدية، ولا يجد أية لذة عقلية.

لا يستطيع أن يكف عن العمل، ولا يستطيع أن يعمل ما يرضيه، لا يستطيع أن يكف عن الرؤية، ولا يستطيع أن يرى ما يريد، لا يستطيع أن يهرب، ولا يستطيع أن يتلاءم، لا يستطيع أن يفقد الانفعال، ولا يستطيع أن ينفعل انفعالاً ساراً.

لهفي على مسيء يرثي له من يتلقون الإساءات منه!

كن برغوثاً لئلاً ترى في الكون شيئاً دميماً

«كل شيء ملائم لنا هو عدوان على نقيضه وحامل لنقيضه.

الجمال عدوان على الدمامة وحامل لنقيضه، أي لنقيض الجمال، أي حامل للدمامة.

الصحة والشباب والمجد والقوة، والانتصار، هو عدوان على نقيضه وحامل لنقيضه.

كل شيء ملائم لنا هو عدوان على نقيضه وحامل لنقيضه.

الجمال هو أكثر الأشياء عدواناً على الأشياء، إنه أقسى عدوان على الدمامة، وعلى جميع المواجهين له، والمتعاملين عليه ومعه.

حتى الحياة، إنها أكثر الأشياء احتواء للنقيض وعدواناً على النقيض».

*

يقولون لي:

لا تنظر إلى الآلام والأحزان والدمامات، وإذا نظرت إليها فلا تبصرها، وإذا أبصرتها فلا تفهمها، وإذا فهمتها فلا تفسرها، وإذا فسرتها فلا تنقدها، وإذا نقدتها فلا تطالبها بأن تكون كما تريد وتتمنى، أو يريد منطقك ويتمنى.

فإذا نظرت إليها، وأبصرتها، وفهمتها، وفسرتها، ونقدتها، وطالبتها بأن تكون كما تريد ويريد منطقك، وكما تتمنى ويتمنى منطقك فلا تبك أو تحزن، فلا تتألم أو تحتج أو ترفض.

يقولون لي:

انظر إلى الأشياء بعيني حجر لا بعيني إنسان.

فعيون الأحجار أقدر من عيون الإنسان على رؤية الآلام بلا بكاء!

يقولون لي:

دع جميع الآلام والأخطاء التي تعيش خارج ذاتك، دعها تعش خارج مشاعرك ورؤيتك وتفكيرك وهمومك.

دعها لأنها تعيش خارج ذاتك تعش خارج أفكارك وهمومك!

يقولون لي:

إنك متشائم لأنك ترى ما في الحياة والناس من هموم وعذاب ودمامات، وتحس بهذه الهموم والعذاب والدمامات، وتتحدث عنها وتحتج عليها وتتعذب بها.

ولا يغفر لها في حسابك ما في الكون والحياة من شموس، ونجوم، وضخامة، وجمال، وجبال، وقارات.

ومن أطفال يضحكون بلا مسرات، ويبكون بلا أحزان، ويتشاتمون، أو يتضاربون بلا مذاهب، أو عداوات، أو أحقاد، أو منافسات يفسرونها بشدة حبهم لله وفنائهم في الدفاع عن ضميره وشرفه، كما يفعل الزعماء والقادة والمعلمون!

يقولون لي:

إنك متشائم لأن المتفائل هو الذي لا يستطيع أن يرى في العالم أية دمامة، أو أي ألم، أو حزن، أو بكاء.

إذا كان يوجد فيه وجه واحد مبتسم، أو وجه واحد سعيد، أو وجه واحد ممتلىء صحة، أو صوت واحد ينطلق بالغناء أو بالضحكات العالية!

إن رؤية الألم في مكان حيث توجد اللذة في أي مكان آخر تحقير لكل لذة!

إن النظر إلى الوجه الدميم، حيث يوجد وجه جميل، تحقير لكل معاني الحياة!

يقولون لي:

إن المتفائل هو الذي لا يستطيع أن يرى الأشقياء المحرومين ما دام يوجد مترفون محظوظون.

أو يرى المرضى ما دام يوجد أصحاء.

أو يرى المظلومين المقهورين ما دام يوجد منتصرون أعزاء.

أو يرى العميان ما دام يوجد مبصرون.

أو يرى الباكين المحزونين ما دام يوجد مسرورون ضاحكون.

أو يرى الليل ما دام يوجد نهار.

أو يحتج على هول الجحيم ما دام يوجد من يعيشون في النعيم، أو من يوعدون بالنعيم!

إن الاستماع إلى الأنين فوق الأرض، حيث تعلو الضحكات فوق الكواكب، كفران بالآلهة، عدوان على الضاحكين، خيانة لأمجاد الكون ولمباهج الحياة!

يقولون لي:

إن المتفائل هو الذي لا يستطيع أن يرى دمامة الحشرات والعبث والأكاذيب، أو قسوة الموت والظلم والمرض والهوان والهزيمة، أو وقاحة الطغيان والمذاهب المتعصبة البليدة، أو حقارة الحقد والحسد والأنانية والشماتة والنفاق، أو تفاهة الحوافز والأهداف، ما دامت الشمس تطلع وتغيب في أوقاتها المحفوظة.

وما دام الليل والنهار يتعايشان بسلام، ويتعاقبان على الناس دون أن يتعبا، أو يرفضا، أو يفترقا، أو يحتجا، أو يسألا عن التفسير أو عن الهدف أو عن النهاية.

وما دام الناس مستمرين، يجيئون ويذهبون، يصنعون الأطفال، ليستقبلهم جميعاً الجلاد الرهيب، ليقتلهم كلهم، وكأنه يعاقبهم على مجيئهم وعلى صناعتهم للأطفال، لا ينسى منهم أحداً، أو يعفو عن أحد، أو يحترم أو يخاف أحداً.

وما دامت الآلهة راضية عن نفسها، سعيدة في سمواتها، تحيي وتميت، ترضى وتغضب، تضحك وتبكي، تخلق الحشرات، والزلازل، والبراكين، والمجاعات، والصخور، والصحارى، والشيخوخة، والموت، والدمامة، والمرض، والأحزان، بالحماس والشهوة والحكمة التي تخلق بها الناس، والزهور، والحقول، والشباب، والجمال، والصحة، والحياة، والعبقرية، والمسرات.

دون أن يعاتبها أخلاقها أو ذكاؤها!

يقولون لي:

إنك متشائم لأنك ترى أن الصحيح يجب أن يكون صحيحاً، ولكن المريض لا يصح أن يكون مريضاً.

وإن الجميل يجب أن يكون جميلاً، ولكن الدميم لا يصح أن يكون دميماً.

وإن المسرور يجب أن يكون مسروراً، ولكن الحزين لا يصح أن يكون حزيناً.

وإن المترف السعيد يجب أن يكون مترفاً سعيداً، ولكن الجائع المحروم لا يصح أن يكون جائعاً محروماً.

لهذا فأنت لا تتحدث عن الأصحاء أو عن المسرورين، أو عن السعداء المترفين.

بل تتحدث عن المرضى والمحزونين والمتألمين والمحرومين!

إنك تحتج بالعذاب على السعادة، وبالموت على الحياة، وبالأحزان على المسرات، وبالفقر على الغنى، وبالدمامة والشيخوخة والمرض على الجمال والصبا والصحة.

وبالذين سيكون مكانهم النار على الذين سيكون مكانهم الجنة.

وعلى الذين لم يجدوا الله على الذين وجدوه.

يقولون لي:

إنك تنكر على الطبيعة وعلى الأشياء ـ وتنكرها ـ إذا جاءت على غير ما نريد وينبغي، ولا تشكرها إذا جاءت على ما نريد، أو على ما يريد بعضنا، أو على ما يريد بعض سكان هذا الكون.

إنك في هذا متشائم بل وظالم.

إنك في هذا مثل من ينكر على الطاغية إذا قتل، أو سجن، أو ظلم، أو أجاع، فريقاً من الناس أو بعض الناس، ثم لا يشكره إذا حابى، أو كرم، أو أعطى، أو ترك، فريقاً منهم أو بعضهم دون قتل أو سجن أو عقاب.

إنك مثل من ينكر على من فقأ إحدى عيني الطفل اليتيم، أو قطع إحدى رجلي الشيخ الكبير، ثم لم يشكره أو يتحدث عن مزاياه لأنه عفا عن العين أو الرجل الأخرى دون قطع أو فقء!

يقولون لي:

إنك تفترض في الطبيعة والأشياء والآلهة، بل وتشترط لها وتريد منها ولها، أن تكون كمالاً مطلقاً لا حدود ولا عيوب فيه أو له.

تريد منها ولها ـ بل وتشترط عليها ولها ـ أن تكون جميلة بلا دمامة، نظيفة بلا عفونة، عادلة بلا ظلم، رحيمة بلا قسوة، ذكية بلا غباء، سعيدة بلا أي شقاء.

فإذا جاءت كذلك فهي في اشتراطاتك وتفسيراتك لا تستحق مدحاً ولا ذماً، لا احتجاجاً ضدها ولا احتجاجاً لها، لا توجب فرحاً ولا بكاء، لأنها قد جاءت في حدودها المفروضة.

أما إذا جاءت على غير ذلك فإنها حينئذٍ تستحق كل الاحتجاج والرفض والرثاء.

يقولون لي:

إن الاهتمام والرؤية في تفكيرك وسلوكك يقعان أبداً على النقائص والآلام والعيوب!

إن السائر على قدمين قويتين سليمتين لا تقع عليه رؤيتك ولا أحاديثك ولا اهتماماتك، وكذلك لا تقع رؤيتك أو أحاديثك أو اهتمامك على من عرفوا من الأمراض، والأحزان،

والحرمان، والدمامة، والتشويه، والظلم، لأن ذلك في تقديرك وتفكيرك هو الذي يجب أن يكون، وهو الحد الأدنى لمستويات الإنسان واحتياجاته، ولمستويات الحياة واحتياجاتها، وهو أقل ما يجب على من فرضوا على الأحياء وعلى الحياة والبشر المجيء هنا!

إن كل أحاديثك ورؤيتك واهتماماتك واحتجاجاتك تقع جميعاً وبعنف على من ليسوا كذلك.

إنك ترى الله حينما يزأر، ولا تراه حينما يبتسم.

إنك ترى الكون حينما يكون في ثياب الحداد، ولا تراه حينما يكون في ثياب العرس!

إن السعادة والصواب هما دائماً في منطقك القاعدة والواجب والقانون، أما الألم والخطأ فهما الخروج على القاعدة، والواجب، والقانون.

والواجب والقانون والقاعدة لا تستحق أن تشاد لها المعابد، أو المنابر، ليصلى لها، أو لتنشد المدائح بين يديها!

يقولون لي:

إن تفكيرك يعني أن السائر على قدمين لا يمكن أن يكون غفراناً لمن فقد القدمين، وإن الصحة في إنسان ما، لن تكون غفراناً للمرض في إنسان آخر، وإن الجمال مهما كثرت مشاهده لن يكون غفراناً لأية دمامة، وإن الشباب لن يكون غفراناً لأية شيخوخة، وإن الحياة لن تكون غفراناً لميتة واحدة، وإن الشبع في الشبعى لن يكون غفراناً للجوع في الجوعى - بل إنك لترى العكس.

ترى أن هذا تشويه لهذا ولعن له، واحتجاج عليه، وتسفيه لمن فعله، أو أراده، أو رآه عدلاً أو جمالاً!

يقولون لي:

إنك ترى - لأنك متشائم - إن من خلقك بيدين لن يستحق إعجابك أو شكرك، إذ لا شيء أقل من أن يخلقك كذلك إذا كان محتوماً أن يخلقك وكان هو يشتهي خلقك.

أما من خلقك بلا يدين فإنه يستحق كل ملامك ونقدك، لهذا فأنت دائماً ترى الخطأ والألم، وتتحدث عنهما، لأنهما هما العدوان والخروج على القانون في منطقك.

ولا ترى اللذة والصواب، أو لا تركز عليهما، لأنهما أقل ما يجب أن يكون عليه الوجود، أو أقل الشروط التي يطالب بها كل موجود.

إن اللذة في الوجود هي معنى الوجود، ومسوغته.

يقولون لي:

أنت متشائم وظالم، لهذا ترى الذنوب والأخطاء والآلام وتعددها، وترفض، أو لا تستطيع أن ترى جمال الطفولة، أو جمال الصباح، أو جمال النجوم، أو جمال الحب وصناعة الأطفال، أو جمال الشباب والصحة، أو جمال النوم والأكل، أو جمال الإيمان والغباء، أو جمال الجبال والحقول والأنهار والغابات، أو جمال الآثام والحماقات والمغامرات والأكاذيب البهيجة، أو جمال الخصومات والمنافسات، أو جمال الخوف من الله، وجمال التحدي له والخروج على أوامره وتعاليمه، أو جمال الغيبة والنميمة والتشنيع على الآخرين!

أو جمال النقد للطغاة وتعديد آثامهم! أوّاه، كم هو جميل شتم الطغاة!

يقولون لي:

أنت متشائم، لهذا لا تستطيع أن ترى شيئاً من جمال الطبيعة والحياة.

كن سعيداً، مغنياً، متفائلاً مثل الآخرين، معجباً بكل شيء مثلهم.

كن مثل الطير، مثل البراغيث، مثل كل الحشرات الطيبة التي لا تنقد شيئاً، والتي لا ترى شيئاً ضالاً، أو بذيئاً، أو غبياً، أو معذباً، أو مظلوماً، أو خارجاً على المنطق أو على الاشتراطات العقلية أو الأخلاقية، أو على أي اشتراط.

كن مثل الحشرات السعيدة التي لا تحتج على شيء ولا تعاني أية معاناة فكرية! إننا نريدك سعيداً مثلنا.

إذن كن غير محتج، غير ناقد، غير رافض، غير باك لأي ألم، إننا نريدك سعيداً مثلنا.

كن إذن متفائلاً مثلنا، مثل الطير، مثل النمل، مثل الحشرات!

كن عضلات تحيا، ولا تكن أفكاراً أو نظرات ترى وتنقد، ترفض وتتعذب!

كن عضلات تقتات بكل العفونات والمهانات دون أن تحتج أو تتشاءم!

*

أيها الواعظون، أيها الواعظون:

نعم، إن كل ما في الكون من جمال، ولذات وغناء، ومجد، وصحة، وشباب، وضخامة، ونجوم، وليل، ونهار، لا يمكن أن يكون غفراناً أو اعتذاراً عن أية دمامة، أو عن أي ألم، أو عن أي موقف هوان أو بكاء، أو عن أي مرض، أو عن أية شيخوخة، أو عن أي عبث في هذا العالم.

لأن كل ما في العالم من أشياء طيبة أو ضخمة أو ملائمة لن يستطيع أن يجعل دميماً

واحداً، أو معذباً واحداً، أو محتقراً واحداً، أو مريضاً واحداً، أو شيخاً واحداً، أو باكياً واحداً، يشفى من آلامه أو من شعوره بها، أو يخفف منها.

لأن كل ما في العالم من ذلك لن يستطيع أن يكون عزاء أو تعويضاً عما يلقى المتألمون.

لأن كل سعادة وغناء وجمال وصحة تتحول إلى تحد لمن فقدوا ذلك، وإلى عدوان عليهم، وتذكير لهم بآلامهم!

إن جميع الشموس المضيئة لن تكون تكفيراً عن ظلمة في عين.

إن جميع القصور الباذخة لن تكون اعتذاراً عن حقارة في كوخ.

إن كل شيء ملائم لنا هو عدوان على نقيضه وحامل لنقيضه.

إن الجمال عدوان على الدمامة، وحامل لنقيضه أي لنقيض الجمال أي حامل للدمامة.

إن الصحة والشباب والمجد والقوة وكل شيء يلائمنا، هو عدوان على نقيضه وحامل لنقيضه.

إن الجمال هو أكثر الأشياء الطيبة عدواناً، إنه عدوان على نقيضه وعلى كل المواجهين له والمتعاملين معه!

أيها الواعظون، أيها الواعظون:

خذوا نصائحكم وأعطوني مشاعركم، خذوا ذاتي وأعطوني ذواتكم.

إنكم حينئذٍ لن تعظوني.

وإني حينئذٍ لن أكون محتاجاً إلى مواعظكم لكي أكون متفائلاً، لا يجد في الكون أو الحياة أو في الناس ما يصدم منطقه أو رؤيته أو يثير أحزانه واحتجاجه!

ليتكم أيها الناصحون تجربون.

ليتكم تجربون معاناة الأحاسيس التي يعانيها من تقسون عليه بنصائحكم.

ليتكم ترون آلام الآخرين وأحزانهم، وترون عبث الأشياء وأخطاءها وقسوتها، ليتكم تحسون هذه الآلام والأحزان والأخطاء والعبث والقسوة من داخلكم وبأعماقكم، كما يراها ويحسها من داخله وبأعماقه من تظلمون بنصائحكم وتفاسيركم!

ليت هذه الآلام، والأحزان، والعبث، والأخطاء، والقسوة تنصب في عيونكم، وأعصابكم بالعنف الذي تنصب به في عيون وأعصاب من تنصحون!

إن الذين يتعذبون باحتجاجاتهم لم يتعلموا عذابهم بالنصائح، إذن كيف يشفون من عذابهم بالنصائح؟

إنهم لم يتعلموا الاحتجاج ضد الآلام والعبث لأنه قيل لهم: احتجوا، إذن كيف يتركون الاحتجاج ضد الآلام والعبث إذا قيل لهم: لا تحتجوا؟

ليته كان ممكناً أن ينتقل كل ما وراء بعض الكلمات من رؤية وحماس وروعة عذاب إلى نفوس وعقول من يتلقون تلك الكلمات، ليته كان ممكناً أن تؤثر فيهم الكلمات الصادقة في عذابها وبلاغة ارتجافاتها تأثيراً مساوياً لما في نفوس وعقول من يطلقونها.

ليته كان ممكناً أن ينقل الناس بعضهم إلى بعض!

ليت تبادل العيون والأعصاب والرؤية كان ممكناً.

ولكن كلا.

فالذين يتعذبون بكل عذاب كل الآخرين هل يمكن أن يتمنوا العذاب لأحد، هل يمكن أن يتمنوا للآخرين العذاب الذي يعانون؟

*

إن التشاؤم والتفاؤل لغة، فالمتفائل في هذه اللغة هو الذي لا يفكر، أو لا ينقد، أو لا يحتج.

إنه هو الذي يرى كل شيء جميلاً، وصواباً، ومنطقاً، وخيراً، أو محكوماً بالصواب، والمنطق، والخير.

ليس المتفائل هو الذي يحول الأطفال المشوهين إلى أطفال أسوياء.

أو يحول البحار إلى مياه عذبة.

أو يحول القمر إلى نبي صالح، يحرس أخلاق النجوم وذكاءها من الغواية والسقوط والضلال.

أو يحول الطبيعة الملحدة إلى طبيعة مؤمنة.

أو يحول الناس من ذوي تعاليم بلا أخلاق، إلى ذوي أخلاق بلا تعاليم!

أما المتشائم في هذه اللغة فهو الذي يصرخ ناقداً محتجاً من هول البشاعات والعفونات.

هو الذي لا يستطيع أن يموت صمتاً، أو شكراً للطبيعة أو المذهب أو الزعامات أو الآلهة أو المجتمع أمام طفل يموت، أو شيخ يعاني، أو إنسان يبكي من الهوان أو الظلم أو الألم أو التحقير!

إن الذي يشكرون أو يصمتون أمام من يتعذبون إنما هم قوم يثنون على العذاب، ويسخرون من عذاب المتعذبين!

إنك قاتل إذا مدحت جمال الشمس أمام إنسان يعاني من العذاب، فكيف إذا مدحت رحمة الشمس أو حكمتها!

ليس المتشائم هو الذي يجعل الكون يرفض نفسه، ويحمله على الاقتناع بالانتحار، فاعلاً اقتناعه.

ليس المتشائم هو الذي يمنع الناس من أن يسيروا في طريقهم، باحثين عن الحماقات والتفاهات وعن مزايا الصراصير وأخلاقها.

ليس هو الذي يمنع الناس من أن يحبوا أنفسهم وأطفالهم، ويعجبوا بآلهتهم ومذاهبهم وزعمائهم بلا وقار أو ذكاء.

ليس المتشائم هو الذي يمنع الناس من أن يغوصوا في أوحالهم الجنسية بكل ما فيهم من صراخ وافتضاح، ومن رغبة في التعري وقدرة عليه.

ليس المتشائم هو الذي يحرمهم من الاستمتاع بلذة الاغتياب والسباب والاتهام لكل الأصدقاء ولكل الأعداء، ولكل الناس!

والناس يذمون التفكير والنقد والرفض بأساليب مختلفة، إن ذمهم التشاؤم هو أحد هذه الأساليب.

إنهم يمتدحون الاستسلام والغباء والرضا بما هو كائن بأساليب مختلفة أيضاً، إن أحد هذه الأساليب هو مدحهم التفاؤل.

إن ذم التشاؤم ليس ذماً لشيء رديء أو بليد، بل لشيء فيه إقلاق وتخويف.

إن مدح التفاؤل ليس مدحاً لشيء طيب أو نبيل أو ذكي، بل لشيء مريح أو مستسلم أو خادع أو مخدوع!

*

نعم، أنا متشائم!

إني متشائم لأني أحب الأشياء وأصادقها بعذاب، فالذين يحبون ويصادقون بعذاب، يتشاءمون.

والذين لا يتشاءمون، هل يحبون، أو يصادقون، أو يعانون في حبهم وصداقتهم؟

إني أحب الكون، والحياة والذكاء، والصدق، والحقيقة والشجاعة، والنظافة، والصحة، والعدل.

إني أحب السماء والشمس والنجوم والآلهة والجمال، وأحب لها أن تكون كما أتصورها.

وأكره الموت والأكاذيب والغباء والسقوط والألم والأمراض والهوان.

لهذا أتشاءم!

إني أتشاءم لأن الأشياء تموت.

لأنها لا تجيء كما أحبها، كما أتصورها، كما أتمناها وأتمنى لها، كما ينبغي لها أن تجيء.

إن الأشياء تموت وتشاؤم منطقي!

إني أتشاءم!

لأن الشمس ستموت، وأيضاً القمر، وستموت أيضاً كل النجوم والبحار والأنهار، وأيضاً كل الزهور والعيون والبسمات والشفاه، ستموت.

وأيضاً كل الحب حتماً سيموت!

إني أتشاءم!

لأن كل صداقاتنا وعلاقاتنا ومسراتنا وذكرياتنا ستموت، وأيضاً كل قلوبنا، وعيوننا، وخطواتنا، وأيدينا، وكل أحقادنا، وخصوماتنا، وبذاءاتنا، ستموت!

سيموت ذلك العصفور الذي يقف كل صباح على نافذة غرفتنا مغرداً كأنه يسخر منا أو يفاخرنا أو يصافحنا، كأنه يوقظنا أو يتحدانا!

ستموت كل العصافير!

ستموت كل قطرات المطر والندى التي تبلل برفق شرفات منازلنا وأتربة طرقنا، وتغدق بسخاء وحنان على ظمأ أرضنا!

سنموت جميعاً، وتموت كل الأشياء من حولنا.

سيموت كل أصدقائنا وأعدائنا، وكل حبنا وبغضنا وأنانيتنا.

سيموت «الشحات» الواقف على الطريق، يتحدى بكبريائه وشموخه شرف الإنسان وصداقته لنفسه، ويتحدى بضخامته ضخامة الكون وحكمة أربابه!

سيموت عامل المصعد وغاسل الأرض وكانس الطريق.

ستموت كل تجاربنا ومعارفنا وعبقرياتنا وهمومنا وشهواتنا، وشبابنا وشيخوختنا .

ستموت كل كبريائنا وغرورنا!

سنموت وتموت كل الأشياء، وإذا لم نمت وتمت، فسيموت موتنا وموتها.

حتى الموت سيموت، موتنا وموت كل الأشياء، سيموت!

أين نجومك، وأين نجومي التي كنا نرنو إليها؟

أين مرآتك الجميلة التي كنت تقبلها شكراً وحباً لها؟ لقد أصبحت وحشاً دميماً متوعداً.

سنعاقب على الحياة بالموت، وعلى الصحة بالمرض، وعلى الشباب بالهرم، وعلى رؤيتنا لجمال الشمس بتحويل عيوننا إلى كهوف ميتة.

سنعاقب على ممارستنا الحب بتحويل أعضائنا إلى خشب، حتى المرآة ستعاقبنا المرآة!

سنعاقب على حبنا للحرية بالمزيد من الطغاة!

سنفقد كل أبنائنا وأحبابنا، وسيفقدنا كل أحبابنا وأبنائنا!

سنفقد كل أسناننا وعيوننا، وستفقدنا أسناننا وعيوننا.

إني أتشاءم.

أتشاءم بعنف وعذاب وحرارة!

لأني علمت الإيمان بالصدق والنظافة والحب والجمال بالكرامة، وبالشجاعة، وبالذكاء.

إني أتشاءم.

لأني علمت أن أحترم الإنسان، وأن أؤمن بحريته وذكائه وتفوقه، وأن أؤمن بعدل الكون، والآلهة، وعبقريتها، وبحبها المغدق بلا حدود أو قيود.

لقد علمت الإيمان، ولكني لم أجد ما يمنح الإيمان.

لقد وجدت دائماً ما علمت الإيمان ضده!

إني أتشاءم.

أتشاءم بحرارة ومعاناة وإيمان!

إني أتشاءم.

أتشاءم لأني أحب، وأصادق، وأتمنى، وأتعذب، وأرفض، وأحتج.

إن تشاؤمي نوع من الاحتجاج لنفسي، وللآخرين، وللكون، والآلهة.

إن تشاؤمي نوع من الاحتجاج ضد الكون والآلهة والآخرين، وضد نفسي.

إن تشاؤمي أسلوب من أساليب الاعتذار إلى الحياة والناس والكون، وإلى نفسي، وإلى الحشرات التي تريد أن تحبنا ولكننا نصدها بقسوة وبلا إنسانية.

إني أتشاءم.

إني أعتذر إلى المثل والتعاليم والمعلمين والآلهة المسحوقة، الساحقة، الكاذبة، المكذوب عليها باسمها!

إني أحتج حينما يبدو أني أتشاءم!

إني أتعذب حينما يبدو أني أحتج!

إني أتعذب وأحتج وأتشاءم لأني إنسان.

لأني أرى، وأفكر، وأفسر، وأشعر، وأخاف، وأحب.

إني أتشاءم لأني ـ واأسفاه ـ لا أستطيع أن أكون برغوثاً.

لأني لا أستطيع أن أكون إلهاً يلوث ـ من نبله وفدائيته ـ يديه وضميره بكل هذه الأكوان، بكل هذا العبث، بكل هذه الهموم، ثم يذهب بتفائل باهظ التفسير يشكر نفسه، ويصافح أخلاقه وعبقرياته، راضياً معجباً، مغنياً!

*

أيها التشاؤم، أيها المتشائم، إني أحترمك.

إنك أضعف، وأقوى مستويات الرفض والاحتجاج والغضب!

إنك العصيان النفسي والعقلي والأخلاقي للهوان والألم، والعبث، والانسحاق، والأكاذيب، والزيف، وللطغاة، وللمعلمين الذين يعلموننا التفاؤل بمواعظهم، ويخلقون فينا كل مستويات التشاؤم حينما نقرؤهم، حينما نفسرهم، حينما نعاني رؤيتهم من الداخل، ورؤيتهم أيضاً من الخارج!

أيها التفاؤل، أيها المتفائل.

إنك تخلق فيّ الغضب، والاشمئزاز، والخوف.

إنك أقوى أساليب الصمت، والهوان، والاستسلام والعجز عن الرؤية والفهم والغضب أمام أقوى وأكبر الذنوب والبشاعات.

إنك تعيش كل عفونات وعاهات هذا الكون، عارية، ضاجة، متحدية، مالئة كل طرقك والتفاتاتك، وكل ذاتك، وكل ذات، دون أن ترى، دون أن ترفض، أو تحتج، أو تغضب!

إنك صامت صمتاً مهيناً، إنك صامت الرؤية، والفكر، والأحاسيس!

إن في وجهك عيوناً من الجص!

إن في رأسك سدوداً من الغباء!

إن في أحاسيسك تاريخاً طويلاً من الخمول!

أيها الكون.

كن قصيدة، قصيدة طويلة، بليغة، سعيدة، تمجد التشاؤم والمتشائمين، وتغني لهم!

إنهم هم وحدهم الذين يرونك، الذين يعانونك بأحاسيسهم وعقولهم، بأخلاقهم، وعيونهم.

إنهم هم وحدهم الذين يقاومونك، لأنهم بشر، لأنهم ليسوا براغيث!

أيها الكون.

كن قصيدة، طويلة، طويلة، منسوجة من الكآبات والأحزان والبشاعات، ثم غنها، غنها دائماً.

غنها فوق كل معبد، فوق كل مأتم، ومرض، وحزن، ونفاق، فوق كل الأكاذيب والأحقاد، فوق كل الطغاة والمعلمين الذين يعلموننا التفاؤل حينما يعظون، ويعلموننا التشاؤم حينما يتحركون!

غنها من أجل ذاتك، وغنها ضد ذاتك!

ثم غنها لكل الهاتفين لك!

*

بالأمس رأيت

اقتلوا هذا الفنان،

اقتلوا الفنان الذي يبدع،

ثم يعاقب ما أبدع، بالتشويه والتعذيب.

*

بالأمس رأيت عجوزاً تمشي، تريد أن تمشي، تخاف أن تمشي، فرأيت ـ وكأني أرى لأول مرة ـ رأيت الكون والحياة والناس، وهم يخطبون، يتحدثون عن الجمال والحب، وعن مكانة الإنسان!

بالأمس رأيت عجوزاً تمشي، تريد أن تمشي، تخاف أن تمشي ـ بالأمس وكأني أراها لأول مرة، فعرفت بها كل التفسير، كل المستقبل، كل السر، كل الوحشية!

بالأمس رأيتها وكأنها هجاء لكل حياة، لكل مذهب، لكل عقيدة، لكل معلم، لكل متفائل، لكل حشرة!

بالأمس رأيتها وكأنها أقسى سخرية من كل المبتسمين، من كل المتأنقين، من كل الناظرين بإعجاب إلى المرأة!

رأيتها وكأنها أقسى سخرية من الشمس!

كانت فسوقاً في فضيلة الأرض، كانت خراباً في جبهة الكون.

كانت عاراً في كبرياء الأشياء!

بالأمس رأيت عجوزاً تمشي، تحاول أن تمشي، تخاف أن تمشي.

رأيتها في نظراتها، في لهاثها، في آهاتها، في الأهوال المحفورة على وجهها، في شعو

بالغربة بين الناس، بين الأشياء، في خوفها من كل مرآة، من كل جسم صقيل، خيفة أن ترى الأهوال المحفورة على وجهها!

رأيت كل الهوان، كل الهول، كل العذاب، كل طغيان الطبيعة حينما رأيتها تمشي، تريد أن تمشي، تخاف أن تمشي!

رأيت كل البنايات الساكنة فوق الغمام، رأيت كل الفتيات المفسدات بجمالهن لأخلاق القمر، رأيت كل السيارات الواطئات بأنفة على كبرياء الأرض، رأيت كل الأشياء تمرض، وتهون، وتهزم، وتموت.

رأيت كل الأشياء تتحول إلى دمامة وهباء وهجاء أمام الأهوال المحفورة على وجهها!

بالأمس رأيت عجوزاً تمشي، تريد أن تمشي، تخاف أن تمشي، فاكتشفت بها عار الأشياء، هوان الأشياء، أخلاق الأشياء، عبث الأشياء، أحزان الأشياء!

اكتشفت أقسى الدمامات الموضوعة تحت أقوى الحراسات المدججة لئلا تكتشف!

لكن عجوزاً كانت تمشي، كانت تحاول أن تمشي، تخاف أن تمشي، كانت تحاول أن تمشي، فاكتشفت بها ـ وكأن ذلك قد كان لأول مرة ـ أسرار الأشياء، آلام الأشياء، دمامة الأشياء!

أيها الكون، أيتها الحياة، لقد اكتشفت أخلاقك، اكتشفت ضميرك، اكتشفت عارك، اكتشفت فنونك، اكتشفت موهبة الجمال والحب فيك!

لقد اكتشفت كل ضعفك، كل ما فيك من قدرة على عقابك لنفسك، لقد اكتشفت شذوذك، إنك تذهبين تشوهين ذاتك!

بالأمس رأيت عجوزاً تمشي، تريد أن تمشي، تخاف أن تمشي، فاكتشفت سرها!

لقد عذبني سرها!

كان سرها يحدثها أن كل الأشياء، حتى أقفية الناس، حتى أقفية الأشياء، ليست إلا عيوناً مترصدة، تفترسها، تحتقرها، ترفضها، تشير إليها، تعيرها، تنكرها، تطاردها، تسألها.

لقد أصبحت كل الأشياء في سرها عيوناً وقحة تقاتلها، حتى أقفية الأشياء، لقد أصبحت أقفية الأشياء في سرها عيوناً تقاتلها.

كان سرها يحدثها أن كل الأشياء، حتى الليل، حتى أشد الظلمات ستراً للأشياء، قد أصبحت مرايا غير متحضرة، تواجهها، تسخر منها، تكشفها، تريها الأهوال المحفورة على وجهها، تعريها، تصفها بكل اللغات!

كان كل شيء يسحقها، ويذلها، كان الجمال والشباب يؤججان غيرتها وعذابها، كانت الدمامات والشيخوخة تحدثها عن نفسها، عما كان. كان كل شيء يسحقها ويذلها!

بالأمس رأيت عجوزاً تمشي، تريد أن تمشي، تخاف أن تمشي، فاكتشفت الله في سرها!

كان الله في سرها جميلاً ورائعاً، كان الله في سرها تجهماً، خوفاً، تشويهاً، قوة لا يمكن تفسيرها، ولا سؤالها:

لماذا تفسد الجمال الذي أبدعته، لماذا تعاقب على العطاء بالاسترداد والتشويه!

كان الله في سرها جميلاً ورائعاً، كان هو التفسير لارتجاف بدنها، ارتجاف نظراتها، ارتجاف صلواتها، كان هو التفسير الذي تصلي له!

كان الله هو الإقناع المرضي لها بمزية الأهوال المحفورة على وجهها! كان الله في سرها جميلاً ورائعاً، كان صديقاً وعادلاً، كان عادلاً لأنه كما شوهها سوف يشوه كل الناس!

كان الله في سرها عادلاً، لهذا لا بد أن يشوه كل النساء، كل وجوه النساء، كما شوهها، كما شوه وجهها!

كان الله في سرها عادلاً!

أيتها الصبايا المتقافزات من حولها، دون أن ترينها، أو ترين أنفسكن فيها، أو تقفن لتتعذبن لها، أو تصلين بين يديها، أو تعتذرن إلى عذابها.

أيتها الصبايا، سوف تصرن مثلها!

أيتها العجوز الناظرة بلا تساؤل، المظلومة بلا متهم ـ أيتها العجوز الناظرة بكل عذاب تاريخك.

أيتها الناظرة إلى وجوه الصبايا المارات من حولك ـ وكأنك تشاهدين فيهن ذاتك التي قد ماتت وتشوهت، كأنك تطالبينهن بشبابك الذي تشاهدينه في شبابهن مسروقاً منك!

أيتها العجوز، هل تتحدثين إلى نفسك بأسى يأكل النجوم؟

أيتها العجوز، هل تقولين بضراعة تهزم كبرياء الشمس:

لقد كنت مثلكن!؟

ما أعظم العطاء إذا كان هذا هو العقاب!

ما أروع البداية إذا كانت هذي هي النهاية ـ إذا كانت هذه هي إحدى صورتي النهاية! ما أروع الصنعة إذا كان هذا هو المصير، إذا كان هذا هو بعض المصير، بداية المصير، ارحم المصيرين!

ما أعظم عبقرية الفنان الذي تتحول لوحاته إلى هذا التشويه، إلى هذه الدمامة!

اقتلوا هذا الفنان، اقتلوا الفنان الذي يبدع ثم يعاقب ما أبدع بالتشويه والتعذيب!

ما أذكى المنطق الذي جعل هذه الصبايا هن ماضي هذه العجوز، جعلهن والذات هذه العجوز، وجعل هذه العجوز هي مستقبل هذه الصبايا، هي ابنتهن!

ما أنبل الوحشية إذا كانت كل صبية جميلة تعيش فيها، في غدها، في مرحها، في أعطافها، في كينونتها، مثل هذه العجوز الباهرة المأساة التي رأيتها بالأمس تمشي، التي رأيتها تريد أن تمشي، تخاف أن تمشي!

ما أنبل الوحشية إذا كانت كل صبية جميلة حبلى بمثل هذه العجوز.

ما أنبل الوحشية إذا كانت كل صبية لا بد أن تلد مثل هذه العجوز!

أيتها العجوز التي رأيتها بالأمس تمشي، التي رأيتها تريد أن تمشي، تخاف أن تمشي، إن كل الطبيعة وكل أعضائها وأشيائها، لو أنها تحولت إلى صلاة ضارعة تحت قدميك لكان نبلاً عظيماً منك لو أنك رفضت صلواتها وضراعاتها فقط دون أن تطرديها من تحت قدميك بقدميك!

إن جميع مزايا الطبيعة وهباتها لتموت مختنقة في حفرة واحدة من الحفر التي وضعتها على وجهك.

أيتها العجوز الباهرة المأساة، يا رمز ذكاء الطبيعة، يا رمز حبها وأخلاقيتها، وجمالها!

يا رمز محاباة الآلهة للإنسان!

إني أرى شفتيك تتحركان، تقولان شيئاً، تقولان صلوات أو احتجاجات، أو تقولان أشياء هي أقسى وأعمق من الصلوات والاحتجاجات، أو لا تقولان شيئاً، ترتجفان فقط ارتجافاً فيه كل القول وكل الرفض.

حذار أن تكون شفتاك تسبحان، أو تحمدان، أو تصليان، حذار أيتها العجوز الباهرة المأساة.

حذار أن تصلي لمأساتك!

أو تغفري لآلامك!

أو تعتذري عن تشوهاتك!

حذار أن تجدي لها تفسيراً، أو تستمعي إلى المحاريب التي تجد لها أتقى التفاسير!

حذار أن تستمعي إلى مفسري الدمامات؟

حذار أيها العجوز الباهرة المأساة!

بالأمس رأيت عجوزاً تمشي، تريد أن تمشي، تخاف أن تمشي.

فعرفت كل التفسير، كل المستقبل، كل السر، كل الوحشية!

من آراء النقاد في المؤلف

● إن كتاب «العالم ليس عقلاً» لا مثيل له في التفكير العربي قديماً وحديثاً.

ميخائيل نعيمة

● عيب هذا الكتاب أنه أكبر من المجتمعات التي صدر فيها.

أحمد سويدان

● ولو صدر هذا الكتاب في بلد متحضر لضجت الصحف تعليقاً عليه ونقلاً منه، وإنه كتاب قل أن تخرج المطابع له مثيلاً.

الدكتور صلاح المنجد

● إنه كتاب فريد في اللغة العربية وإنه لقليل مثله في التفكير الغربي، وآمل أن يصبح أبناء هؤلاء الذين يهاجمون الكتاب يوماً ما صالحين لأن يكونوا مواطنين لعبد الله القصيمي.

جورج جرداق

● وفي الكتاب فصول لا مثيل لها في الشرق أو في الغرب.

قدري قلعجي

● لا تستطيع أن تمسك به. فهو صراخ يقول كل شيء ولا يقول شيئاً، يخاطب الجميع ولا يخاطب أحداً. إنه الوجه والقفا: ثائر ومتلائم، ملتزم وغير ملتزم، بريء وفتاك.

وأنت عاجز عن وصفه، فهو بركان يتفجر، والحمم كلمات تحرق، لكن فيما تزرع العشب. تهدر وتتآكل وتتفتت، لكن فيما تهدل وتتناسل وتتكاثر. فهو تيار جامح مهيب من المد والجزر، من الانقراض والانبعاث، من الجمود والحركة. مسكون بشحنة الاحتجاج، مسكون بشحنة القبول بعجز الاحتجاج، متناقض ومنطقي، شعري وعقلاني، معتم وصاف. كأنه الرمل وقطرة المطر.

وفي هذا كله تبدو كلمته فعلاً آخر من أفعال الخلق. يحرك العالم فيما يعبر عن القوى التي تحرك العالم. ولا يقدم أقنعة عن الحياة ومظاهرها وطاقاتها، وإنما يعرض هذه الطاقات والمظاهر بكل ما فيها من

الرعب والحيوية والشهوة والعنف. إنه صرخة خلاص من الأقنعة، وسفر إلى الأطراف القصوى.

هكذا تتقاطع في صوته أصداء كثيرة: من هيراقليطس حتى العبثية المعاصرة مروراً بنيتشه وماركس. لكنه يبقى عربياً، أصيل النبرة والبعد، نفاذ الحضور، حتى ليصعب أن يوصف العربي الذي لا يقرؤه، بأنه مثقف أو بأنه يحيا على هذه الأرض العربية الرائعة المضطربة، في هذه الحقبة الرائعة المضطربة.

عبد الله القصيمي، في الفكر العربي، حدث ومجيء: حدث لأن صوت هذا البدوي الآتي من تحت سماء المدينة ومكة، صوت هائل فريد. ومجيء، لأن في هذا الصوت غضب الرؤيا والنبوة.

أدونيس